وَليد حسَن المدَنيْ

رواية

بائع الكتب القديمة

تجربة حياة ..

بائع الكتب القديمة

... تجربة حياة...

(رواية)

وليد حسن المدني

فرست بوك

2016

وأنا الذي اجتَلَبَ المَنِيَّةَ طَرفُهُ

فمَـنِ المُطالَـبُ والقَتِيلُ القاتِلُ

(المتنبي)

مشـــهد (تمهيـــدي)

منتصف ليل الأسكندرية: ٢٠١٠/١٢/٣١..

لم تكن لفحات صقيع ليلة رأس السنة لِتُثنيه عن قدر بات يسير خلفه مسلوب الإرادة، ولا موجات البحر الهادر التي تلطم كل موجة منها الأخرى كأنها تريد أن تعاقبها على ما لم تقترفه من ذنب، بينما هو يقف يتأمل لبضع لحظات أخيرة في حياته منظر مياه البحر المتلاطمة، وفي نهاية الأفق البعيد تلتصق مع سماء ملبدة بالغيوم في يوم عاصف ستشهد فيه الأسكندرية مأساتها.

كان القدر الذي يسير فيه محتومًا وما كان قادرًا على التراجع.. لم يتخذ قرارًا واحدًا في حياته وما يظن أنه سيتخذه الآن.. منذ قبلة الوداع الأخيرة التي قبلها له الشيخ أبو حمزة المصري وهو يودعه في منزله، مداعبًا إياه بدعابة لم ترُقْ له، وبقول لم يكن ليمس نبض الإيمان في قلب محمود.. سمعها ولم يعبأ بها وكأنه يعلم زيفها.

ح تسبقني على الجنة يا محمود.. سلم لي على سيدنا النبي.

«كان الحمل ثقيلًا على كتفيه».. كلمة كثيرًا ما كان يسمعها بمعناها الضمني، أما الآن فهو يحملها بمعناها العيني.. فمنذ أن علق أبو حمزة المصري ذلك الحزام المفخخ على كتفه وأحكم قبضته حول وسطه وهو لا يدري إلى أي منقلب يسير.

كانت رحلته طويلة ومتعبة.. استجمع فيها محمود ما تبقى من ذكريات زمن غابر بالنسبة له.. مضى العمر أمامه كأنه شريط سينمائي.. مشهد تلو الآخر.. تتلاطمه النكبات كما تتلاطم الأمواج في البحر.. تقذفه رياح الخيانة والغش والخداع.. عالم من النفاق هرب منه ولم يستطع أن يعيش فيه.

لم يكن حال الجميع كحاله؛ مشاهد البهجة تملأ المكان، الأطفال بملابسهم الجديدة، النساء بأزيائهن المتأنقة وشعورهن المصففة، ضحكة الأطفال ما زالت تضني شيئًا في قلبه ما عاد يتذكره.. أجراس الكنائس تدق احتفالًا بعام جديد من ميلاد السيد المسيح. تشتت نظراته بين المارة في الشوارع: غبط من منظر ولد يسير بجوار فتاة يمسك يدها تدفئ حرارة الحب الملتهبة في قلبهم صقيع ليل الشتاء البارد، أب عائد مع أسرته في نهاية المساء يتقدمهم، بينما الأم متأخرة مع أبنائها خطوة عنه، تلمح في عينيه الشقاء وهو يفكر في قضاء الدين أو في طلاء البيت، مجموعة من الشباب يجلسون على الصخور المتراكمة على شاطئ البحر، تتعالى

ضحكاتهم تلفت نظر المارة القليلين في مثل هذه الساعة، ضحكة بنت بريئة متشبثة بجلبات أمها تسير خلفها بخطوات قدميها الصغيرتين تحاول أن تلحق بها، بينما عيناها على بائع «بلالين» يقف أمام المدخل الرئيسي للكنيسة، بائع فريسكا أضناه التعب طول النهار وقف يتسكع لقمة عيشه في سويعات الليل الأخيرة، يسند رأسه على سور الكنيسة، بينما يداه تحملان صندوق الفريسكا على كتفه كحمل أسرته التي يعولها ولا يطمع إلا في العودة إليهم بعشاء اليوم.

اقترب أكثر.. باتت الكنيسة على مرمى خطوات منه.. وما كان لتلك العينين الزرقاوين اللتين لم يفارق صاحبهما محمود لحظة منذ ركوبه القطار حتى تلك اللحظة أن تغفلا عنه، وصاحبهما يقف على بعد مسافة ثابتة منه لا تتغير حفاظًا على مدى جهاز اللاسلكي الذي يمسك به في داخل معطف صوف أسود حتى لا يُرىَ على يقين أنه ربما يستخدمه.. فمثل هذه المهمة لا يجب أن تترك لتقدير مختل عقلي، ربما يضعف في لحظتها الأخيرة أو تخاطب فيه الحياة الموت لتثنيه عن جرمه.

عبر محمود الشارع الفاصل أمام باب الكنيسة حتى صار في مواجهتها تمامًا.. واجهتها العريضة ذات القباب المميزة يعلو كلًّا منها صليب.. على يسار منها مبنى مربع يعلوه أجراس نحاسية ضخمة لم تهدأ أصواتها طوال الليل احتفالًا بعام مضى عليه ولن يأتيه التالي!.. كانت قدماه ترتعشان أكثر.. دقات قلبه متسارعة.. مد يده يتفحص الملمس الخشن للحزام الناسف الذي كان يرتديه، وهو يحاول أن يستجمع بعض ملامحه

من اللحظات القليلة التي رآه فيها قبل أن يُلبِسه إياه أبو حمزة المصري.. مر بأنامله على زر التفجير على استحياء وكأنه يتلمس جرحًا غائرًا قديمًا في جسده يخشى أن يفتح - وكأنه ما زال في شك من أمره بأن يضغط على هذه الزر! - الزر الذي بات يحلم بأن ينهي مأساته في هذه الدنيا، يشعر بعدها بأشلائه تتطاير في فضاء المكان ليضيء الدرب أمامه بعد لحظة الألم بنور على الجانبين تصطف فيه الملائكة لاستقباله.. رسمها في خياله كما رسم كل شيء في حياته.

مد يده داخل سترته الصوف التي ما كانت تمنع عنه إحساس البرد الذي بات يضرب كل جوانحه، وهو يتأمل ورقة قديمة بان من ملمسها على أنامله أنها ورقة نقدية ربما نسيتها أخته وهي تغسل ملابسه - وجفت فيها كما جفت حياته من معناها - مد يده وأخرجها.. كانت تذكرة سينما ضائعة الملامح إلا من كلمة «بحبك» مكتوبة بقلم كحل حريمي وبواقي أحمر شفاه عالقة عليها تزينها.. تذكرها.. لم يشعر بمدى حبه لها إلا في هذه اللحظة.. لم يتملكه يقين حبها له إلا في هذه اللحظة، أعاد تأمُّل تلك الورقة وهو يتمنى أن يعود به الزمن إلى الخلف، ويصفح عنها ويكون عند مستوى حب كانت تتمناه، فخذلها!.. مع اقترابه أكثر من باب الكنيسة - والتي بات أمامها مباشرة - باتت دقات قلبة تتسارع، يده اليمنى على زر التفجير والأخرى تعبث بتذكرة السينما.

لم يترك له الفرصة صاحب العينين الزرقاوين الذي كان يقف على نفس المسافة منه في مرمى جهاز اللاسلكي بمعطفه الداكن وكوفيته التي تغطي

معظم ملامح وجهه، حليق الرأس تمامًا إلا من شارب صغير يظلل أسفل أنفه، بينما يده ممسكة بجهاز التحكم عن بُعد والذي حسم الصراع الذي كان يسيطر على محمود بضغطة على زر التشغيل الأحمر، قبل أن تتطاير أشلاء محمود في كل مكان مع دوي أصوات الانفجارات في كل مكان، مصحوبة بصرخات الفزع وتنهيدات الموتى الأخيرة، بينما النيران تملكت من الواجهة الأمامية لكنيسة القديسين.

□□□

- ها أنت تقفز للنهاية، هلا حكيت من البداية.

- ولمن أقول؟!

-هَذِي صفوف السنط والصبار تُنصت للحكاية.

- أَلَهَا عقول؟

- ماذا يضيرك.. أَلْقِ ما في القلب حتى للحجر،

أَوَلَيْسَ أحفظُ للنقوش من البشر؟!

نجيب سرور

(١) محمـــــــــــود

القاهرة: ٢٠٠٩/١/١٩..

لحظات قليلة هي التي يتحقق للإنسان فيها صفاء الذهن، ويستطيع أن يمسك بالقلم ويكتب، طوال سنوات حياتي القليلة التي عشتها كان الكتاب رفيقًا لي، كنت أجد فيه الصديق الوفي، والأخ المحب، والأم الحنون، والأب المحافظ، كنت أنظر إلى الحروف التي تكوِّن الكلمات بدهشة، لم أكن أتخيل نفسي ذات يوم أجلس خلف مكتب وأسطر مثلها، وعندما حاولت، وتجمعت خيوط رواية في رأسي كانت شذرات كتاباتي بالنسبة لي كورقة إجابة لتلميذ فاشل يخشى النظر فيها.

ما زلتُ أتذكر تلك الأيام.. حينما اشتريت أول كشكول لي وشرعت في قصتي الأولى، وما اعتراني من الخجل الشديد من أن أخبر أحدًا بما أفعل، واعتراني خوف أشد أن أعيد النظر إلى ما كتبت، وكنت أنظر إليه وكأني طفل عابث بلعبة.

لم تكن الكتابة لي يومًا ما راحة أو متعة كما قرأت لكبار الكتّاب، لم أستمتع يومًا بها، بل كانت متعتي الوحيدة هي القراءة، ما زلت أهرب من مشاكل حياتي اليومية بالقراءة، ما أجمل أن يعثر الإنسان عن رواية يعيش فيها !! يفرح بفرح أبطالها، يحزن بحزنهم، يعيش معهم لحظات الأمل والفرح، يترقب النهاية، يهرب من عالمه، متجسدًا أشخاصًا أسطورية.

الرواية سحر، لا يستطيع أن يشعر به إلا من فهم قيمتها، وعاش فيها.. من استطاع أن ينسلخ من جلده قبل أن يفتح جلدة الكتاب ويعيش داخل هذا العالم الغريب.

لذلك اهتممت بقراءة كل أنواع الروايات، المحلية والعالمية، خصوصًا التي تتيح لي السفر عبر الأزمنة والبلاد المختلفة، فأعيش مع عادات شعوب لم أشهدها أو أسمع حكاوي الزمن الغابر.

أعود مرة أخرى لما كنت بدأت به.. رغم حبي الشديد للرواية، وسعة خيالي التي اكتسبها لعزلتي عن الناس فإنني كنت أشعر بالغيرة الشديدة من كتّاب الروايات، كنت أتمنى أن أكون واحدًا منهم، أتمنى أن تنزل العيون على أحرف مكتوباتي فتقذف فيها الحياة. ما أن أنتهي من قراءة رواية حتى أهم في محاولة كتابة جديدة للرواية، أشعر فيها بمدى الفخر الذي يمكن أن يتملّكني إذا أكملتها، ويزداد فخري إذا مررت يومًا على بائع كتب ووجدت اسمي أسفل عنوان كتاب، شعور ربما لا أستطيع أن أتخيله رغم ما عشت في خيالي من أحلام.

كنت قد توقفت عن الكتابة لفترة طويلة، ولكني لم أرمِ ما كتبت من مخطوطات وروايات قديمة لي، ما زال عندي الأمل أن تكون نواةً لمشروع روائي كبير؛ لذلك أحتفظ بها رغم أني لا أنظر إليها أو أحاول إعادة تصنيفها وترتيبها.. شذرات من مؤلفات، بعضها رواية وبعضها تأملات فلسفية.

أعاود الكتابة هذه المرة.. ولكنها ليست للمتعة، فكما أسلفتُ لم أتمتع يومًا بالكتابة، وليست للغيرة من الروائيين، ولا لطموحي أن أكون واحدًا منهم، ولكنها للعلاج!! كثيرًا ما سمعت عن الكتابة كعلاج نفسي لكثير من المشاكل، لكنني لم أحاول أن أستخدم الكتابة للعلاج فقط، كنت دائمًا كعادتي أهرب من مواجهة أزماتي بمزيد من التأمل والتخيل، أهرب من الواقع إلى الخيال، كأن الخيال هو الحياة البديلة التي أحيا فيها حياة أرسمها كما أريد، أفرح وقتما أحب الفرح، أبكي عيني.. ينتابني شعور الحزن بدون سبب، يكفي أن أجلس على سريري، وأرفع نظري إلى سقف الغرفة المتآكل من أثر الرطوبة التي رَسَمتْ عليه خريطة غير واضحة المعالم وأتخيل، أفرح، أحزن، أبكي، أضحك، أتزوج، أموت!

وقع في يدي في الفترة الأخيرة «كشكول» لزميلة لي في الصيدلية تسمى د/ منال، أعطته لي.. أخبرتني أنها دونت فيه خواطرها.. كنت أعرف هذا الأمر من كثير من زميلاتي في الكلية اللاتي بدأن في تدوين خواطرهن، إلا أنه لم يسعدني الحظ في أن أحصل على واحد منها، حتى أعطتني منال تلك الخواطر.. كشكول عادي من تلك الكشاكيل التي تستخدم لتسجيل

المحاضرات الجامعية، تعبر فيه منال عن مشاعرها وأحاسيسها.. تأملته سريعًا، لم أشأ أن أُدقّق في كل كلمة تقولها لما أعرف أنه سيثير غيرة في نفسي وحزنًا، تأمّلت بعض أوراق الشجر بين صفحاته، بينما وردة حمراء ذابلة تتوسط الكشكول.

كان عبارة عن مجموعة الخواطر والتجليات غير المتناسقة ولا يربطها رابط، خواطر، أشعار، بعض مقاطع أغان، حكم!. أعجبتني الفكرة، شكرتها على منحي ثقتها أن أطلع على أسرارها، ثم أعطتها لها مرة أخرى. لم أشأ أن أدخل عالمها أكثر من ذلك، لم أشأ أن أقتحم عالمًا آخر غير عالمي الذي ما زلت أرسمه في خيالي.

عندما كنت أجلس مع د/ يارا أخبرتها بقصة كشكول منال، أعجبتها الفكرة هي أيضًا، وعندما طلبت مني أن يكون لي كشكول مثلها سكت؛ لبرهة ذهب تفكيري بعيدًا في محاولات كتاباتي السابقة، ثم أخذتني الفكرة، ثم عرضت علي الفكرة مرة أخرى في لقاء آخر مصحوبًا بهدية.. هذا الكشكول الذي أسطر فيه الآن قصة حياة إنسان، لا أعلم أهو في الواقع أم في الخيال؟! حتى لا أعلم هل أحداثه حقيقية أو خيالية؟! ولكن سأكتب.

لم أضع تصورًا معينًا لكتاباتي في هذا الدفتر، ربما تكون يوميات أو خواطر؟! أستبعد الأخيرة.. لا أريد أن أقلد البنات، ما زالت بعض « تقاليع البنات» تثير حفيظتي واستيائي.. ربما تكون شذرات فلسفية،

أحاول فيها تسجيل تأملات عن بعض القضايا التي كانت تشغلني، لن أهتم بالترتيب ولا بالتفصيل.. سأكتب فقط، سأكتب عندما أريد الكتابة؛ لذلك أظن أني لن أكتب كثيرًا، ثم أهدي هذا الكتاب لها.. ولكن من هي.. ؟! يارا أم منال أم عروسة الأحلام في حياتي التي شاركتني حياتي التخيلية واستمتعت بها، وأغدقت علي من الحب والحنان ما بخل عليّ به واقعكم الأليم الذي تحيوه بأقنعة مزيفة، وتوهمون أنفسكم أنكم ما زلتم على قيد الحياة.

□□□

(٢) منـــــال

القاهرة: ٢٠١١/١/٥..

حينما أُقتيدت منال مقيدة اليدين، معصوبة العينين من منزلها في حي المعادي القديم، لم تكن تدري أي مصير في انتظارها، سيقت كما يُساق البعير في السوق، من غرفة نومها إلى خارج شقتها، لم يترك لها زائر نصف الليل حتى لحظات الفزع لتهنأ بها، حينما سمعتْ صوت الضجة على باب منزلها الذي تبعه صوت خطوات رجال أمن الدولة على السلالم.. بعد لحظات كانت منال داخل سيارة (فيات ١٢٨ بيضاء) معصوبة العينين، تحاول أن تهدِّئ من ضربات قلبها المتزايدة، بكاؤها تسمعه بوضوح في سكون الليل لا يؤثر فيها حتى علوّ صوت محرك السيارة التي كانت تركبها.. كانت تشتم رائحة الأدرينالين المنبعثة من خلايا جسدها كله، وهي تحاول أن تستجمع ما تبقى لها من شجاعتها، تسترجع ما بقي لها من ذاكرة في محاولة منها لتجد مبررًا لكل هذا، إلى أنْ سمعت صوت محرك السيارة يعلو من جديد، وأحسّت بتحرّكها مغادرةً شارعها إلى مكان

مجهول.. لم تشعر حينها بشيء إلا بصوت صراخ أمها الذي كان واضحًا في شرفة منزلهم، وهي الصرخة التي لازمتها لساعات قليلة قبل أن تغادر أذنها نهائيًا، تاركةً خلفها ذلك العالم الذي بات بالنسبة إليها أشبه بحلم.. قادمة إلى ما ليست تعلم.

كما غادرت منال منزلها دخلت هذا المكان الذي لم يكن يحدوها أي شك في أي مكان هي الآن، كانت تعلم أنه مصيرها المحتوم، ولكن لم تكن تعلم أنهم بهذه السرعة سيتوصلون إليها.. قذفتها اليد الحديدية - التي لم تنفك حول ذراعها منذ أن أيقظتها من نومها إلى أن دخلت بها إلى هذا المكان - على الأرض لتصطدم بالحائط قبل أن تهوي على الأرض خائرة القوى - كبصقة رجل عجوز على حائط بناية قديمة - فأخذت طريقها بفعل الجاذبية إلى الأرض.. لم تفتح فمها بكلمة، ربما الخوف أصابها بالخرس، أو ربما خافت أن تتكلم فتذكرهم أنهم تركوا شيئًا من حواسها طليقًا بعد أن انقضوا عليها.. سمعت أصوات رجال كثيرة وهمهمات، ربما تكون نقاشات وربما تكون مشاجرات، إلا أنها أحسّت أنها محطّ اهتمامهم وأنها هي موضوع هذه الضجة.. هدأت الأصوات وتبعها صوت خطوات أقدام تغادر المكان، شعرتْ بالوحدة لأول مرة منذ أن اقتيدت إلى هذا المكان، أحسّتْ بالخوف، ربما كان صوت هؤلاء الرجال يعطيها بعض الاطمئنان!، ولكن الوحدة تجعلها تسترجع الذكريات التي عاشت فيها، عاشت الوحدة في نفسها برغم وجود من كانوا حولها من الأهل.

حينما أفاقت منال من غفوتها التي لم تدرِ كم ساعة استمرت نائمةً فيها، ولا كم ساعة من الزمن ظلت ماكثةً على ركبتيها في هذا المكان، ألبثت يومًا أو بعض يوم أو ربما ثلاثمائة سنين وازدادوا تسعًا دون أن تدري مثل أهل الكهف؟! أحسّت بيديها المكبلتين خلف ظهرها، حاولت أن تفتح عينيها فلا يقوى الجفن الهزيل على شق عصابة العين الملفوفة بإحكام حول رأسها، وتذكرتْ ما حدث لها بالأمس، وعاودها مرة أخرى صوتُ صرخة أمها في شرفة منزلها، بينما شعرت بوخذة شديدة في كتفها أحسّت معها أن ذراعها قد خلع من مكانه وأن هذه الأصابع الغليظة قد غرزت في لحمها لتقتادها مرة أخرى وهي معصوبة العين من هذا المكان إلى مكان آخر، وسط رجلين يحملانها من ذراعيها، وهي تجر قدميها اللتين لا تقويان على حملها، ليُقذَف بها مرة أخرى إلى الأمام لتصطدم هذه المرة بمكتب شعرت به وهي تقع عليه بصدرها، وتسمع صوت رجل يتحدث بكل هدوء..

- فكوها.

وكمشهد كلاسيكي من مشاهد السينما المصرية، رُفعت العصابة من على عين منال لتجد ضوء مصباح كهربائي مسلطًا على عينيها، فتحاول أن ترفع يدها لتفادي به الضوء الطليق الذي يعذب عينيها، لكن يديها مقيدتان، فتغمض عينيها مرة أخرى، وتحاول بحركة لاإرادية من رأسها وكتفيها أن تتفادى الضوء الذي سُلط مرة واحدة على حدقة عينها ليشعرها أنها ستفقد البصر نهائيًا، وبعد أن تلاشت البقعة البيضاء التي كانت تراها

وعيناها مغمضتان بدأت ترفع جفنيها على مرات متتالية، لا تعدو المرة منها جزءًا من الثانية حتى بدأ شبح الرجل الجالس خلف المكتب تظهر بعض ملامحه، إلى أن فتحت كلتا العينين تمامًا لتشاهد ابتسامةً مرسومةً على وجه الرجل.

كان رجلًا في العقد الثالث من عمره.. أبيض الوجه، مصففًا شعره بعناية يعكس لمعانه ضوء المصباح الكهربائي الموضوع أمامه.. كان يرتدي قميصًا أبيض اللون، بينما معطف البدلة معلق خلفه على الشماعة الموضوعة بجوار المكتب.. مد يده إلى حافظة المسدس الخاص - والذي كان لونه الأسود الجلدي يحزم كتفه وجزءًا من صدره - يخرجه من غمده ويضعه أمامه في إشارة تحذير واضحة لمنال إما الاعتراف أو القتل.

- دكتورة منال، إحنا آسفين على الطريقة اللي جبناكِ بيها هنا، لكن انتِ عارفه أكيد مسئوليتنا.

استجمعت منال بعض شجاعتها وبدأت الحياة تنبض في قلبها من جديد، وبدأت تتكلم بنبرة يعلوها الثقة والشموخ اللذان لم يغادراها يومًا رغم كل ما تعرضت له في حياتها من نكبات.

- ممكن أعرف أنا فين دلوقت؟

- هيفرق معاكِ المكان.. جهة أمنية.

- أمن الدولة؟!

وقف سعيد مرجان من على كرسي المكتب وقد بدا عليه أنه مستمتع بلعبة الاستجواب التي كانت تروق له، خصوصًا مع شخصية بقوة منال، أشعل سيجارة كانت في يده منذ أن فتحت منال عينيها، ولكنها لم تلاحظها إلا والنيران تأكل طرفها، وهو ينظر إليها ويدور حولها ويضع يده على كتفها الذي لم يهتز لمثل هذه الحركة، تلك الرعشة التي كان الضابط يتوقعها في مثل هذه الحالة؛ لما شاهده من مرات في استجواب المشتبه فيهن من النساء، فيدخل بحركة مفاجأة إلى داخل منطقة تأثيرها، فلا يجعل فارقًا بينه وبينها إلا سنتيمترات قليلة ليرمي على وجهها السؤال..

- إيه علاقتك بمحمود؟

- زميل في الصيدلية.

- بس؟

- وبحبه.

- بس؟

- ونشأت بيننا علاقة.

أخذ الضابط سعيد مرجان نفسًا عميقًا، وابتعد عن منال ليجلس على الكرسي المقابل لها، تعلو شفتيه ابتسامة ثقة تبعتها سخرية، وهو ينظر في عينيها بكل ثبات، بينما مقلتاها تتحديان نظرته..

- واضح إنك واثقة في نفسك جدًا.

لم تجبه منال، تركته لغروره، أخذ نفسًا من السيجارة وقذف دخانها في الهواء وهو ينظر برأسه عاليًا، سارحًا في بحر وهمي من الخيالات تُضفي على التحقيق مهابةً باتت قديمة ولا تجدي مع شخصية بثقة منال، ليعود نظره إليها مرة أخرى..

- منال.. إحنا عارفين عنك كل حاجة فمن الأفضل إنك تتكلمي.. محمود قال لك على حاجة قبل العملية؟ محمود قال لك مصدر تمويلهم؟.. الجهات الأجنبية التي تدعمهم من الخارج؟ أحسن لك تجاوبي.

انهالت أمطار الأسئلة على منال وهي لا تصدق نفسها، أن مثل هذه الأسئلة توجه إليها! بل لم تكن تدري معاني بضع كلمات منها، لتعاود الإجابة مرة أخرى بنفس الثقة في نبرة صوتها.

- لو كنتم تعرفوا عني كل حاجة حقًا لكنتم علمتم أن علاقتي انقطعت بمحمود.

تقدم منها الضابط ومسك بشعرها من أسفل حجابها وهو يضع خدها على المكتب و يضغط عليه بقوة.

- أحسن لك إنك تعترفي، انت بالنسبة لي شريكة في الجريمة.

تحدثت إليه منال بصوت مخنوق وهي لا تكاد تستطيع أن ترفع صوتها، أو أن تحرك ساقيها الملتصقتين بخشب المكتب.

- لو عندك دليل واحد ضدي قدمه.

تعالت ضحكات الضابط وهو يفتح يده ليترك لرأسها عنان الحرية، ويقول لها:

- دليل؟!! في قانون طوارئ، في قانون إرهاب، في مجتمع دولي بيغلي من الجريمة الإرهابية التي ارتكبها عشيقك، وأنت بالنسبة لي شريكة معه.. أنا أستطيع بكلمة واحدة الآن أن أجعلك لا ترين النور مرة أخرى؛ فمن الأفضل لك الاعتراف.. بماذا أخبرك محمود قبل أن يقوم بجريمته؟ (هكذا استخدم كلمات غير عامية ليضفي على شخصيته بعض اللباقة والثقافة اللغوية ضمن مسار التحقيق كعادته).

- معرفش.. معرفش.. معرفش!!

□□□

استطاعت منال أن تصمد في وجه استجواب استمر لمدة ثلاثة أيام متواصلة لاقت فيها مختلف أصناف العذاب النفسي والقسوة من بشر، لم تكن تتخيل أنها ذات يوم ستقع تحت أنيابهم فريسة. تناوب عليها أكثر من ضابط تحقيق، جميعهم كانوا ألطف من سعيد مرجان الذي لم تره بعد التحقيق الأول معها، ووسط استمرار الاستجوابات لساعات طويلة وفي أوقات متأخرة من الليل، وإعادة نفس السؤال عليها عدة مرات، وهي لا تردد إلا كلمة «معرفش» وسط عمليات استجواب منهم مورست بحرفية ومهنية شديدة، لتكن كلمة «معرفش» هي طوق النجاة لها من هذا الجحيم.

شعرت منال بفتور رجال التحقيق معها، وأنها باتت قليلة القيمة لديهم، حينما قلت عمليات الاستجواب، وقلت عملية التحقيق معها في منتصف الليل، وباتت الأسئلة ساذجة وبعضها لا يخلو من التسلية والوقاحة عن أمورها الشخصية وعلاقتها بمحمود التي باتت تمتنع حتى عن الإجابة عنها.

لتجد نفسها مرة أخرى في جنح الليل مقيدة العينين تسير وسط هذين الرجلين اللذين أخذاها ومرا بها على طرقات طويلة معصوبة العينين، ميزتها عن المرة الأولى درجات السلالم التي جراها عليها أيضًا ليقذفا بها إلى الخارج، لم يراودها شك أنها خرجت من هذا الجحيم.. كانت تشعر بهواء الشتاء القارس يلفح وجهها، وهي تفك العصابة التي على عينيها لتأخذ نفسًا عميقًا تحاول أن تشم فيه رائحة نسمات الحرية.. تشعر بتغير طعم نفسها عما كان عليه من لحظات في الداخل، لتجد نفسها بملابس نومها التي أقتيدت بها مكبلة اليدين منذ أيام، لم تحاول أن تجهد عقلها الآن في الحساب لمعرفة يومها هذا والساعة أو حتى السنة في انتظار عودتها.

لم تكن منال بحاجة إلى مجهود ذهني لتستجمع ملامح المكان التي كانت تقف فيه وهي تتلفّتُ حولها مشبكة كلتا يديها حول ذراعيها، وتحاول أن تحمي نفسها من لفحات الهواء الشديدة لتشاهد نفسها وسط شارع محمد محمود وخلفها ميدان لاظوغلي، لتعلم أنها كانت في وزارة الداخلية نفسها، وليس داخل مقر من مقرات أمن الدولة مترامية الأطراف في جميع أنحاء مصر.

سارت منال بضع خطوات لتخرج من محيط وزارة الداخلية التي يُمنع مرور السيارات من أمامها ليلًا، لعلها تُهدَى إلى أي سيارة أجرة تقودها إلى بيتها في مثل هذه الساعة المتأخرة من جنح الليل.

حافية القدمين لا يستر رأسها إلا طرحة جذبتها من على سريرها وهي تقاوم القبض عليها بجلباب نومها الثقيل، تسير منال محاولة أن تخرج نفسها من هذا الجحيم لتصل بعد بضع خطوات قليلة إلى ميدان التحرير في وسط العاصمة القاهرة (ملحوظة سميت العاصمة القاهرة من القهر والظلم، وليس كما هو شائع نسبةً إلى جوهر الصقلي).

الشوارع كانت شبه خالية من الناس الذين يملأون هذا الميدان في معظم ساعات النهار من جميع الأصناف.. في ميدان التحرير نشاهد الفلاح القادم من بلده عبر ميدان رمسيس أو رجل الأعمال الذي يحجز تذكرة طيران من إحدى شركات السياحة المتراصة على جانبي الشوارع المتفرعة من هذا الميدان.. في ميدان التحرير نشاهد السواح الأجانب في السادسة صباحًا، والعرب في الثانية بعد منتصف الليل، وفي باقي فترات النهار نشاهد المصريين بجميع أطيافهم: الطامعين في نزهة في وسط البلد أو القادمين لقضاء مصلحة بمجمع المصالح الحكومية الشهير، حيث يقف في وسط الميدان كنصب تذكاري للروتين، وكشاهد على ضياع آدمية الإنسان المصري الذي أصبح مجرد ورقة في ملف. ولكن الآن الشارع خالٍ من العرب والأجانب وجميع طبقات الشعب المصري؛ فربما تكون الساعة اقتربت من الرابعة فجرًا، وهي الفترة التي يستريح فيها الميدان

ليسلم النوبتجية من العرب إلى الأجانب، تاركين معظم ساعات النهار للمصريين بزحامهم وشغبهم ودوشتهم.

خلا الميدان من السيارات كما خلا من المارة إلا من بائع جرائد يعمل طوال ٢٤ ساعة، يفترش الأرض على رصيف الطريق بمختلف أنواع الجرائد الأجنبية والمصرية والمجلات التي تزينها صور البنات ذوات الشعور الشقراء والملامح الغربية، عدا بعض المجلات الخليجية التي يعلو غلافها بنات الخليج بملامحهن البدوية وشفاههن المكتظة، متوشحات بحجاب أسود يزيدهن جمالًا وإغراءً، إلى جانب بعض الكتب الذي يغلفها في أكياس من البلاستيك ليحفظها من عوادم السيارات، ومن أيدي المارة المتطفلين الذين لا يشترون ويجرحون الكتب بأعينهم قبل أيديهم، إلى جانب بعض المجلات الأجنبية التي لها زبائنها من السائحين الأجانب الذين يمتلئ بهم الميدان.

وقفت منال أمام بائع الجرائد وقد جذب انتباهها صحيفة الأهرام الصادرة بتاريخ الغد، في صدر الصحيفة صورة كبيرة منقسمة إلى نصفين، لم يكن الذي لفت انتباهها أن صدر الجريدة لأول مرة صورة لغير الرئيس مبارك، ولكن شد انتباهها وجهٌ كثيرًا ما ألفته كان خليقًا به أن يكون بجوارها الآن، صورته كانت في النصف الأول منها يرتدي قميصه الأبيض، تعلو شفتيه ابتسامة الحزن الذي طالما حاولت فك شفراته، وكأنه يعلم إلى أي مصير ستنقلب إليه الأمور، وبجوارها صورة أخرى لوجه مشوه مقطع الملامح تظهر به علامات غرز الخياطة في كل مكان في الوجه وكأنها

لعبة البازل، يحاول المشاهد أن يفك لغز الصورة ليربح الصبي، ومدون عليها بالبنط العريض كلمة واحدة.

«الإرهـــــابـــي»

نزلت دمعة من عين منال حاولت أن تكتمها لأيام كثيرة، حافظت فيها على كبريائها في وسط هذا الخضم من التحقيقات والسخريات والتلميحات الجارحة التي نالت من شرفها وسمعتها، لتسقط على ورقة الجريدة دمعة مُصْدِرةً صوت أنين وسط ميدان التحرير الخالي تمامًا، لتوقظ بائع الجرائد الذي كان في غفوة النوم وهو مُدثّر ببطانية قديمة يرميها على كتفيه في ساعات برد الشتاء الليلية، ليشاهد منال تقف أمامه والدموع تنهمر من عينيها التي لم تفارقها صورة محمود، وبوجهها الذي ملأته الشحوب من قلة النوم وكثرة الاستجواب، وقلقها على أهلها الذين لم تكن تعلم عنهم شيئًا، ولا تدري هل هم يعلمون مصيرها أو تركهم رجال أمن الدولة بقلقهم على ابنتهم؟!.

تقدم منها الرجل، كان في حوالي الأربعين من عمره، بملابسه الصعيدية التي كان يرتديها، وكأنه حارس العقار الذي يفترش تحته الجرائد، ليقول لها:

- عايزة حاجة؟

نظرت منال إلى الرجل باستغراب، حاولت أن تستجمع شتات أمرها، فلم تجد شيئًا تستطيع أن يختمر بعقلها.. ثبتت نظرها على الصحيفة دون أن

تنبس ببنت شفة للرجل الذي دهش وما عاد يعرف ماذا يفعل، فعاد مرة أخرى وجلس مكانه متلفحًا ببطانيته الصوف كأن شيئًا لم يكن.

اقتربت منال من الجريدة، أمالت خصرها إلى أسفل والتقطت بيدين مرتعشتين طرف الجريدة تحملها معها إلى الأعلى، وعينها ما تزال مثبتة على الصورة، لا تدري أيًّا منهما ستفوز باستحواذ تركيزها: صورة حبيبها الذي اشتاقت إليه أم صورة الإرهابي المشوه المجمع وجهه بغرز جراحية واضحة؟! الاثنان يجمعهما نفس الإطار.

أعادت النظر مرة أخرى إلى بائع الجرائد، وقالت له بصوت الشفقة والاستعطاف..

- ممكن آخد الجرنان ده وأجيب لك تمنه بكره؟

قام الرجل واقفًا من على كرسيه هذه المرة وكأنه انتابته صاعقة كهرباء زلزلت كيانه، يجري نحوها غاضبًا جاذبًا الجريدة من يدها، ويلكزها بيده في كتفها فيقذفها بعيدًا عنه وعن الجرائد، لتصطدم بالسور الحديدي الذي يسجن ميدان التحرير على طول الشوارع المؤدية إليه، ثم يصرخ فيها بكلمات حاولت ألا تستجمع ملامحها، لتشاهد أول سيارة أجرة مارة من أمامها توقفها وهي تقول للسائق:

- المعادي يا اسطى .... شارع ٩؟

نظر إليها السائق من أعلى لأسفل، وقد بدت على ملامح وجهه خيبة الأمل في زبون عربي أو أمير خليجي، ليقول لها:

- أنا مش بشغل العداد بالليل، هاخد ٥٠ جنيه على المشوار دا.

فتحت منال باب السيارة الخلفي وجلست على الأريكة خلف قائد السيارة تلف يدها حول ذراعيها، تحاول أن تضبط نفسها حتى لا تظهر رعشة برد الشتاء الشديد ورعشة الخوف التي تملكتها منذ أن ركبت السيارة مع السائق.

لم تكن منال غافلة عن خطورة ركوب سيارة أجرة في مثل هذا الوقت المتأخر من الليل، ولكن لم يكن أمامها بد، وإن بدت بالهدوء ريثما بدأت ثرثرة السائق الذي لم يغلق فمه طول الطريق بالحكي في قصص لا تهمها ولا تسمعها أصلًا، إلى أن فاجأ أذنيها بسؤال:

- إلا انت - عدم المؤاخذة - لبسه كده ليه؟!

لم يكن لدى منال إجابة على السؤال، وبالطبع لن تستطيع أن تخبره بالحقيقة «أنها كانت قيد الاعتقال بوزارة الداخلية»، ووجدت أنه من الضروري أن تجيب، فعدم الإجابة سيفتح باب الشك في أنها بنت ليل هربت من حضن زبون في هذه الساعات المتأخرة من الليل، ليطمع فيها ويجد لنفسه المبرر الأخلاقي في اغتصابها، وتسيل الفكرة على لسانها.

- اتخانقت مع جوزي وطردني من البيت بهدومي... وحلف عليّ بالطلاق ما أقعد في البيت!

- إخيي على الرجالة!! لا مؤاخذة ده راجل نطع.. أنا مثلًا لما بتخانق مع

مراتي - وأجارك الله بقى يعني إيه مراتي، وليه وشها يقطع الخميرة من البيت - عمري ما أخليها تسيب البيت وتمشي.. أمال!! الراجل المجدع بصحيح هو اللي يحافظ على أهل بيته حتى ولو في ساعة غضب والشيطان دخل بينهم، لازمًا ولا بد يخرج هو من البيت ينزل يقعد مع صحابه على القهوة يشرب حجرين معسل يغيَّر جو ويرجع تاني.. لكن إنّ الراجل يطرد مراته بهدومها في عز الليل كده - لا مؤاخذة يا هانم - يبقى راجل مش ولابد.

وهنا انتهزها سائق التاكسي فرصة لعرض مقتطفات من حياته الثرية التي كان يرددها يوميًا على زبائنه بحرفية شديدة كقاصٍ محترف:

- طيب ده أنا ربنا رزقني بأربع اخوات بنات، أنا أصغرهم، بس أنا الراجل الوحيد فبقيت أبوهم وأمهم.. والله يا أبله ما اتجوزت إلا لما اطمنت عليهم كلهم في بيت العَدَل.. وأهي أختي الصغيرة اتجوزت قهوجي عواطلي باليومية، قلت يا واد دي أختك أوعى تسيبها خدت جوزها وخلّيته يشتغل على العربية معايا... آه، أمال إيه!! هي ليها مين يعني غيري؟!. كل يوم والتاني يرجعها لي مخبوطة... ودي عربية أكل عيش يا هانم، أ اتخانقت معاه وحلفت يمين طلاق مهو حاطت رجله فيها؛ هو كل يو أنا أروح أصلحها بالشيء الفلاني؟!... رجعت أختي وعيطت لي؛ جوزه قاعد بطّال.. والله يا أبله وما ليكِ عليّ حلفان رحت بعت له دهب مراتي وجبت له عربية بالقسط، أيوه عربية من التاكسيات البيضا الجديدة قال لي أهو كده تمام، فاضل عليها شوية كماليات، وجاب كاسيت ومش

عارف إيه وسماعات، دخلت لها في ١٠٠٠ جنيه كمان، وأنا قلت ماشي يا عم أهو هيشتغل وهيدفع أقساطها بعدين يدي لك المقدم منها وقلت لو اداني قرشين كل شهر يزودوا دخل بيتي.. يحصل إيه بقى حضرتك.. ؟! كل يوم والثاني يا أبله أقول له فين الإيراد يطلع لي بقصة شكل: يوم أصل تعبان... يوم أصل الواد عيان وديته للدكتور... يوم مش عارف إيه... وفي الآخر تيجي مراته تشكي لي انه ما بيصرفش عليها؛ أتاريه اتلم على بنت من بتوع الليل بتشتغل رقاصة ومقضيها معاها في التاكسي.. رحت البيت وطردته وخدت منه مفاتيح العربية وديتها لواحد صاحبي حبيبي إنما إيه! واد مجدع بصحيح.. أنا ائتمنته على العربية... الواد ده بقى كان أساسًا ميكانيكي و... آه شارع ٩ أهو انت عايزة فين بالظبط؟؟

أحسّت منال بطوق نجاة أرسل إليها بوصولها إلى الشارع، وعلى الرغم من أنه ما زال هناك بعض الشوارع الجانبية التي تحتاج أن تعبرها بسرعة حتى تصل إلى البيت فإنها أصرت على إنهاء ثرثرة هذا السائق عندما شاهدت كشك السجائر الذي كثيرًا ما وقفت تتكلم عنده في الهاتف المحمول، والذي كان يعرفها جيدًا زبونة عنده منذ أيام الدراسة لتطلب منه أن يحاسب سائق التاكسي إلى أن تعطيه النقود غدًا، وقد رحب بها وحمد الله على سلامتها وأن الله فك سجنها ليعلمها أنه كان يعلم بما حدث لها.

سارت منال في بعض الشوارع الجانبية التي بدأت تظهر فيها بعض معالم الحياة مع صوت أذان المؤذن بصلاة الفجر يعلو بصوته «الصلاة خيرٌ من النوم»، لتسير بخطًى أسرع متجنبة نظرات المارة لها بملابس البيت،

حتى وصلت إلى باب بيتها الذي - على غير العادة - تركه حارس العقار مفتوحًا؛ ربما نزل أحد سكان العمارة لصلاة الفجر وترك باب العمارة مفتوحًا، وهو ما سبب الكثير من الشجار بين سكان العمارة خوفًا من تسلل اللصوص في هذه اللحظات، أو ربما بات حارس العقار يتركه ليلًا انتظارًا لعودة منال.

لم تكن منال في حاجة إلى أن تصعد الكثير من درجات السلم لتجد نفسها أمام باب منزلها الخشبي الكبير، وقفت منال لبضع لحظات تتأمل الباب وكأنها تنظر إليه لأول مرة بتجاذيع الخشب الظاهرة فيه وكلمة «الله» التي تعلوه وأسفلها العين السحرية التي كثيرًا ما حاولت وهي صغيرة أن تشب على قدميها لتراها بالعكس، و«آية الكرسي» الملصوقة على جانب الباب لترفع يدها وتدق على الباب بقبضات مرتعشة.

سمعت منال صوت همهمات داخل البيت واستجمعت ملامح صوت أمها ترد بصوت مسموع:

- استر يا رب، استر يا رب.

ومن خلفها صوت والدها الذي اعتادت عليه الدفء:

- مين؟

- أنا منال يا بابا.

سمعت منال صوت فرحة الأهل وهم يتهافتون على الباب وصوت أثاث

المنزل يرتطم بهم وهم في طريقهم إلى الباب، والأب يعلن خبر عودة ابنته بفرح:

- منال رجعت يا ولاد.. يا فرج الله.

سمعت منال صوت مفتاح الباب يدور في «كلون» الباب فارتعش قلبها وزادت دقاته لتشاهد جسد والدها وملامح وجهه ترتسم أمام عينيها، لترتمي في حضنه وهي تبكي وهو يشاركها البكاء والنبح بصوت أنين سببه الحزن والخوف على ابنته.

لحظة حانية كانت منال في حالة احتياج للمزيد منها وهي ترتمي في حضن أبيها الذي ملأها حبًا وحنانًا، علمها كيف تكون العزة بالنفس، أعطاها حريتها فظنت أنها حافظت عليها وكانت أهلًا للمسئولية، لم يُفقها من هذه اللحظات إلا صوت ارتطام أمها على الكرسي وهي محمرة الوجه، ويجري عليها ابنها أكرم يحاول أن يسندها، فتشاهد منال أمّها قد جاءتها نوبة القلب التي تشل حركتها، وإن كانت بدأت تجمع بعض الكلام الخارج من فمها المعوج والمتثاقل:

- هتموتيني يا منال.

□□□

(٣) يـــارا فـــــــؤاد

القاهرة: ٢٠١٠/١٢/٣١م..

في ليلة خاصم القمر فيها سماء القاهرة، سارت يارا فؤاد بسيارتها «التويوتا» موديل ٢٠٠٩ وسط شوارع القاهرة المزدحمة بالمارة في ليلة رأس السنة التي وافقت ليلة الجمعة وخروج الناس إلى الحدائق العامة، ورغم قسوة برد الشتاء في هذه الليلة فإن بعض المارة من الناس كانوا يملأون الشوارع، وهي تحاول أن تسبق الزمن حتى تستطيع الوصول إلى مدينة نصر قادمةً من عيادتها بشارع وادي النيل بالمهندسين؛ حتى تلحق ميعاد زوجها الذي تمنت كثيرًا أن يرحمها من مرافقتها المتطفلة التي باتت كل محاولاته في التقرب منها تثير اشمئزازها.

لم يتوقف هاتف دكتورة يارا عن الرنين طوال فترة قيادتها السيارة حتى قبل مغادرتها العيادة، على الرغم من خلوها التام من المرضى - الذين يعتبرون المرض النفسي مرضًا معيبًا وأنه جزء من الجنون - إلا من حالات نادرة من بعض المشاهير الذين يعانون من بعض أمراض المجتمع البرجوازي، مثل

النرجسية وجنون العظمة الذي يستشري في المجتمعات الفقيرة بين طبقة الأغنياء فيها، وتلك التي تتعرض لظروف خاصة وقاهرة لفترات طويلة وفي المجاعات والحروب والاضطهاد السياسى.. والمصابون بهذا الداء يشكلون خطورة على المجتمع ككل، وذلك بحسب أهميتهم في المجتمع، فلا يمكن أن تنسى قصة ذلك الصحفي الكبير الذي برزت مقالاته في صدر أشهر الصحف اليومية وهو جالس أمامها على «الشازلونج» ليقص لها أفعاله وتصرفاته الجنونية مع مرؤوسيه، ولولا مجهوداته لانهارت الجريدة بأكملها!! وهو يحكي عن نفسه كأنه صلاح الدين الذي أعاد فتح القدس من جديد، ولولا حكمته في إدارة شؤون الجريدة لما وصلت إلى ما وصلت إليه من مكانة. هذه الجريدة التي لولا تدخل المعونة الحكومية على الجرائد القومية لما أتت حتى بثمن طبعها أساسًا.

إلا أن أمراض مجتمع الصفوة والمشاهير لم يكن هو الذي يشبع نهم المعرفة العلمية في الطب النفسي الذي سيطر على عقل الدكتورة يارا، لتحاول أن تبحث لنفسها عن مكان في وسط مجتمع الجريمة؛ من خلال دراستها لطب النفس الجنائي، وقيامها بعدة أبحاث عن أمراض المجتمع وأسباب نشأة الجريمة في مصر، وهي الأبحاث التي جمعتْها وبدأتْ في ربط بعضها بعضًا، لتكون النواة الأولى لرسالة ماجستير تحاول من خلالها دراسة الظروف والملابسات التي تخص مرتكب الجريمة وماهية الأسباب والدوافع التي أدت إلى ارتكاب الجريمة؛ من أجل محاولة منعها وتفاديها. وهو ما نجحت فيه في الفترة الأخيرة بعد علاج مريض نفسي

بمرض «الشيزوفرنيا» من خلال إعادة تأهيله ومحاولة دمجه في المجتمع مرة أخرى، وهي المحاولة التي باتت فخر كل أحاديثها في ليالي سمرها مع الأصدقاء، لكنها حاولت كثيرًا أن تبتعد عنهم في الفترة الأخيرة.

التفتت دكتورة يارا مرة أخرى إلى هاتفها المحمول لتشاهد رقم خالتها قد تجاوز عدد العشرين رنة، وهي تحاول أن تتجنب الرد عليها.. وإن كانت أخيرًا أجابت سؤالها لعلها تسمع منها اعتذارًا عن سهرة ليلة رأس السنة المقامة في إحدى فنادق القاهرة المطلة على النيل، وهي الدعوة التي قدمتها خالتها ليارا وزوجها في محاولة منها لرأب الصدع الذي نشأ بينهما على مدار ثلاثة أعوام هي فترة زواجهما.

عندما أنهت يارا المحادثة أكدت عليها خالتها ألا تتأخر عليها.. ظهرت علامات الضيق على وجه يارا وهي ترمي هاتفها المحمول بجوار كرسي القيادة الأمامي في الوقت الذي وضعت فيه قدمها على فرامل السيارة لتقف أمام عمارتها مصدرةً أنين صوت الفرامل المفاجئة على عجل السيارة، يشاركها غضبها من مكالمة خالتها.

دخلت يارا المنزل فوجدت زوجها عماد - الرجل ذا المظهر المهندم والثياب الكلاسيكية التي لا تتغير - يجلس على الكرسي الهزاز المقابل لباب المنزل ممسكًا في يده «سيجارة البايب» وهو يرتدي على بدلته «روب» ذهبي اللون عليه نقوش باللون الفضي ويمسك في يده كتاب (The lost Symbol)، يعلو بنفسه ويهبط على أنغام الدخان الصاعد من

فوهة البايب، تنظر إليه يارا نظرة الحسرة وهي تحاول أن تداوي عجزها عن علاج هذا الجنون المصاب به زوجها.

أغلق د/ عماد الكتاب بهدوء شديد ووضعه بجواره على المائدة الزجاجية، ثم مد يده ووضع بجواره البايب بعد أن لفظ آخر أنفاسه، وهو يرفع رأسه عاليًا ليقوم ببطء وبخطوة واثقة نحو يارا، يحاول أن يمسك ذراعيها ويقبل وجنتيها وهو يضمها إليه، ويذكرها أنهما على ميعاد مع الأصدقاء، وليس من اللائق التأخر عنهم.

- عشر دقائق وأكون جاهزة.

بكلمات قليلة حاولت يارا إنهاء مداعبات عماد لوجهها هاربة من أمامه إلى غرفة نومها، وأمام مرآة وضعت عليها أغلى أنواع العطور العالمية وأحدث وسائل التجميل جلست يارا بفستانها الأسود الذي يصل إلى منتصف الركبة تاركًا لساقيها عنان حرية التحرك، ولزراعيها اللذين ينتظران شال حرير أحمر يزين كتفيها وصدرها، قبل أن تلاحظ دخول عماد عليها مرة أخرى وهو يلف يده حول عنقها، فارتعشت كأن أصابها صاعق كهربائي، وهي تتخيل هذه اليد التي كانت تعانق منذ أيام قليلة الخادمات وزوجات البوابين اللاتي لا يكف زوجها عن خيانتها مع أراذل القوم، ليلف رقبتها بعقد ألماس جديد وهو يقبلها، قائلًا:

- عايزك النهار ده أجمل واحدة في السهرة.. عايز كل الناس تحسدني عليكِ.

تذكرت حبيبًا مضى.. كان لا يتسنى أن يمزق أجمل لحظات سعادة في حياتها من أجل بنطلون جينز ضيق أو بلوزة لا تغطي كامل جسدها، تذكرت غيرته عليها.. كان يخاف عليها حتى من الهواء الطائر، وهي تحاول أن تستجمع المرات التي أبكى فيها عينيها وهو يمنعها من الذهاب إلى فرح صديقة أو حفلة عشاء مع الأهل؛ لأن بها بعض الرجال، حتى حفلة التخرج التي يجتمع فيها الزملاء يلتقطون فيها بعض الصور التذكارية يحاولون أن يحافظوا على لحظات جمعتهم معًا منعها من حضورها؛ لأنه سمعها تتفق مع صديق لها على ميعاد الحفلة، كم اشتاقت لتلك الغيرة التي فقدتها مع زوجها! ولتلك التحكُّمات التي كانت تثير ضيقها في البداية، وباتت الآن تحن إليها خلال حب ضائع!!

و أمام بوابة فندق الفورسيزون بشارع مراد استقبل موظف الاستقبال د/ عماد ود/ يارا بابتسامة روتينية، بينما د/ عماد يعطي له البالطو الصوف الثقيل الذي خلعه بتثاقل قبل أن يرفع البالطو الآخر من على جسد يارا، لتكتفي بذلك الشال الحريري الذي يغطي جزءًا من كتفها وذراعيها وهي تلفه بشدة حول عنقها تداري به هدية زوجها.

اقترب منها أكثر، وجذب ذراعيها بشدة إليه ليلف يده حول خصرها وهو يطلب منها الابتسام، حيث إنهم قادمون على الناس.

- الناس تقول علينا إيه؟!

هذا كل ما كان يفكر فيه، وضعه الاجتماعي ونظرة الناس له كرجل

أعمال ناجح في أعماله، يدير شركة كبرى من شركات البترول، وحاصل على شهادة الدكتوراه في الاقتصاد الدولي من إحدى جامعات أمريكا، ليعود إلى مصر بعد طول غربة يحتاج أن يكمل زينة حياته مع السيارة والشقة الفاخرة بزوجة.. اشترط أن يسبق اسمها حرف (د) ليتباهى بها أمام الناس زوجتي د/ فلانة، ولم يعتنِ بمشاعرها وهو ينساق في نزواته الجنونية وشغفه في علاقته مع الشغالات وزوجات البوابين الذين كانوا يهربون من جحيم نظراته وتحرشاته بزوجاتهم.

على المائده المستديرة التي يجتمع عليها أصدقاء الدكتور عماد جلست يارا بعد أن جذب لها عماد كرسي المائدة بابتسامة، حاولت أن تبادله إياها بعد أن سلمت على الدكتورة نيفين خالتها وزوجها دكتور حسين الذي كان سببًا في هذه الزيجة، بعد أن رشح يارا ذات الجمال والنسب لتكون عروسة لرجل أعمال مصري كان مقيمًا في أمريكا.

أدارت يارا وجهها إلى زجاج الحائط الذي كانت تظهر القاهرة كلها من خلاله في الدور الحادي عشر من الفندق الكبير غير عابئة بحوار دار بين د/ حسين وزوجها عماد حول مستقبل مصر السياسي بعد انتخابات مجلس الشعب الأخيرة، خصوصًا بعد انضمام مجموعة من أعضاء لجنة السياسات بالحزب الوطني بملابسهم المزيفة وأناقتهم الكاذبة وثقتهم التي تعكس فراغ المضمون، فحاولت يارا الابتعاد عن هذا الجو كليًّا وعن نقاشاتهم السخيفة عن مسرحية السياسة، حيث يعلم الجميع فيها دوره بما في ذلك الجمهور الذي يقوم بالتصفيق لكل من يظهر على خشبة المسرح.

حاولت د/ نيفين خالتها أن تثنيها عن عزلتها التي فرضتها عليها بسؤالها عن آخر أبحاثها في مجال دمج المريض النفسي في المجتمع، غير عابئة بسخرية عماد من أبحاثها وهو يقول:

- هي عاوزة تخرَّج المجانين يعيشوا معانا؟!.. وندخل احنا بقى أحسن مستشفى الأمراض العقلية!!

لم تهتم يارا بالرد على سخرية زوجها بعد أن باتت غير مهتمة عمومًا بكل من يمزج المرض النفسي بالمرض العقلي بجهل ولا يستطيع الفصل بينهما، لتحاول أن تبسط فكرتها إلى جميع الحضور على المائدة التي باتت تزداد اتساعًا بقدوم المزيد من رجال السياسة والمال في مصر، فهرب منها الحديث مرة أخرى إلى شئون السياسة واختصاصات لجنة السياسات التي يرأسها السيد جمال مبارك ودوره في تطوير الفكر الجديد للمجتمع.

وعلى نغمات مطرب خليجي لم تذكر اسمه، ولكنها تذكرت شكله الذي كانت صورته تملأ إعلانات الصحف والجرائد لهذا الحفل، نظرت يارا في وجوه الجميع حولها من وجوه كبار رجال الدولة يجلسون على موائد عامرة بمختلف المأكولات والمشروبات وزجاجات الويسكي التي يتجاوز ثمنها دخل موظف محترم يعول أسرة كاملة، ووجوه نساء لطّخن وجوههم بمساحيق النفاق الاجتماعي، يلبسن ثيابًا تفضح أكثر مما تستر، تفتخر كلُّ واحدة منهن بمقدار ما كشفت من جسدها، وبجوارها زوجها يفخر بنظرة إعجاب صديق له بجسد زوجته أو امتداحه شفتيها، وهي

تكاد تسمع صدى همهمات النقاشات الخفيفة على كل مائدة من موائد الصالة الكبرى التي بها أكثر من مائة مائدة، حتى التزم الجميع الصمت واستدارت كل العيون تتوجه حدقاتها نحو مسرح الصالة بمجرد خروج الفنان الخليجي ودخول الراقصة المشهورة (......) ما عادت حتى تذكر اسم هذه الراقصة ولا شيئًا عنها إلا أنها تظن أنها ظهرت كضيفة شرف (ولا تدري من أين جاء هذا الشرف) في آخر أفلام السبكي الهابطة التي يبلينا بها أكثر من مرة في العام الواحد بعد أن اشتهرت بمقطع جنسي مع رجال أعمال قيد الحبس.

كان إيقاع الطبلة وهزات وسط الراقصة اللولبية بمثابة استراحة ليارا من ضوضاء الأصوات المنبعثة حولها من كل جانب، ليعود الصمت إلا من ضربات عازف الإيقاع على الطبلة ومداعبات الراقصة التي خطفت كل العيون النساء قبل الرجال، لتقف يارا أمام الحائط الزجاجي الكبير مسندة رأسها إليه تشم رائحة شياط مجتمع يعيش معظم سكانه تحت خط الفقر، ويجلس حفنة من كبارات رجال البلد يدوسون بأقدامهم عليه.

أنهت الراقصة الشهيرة رقصتها وغادرت المسرح بحركتها السينمائية وهي تحيي الجمهور الذي لم يكف عن التصفيق لها، ونور الصالة الذي بدأ يضعف وظهر على الركن الأيمن من الصالة لـ (DG MAN) باللغة الإنجليزية الخالصة، وشعره الأسود منسدل حتى منتصف كتفيه، بينما سماعة الأذن الكبيرة تغطي باقي رأسه، وهو يرحب بعام جديد ويودع عامًا قديمًا، منشدًا معهم العد التنازلي للعام الجديد:

١٠، ٩، ٨، ٧، ٦، ٥، ٤، ٣، ٢، ١

انطفأت الأنوار، اختلس كلّ قبلة ممن كان بجواره، ثم أضاءت على عام جديد لتشتعل الشموع على الموائد تمهيدًا للعشاء، حينما كانت تشتعل كنيسة القديسين بالأسكندرية بلهب النيران التي هدمت فرحة العيد على أطفال تمنوا ارتداء الثياب الجديدة واللعب بالبلالين الملونة ليحولوهم في غفلة عين إلى أيتام وأمهاتهم إلى أرامل ثكلى.

□□□

حينما رن الهاتف المحمول للدكتور/ فؤاد حسين عميد كلية الاقتصاد والعلوم السياسية السابق وأمين لجنة الشباب بالحزب الوطني - الذي خرج على المعاش من ثلاث سنوات - ليشير للجميع بأصابعه بالصمت، وبانت على ملامحه علامات الدهشة وفي عينيه علامة الخوف من مجهول يتحدث معه عبر الهاتف ليغلق هاتفه المحمول وعلامات التعجب ما زالت على وجهه، حتى أفاق بعد سيل من الأسئلة التي انهالت عليه والدعوات أن يكون خيرًا ما سمع في الهاتف ليرد عليهم:

- في اجتماع للجنة السياسات بكرة الصبح!.. في كنيسة في الأسكندرية انفجرت!.

ترك الجميع شوكات الأكل ووضعوا السكاكين بجوارهم تملؤهم الدهشة والخوف من هذا العمل الإجرامي على دور العبادة في مثل هذا اليوم الذي يحتفل به العالم بمولد المسيح.

تعجبت يارا من نفسية الدكتور فؤاد الذي أردف خبر العملية الإرهابية بعد خبر اجتماع لجنة السياسات بالحزب الوطني الديمقراطى.. بدت حالة من الارتباك على الجميع في القاعة، وتسارعت رنات الهواتف المحمولة في كرنفال فني ولوحة موسيقية مختلفة الألوان من مختلف الرنات الصادرة عن كل هاتف، لينتشر الخبر كالنار في الهشيم وسط حالة من الفزع والخوف التي انتابت الجميع قبل أن يصل عامل الصالة ومعه جهاز «الريموت كنترول» ويضبط شاشة التلفاز الكبيرة المقامة خلف المسرح على التليفزيون الذي أذاع الخبر في صورة شريط أحمر مكتوب عليه بخط أبيض يعلوه مربع مكتوب عليه كلمة «عـاجل»:

«أصوات انفجار صادرة من كنيسة القديسين في الأسكندرية»

تهافتت الألسنة على اقتراح القنوات الفضائية، بعضهم يفضل العربية وبعضهم يفضل الإنجليزية إلى أن أدار العامل بعض القنوات حتى استقروا على قناة «الجزيـرة» التي كانت تنقل بثًّا مباشر من موقع الحادث، وعلى الشاشة الصغيرة تظهر المذيعة الحسناء بملامح وجهها العذب في اتصال هاتفي من أحد شهود العيان من موقع الانفجار، تابعتها عيون الحاضرين وسط رنين أصوات الأشواك والسكاكين التي عاودت العزف.

□□□

(٤) محمــــــــــــود

ما زلت كالمجنون ..

أحمل بعض أحلامي وأمضي في الزحام ..

كلمات أنهى بها الشاعر الكبير فاروق جويدة إحدى قصائده، أحيانًا لا أجد أبسط من هذه الكلمات التي أعبر بها عما أعيشه من أحاسيس.. طموحات.. أحلام شخص مجنون، يرسم في عالم من الضوضاء حياة هادئة، يرسم في عالم من النفاق حياة طاهرة، يرسم في عالم فانٍ حياة خالدة.

لحظة ما، ينفصل فيها الإنسان عن عالمه الذي يسكنه، عن زمانه الذي يعيشه، ويعيش في عالم من صنعه هو.. ولكن متي تأتي هذه اللحظة؟!.. متى يقرر الإنسان أن ينفصل عن زمانه ومكانه، عن شخصيته وطبائعه ليعيش في عالم زمني غريب عليه، ربما يرفضه.. ربما لحظة يشعر فيها بالحزن والضياع، أو لحظة يشعر فيها بالفشل والألم جعلته يحاول

الهروب من واقع حياة الألم إلى حياة أخرى يرسمها هو بريشته في خياله.

أعترف أني هربت من كل مشاكلي بهذه الطريقة، بالتخيل والحلم، عندما أعود ليلًا بعد أن أغلق كشك الكتب القديمة أسفل كوبري «أبو الريش» بالسيدة زينب، وأشاهد رجلًا كبيرًا يهان من شاب أهوج ربما لم يصل إلى عمر ابنه.. أختزن هذه الصورة في ذهني، لا أستطيع في الواقع أن أفعل شيئًا، أشاهد مع من يشاهد إلى أن أعود إلى بيتي، أتخيل نفسي أحد فتوات الحرافيش في روايات نجيب محفوظ، صاحب السطوة والقوة، المهاب من الجميع، الذي يأتي بالحق من المفترين.. أحاول أن أخمد إحساس الألم الذي يعتريني من تخاذلي عن نجدة الرجل الضعيف إلى بطولة وهمية أرسمها في خيالي.

عندما أشاهد في الصيدلية صباحًا مغازلات دكتورة إبتسام مع دكتور مؤمن الوافد الجديد، رنات الهاتف المحمول... الرسائل التي يتبادلانها، ونظرات الود بينهما والجميع في الصيدلية يعلم ببداية قصة الحب بينهما، كنت أتخيل نفسي مكانه أتخيل نفسي في نفس مركزه، الدكتور الوسيم، صاحب السيارة الفاخرة التي أهداها إليه والده الذي يعمل بالكويت عندما تخرج، وهو يقع في غرام الدكتورة: اللحظات الأولى لتبادل نظرات الإعجاب بينهما، نظرة الشوق في اللقاء، نظرة الألم في الوداع، رعشة النشوة لحظة أول سلام باليد.

أعود إلى بيتي طول الطريق وأنا أتخيل قصة الحب هذه، أنا بطلها، أنا من تقع في غرامي أجمل بنات الصيدلية، تأتي إلي تبادلني كلمات الود والاحترام، أشاهد في عينيها نظرة الحب المغلفة بالحياء، تترجاني نظرة عيونها أن أقولها قبلها، تعلو شفتي ابتسامة الثقة، وأنطلق بأجمل حروف اللغة العربية (أحبك).

البعض لا يفهم مدى المتعة التي أعيشها في هذه التخيلات، لماذا يريدون أن أعيش في العالم الحقيقي؟! لماذا تريد مني د/ يارا أن أعيش حياتي الطبيعية؟! في أرض الواقع وسط زحام مترو الأنفاق و»زعيق» الرجال والنساء، وسط تحرشات الرجال بالنساء في المواصلات، وسط ضوضاء صافرات السيارات في إشارات المرور وعالم العهر وانحلال الأخلاق الذي نعيشه، الذي لا يتوانى فيه الإنسان أن يتلون بألف لون من أجل منصب أو علاوة.

أن أعيش في عالمي.. عالمي أنا وحدي.. أنا بطل كل الأحداث، لا يهمني أحد، لا يتحدث عنّي أحد بسوء.. عالم إذا أردت أن أكون فيه فسوف أكون دون جهد أو تعب، لا أعيش فيه على الهامش.. أنا بطل كل الأحداث، جميع نساء العالم مغرمات بي، كل الأعمال تتعطل إن لم أصل في وقتي لإنجازها.. كل العلاقات تفشل إن لم أكن طرفًا فيها.. أنا.. وحدي.. والخيال.

أعترف أن هذا الخيال حقق لي الكثير من المتاعب، أتذكر أن كثيرًا ما

تدخل عليّ والدتي وتجدني أتحدث مع نفسي، أو أن أشاهد نظرة شفقة في عيون المارة عندما أنتبه أني كنت في عراك مع النفس في الشارع وأن جميع المارة حولي يشاهدونني وأنا مندمج في هذا الحوار مع نفسي بكل تفاصيله، وانطباعات الحوار ترتسم على وجهي، وأحيانًا على حركة يدي وقدمي إذا كان الحوار شديد اللهجة.

إلا أن بعضها لا يخلو من الطرافة...

يحضرني الآن موقف حدث معي قبل سنوات.. عندما كنت أسير في الطريق عائدًا من الجامعة وتذكرت نكتة، لا أذكرها الآن، ولكنها كانت نُكتتي المفضلة، ما أن أذكرها حتى يمتلكني نوبة ضحك هستيرية، وفي هذا اليوم تذكرت هذه النكتة، وانتابتني حالة الضحك الهستيرية المعتادة، كنت أسير في الشارع بمفردي وضحكتي تملأ وجهي، أحاول أن أخفيها من نظرات المارة فلا أستطيع، تعود النكتة تُرسم في خيالي فأزداد معها ضحكًا، حتى إنني هممت أن أضع وجهي في أحد أسوار البناية التي كنت أسير بجوارها بعدما يئست من قدرتي على التماسك من الضحك، وسمعت امرأة كبيرة في السن تسير بجواري وهي تقول والشفقة تملأ صوتها:

- «لا حول ولا قوة إلا بالله.. شوف الواد زي الفل ازاي؟!.. ربنا يشفيك يابني.. ربنا يأذي اللي بيأذي الناس».

□□□

أعود مرة أخرى لطلب دكتورة يارا أن أعيش حياتي التي أريدها بين دفتي هذا الكتاب أو الكشكول - لا يعني وصفه الآن - وإن كنت لا أعلم لماذا تريد مني د/ يارا أن أخرج من عالمي الافتراضي الذي بدأت أتأقلم معه؟! بل إني تعودت نظرات الإشفاق من أهلي والمارة عندما يجدونني أكلم نفسي.

ولكني سأكتب.. سأكتب وأنا لا أعرف ماذا أكتب!! ولكني سأكتب.

لن تجد أيها القارئ الكريم - إذا قدر لهذا العبث أن يُقرأ - في هذه الأوراق كلمات متناسقة أو متجانسة، بل هي مجموع من النظرات والانطباعات، الأحلام والحقائق والوقائع والأشعار والمأثورات، الألفاظ، والألغام المتفجرة أحيانًا.. لن تستطيع أن تنتقي منها جملًا تقتبسها كـ«status» على الفيس بوك، ولا حِكَمًا تكون لك الضياء في حياتك.. إنها تجليات واحد من الناس، لم يكن يومًا فارسًا ولم يطمح أن يكون ذلك.. حلم أن يكون إنسانًا، وسيموت وهو لم يدركه بعد.

□□□

ولكن أيًا ما كانت ستؤول إليه صفحات هذه الكتابة فإنَّ عليّ أن أبدأها بواقعي الذي أحياه: من أنا؟!.. وكيف وصلتُ إلى هذه الدرجة؟! وما اللحظة التي أعيشها الآن؟! هي حياة أظنها ثرية عشتها بأفراحها وأطراحها، بلحظات حلوها ومرها، بعقلها وجنونها، هي إذًا الحياة.

ولكن حتى أصدقك القول لا تصدق كل ما تقرأ.. هذه ليست الحقيقة

وليس هذا بيقين.. ولكنها محاولة للخروج من واقع مزيف أحياه في خيالي إلى واقع مزيف آخر أخلقه عبر الكلمات على هذه الوريقات، فبعض شخصياتها حقيقي وبعضه لا يعدو وهمًا من صنع خيالي، فلا تصدق كل ما يملى عليك.

أحاول الآن أن أبدأ معك لحظتها الأولى.. بالطبع سيجيء بخاطرك أن لحظتها الأولى هي لحظة خروجي من رحم أمي إلى الدنيا، لا.. ليست هذه اللحظة الأولى.. ولكن لحظة خروج من السجن إلى الدنيا مرة أخرى.

□□□

(٥) القـــاهـــــرة

قبل ثلاث سنوات..

أمام فندق «سياج» بالمريوطية وقفت جموع الحاضرين بملابسهم الأنيقة، رجالًا يرتدون البدلات الكلاسيكية وروابط العنق التي لم يألفوا عليها في حياتهم اليومية إلا في مثل هذه المناسبات، تظهر على وجوههم ابتسامات السعادة مخلوطة بابتسامات الخجل والفرحة بملابسهم الزاهية، وبنات بفساتينها المزركشة اللافتة للنظر، وضحكاتهن المتمايلة يقفن في صفين متوازيين تكوِّن كل أربعة أو خمسة منهن دائرة سمر مستقلة، تجمعهن ضحكات تجذب قلوب وأنظار الشباب في انتظار قدوم زفة العريس.

وقف الجميع ينتظر قدوم سيارات الزفة التي ارتفع صوت آلات التنبيه بها بنغمات الأفراح المعتادة، بينما يخرج بعض الشباب ببدلاتهم خارج نوافذ السيارات وهم يصفقون ويطبلون على سطحها في مرح وبهجة بعريسهم، بينما العريس في سيارته المرسيدس الذي أهداها إليه أحد زملائه في العمل - ساعتين الزفة فقط بالطبع - تجلس بجواره عروسته

تمسك بيده وفي الأخرى بوكيه الورد الصناعي وأمامهم صديقة العروسة التي لم تكفّ عن الزغاريد، مع أغاني شعبية لم يألفها الناس إلا في هذه المناسبات أو في سيارات الميكروباص والتكاتك، إلا ما رحم ربي.

وأمام باب الفندق وقفت سيارة العريس بوردها الذي يغطيها، والتفت حولها عيون الأهل والأصدقاء ليخرج أعضاء الفرقة الموسيقية من باب الفندق بملابسهم الحمراء وعماماتهم البيضاء المزينة عند الحواف بخيوط القصب الذهبي في أيديهم الدفوف يقرعون عليها إيقاع الزفاف المعتاد على خلفية أصوات المزامير، ليفتح باب السيارة ويخرج منه العريس ببدلته السوداء وقميصه الأبيض الناصع ورابطة عنق فضية اللون - أعطاها له صديق الدراسة الذي كان فرحه من أسبوع - وهو يشبك يده بعروسته ذات الفستان الأبيض الواسع وطرحتها التي ترميها على ظهرها، وهما يوزّعان الابتسامات على الأهل والأقارب، وأم العروسة تتابعهم بنظرها وهي ترمي عليهم الورد الذي ملأته - في حين غفلة من الجميع - بالملح، ترميه في عين الحسود خوفًا على أجمل عريس وعروسة، ليستمر الموقف هذا لبضع ثوانٍ يقترب منهما، ومن يقترب يختلس من العريس قبلة، أو يمازحه بضحكة عن ليلة بات يحلم بها، حتى تقدّم رجل ذو ملابس حمراء يمسك يد العريس ويتقدم به هو وعروسته على السجادة الحمراء الممتدة من أول باب السيارة حتى داخل الردهة الرئيسية للفندق مجتازة خلال ذلك البوابة الرئيسية به ليقف أمام باب الفندق على بعد بضعة أمتار منه، ليقترب منهم آخَر بكرسي وهو يمسك في يده مبخرة

تتصاعد من فوهتها ألسنة البخور ليجلس العريس على الكرسي ويعطي المبخرة للعروسة المرسوم على وجهها ابتسامة حياء وسعادة لا تدري ماذا تفعل بها وسط ابتسامة خجل ومداعبة الأهل والأصدقاء.

وقف العريس يمسك يد عروسته ويتمايلان معًا على أصوات أغاني الفرقة الموسيقية على خلفية موسيقى الدفوف والمزمار الصعيدي، بينما تقدم منهم بعض الأصدقاء يشاركونهما الرقص والفرح، وقد اصطفت المعازيم صفين يرسمون لهم طريقًا إلى عالم جديد وحياة أخرى.

❑❑❑

بينما كانت أعُين الجميع تتطاير منها الفرحة للعروسين كانت هناك عين أخرى تنظر والحقد يملأ قلبها ونار الانتقام قد تملّكت كل كيانها وهي تنظر إلى هذا المشهد، شاب يرى حبيبة قلبه التي طالما منى نفسه أن يقف هذه الوقفة بجوارها وهو يمسك يدها، ويرسم معها معالم ليلة باتا طول فترة الخطوبة يحدثها عنها وسط مداعباته وخجلها المصطنع ليراها الآن بأم عينيه وقد تخلت عن كل وعودها له.. ليشاهد نظرة الفرحة تملأ عينها وهي تقف تزف إلى غيره!.

تعجب في نفسه، لم تكن هذه نبرة صوتها عندما حدّثته صباح اليوم على الهاتف في مكالمة خاطفة - اختَلَتْ فيها من صديقاتها اللاتي احتللْنَ البيت منذ الساعات الأولى من صباح يوم زفتها - تطلب منه أن ينقذها من كابوس هذا العريس، لم يكن يعلم أي فرحة تظهرها وهي على بعد

لحظات قليلة من فضيحة العمر لها ولأهلها، تذكر توسّلاتها في الهاتف أن يفعل شيئًا لإنقاذ سمعتها لم يعد أمامهما وقت؛ فالزفة اليوم! ليلة الدخلة سيُكتشَف أمرها و يُفضَح سرُّها تطالبه بالإسراع في تدبير أي أمر، ينقذها و ينقذ أهلها وسمعتها من فضيحة ليلة الدخلة وقبلها ينقذ حبهما.

بكى لبكائها، لم يكن يضعفه شيء في الدنيا إلا دمعة تجرح خدها، وعدها أن يبذل قصارى جهده من أجل أن يحافظ على سمعتها، بات يؤنّبها أن لو كان أهلها وافقوا عليه، لو كان سمع كلامها بأن يتعقلوا ولا يتركوا أنفسهم للشيطان في لحظة ضعف يسلبها فيها حياتها لتجد نفسها الآن فريسة الفضيحة.

لا يتخيل نفسه في مثل هذا الوضع؛ هو يجد عروسته ليلة دخلتها تُزف إلى غيره، نظر بحنق إلى العريس الذي كان يمسك بعصا يتراقص بها بفرحة، وهو لا يعلم أنه سيقضي أسوأ ليالي عمره اليوم، بينما هي واقفة بجواره تتراقص الفرحة في عينيها.. شك للحظة أنها قد اعترفت له بكل شيء وسامحها، وإلا كيف يأتي لها الفرحة التي خليقًا بها أن تجعلها ترقص هكذا وهي على أعتاب فضيحة العمر التي ربما تقتلها؟! بات يتذكر لحظات أول ما استرق فيها النظر من أسفل ورشة الألوميتال - التي كان يعمل بها في الصيف - إلى شرفة المنزل المقابل لهم، وهو يراها تكبر أمامه فيحاول أن يجذب انتباهها إلا أنها لم تكن تنتبه، حاول معها بكل الوسائل الكلاسيكية، سهر الليالي على أنغام عبد الحليم حافظ وهي جالسة مع صديقتها في شرفة منزلها، سار خلفها وهي ذاهبة إلى المدرسة صباح كل

يوم يتمتع بالنظر إليها، ويقف أمام باب المدرسة الثانوية ينتظر نظرة من عينيها في الخروج إلا أنها لم تستجب، فاستجاب غيرها.

مثل الصياد الذي يرمي صنارته في الماء ينتظر البلطي فيأتيه القرموط، تعلقت به غيرها، لم يكن يعلم أن عينًا أخرى تلاحظه من أعلى النافذة في العمارة المجاورة لعمارتها، وقفت تتأمل العاشق يتجرع مرارة البعد عن عشيقته لترمي إليه شباكها.

كانت امرأة أكبر منه سنًا، في حوالي العقد الرابع من عمرها، متزوجة ولديها ثلاثة أولاد، أو ربما ولد وبنتان، لا يعلم شيئًا عنها ولا عن زوجها، إلا بعض المشاجرات التي يرتفع فيها صوتها.. بادلته النظرات فلتفّت بقلبه إليها، تسمّرت عيناها في عينيه، إلا أنها بادلته نفس النظرة يعلوها الابتسامة، وهي ترفع خصلات شعرها الأحمر بلون الدم من على مقلتيها وتدخل مغلقة خلفها النافذة.

استمر الحال على هذا المنوال.. يحاول أن يلفت انتباه واحدة فانجذبت الأخرى.

وجدها تقترب منه، قابلته مرة واحدة في الشارع، اقتربت منه، عاتبته على معاكسته لها، حاول أن يحلف لها أنه لم يكن يقصدها، نهرته، وأمسكت يده فجرت في جسده قشعريرة ولد مراهق لم يتذوق طعم النساء، طلبت منه الحضور عندها في البيت اليوم، الجميع في الخارج، لم تترك له متسعًا من الوقت لتدبر أمره أو التفكير فيه.. انجذب اتجاهها كما

يساق البعير في السوق وسط دقات قلبه المتسارعة التي كان يسمعها كل من سار بجواره، صعد درجات السلم صعودًا إليها، وقبل أن يدق بيده على الباب فتحت له، كبدر أضاء ظلمة حياته، بشعرها الأحمر والروب الذي كانت ترتديه فتح في أفقه خيالًا لانهائيًا من ملابس أمسى يشاهدها في محال الأزياء، ويحلم أن تنتقل من على «المانيكانات» إلى أجساد حقيقية لتجذبه من يده وهي تطلب منه الدخول قبل أن يراه أحد.

لم يكن من السهل على مراهق في العشرين من عمره أن ينسى عبير الشهد الذي تذوقه من امرأة ناضجة في العقد الرابع من عمرها، أغدقت عليه كل معاني الحنان والحب، مارسا الحب معًا بلحظات الجنون والنشوة، تفننت بخبرة زوجة متمرسة في إغوائه لتجعله ينسىٰ حبيبته.. تعلق بها، لم يغفلا أي لحظة يكون فيها البيت هادئًا إلا مارسا فيه جنونهما، ليفتح لها قلبه، ويحكي لها قصة حبه. لم تحزن، ولِمَ تحزن على حبه غيرها وهي لا تعطيه إلا ما تبخل به على زوجها؟! حاولت أن تساعده، أنفقت عليه من الأموال التي تسرقها من زوجها ليكون طوع يدها، ولينسى حبيبته الأولى.

ولكنه لم ينسَ..

وفي ذات مرة وهو نازل من بيتها شاهد حبيبته في شرفتها وجاءت عينه في عينيها. نظر في عينيها شاهد نظرةً بات الليالي يحلم بيها، نظرة الشوق والحب، سمع من عينيها كل كلمات الحب التي أمطر العشاق بها آذان

معشوقاتهم، ليتذوق معها طعم حب بريء مع إنسانة جديدة، بعيدًا عن ذلك الشيطان الذي حاول أن يدمر حياته وهدده بالقتل إن ابتعد عنه.

نادمًا انساق في العلاقتين معًا، حب بريء مع بنت في الثامنة عشرة من عمرها وجنون ممارساته مع امرأة في عقدها الرابع ليقع بين الملاك والشيطان وبين الجنة والنار، ولكن الشيطان حينما علم أنه ليس له من دخول الجنة سبيل حاول الاحتفاظ بالإنسان معه، فقبلت أن تساعده في الزواج من حبيبته على أن يبقى معها طول العمر، فما عادت تتحمل أن يفارق مضجعها.

وحينما نما الحب بينهما، جاء إليها العريس، العريس كامل الأوصاف الذي ليس به عيب، لتطلب منه اللقاء ليرى الدموع في عينيها وهي تطلب منه ألا يبتعد عنها، ألا يفارقها ليتواعدا في منزلها ويحدث بينهما ما حدث ليكون رباطًا بينهما إلى يوم الدين، لا يفك قيده إلا الموت الذي بات قريبًا منه الآن، و يسمع صوته أوضح من صوت طبول الزفة الآخذة في الأفول.. والآن وقف ليشاهد قصة حبه وهي تُدمَّر أمامه، وحبيبته تلهو وتوزع الابتسامات، بينما نار الغيرة والحقد تملأ قلبه، وهو لا يتخيل أن هذا الوجه الضاحك الراقص أمامه الآن هو الذي كان يبكي صباح اليوم له في الهاتف يطلب منه إنقاذه.

وسط زحام الجميع الذين يأتون يتراقصون فرحًا بأجسادهم على أنغام موسيقى الزفة، والعروسان يمشيان أمامهم بمشيتهم البطيئة اخترق الجميع ليقذف الجميع من أمامه الذين لم ينتبهوا إلى سلوكه الشاذ لشدة تدافع

الناس ذهابًا و إيابًا، ليجد نفسه وجهًا لوجه مع غريمه الذي بادله الابتسامة، وهو بالطبع لا يعرفه، بينما كان هو يعرف وجهه جيدًا حينما كان يجلس أمام الورشة يشاهده صاعدًا إلى بيت حبيبته، وهو يقف في ليل شتاء بارد لساعات وساعات ينتظر خروجه ونار الغيرة تغلي في قلبه، حتى تخرج حبيبته وتنظر إليه نظرة تجديد الوعد والعهد على الحب طول العمر.

بينما حبيبته تقف بجوار عريسها لا تنظر له، كان يعلم أنها شاهدته ولكنها حاولت أن تغض النظر عن قدومه، لا يدري من أين جاءتها هذه الأعصاب على المرح والفرح في مثل هذه اللحظات، ربما لثقتها فيه أنه سينهي هذا الوضع الليلة، كما وعدها في مكالمته صباحًا.. اقترب أكثر واحتضن العريس وهو يقول له:

- «مبروووك يا عريس».

لم يسمع المعازيم كلمة «الله يبارك فيك»، بل سمعوا آهًا مكتومة خرجت من فم العريس، وامتلأت عيناه بنظرة الرعب قبل أن يشعر الجميع به ينهار على الأرض تنفجر منه بركة دم غطت يد القاتل بسكينه التي كان يمسكها بيده وسط صراخ الجميع الذي تجمع بعضهم حول القاتل يمسكون به خشية هروبه، والبعض الآخر جرى نحو العريس الذي بات يلفظ أنفاسه الأخيرة، بينما عروسته تأخذه بحضنها وقد أطلقت هي الأخرى آهًا مكتومة سمعها الجميع.

□□□

(٦) محمــــود

انقطعت عن الكتابة فترة؛ لم أشعر بتحسن معها.. من يستمع إلى د/ يارا وهي تطلب مني الكتابة يشعر بأنني وبمجرد أن أمسك بالقلم وأهم بها ستفتح أمامي كل الأبواب المغلقة.. في الحقيقة لم تكن د/ يارا هي الدافع وراء الكتابة بمفردها، فإني - بجانب كلامها - سمعت ذات مرة في أحد البرامج التليفزيونية عن فنانة - لا أتذكر اسمها الآن - أن الدكتور النفسي قد نصحها بالكتابة، وقد بدأتْ تشعر بالتحسن بعدها. إلى جانب ما انتابني من إحساس جميل عندما شاهدت كشكول منال وهي تهديه لي ذات يوم معبرة لي فيها عن خالص حبها وتقديرها لي.. وكأنها تريد أن تهديني جزءًا من إحساسها. انتابني إحساس مشابه ورغبة في أن أحاول أن أحوِّل تلك النبضات التي يشعر بها القلب إلى حروف وكلمات.

وإن كنت حقًا لم أشعر بالتحسن، ولكن كنت أسير نحو الأسوأ!.. حالتي بدأت تزداد سوءًا، الجميع بدأ يلاحظ أني كثير التحدث إلى نفسي، الزملاء في الصيدلية صباحًا، المارة أمام كشك الكتب ليلًا، حتى راكبي الأتوبيسات والمترو كثيرًا ما شاهدوني أتحدث إلى نفسي.. في البداية

كنت أخجل، أضع وجهي في الأرض، مع الوقت اعتدت هذه الحالة، بل كنت أستمتع بها، أحيانًا - وإن كانت قليلة في الفترة الماضية - كنت أخجل منها.. إلا أني بدأت أتعايش معها، كمريض السكر الذي يستطيع أن يضبط مؤشره في جسده ويعيش معه كالصديق.

وهذا ما أقلقني ...

هل يمكن أن أعيش حياتي كلها في أحلام يقظة؟! وإن لم يكن أمامي بدٌّ غير ذلك، لماذا لا تتحول هذه الأحلام إلى واقع؟!.. واقع على الأقل من الناحية النظرية، دعونا نُخرِج من رحم المعاناة معنًى جديدًا، دعونا نرى نص الكوب المملوء.. في حالتي هذه قدرة كبيرة على التخيل، على الحلم، على الإبداع؛ لماذا لا تكون هذه شرارة البداية لأعمال رواية أدبية كبيرة؟! من يعلم كيف بدأ نجيب محفوظ أو وليم شكسبير؟!.. لذلك هممت بالكتابة مرة أخرى.

كما ذكرت من قبل لا أعلم في أي مصنف سيكون هذا العمل - خواطر أو تأملات، رواية أو قصة، حكاية أم نظرات إنسان عابث - ولكن سأحاول بكل غرور أن أقول إنه عملي الأدبي الأول.. ولن أشغل رأسي بالتصنيف، ربما لن ينتمي إلى تصنيف سابق، ربما يكون حالة بمفرده.

وكأي كاتب أو مؤلف.. مخرج سينمائي أو مسرحي، يختار اللحظة التي يبدأ فيها روايته.. ليس بالضرورة أن تكون لحظة البداية هي استنشاق النسيم الأول لهواء الدنيا خارج رحم الأم، ربما تكون هذه أهون بداية..

أو ربما تكون هذه مرحلة ما قبل البداية. وتأتي بداية بعدها بسنوات عديدة.

أما عندي فالبداية الحقيقية التي أريد أن أبدأ بها.. لحظة خروجي من السجن، نعم السجن، حاولت طوال الصفحات الماضية أن أخفيها ولكن ليس ثَمَّ مفر، فهذه كانت بدايتي.. حينما أغمضت عيني، محاولًا أن أُخْفي شعاع الشمس القوي الذي نزل على عيني بعد أن فتح صول الترحيلات سيارة نقل المساجين أمام قسم السيدة زينب.

□□□

(٧) منـــــال

قضت منال أربعة أيام لم تغادر فيها فراشها، لا تسمع إلا صوت دعاء أمها عليها لما جلبته عليهم من عار، وهي تعيد وتكرر نفس الكلام كل ليلة باكية على «ميلة» حظها في أبنائها: الكبرى كان مقبوضًا عليها، والصغير «طالع تلفان لمين؟!» لا تعلم!.. لا يهون الحال على منال إلا لحظات قليلة كان يدخل فيها والدها إليها ببعض المأكولات يحاول أن يقربها من فمها ويطعمها.. يمسك يدها في يده تشعر معه بحنان الدنيا كلها.. آخر مرة دخل عليها اقتربتْ منه أكثر، رمت رأسها على صدره وأجهشت بالبكاء.. أحسّت أن دموع الدنيا كلها لم تطفئ نار قلبها، شاركها والدها البكاء، وضع يده على ظهرها يحاول أن يُشعرها بلمسات أبوية حانية لعلها تهدأ، تمنت أن تعود كما كانت طفلة صغيرة بضفائرها المنسدلة على ظهرها تعود إلى بيتها من المدرسة لحظة «العصرية» تحتضن «أجلاسير» عليه صورة «عمرو دياب» يعانق نهديها، تجري إلى والدتها في المطبخ تطمئن على الأكل، تطلب منها أمها أن تبدل ملابسها وتأتي لمساعدتها، تتهرب منها، تجري إلى والدها الذي يكون جالسًا عادةً في

شرفة المنزل يمسك في يده كتابًا، ترتمي في حجره، يضمها إليه و يسألها عن حالها فتقص عليه وابتسامة الرضا بادية على وجهه.

ولكن ما عاد القص يشفي وما عادت الحكايات تريح؛ فالجرح الغائر في القلب أكبر من تدخل أمهر جراحين العالم.. النكبات تتقاذفها الواحدة تلو الأخرى هي التي لم تُرِدْ شيئًا في العالم إلا قلب رجل ترتمي في حضنه وتشعر بالأمان والدفء، هي التي كانت فيضان عطاء لا ينضب وما زال في قلبها الكثير لمن تحب، تستطيع أن تتحدى العالم أجمع من أجل كلمة «بحبك» يقولها مرة بصدق.. وظلت لا تدري أهي حقًّا ظُلمت أم هي من ظَلمت نفسها؟ سلّمت قلبها ونفسها لمن تحب، قدمت كل ما تملك عربون محبة صادقًا أمينًا، تشعر فيه بالحنان والاحتواء ولكن لم تجنِ إلا الجفاء والجحود.. وأخيرًا الموت.

أفاقت على صوت والدها يطلب منها أن تذهب إلى الصيدلية تغير «جو»، لا يهم أن تعمل، المهم أن تتكلم مع أصدقاء العمل.. حاول أن يخفف عنها، كان يشعر أن ما تحمله ابنته أكبر من الكلام.. بات يحاول أن يخفف عنها وهو يروي لها أن أسعد لحظات قضاها في العمل وسط الأصدقاء يتسامرون، كانوا يقضون ساعات طوال بعد ساعات العمل الرسمية يجلسون مع بعض «أصحاب العمل عالم آخر، قادر على أن ينسيك كل آلامك».

تجمعت في ذهنها صورة الصيدلية، د/ أبو الغار ونظرته الماكرة،

أصدقاؤها الذين شهدت معهم أجمل أيام حياتها، حتى المكان - الأرفف المليئة بالأدوية، مخزن «الكراتين الكبير الذي شهد لحظات جنونها مع محمود، آخر مكان جمعهما معًا قبل أن... ؟!

تذكرت فجأةً ما كانوا يستجوبونها من أجله، جاء بخاطرها كطيف خاطف سريع لم تتذكره إلا الآن! تُرى هو حقًا هذا ما جعلها تقضي هذه الأيام قيد الاعتقال؟!.. باتت تتذكر معالم محمود المرتبكة التي كانت تتملكه حينما دخل عليها الصيدلية بملابسه الرثة غير المهندمة، على عكس أناقته التي كانت تتباهى بها، ولحيته الطويلة التي لم يحلقها منذ فترة بعد أن كان يحلقها صباح كل يوم، هو يتلفّت حوله كأنه لص فارّ من قبضة الشرطة. فرحت جرت نحوه، ظنت أن حالته هذه من هجره لها، ظنت أن الشوق قاده إليها راكعًا تحت قدميها، لم تعبأ بنظرة عينه، فلطالما لم تفهمها ولطالما ما رأت الحزن فيها، تقدم منها همس لها بأنه سيسلمها أمانة لا تفتحها إلا بعد وفاته، فضحكت ضحكة عالية.. تذكرت لحظتها مشاهد السينما المصرية وأنور وجدي يسلم مديحة يسري خارطة الكنز، إلا أنه لم يكن في حالة تسمح له بمجادلتها، أخرج من تحت جنبه ظرفًا بنيًا كبيرًا مثل مظروفات المصالح الحكومية وأعطاه لها، وطلب منها أن تحتفظ به في مكان آمن، وألا تُطْلِع أحدًا عليه.

مدت يدها وأمسكت بالظرف، كان من الواضح أنه يحتوي على كتاب، حاولت أن تفتحه فأمسك يدها، ارتعش جسدها من لمسة يده، طالما اشتاقت إلى هذه اللمسة بعد طول غياب، حاولت أن تبرر له موقفها

وتضحيتها من أجل الحب.. حاولت أن توضح له ما يغفو عنه، إلا أنه وضع يده على شفتيها وقال لها:

- أشوف وشك بخير.

لم تشاهده بعدها إلا صورة في صور جريدة الأهرام مقسومة نصفين تحتها كلمة «الإرهابي».

ارْتـدَتْ منال ملابسها على عجل ونزلت من منزلها في نفس الطريق التي اعتادت أن تسير فيه كل يوم.. طريقها إلى محطة مترو الأنفاق، زحمة عربيات المترو، تكدس الناس على الرصيف، تترك نفسها لزحام الناس ليدخولها دفعًا داخل إحدى العربات، لحظات تكون فيها عربات المترو مثل « كوساية محشية بني آدمين»، أسندت رأسها على بوابة العربة الزجاجية تلاحظ مرور ومضات النور المتباعدة في نفق مظلم مثل حياتها التي شحت بها ومضات النور.

تذكرت محمودًا، غيرته عليها، إصراره أن تركب عربة السيدات حتى وإن كان معها، لم يشفع لها تقززها من رائحة عربة السيدات، لم يشفع لها الكلمات النابية التي تتبادلها السيدات، كل هذا عنده أهون من ملامسة رجل لها في عربة الرجال وسط موج من التحرشات الجماعية للنساء في وسائل المواصلات المختلفة.

وصل المترو إلى محطة السيدة زينب، ترجلت منه صاعدة السلم الطويل، السلم الذي طالما صعدته ويدها في يد محمود ووجهه مملوء بالخجل، يضع

يده في يدها وسرعان ما يسحبها؛ يشعر بالخوف وكأن الدنيا كلها تنظر إليهما.. تتعالى ضحكتها وهي ترى نظرة البراءة في عينيه، صورة تراها الآن كأنها تشاهدها في فيلم سينمائي.. سارت في الشارع الضيق الموازي لخط سير المترو إلى أن انعطفت يمينًا لتصل إلى بداية شارع القصر العيني أمام مستشفى القصر العيني الفرنساوي، لتقف أمام الصيدلية التي كانت تعمل بها، صيدلية الدكتور «أبو الغار».

دخلت الصيدلية.. قام كل من كان بالصيدلية للترحيب بها، دكتور مؤمن الذي عاد إلى الصيدلية مرة أخرى، ودكتورة هبة التي باتت تعمل فترة مسائية، ودكتورة إبتسام، حتى عم بسيوني عامل الصيدلية مد يده لأول مرة ليسلم عليها وهي تبتسم له، وكأنها تريد أن تذكره بما كان يقول دائمًا بأن سلام المرأة على الرجل حرام، ويردد حديث رسول الله ﷺ: **«لأن يطعن في رأس أحدكم بمخيط من حديد خير له من أن يمس امرأة لا تحل له»** صدق رسول الله ﷺ.

دكتور أبو الغار بنظارته الطبية الدقيقة التي تعلو وجهه الأبيض شديد النقاء متباهيًا بأصوله اللبنانية وهو يقوم من خلف مكتبه الكبير في صدر الصيدلية ليسلم عليها، لأول مرة في حياته يقوم من خلف المكتب، تبادلت منال كلمات الترحاب من الجميع، كلٌ سأل عن حالها، أقسم لها الجميع أنهم كانوا قادمون لزيارتها ولكن كانوا في انتظار أن تفتح هاتفها المحمول لترد عليهم، اطمأنوا فقط عليها من والدتها التي كلما اتصلوا قالت لهم أنها متعبة ونائمة.. تبادلت

كلمات الود، ثم جلست بجوار هبة، ثم أمسكت بيدها وكأنها تريد الانفراد بها.

كان الجميع يعلم أن هبة هي أقرب أصدقاء منال إلى قلبها، وألد أصدقائها؛ سرها كله معها، إلا أنهما كثيرا الشجار كالأطفال، فلم يتعجب أحد أن تذهب منال مع هبة إلى داخل المخزن، عندما اختلت منال بـهبة داخل المخزن أحست منال أنها أنجزت الخطوة الأولى بسلام، تتبقى الخطوة الثانية، ولكن دون أن تشعر هبة جلست منال شاردة الذهن معها، لم تشعر هبة بشيء إلا بمعاناة منال في الأيام السابقة، مسكت يدها، طلبت منها أن تحكي، سكتت منال.. ما جاءت لكي تحكي.. مرت لحظات من الصمت.. طلبت منال من هبة أن تتركها بمفردها.. حتى لا يغضب أبو الغار من تركها الصيدلية في مثل هذه الفترة، حاولت هبة أن توضح لها أن هذا ليس موضع مثل ذلك الكلام؛ فالوضع ليس وضع زميلتين تختليان ببعضهما في لحظات العمل خِفْيةً، هي صديقة وغابت عنها لفترة، ومن حقها أن تتطمئن عليها، إلا أن منال أصرت أن تخرج هبة فقط لتطمئن على الصيدلية.

وفي لمح البصر، حينما غادرت هبة باب المخزن كانت منال بخفة واقفةً على السلم فاتحة سقف المخزن الساقط المصنوع من الألوميتال والذي اعتدن أن يُخفينَ فيه الهدايا التي كانت تأتي لهن من شركات الأدوية عن أعين الدكتور «أبو الغار» الذي منع الهدايا تمامًا، لتمسك يدها المظروف الكبير - وهي تحمد الله أنه لم تصل إليه يد - لتخفيه في حقيبة يدها الكبيره التي حملتها لهذا الغرض مخصوص.

خرجت منال وهي تحاول أن تتعامل بتلقائية وعلى طبيعتها مع زملائها وتشاركهم مرحهم، وهي تشعر أنها تحمل بين طياتها قنبلة موقوتة كانت كفيلة بأن تقضي على حياتها، لولا أنها لم تتذكر منها شيئًا وقت التحقيق، واكتفت بكلمة (معرفش) التي كانت لها طوق النجاة دون أن تعلم.

لم تكن الحالة التي كانت بها منال حين مغادرة الصيدلية بالتي تسمح لها بالعودة إلى بيتها بوسائل المواصلات المعتادة، في المترو أو سيارات الأجرة أو تتحمل سخافة الشباب الذين يظنون أن كل بنت تجلس بجوارهم في زحمة المواصلات قد عشقتهم ودابت في جمالهم، وهم يطاردونها بنظراتهم محاولين الحصول منها على معلومات شخصية، حبذا لو توِّجت برقم هاتفها المحمول.

استوقفت منال سيارة أجرة خاصة «تاكسي» مرة ثانية خلال أسبوع واحد لأول مرة في حياتها، وهو ربما الحدث الذي تحتاج التوقف عنده كثيرًا، كانت تتمني يكون حظها هذه المرة أحسن من سابقتها مع السائق الثرثار الذي ركبت معه عندما كانت عائدة من وزارة الداخلية.

كان رجلًا «عجوزًا»، يتجاوز السبعين من عمره بشعره الأبيض ولحيته النابتة بشعرات قصيرة، تذكرت فيها لحية والدها وهو يقبلها من خدها ولحيته تشوكها وهي تحاول الفرار منه، كان الرجل أهدأ من السابق، لم يتكلم كثيرًا، ترك أذنه لصوت أم كلثوم الذي ملأ فضاء التاكسي بآهاتها وهي تشدو ..

«أكثر من مرة عاتبتك واديتلك وقت تفكر»

عاشت منال مع الأغنية وسط سير السيارة ببطء في نهار القاهرة الذي يتحول في ساعة الذروة إلى جحيم حقيقي من زحمة المواصلات وضجيج أصحاب السيارات بآلات التنبيه المبالغ فيها، وعشوائية سائقي الميكروباصات وبلطجتهم، ليقطع صوت أم كلثوم موسيقى خفيفة يتبعها صوت المذيع من الراديو.

- الخامسة بتوقيت القاهرة.. إذاعة الشباب والرياضة موعدنا الآن مع نشرة الساعة الخامسة، ونبدأها بالعناوين.

تابعت منال صوت المذيع وهو يذيع عناوين الأخبار إلى أن استوقفها أول خبر بعد العناوين، وهو موافقة أعضاء مجلس الشعب على مد حالة الطوارئ في البلاد لعامين قادمين بعد الخطاب المطول الذي ألقاه الدكتور أحمد نظيف رئيس وزراء مصر أمام مجلس الشعب، في ضوء متابعة سيادته لآخر المستجدات المحلية على إثر العملية الإرهابية التي تعرضت لها كنيسة القديسين بالأسكندرية، والتي تُحتم وجود يد قوية وتجعل من قانون الطوارئ الدرع الحامي لمصر من أصحاب الأجندات الخارجية والعملاء وأصحاب النفوس المريضة الذين يريدون تمزيق وحدة صف الشعب المصري!

ما علينا..

عندما أغلقت عليها باب غرفتها استخرجت الكشكول الذي كان لا

يغادر يد محمود، وكان بالنسبة له سر الأسرار ويرفض أن يقترب منه أحد أو يطَّلع عليه، حتى في أسعد لحظات الحميمية بين محمود ومنال، ولم تستطع أن تثنيه عن تمسكه بسر هذا الكشكول إلا من كلمة واحدة مكتوبة بخط أنثوي جميل في مقدمة الكشكول أخبرها بعد ذلك أنها حبه الأول دكتورة يارا، لتفتح صفحات الكشكول وهي مقبلة على ذلك العالم الخفي من حياة الرجل الذي أحبته، وكانت كل تصرفاته تمثل لغزًا لها، وهي الآن تمسك مفتاح اللغز وقادمة على حل شفرة حياته، والتي كانت بدايتها جملة مكتوبة في أول صفحة من الكشكول.

(كن أنت ما تريد.. بين دفتي هذا الكتاب)

د/ يارا فؤاد

□□□

(٨) محـمـــــــود

ماذا أقدم لكم وكل أيامي

انتظار في انتظـــــار ؟!

ما أصعب الأيام التي تمر على الإنسان في الانتظار، ولكن الأصعب منها أن تتحول حياة الإنسان كلها إلى الانتظار: انتظار النجاح، انتظار الحبيب، انتظار الغائب، انتظار الأمل... إلى أن نصل بعد كل هذه الدروب إلى انتظار الموت.

إن الإنسان الذي يعيش حياته انتظارًا بعد انتظار لا يستطيع أن يستمتع أبدًا بأي لحظة يعيشها.. كل دقيقة تمر في حياته يفكر فيها فيما ينتظره بعدها، يفقد معها القدرة على الاستمتاع باللحظة.. الكلمة التي كانت منال دائمًا ترددها «عيش اللحظة يا محمود»، إلا أني لم أستطع أن أعيشها، كان دائمًا يؤرق مضجعي شيء خفي أجهله، كطفل صغير يخاف أن ينام بعيدًا عن حضن أمه وهو يتخيل حكايات «أبو رجل مسلوخة».. إلى أن يتحول هذا الشعور إلى مرض سيطر على كل جوانبه، فيكبر

الحلم.. ويستمر الانتظار، وتفقد الحياة معناها فلا تسمى حياة بل تسمى انتظارًا.. انتظار الموت الذي إذا طال انتظاره سعيت إليه.

قرأت ذات يوم عندما كنت صغيرًا عن قصة طفل ملَّ كلمة «عندما تكبر»، كلما طلب من أحد أبويه شيئًا يجيبه بكلمة «عندما تكبر»، وفي أثناء لعبه في مخزن «الكراكيب» القديمة «بيدروم» البيت عثر على مصباح علاء الدين الذي أخرج له الجني من المصباح ليحقق كل آماله، والتي كانت تتلخص حينئذٍ في أن يتخلص من كلمة «لما تكبر». أعطى له خادم المصباح خيطًا ملفوفًا على بكرة وأخبره أن هذا خيط العمر، بمقدار ما تسحب يمضي بك العمر، سحب جزءًا من هذه البكرة فمضى العمر به، فرح الولد باستخدام هذا الخيط، وبدأ كلما واجهته مشكلة لا يستطيع أن يحلها أو ينتظر نتائجها يذهب إلى البكرة ويجذب جزءًا من الخيط.. كانت حياته كلها هكذا.. لم يستطع أن يتحمل انتظار نتيجة الثانوية العامة فسحب الخيط حتى دخل الجامعة، لم يستطع أن يتحمل انتظار فترة الخطوبة فسحب الخيط حتى تزوج، لم يتحمل انتظار العمل فسحب الخيط حتى توظف وفي نهاية الرحلة أتاه الطبيب يخبره أنهم بانتظارعملية جراحية له فظهرت ابتسامة الثقة على شفتيه وهو يمسك بالخيط ويجذب آخره ليجد في يده طرفه الآخر ويعلم أنها النهاية.. وصل إلى نهاية الخيط وانقطع عن الحياة.. مات.

لم يمت هذا البطل عن عمر الستين أو السبعين، ولكنه مات في الحقيقة وهو طفل صغير.. لم يستطع أن يستمتع بجمال الطفولة وبراءتها ولا

حلاوة لعب الصبية وشقاوتها.. أحلام المراهقة وآمالها.. رزانة الشيب واتزانه.. وقار الكهولة وحكمتها.

كانت هذه القصة أمامي دائمًا وأنا أنتظر في حياتي.. حقًا وبعد هذا العمر ربما لم أستطع أن أتذوق حلاوة الحياة ولا مرارتها فكنت منتظرًا، لم أستمتع بإجازة آخر العام.. كنت منتظرًا النتيجة، يسيطر عليّ دائمًا إحساس بأني راسب وسأعيد السنة.

لم أستمتع بالإعدادية.. كنت أخشى ألا أدخل الثانوية العامة وألتحق بالكلية.. أي كلية لم تكن تعنيني المهم أن أحقق حلم أبي وأمي أن أدخل الجامعة.. كان حلم الثانوية العامة بالنسبة لي في هذه المرحلة هو النهاية، إن استطعت تحقيقه - كنت أظن وقتها - سأعيش أسعد عيشة وأنعم براحة البال.. وفي الثانوية العامة ومع ضغط الدروس الخصوصية ونفقاتها المتزايدة التي بدأت تثقل كاهل والدي بدأ إحساس القلق يتسرب إليّ مرة أخرى، أحتاج فقط إلى دخول الكلية ليطمئن قلبي وبالي.

كنت أعلم.. كما كان علم والدى ووالدتي أنني لن ألتحق بإحدى كليات القمة بل على العكس.. كانت أحلام أمي أبسط من ذلك، كل ما تمنّته أن ألتحق بكلية أربع سنوات فقط.. لا تريد أن أدخل معهدًا كما كانت تردد كلمتها دائمًا «أي كلية أربع سنين علشان ما تبقاش أقل من صحابك».

كان معي في هذه المرحلة أربعة من أبناء العائلة في الثانوية العامة.. يتنافسون في مضمار التفوق.. الجميع يعلم أنهم سيلتحقون بكليات

الطب أو الهندسة.. حتى وهم في جلساتهم يتحدثون عن تلك الكليات كأنها أمر واقع.. لم أنظر إليهم ولم أهتم بهم.. حتى أمي لم يخاطرها شعور الأم لابن متفوق في الدراسة أو أم الدكتور أو المهندس.. كل ما تمنيتُه من هذه الدنيا «كلية أربع سنين بس».

كان التحاقي بكلية الحقوق بمثابة قفزة كبيرة في حياتي.. في حياة أمي.. في حياة أبي.. حتي في حياة أختي، كنت أشعر بالسعادة في عينيها وأنا ذاهب إلى الجامعة.. كنت أرى في عينيها فرحة بحلم تحقق فيّ كانت تحلم به لنفسها.

وفي الجامعة لم يتغير الوضع كثيرًا.. استمرت رحلة الانتظار.. لم أعش الحياة الجامعية التي كنت أسمع عنها.. لم تكن لي «شلة» أصحاب نجلس معًا في الكافتيريا بعد المحاضرات، لم أتعرف على بنت وتأتي لي تعترف بحبها، لم أجلس على رصيف الجامعة بعد انتهاء اليوم الدراسي. كرهت الجامعة، لم أعد أذهب إليها كثيرًا.. شعرت بالإحباط ممن حولي.. فشلت في تكوين صداقات.. مع صبيان أو بنات.. كنت أشعر بأن حاجزًا أسمنتيًا سميكًا بيني وبين الناس.. في حياتي العادية ثرثار.. كثير الكلام.. الأفكار تتداعى في رأسي تداعي الخرفان في القطيع عائدة نهاية المساء من مرعاها.. وعندما أجالس أحدًا أتلعثم.. أتهته.. أجد نظرة سخرية من طريقتي في الكلام فلم أشأ أن أختلط بهذا المجتمع أكثر من ذلك.. فهربت منه، وانعزلت في بيتي.

لم يكن وضعي المادي أو الاجتماعي هو العائق أمام اندماجي في الحياة الجامعية؛ ملابس متوسطة ليست بالغالية ولا بالرخيصة التي تثير الشفقة، حياتي الاجتماعية متوسطة كغالبية الشعب المصري.. وغالبية أبناء هذه الطبقة من مرتادي الجامعات الحكومية بعد أن أصبحت الجامعات الخاصة ناديًا خاصًا لأبناء أصحاب الثروات العائدين من بلاد البترول. فالجامعة كانت بمثابة مجتمع مصري صغير، سنجد فيه الغني والفقير، التافه والمثقف، المتدين والفاجر، الصالح والطالح.. تستطيع بسهولة أن تندمج مع من تحب أو تنجذب إلى طبقتك كانجذاب الحديد إلى المغناطيس بعملية لاإرادية أو تنفر منه نفور القطبين المتشابهين من المغناطيس.

إذًا.. فالمشكلة ليست حياة بذخ أو طرف، حياة لهو أو لعب، لم أكن الفقير الذي يعاني حياة الفقر والضياع، ولا المثقف المترفع عن ملذات الحياة الحسية ويعيش في برج عاجي بعيدًا عن سطحية أبناء الطبقات البرجوازية الطفيلية، ولكن كانت المشكلة في المجتمع، المجتمع كأسرة تستطيع أن تحتويني فما زلت كائنًا صعب الاحتواء والسيطرة عليه.

ربما تحضرني الآن قصة في سياق هذا الكلام.. في الأعياد كعادة المجتمع المصري يجتمع الأهل في بيت العائلة، وكنت في صغري أذهب مع أسرتي إلى بيت العائلة المزدحم بكل أفراد العائلة الكبيرة وأولادهم، وسط صخب لعب الأولاد وصداع عبثهم بملابس العيد الجديدة والألعاب التي يلهون بها.

ليست المشكلة ما كنت أشعر به من غربة عنهم، فهذا شعور قد ألفته منذ زمن، ومع مرور الوقت أصبحت أتعايش معه بل أستمتع به أحيانًا، ولكن ومع كل مظاهر الاحتفال هذه كنت أشعر بأني محل سخرية منهم جميعًا.. عندما يدخل أبي وأمي وأختي أكون أنا في آخر الصف، يتقدم الجميع يتناوبون السلام مع الحاضرين، أما أنا فكنت أذهب إلى أقرب مكان خالٍ وأجلس فيه دون أن أنطق ببنت شفة، وكنت أشعر وسط محاكاتهم ولعبهم ومرحهم بمظاهر العيد بأني كالعريان الذي يشاهده الجميع.. حتى من حاول منهم أن يجتذب مني طرف الحديث لا يستطيع أن يكمله.. كانت إجابتي دائمًا مختصرة مقتضبة إلى جانب ما كان يعتريني - من قلة ثقة بالنفس - بأن ما أقوله سيكون محط سخرية الجميع عندما أغادر المكان.. كنت على يقين أن الجميع يكرهني، أو على أقل تقدير «يسترخمني»، فأنا الولد الرخم الذي لا يتكلم، لا يضحك.. أبناء عمومتي في مثل سني عند قدومهم يملأون الجو مرحًا، كانوا غرباء مثلي عن المكان، بل غرباء عن البلاد فكانوا يعيشون مع عمي في العراق ولا يأتون لمصر إلا في الأعياد فقط، كنت أراهم عندما يحضرون يملأون الجو مرحًا ولهوًا، يتهافت الكبار قبل الصغار على التحدث معهم والسماع إلى حكايات العراق والحياة هناك.

ولكن الغريب في الأمر، بل المضحك أن نظرة الكره والاسترخام التي كنت أشاهدها في عيون أهلي كانت في الحقيقة نظرة تقدير واحترام.. علمت بعد ذلك أني كنت مضرب المثل في الأدب والاحترام، كنت عندما

أفادر المكان لا يسخرون من حديثي، بل على العكس يثنون على رجاحة عقلي السابقة لسنّي، بل أحيانًا ينتقدون أبناء عمي الذين يتجاوزون عليهم بالكلام وبالهزار الذي لا يتناسب مع سنهم.. علمت الحقيقة، فأسعدتني ولكن بعد أن أشقتني كثيرًا، فلم تعد هذه الحقيقة بمثابة الحلم الذي أنتظره، بعد أن دخلتْ في دائرة اهتماماتي ناس أخرى، كنت أتمنى أن أنال اهتمامهم وحبهم، ولكن هل يا تُرَى نفس هذه النظرة تُنظَر إليّ الآن؟! نظرة لا أستطيع أن أفسرها أو يفسرها بداخلي الإنسان المهزوم ضعيف الثقة في نفسه وشخصه!!

كان الحال في السنوات التي قضيتها في السجن على هذه الحال، انتظار في انتظار.. انتظرت كل شيء في حياتي ولم يأتِ؛ انتظرت المال ولم يأتِ.. انتظرت المركز الاجتماعي ولم يأتِ.. انتظرت الحب ولم يأتِ.. وهأنا الآن ملقًى على الأرض بالسجن ثم بالمستشفى النفسي بعد أن استطعت أن أقنع أطباء السجن بأني أمُرّ بأزمة نفسية تصل إلى حد الجنون ليخرجوني من السجن إلى مصحة للعلاج النفسي تحت حراسة مشددة.

ذاكرتي تخونني.. تهرب مني الكلمات.. لا أستطيع أن أصف هذه الفترة ولا أتذكر ما حدث لي بها.. ولكني، وهذا كان مدخل كلامي - يبدو أني قد أطلت في مقدمته - قضيت خمس سنوات من عمري في انتظار لحظة الخروج.. انتظار في انتظار.

أغمضت عيني، كانت أشعة الشمس الساطعة تخترق حاجز الليل الطويل

الذي عشت فيه.. خرجت من سيارة الترحيلات مرفوع الرأس لا أعرف لماذا.. كنت أتذكر مشهدًا لممثل هندي في فيلم شهير اسمه «مـــارد» وهو يخرج مرفوع الرأس من السجن وهتافات المساجين حوله ترفع قامته إلى عنان السماء؛ فشعور البطل دائمًا يحلو لي.

□□□

(٩) القــــاهــــــرة

قبل ثلاث سنوات..

كانت الجريمة أمامه مكتملة الأركان، ظن للوهلة الأولى أنه لن يبذل الجهد فيها، حينما أفاق صباحًا على مكالمة هاتفية من مأمور قسم السيدة زينب يخبره فيها عن وقوع جريمة قتل.. وقبل أن يتملك القلق من وكيل النيابة الشاب هدّأ مأمور القسم من روعه وهو يخبره أنها ستكون أسهل قضية يحقّق فيها؛ فهي جريمة متكاملة عناصرها مِن الجاني والمجني عليه وأداة الجريمة، حتى سبب الجريمة بات للوهلة الأولى منطقيًّا، فكم قصة حب فاشلة ذاق فيها العشاق مرارة تجرع كأس الفراق، حمد الله على ما هو فيه، أول قصة حب نشأت في حياته لم تنتهِ بالزواج. أغفل تلك الأفكار من رأسه وأبدل ملابسه متوجهًا مباشرّة إلى مقر النيابة.

قدمَ وكيل النيابة إلى مبنى نيابة جنوب القاهرة في باب الخلق، هذا المبنى الأثري القديم بواجهته الكلاسيكية الصفراء التي تعود إلى عشرينيات القرن الماضي، وقد خلي من مكاتب جميع المسئولين إلا من بعض مكاتب

كبار المستشارين الذين يعملون مساعدين لوزير العدل شخصيًا ومنتدبين للعمل فيه لبعض الوظائف الإدارية، أمام المصعد المخصص للسادة المستشارين وأعضاء النيابة - كما كان مكتوبًا بخط يد رديء على لوحة كارتونية بالية - وقف لبضع لحظات يتأمل طابور المصعد المجاور الذي يمتد لما هو خارج بوابة المجمع بأمتار بعيدة، يصطف فيه بشر من مختلف الأنواع؛ محامون ببدلاتهم السوداء تغطيها أرواب المحاماة، النساء ذوات الكعوب العالية و»الجونيلات» التي تصل لأسفل الركبتين يغطي أكتافهن العارية شال حريري تعدله الواحدة منهن بين الحين والآخر لتغطي ما جادت به نسمات الهواء من ذراعيها، أرامل - هؤلاء اللاتي يحملن أولادهن على أكتافهن وبعضهن متوشحات بسواد الأيام قبل سواد ملابسهم طامعات في إنهاء إجراءات إعلان الوراثة، وصرف المعاش قبل أن يطردهم صاحب البيت من مأواهم الأخير في الدنيا، بحسب بعض الحديث الذي استرقه من المرأة التي كانت بجواره مباشرة.

خرج وكيل النيابة الشاب من المصعد ليشاهد صورة مكتملة الألوان أمامه كما رسمها، من عروسة بفستانها الأبيض الملطخ ببقع الدماء الحمراء من على الصدر ونقط الدماء متناثرة أسفل الفستان، تجلس على الأرض واضعه رأسها بين كفيها متقوقعة في نفسها، تنهمر من عينيها الدموع التي نزلت على خديها كالمطر الأسود، بينما وقف بجوارها شخص طويل القامة.. شديد سمار الوجه.. تلمح في ملامحه بعض الغلظة

والجفاء، فيما يبدو للوهلة الأولى والدها ببدلته السوداء وقميصه الأبيض الخارج بصورة غير مهندمة من « كمر » البنطلون، ورابطة عنقه الحمراء المفتوحة بعض الشيء عند الرقبة، وأمها على الكرسي تجلس بفستانها - أو عباءتها السوداء إذا صح التعبير - الذي يملأها الخرز و«الترتر» الذهبي، ويبدو في أعينهم الفزع وعدم التصديق لما حدث، بينما الجانب الآخر الطرف إلى شاب يجلس على الأرض في حوالي الربع الأول من عشرينيات عمره بملابسه الجينزية التي تلطخها الدماء، يجلس على كرسي بجواره عسكري في يده الكلابشات وهو يغالب النوم، ليتأمل وكيل النيابة هذا المشهد بنظرة واحدة استغرقت منه أقل من ثانية، بينما يفتح له العسكري الآخر الذي كان يجلس عن يمين باب المكتب مكتبه ويغلق خلفه.

خلع أشرف سترة البدلة عنه وعلقها على شماعة بجوار مكتبه، ثم جلس على الكرسي الخشبي الكبير، وهو يفتح أساور القميص يرفعه بضع طيات إلى الأعلى، وهو يمسك بملف القضية أمامه ليقرأه، على عجل أنهى قراءة الملف الذي لم يكن به إلا بضع وريقات لينظر إلى أمين الشرطة بجواره سأله:

- تقرير الطب الشرعي وصل؟

- في الطريق سعادتك.

- منه عايز أعرف أوجّه تهمة القتل ولا الشروع في قتل، المجني عليه مات ولا لسه؟

وفي هذه الأثناء تقدم العسكري الذي كان يقف على الباب ليعطي وكيل النيابة ملفًا وهو يقول له بلهجته الصعيدية التي يكرهها وكيل النيابة:

- تقرير الطب الشرعى يا باشا.

مد يده أشرف فأخذه وقد ظهرت عليه علامات الضيق، وبات يقرأ بضع صفحات بها من الديباجة المحفوظة التي مل من كثرة قراءتها، وهو يبحث بعينيه عن كلمة أرادها قبل أن يغلق الملف وهو يخاطب نفسه:

- شروع في قتل.

أخرج علبة السجائر «المارلبورو» من جيبه وأشعل منها سيجارة، ثم ألقى الولاعة والعلبة في درج المكتب وهو ينفث نفسًا وينادي بصوت مسموع:

- دخَّل يا بني الجاني.

ثم نظر إلى أمين الشرطة الذي أمسك بيده القلم استعدادًا لكتابة الاستجواب وهو يقول له:

- خلينا نخلَّص القضية دي بسرعة، هي كلمتين ونحولها للمحكمة.

جلس وكيل النيابة يستمع إلى أقوال القاتل الذي بدا متوتر الأعصاب على غير المعتاد من الجناة الذين يقعدون هادئي الأعصاب أثناء الاعتراف، ليقص على وكيل النيابة كل تفاصيل ليلة الحادث بالتفصيل وعلاقته مع العروس، وما فعله من أجل الدفاع عن شرفها ليتبادر إلى ذهنه سؤال تحوَّل إلى صيغة تعجب قبل أن تكون علامة استفهام:

- لما انت عملت كده علشان تحافظ على سمعتها... ليه دلوقتي اعترفت عليها؟!

ظهرت علامات الغضب والتوتر أكثر على وجه الجاني وبات جبينه ينزف عرقًا، حاول الهروب من الإجابة بكلمات بدت عشوائية تفتقد إلى التنسيق المسبق في الأقوال الأولى؛ مما أوحى لوكيل النيابة بأنه كان يحفظ ما سبق، وأنه قد فاجأه بسؤاله الذي لم يقتنع بأي إجابة حاول الجاني أن يسوقها.

أشار وكيل النيابة إلى العسكري بأن يأخذ الجاني وأن يحضر العروس، دخلت العروس بجوار والدها الذي أمسكها من يدها، وسار معهما لبضع خطوات حتى أجلسها على الكرسي المقابل للمكتب وجلس هو على الكرسي المقابل، وهو يخرج محفظته ويخرج منها كارنيه مادّه إلى وكيل النيابة يقول له:

- مجدي صبحي المحامي، أبو العروسة، رقم نقابة (٥٧٤٢٣١) لو سمحت أحضر التحقيق بالصفة التي تقبلها: محامٍ أو أب.

مد وكيل النيابة يده وأمسك بالكارنيه يقلبه على وجهه وهو ينظر له، ثم يبدأ في استجواب العروس:

- تعرفي الجاني من امتى؟

- أول مرة أشوفه امبارح ساعة الحادثة.

كانت هذه الكلمة الأخيرة كافية لكي تشعل غضب أشرف بك الذي حافظ على اتزانه وهدوئه خلال أكثر من خمسين استجوابًا، كان هدوؤه بمثابة السلاح الذي يضغط به على الجناة الذين يقفون أمامه يُقرّون بكل ما يعرفون، ليجد نفسه أمام هذه الكلمة الذي صرخ فيها بعدها قائلًا:

- ح نستهبل.

عاد الهدوء مرة أخرى إلى وكيل النيابة، وكانت الدموع تنهمر من عين العروسة وهو يشعل سيجارته الأخيرة في هذه العلبة، ويطويها بقبضة يده ويقذفها في سلة القمامة بينما يستجمع بعض شتات أمره، وقد باتت إجابات العروس منطقية في ظل وجود والدها؛ فلا يعقل أنها تصرح في وجوده بعلاقة حب مع شاب سلمت له نفسها وأفقدها عذريتها.

أخذ وكيل النيابة نفسًا عميقًا ثم وجّه حديثه إلى والدها وطلب مغادرته الحجرة، ظهرت علامات الغضب على وجه والدها، وبات يذكّره بقانون الإجراءات الجنائية الذي يسمح للمحامي بحضور الاستجواب مع المتهم، إلا أن وكيل النيابة أصر على مغادرة والدها الحجرة وهو يتوجه إليه بحديث لا يخلو من الود:

- حضرتك طلبت تحضر التحقيق معاها بأي صفة أب أو محام صح؟

- تمام.

- وأنا بطلب منك تسيبنا لوحدنا شوية بأي صفة برضه كوكيل نيابة أو ابن لك وأخ ليها خايف على مصلحتها.

اضطر في النهاية للمثول لأمره وسط نظرة استعطاف من الابنة إلى والدها ألا يتركها بمفردها.

اقترب وكيل النيابة من العروسة وجلس في الكرسي المقابل لها في مكان والدها، كان يحاول أن يدخل الطمأنينة إلى قلبها، بينما لم تفارق الدموع عينيها، ونزل بعض المخاط من أنفها، فمد إليها يده بمنديل لتمسح ما شعرت به من سيلان بعيونها وأنفها ويقول لها بصوت يملأه الحنان:

- هو قال كل حاجة.. صدقيني أنا عايز أساعدك.. لو عليّ أنا ممكن أشيل أقواله دي من المحضر.. بس المشكلة إنه هيكررها في المحكمة وإن المحامي هياخدها ذريعة في تخفيف الحكم عليه، وممكن يعتبرونكِ شريكة معه في الجريمة.. حاولي بقى تتكلمي معاه وتخليه يغير أقواله أو على الأقل يشيل الجزء ده منها.

جلست العروس وهي لا تعي كلمة من كلمات وكيل النيابة التي بات في عينيها مثل شيطان يحاول أن يلقنها كلمات الموت الأخيرة ليضمن رفيقًا له في جهنم، وهي تحلف بيمين الله بأنها لا تعرفه من قبل.

ارتفع صوت وكيل النيابة مرة أخرى وهو يقول لها:

- يعني انت ماكنتيش بتحبيه؟

- لا.

- يعنى ماحصلش بينكوا أي علاقة؟

- لا.

- يعني انت بنت ولا مش بنت؟

كانت الكلمة الأخيرة كافية بأن تجعل بحارًا من الدموع تنهمر من عيونها وهي تطلب منه بأعلى صوتها أن يدخل أباها، فأشار أشرف إلى العسكري أن يسمح لوالدها بالدخول، والذي لم ينتظر سماع باقي الإذن، ودخل الحجرة مسرعًا يحتضن ابنته متسائلًا عما حدث، وهي تحاول أن تهدئ من سرعة أنفسها المتلاحقة الممتزجة بتنهيدات البكاء، وباتت لا تقوى على الكلام، فلم يجد وكيل النيابة أمامه بدًا من المواجهة، فأمسك بالأوراق على مكتبه وقذفها على المائدة المقابلة للكرسي الذي كان يجلس عليه والدها وهو يقول له:

- الجاني بيتهم بنتك بالتحريض على القتل، علشان يستر عليها بعد ما عملت معاه علاقة.

بدأت العروس بالصراخ في وجهه، وهي ترتمي في حضن أبيها الذي بات لا يقوي على الكلام.

- كذاب يا بابا.. والله معرفوش ولا شوفته قبل كده.

وهجم عليهما وكيل النيابة بجموع من الأسئلة السريعة يحاول أن يسرق منها إجابة تكون مفتاحًا في التحقيق:

- يعني ما كنتيش بتحبيه؟

- لا.

- أومال قال كده ليه؟

- معرفش.. معرفش.. معرفش.

رددتها ثلاثًا، وهي ترتمي في حضن والدها الذي بدأ يتدخل في الموضوع ويقول له:

- هو أي حد يرمي الاتهامات كده على الناس بالباطل دون دليل وتصدقوا؟!

عاد وكيل النيابة إلى كرسيّه، وبدا على ملامحه الهدوء وابتسامة رضًا عن سير التحقيق بعض الشيء حتى الآن، وهو يوجه خطابه إلى والدها:

- صح.. إنت بتتكلم صح.. نحقق.

ثم التفت إلى كاتب المحضر بجواره وهو يمليه ما نصه:

- أمرنا نحن أشرف مهران وكيل نيابة جنوب القاهرة بحبس المتهمة خمسة عشر يومًا على ذمة التحقيق، مع عرضها على الطب الشرعي للتأكد من عذريتها.

□□□

(١٠) محمـــــود

أغمضت عيني، وكأنني أريد أن أمحو من ذاكرتي كل ما مضى في هذه السنوات الخمس.. أريد أن أمحو من ذاكرتي بكاء أبي على حالي في زيارته الأولى لي.. أبي هذا الرجل الطيب.. نموذج للموظف المطحون.. الذي كان يعمل بمصلحة البريد ببدلته البنية النصف كم وبنطلونه القصير- لا أعلم على نهج السنة أو لأنه قصر عليه - حذاؤه النظيف دائمًا والذي كان يهتم به اهتمامًا خاصًا، أتذكره الآن جيدًا.. أتذكره يوم العيد بجلبابه الأبيض الناصع، وطاقيته المزينة بالقصب الذهبي ونظارته الطبية الكبيرة التي تملأ نصف وجهه، المصحف ممسوك بيده اليمنى ويده اليسرى تمسك بكفي الصغير يتجه إلى مسجد السيدة زينب ليصلي صلاة العيد خلف الشيخ إبراهيم جلهوم.

كم كنت أشعر بالحزن والعار في هذه اللحظة التي أرى فيها رجلًا اقترب من الستين وهو يجلس أمامي يبكي وأنا ببدلة السجن.. رجل يشرف على أن ينهي حياته، كان كل أمله في هذه الدنيا أن أكون بجواره في لحظة موته، وفي لحظة طيش مني أضعت كل شيء.

في البداية لم أكن استوعب بكاء أبي.. كانت الدموع تنهمر من عينيه، لم أُقدّر الموقف حق تقديره.. كنت أظنها دموعًا على مستقبلي الذي ضاع أو فضيحته في المنطقة.. كنت أحسبها دموع أب لمصائب ابنه، لكنها لم تكن كذلك.

كانت دموعًا على والدتي الشابة.. التي لم تتحمل خبر الحكم علي وماتت في مستشفى التأمين الصحي بالمقطم.. علمت الخبر منه، فهمت سبب بكائه «لم يكن يبكي على حالي»، بل كان يبكي على ما سببته لهم من ضياع.. وكأن جبل المقطم نزل على صدرى.. بدأت أشعر بالضيق، لم تعد رئتاي قادرتين على التنفس، تركته يهذى ببعض الكلمات، أظنها عن وصايا أمي الأخيرة له قبل الموت، تركته وذهبت عائدًا على زنزانتي قبل أن أصاب بحالة الاكتئاب وأودع بمستشفى الأمراض النفسية بالعباسية.. عدت مرة أخرى لا أشعر بالدنيا وكأني لم أعش بها؛ تمضي علي الأيام لا أحسبها ولا أتذكرها، أقضي يومي كله نائمًا في سريري.. جاءت دكتورة جديدة اسمها يارا فؤاد، بنت مشرقة، وجهها جميل، ابتسامتها لا تفارق ثغرها تظهر معها «نغزتان» رقيقتان على الخدين تزيدها جمالًا وإشراقًا.. نظارتها الطبية الشفافة ذات الذراع الذهبي تغلف كل هذا الجمال بوقار، شعرها الذهبي اللامع يسرق النور من أشعة الشمس.. اقتربت مني.. لا أقصد في المجلس، ولكن في الحياة.. كانت هي سلوى قلبي الوحيدة، الآن أقولها.

«لم أشعر أنني إنسان إلا أثناء وجودي بجوار يارا، لم أشعر بقيمتي في الحياة إلا في حديثها عني».

كانت عندما تتكلم كآلة موسيقية جميلة تعزف أعذب الألحان، كانت بالنسبة لي كطوق النجاة الذي ألقي في اللحظة الأخيرة إلى غريق استمر يصارع الغرق لساعات طويلة، وتعبت يداه وقدماه من مقاومة الماء وكاد يستسلم للموت، فكانت هي هذه الحالة الجميلة التي أعادتني إلى الحياة مرة أخرى، خصوصًا بعد زيارة أختي لي، زيارتها الأولى والأخيرة.

□□□

لم تكن علاقتي بأختي علاقة قوية، كانت مجرد علاقة أخ بأخته، وأظنها نفسها لم تعبأ بي كثيرًا في حياتها، كانت بنت بسيطة، أحلامها صغيرة، إذا كان لها أحلام من الأساس، مثلها مثل بنات جيلها!! لا، ليس بنات جيلها طبعًا بنات هذا الجيل لا يمكن أن يُعَبّرْنَ عن أختي بشيء، كانت فتاة مسكينة هادئة، لا تخرج من البيت إطلاقًا إلا بصحبة أبي وأمي، لا تعرف نهاية الشارع يؤدي إلى أين، كان أبي وهي صغيرة يقص عليها قصص الأطفال الذين يُختَطَفون عند ناصية الشارع.. لم تنل حظها الكامل من التعليم، فلم تدخل الجامعة، لم ترتدِ البنطلون الجينز و«البدي الكارينا»، لم يكن لها صديق يمطر عليها كلمات الحب يشبع في نفسه عاطفة يعلم أنها وهمية، لم تركب الميكروباص وتحاول أن تلافى محاولات التحرش، كانت بعقلية بنت تعيش في بدايات القرن الـ (٢١) بعقلية البنت في القرن الـ(١٨) وتربيتها.

جاءت أختي إلى زيارتي.. لا أستطيع الآن أن أحدد الشعور الذي انتابني

عندما علمت بزيارتها، ولكن في هذه الفترة كانت حالة اللامبالاة والبلادة تسيطر علي، وفقدت الإحساس بطعم كل شيء.. عندما دخلت عليّ أختي ووجدتها متسودة بملابسها من رأسها حتى أخمص قدميها، وعيناها ظاهر عليهما التعب من كثرة البكاء وقلة النوم، ترمي علي كلمتين:

- بابا مات الأسبوع اللي فات.

سامحك الله يا أختي العزيزة.. حتى هذه اللحظة لم تتركيها لي كي أعيشها، لم تتركيني أحزن على أبي الذي لحق بأمي حزنًا علي لتخبرني بما قرّرته أو بما أُملي عليها، وكانت الجملة التالية:

- «أهل الحتة لموا ودفنوه.. وعملوا الصوان والجنازة».

كان الشعور بالحزن والعار هو الشعور الذي انتابني وأنا في هذه اللحظة.. أمي ماتت حزنًا علي، أبي مات وأنا أقف مشلول الأيدي بعيدًا عنه، لا أستطيع أن أغسّله.. أستر عورته والمغسل يخلع عنه ملابسه، أنزله مثواه الأخير في القبر، أقف بعد رحيل الناس أبكي على قبره ومعي مصحف أتلو ما يتيسر من الذكر، أقف في الصوان في نهاية المساء أستقبل المعزين.. أليس لهذا أتى بي للوجود؟! أهذه كانت أحلامه لحظة ما التقطني لحمة حمراء تخرج من رحم أمي؟! أكان يمكن أن يتصور أني سأكون سبب هذا الشقاء؟! إذا سأله أحد عن العيال وخلفتها كان يرد:

- أهي العصايا اللي هتسند عليها في كبرنا.

فكانت العصايا التي نزلت عليهم صفعًا وضربًا.. بلا رحمة.. حتى لم يُصنع منها خشبة تواري جسمانه في مثواه الأخير.

- أهل الحتة قالواماينفعش أعيش لوحدي.. هيجوزوني.. اجتمعوا في الجامع بعد الصلاة واتفقوا إني أتجوز الشيخ عبد القوي.. مش عارْفَة تعرفه ولا لأ، هو راجل كبير في السن.. متجوز اتنين قبلي وعنده عيال كثير.. ويمكن كمان يتجوز الرابعة عليَّ.. أهو أحسن من الفضيحة زي ما ستي أم سعاد قالت لي امبارح.. أعدت معاه امبارح عندها.. شكله والله راجل طيب.. أعد يكلمني بالدين كثير وقال الله وقال الرسول، وقال لي إنه من مش هيظلمني.. هروح معاه البيت يوم الخميس بعد ما نكتب الكتاب في السيدة نفيسة: فُتَّكْ بالعافية بقى.

□□□

تبًا لها من حياة.. تمر أمامي كمُشاهِد في مسرح.. يجلس في مكانه على كرسيه في الصف الأول.. والممثلون حوله يمينًا ويسارًا يتحركون، يبكون ويضحكون، يتهافتون ويصرخون وهو ساكن مكانه.

هل يمكن أن يشعر أحد بما شعرت به بعد هذه المقابلة؟! لقاء فاتر مع أخت أظن أن كل ما كان يربطني بها اسم الأب اللاصق لاسمينا في شهادة الميلاد.. خبر وفاة والدي، وجمع التبرعات لدفنته، خبر زواجها سارًا لعرضها.

هل ارتكبت أختي في غيبتي ما تستحق عليه الستر؟ وهل كنت حاضرًا

يومًا كي أغيب؟! هل تصرف أهل المنطقة في هذا الشأن تجاوزًا في حقها وحقي وحق أبي الذي عاش بينهم طول حياته أم يتركونها فريسة لشاب يحب أن يلهو ويلعب؟! فريسة لمتطلبات الحياة وحدها، ليس معها شهادة تعمل بها وغير قادرة على كسب لقمة العيش، هل كانت ستعيش تتسكع لقمتها من إحسان الأهل والجيران؟!

كيف ستكون حياتها مع الشيخ عبد القوي؟!

□□□

(١١) يارا فؤاد

الحالة النفسية السيئة التي تمر بها يارا لم تسمح لها بمغادرة منزلها لمدة يومين بعد سهرة رأس السنة، والتي انتهت بمأساة إرهابية أفجعت كل من كان في قلبه ذرة إنسانية واحدة.

حاولت يارا أن تستجمع كل ما قرأت ودرست حول سيكولوجية الإرهابي وهو يقرر أن يقوم بعملية انتحارية، ما الأفكار التي راودته في اللحظة التي ارتدى فيها قميصًا مفخخًا؟ ما الوجوه التي ينظر إليها وهو يسير في الشارع؟ لم تستعطفه نظرة رجل كبير مسن يسير في الشارع منحني الرأس من كثرة الهم وهو يتكئ على عصا قديمة قدم أيامه في هذه الحياه؟! ألم يحب ضحكة بنت بريئة تلعب مع عروستها في شرفة منزلها في انتظار عودة أمها من العمل، لتمتد إليها يد الغدر بدل من يد الأم بالحنان؟! ما هي الدوافع التي تجعل الإنسان يتخلى عن كل مشاعر الإنسانية بداخله ليتحول إلى قنبلة موقوتة يمزق بها أناسًا أبرياء؟!

بتثاقل حاولت يارا الوقوف على سرير غرفة نومها الكبيرة، مدت قدميها

ووضعتهما في جورب من الفراء الإنجليزي أهداه إياه زوجها من سفره الأخير، لم تهتم بلبس روب على قميص النوم لعلمها بمغادرة زوجها المنزل وأنها بمفردها في البيت، اقتربت من مرآة الدولاب الكبير تنظر في ملامح وجهها الذي بانت عليه علامات الإجهاد، رفعت خصلات شعرها القصيرة حول أذنيها وهي تحاول النظر فيما تحت عينيها وتشد بطرف أصابعها لترى الهالات السوداء تطفح في وجهها، والتي باتت ظاهرة للجميع، ولم تجدِ محاولات الإفراط من كريم الأساس ومساحيق التجميل في التخفيف منها.

جلست يارا على مائدة الطعام الطويلة الممتدة أمامها مد البصر مزينة بطقم السفرة «السِّنْييهْ» الذي لا يفارق مكانه، وأمامها بضع قطع من الجبن منزوع الدسم وقطعة واحدة من الخبز «التوست»، وكوب عصير البرتقال الذي تواظب على شربه على الريق ليكمل الرجيم التي اتبعته منذ عدة أشهر؛ لتحافظ على قوامها الذي بات مترهلًا بعض الشيء بعد زواجها.

سافرت يارا بأفكارها إلى الكويت، بعد أن رأت تغير محل الإقامة على «الفيس بوك» إلى الكويت، أما هي فوضعت صورة زفافها كصورة «للبروفايل» الخاص بها على «الفيس بوك» لتُعلم من يراقبها عن بُعد - كما هي تراقبه - أنها تزوجت، كانت تحس بأنفاسه وهو يكتب اسمها بحروفه الإنجليزية على خانة البحث في الموقع الشهير ليتحسس أي أخبار عنها، بعد أن طلبت منه الابتعاد عنها تمامًا وتركته يعيش في حياته ضني بأحزانه، بعد أن باتت في مكالمات الهاتف بينهما تجذب إليه

وجع الضمير وشعوره بالخيانة.. حاولت كثيرًا معه أن تثنيه عن قراراته المتسرعة التي يأخذها بمفرده، ما أن يتحدث معها لدقائق، يتناول معها كلمات العشق والغرام حتى يُفتَح موضوع من اللاموضوع... يبدأ بنقاش وينتهي بطلب منه أن يقطع علاقته بها، لا يستطيع أن يتحمل حياتها، تغضب فتغلق الخط في وجهه وهي على يقين أنه سيتصل بها بعد يوم أو يومين، وصوته عليه نبرة الألم على الفراق والتوسل بالوصال. تعاود معه الحياة مرة أخرى، يدخل حياتها فيحولها إلى بهجة، تتحمل طلباته وغيرته، يشعر معها أنها كل اهتماماته.. تضجَرُ من ضعفه أحيانًا، ولكنه يعود إليها كطفل عائد من المدرسة إلى حضن أمه يشكي لها ضرب المدرسة العنيف معه، وهي تعلم ما فيها ونهايتها!.

أطول مدة غياب عنها كانت ستة أشهر، شعرت خلالها أنه نسيها، لتستيقظ في يوم لتجد طلب صداقة على فيس بوك باسمه، لم تراودها الشكوك في أنه هو من صورته، لتضيفه مرة أخرى إلى حياتها قبل أن تضيفه على الموقع الإلكتروني ليبدأ فاصل الحب ومعه فاصل الخناقة، يحاول أن يثنيها عن بعض مظاهر حياتها المتحررة، فيصطدم بكبرياء ورغبة في الطير الطليق بلا قيود... هذه المرة أخبرته أنها سوف يتقدم عريس لخطبتها، ووصفت له العريس، كم تمنّت أن يقول لها إنه سوف يأتي إليها يخطبها من والدها، كانت على استعداد أن تنتظره كما شاء حتى يجهز نفسه، ولكنه كان أضعف من هذا، هرب كعادته من مواجهتها قائلًا لها كلمة «مبروك» وأغلق خط الهاتف، تمنّت أن يقول لها «انتظريني»، كانت

ستنهي مهزلة العريس هذا، وتخرج من دور العروسة في مسرحية باتت فصولها معروفة، تبتدئ بزواج وفق الأعراف الاجتماعية وتنتهي بطلاق تنتظره بفارغ الصبر حتى يعود إلى حياتها الهدوء والسكينة، لتذهب لتعيش بمفردها في غرفة خصصتها لنفسها في عيادتها بوادي النيل بعد أن نقلت إليها كل كتبها وأبحاثها، وجهزتها بكل ما تحتاج الغرفة التي تحصل فيها على حريتها كاملة.

مدت يارا يدها تلتقط من أكوام الجرائد الموضوعة على مائدة السفرة والتي توضع كل يوم وتُرفع دون يلمسها أحد، بعد أن باتت تفضل معرفة الأخبار والمعلومات عبر الطرق الإلكترونية، نظرت إلى الصورة التي تتصدر جريدة الأهرام وهي مسمرة العين وقد بدت دقات قلبها متسارعة من هول المفاجأة، ولم تكن مصدقة أن صورة محمود متصدرة الصفحة مكتوب تحتها بخط واضح «الإرهابي».

بيد مرتعشة وأعصاب مهزوزة بدأت يارا تقلب صفحات الجريدة التي تصدرتها في الصفحة الأولى تصريحات للسيد رئيس الجمهورية عقب الحادث الإرهابي، يتوسطها صورة له وهو يقف أمام منصة اللقاء، الخطابات الصغيرة التي يزينها النسر الجمهوري وخلفه الستارة الزرقاء، الصورة بملامحها التي لم تغيرها الجريدة منذ عشر سنوات مضت وعلى يساره علم مصر، وهو يصف العمل بالإرهابي يعلوها مانشيت رئيسي:

«مبارك: هذا العمل هز ضمير الوطن وأوجع قلوب المصريين»

وأمامه مجموعة من المانشيتات الصحفية القديمة:

«مبارك: أؤكد لكل المصريين أن يد الإرهاب لن تنجح في مخططاتها»

«مبارك: كلفتُ جهاز الشرطة بتتبع الجناة والقبض عليهم في أسرع وقت»

تابعت يارا المانشيتات بعيون مختلفة؛ لم تعبأ بديباجات العمليات الإرهابية وأحاديث رجال السياسة والخبراء الإستراتيجيين حول الموقف، وهي تقلب صفحات الجرائد لتجد حديثًا مطولًا لشيخ الأزهر الجديد يوضح فيه حقيقة الإسلام السمح، ويشجب الإرهاب ويدين العنف، حتى تصل إلى الصفحة التي كانت مخصصة لجهود وزارة الداخلية في القبض على الإرهابي والخلية الإرهابية التي تموله والكشف عن هوية مرتكب الجريمة.

«محمود»

لم تشعر يارا بالفشل واليأس في حياتها مثلما شعرت بهما في هذه اللحظة، وإن كان شعورًا بالذنب وتحملها مسئولية هؤلاء الأبرياء الذين أزهقت أرواحهم بسبب غلطة ربما تكون ارتكبتها، تسببت في مقتل العشرات وتدمير لأسرهم.. حاولت يارا أن تخفف من تأنيب الضمير الذي كانت تمر بها وتحملها مسئولية قتل هؤلاء الأبرياء لتشاهد على الهاتف اسم وكيل النيابة أ/ شريف وجدي يرن عليها في مثل هذه الساعة المبكرة صباحًا لتنتظر كارثة جديدة تهطل على رأسها.

(١٢) محمود

خرجتُ من قسم السيدة زينب بعد أن أنهى الضابط النوبتجي إجراءات الخروج، داعبتني مرة أخرى أشعة شمس العصاري الآخذة في الأفول.. وقفت للحظات، أو ربما لدقائق أحاول أن أستجمع ملامح المكان حولي، ميدان السيدة زينب الذي شهد طفولتي وشبابي، طريقي إلى المدرسة والجامعة، مقاهي مشاهدة مباريات كأس العالم المشفرة. محالّ عصير القصب المنتشرة بجوار محالّ المأكولات الشعبية التي كان يصطف أمامها التلاميذ العائدون من المدارس.

كان كل شيء في الميدان قد تغير، لافتات المحالّ أصبحت أكثر بريقًا ولمعانًا.. محالّ الملابس الزاهية وقمصان النوم المثيرة تزين «المانيكانات» خلف الواجهات الزجاجية، حتى محالّ الفول والطعمية التي طورت من نفسها بواجهات مصنوعة من الرخام وعمدان الشاورمة موضوعة خارجها.. عربة «الكبدة والسجق» التي كنت آكل منها خلسة وأنا عائد من المدرسة أصبحت محلًا كبيرًا، ولكن العربة تقف على باب المحل كما هي.. المحل فقط اصطفت به وخارجه موائد وكراسٍ بلاستيكية

متنوعة الألوان. البائع هو هو، بوجهه السمين، وقميصه عديم اللون - وإن كنت أظن أن لونه الأصلي الأبيض - ونظرته المتشتتة وكأنه يهرب من شيء.. على يمين العربة تجلس خلف ماكينة تحصيل النقود الإلكترونية فتاة ذات وجه هادئ القسمات، في حوالي العشرين من عمرها بملابسها الغامقة، وطرحتها التي تلفها حول رأسها تظهر منها خصلات شعرها المذهب، وعلى الرغم من أن ملامح وجهها الذي يكتسيه بعض المكياج الذي لا يعبر عن سنها الحقيقي فإنني أظن أنها لا تتجاوز الثامنة عشرة، لم أستطع أن أصل إلى باقي ملابسها، ولكني كنت على يقين بما ترتديه: بنطلون جينز أزرق ضيق، وعليه «بوت» أصفر. لا أعلم لماذا اكتملت الصورة في تخيلي بهذا المنظر؟!

وسط الميدان كانت الحديقة كما هي.. يحوطها السور الأسمنتي الذي يعلوه سور آخر من الحديد المفرغ بداخلها أشجار بالية أكل الدهر عليها وشرب، وحشائش في أرض الحديقة متآكلة، تلمح ما تبقى منها فقط بين ثنايا ذرات التراب المتراكمة على الأرض.

على الجانب الأيمن المشهد الزينبي، مسجد السيدة زينب بجماله وبهائه، تقف مئذنته شامخة وسط عمارات السيدة زينب شاهدة على تقلبات الحياة، ثابتة رغم التغيرات، شامخة في عصر الخضوع والركوع، وقبة المسجد فضية اللون بطابعها المميز تعلو قبر حفيدة رسول الله ﷺ تعكس على الضريح الشريف انعكاسات أشعة الشمس الملونة الهاربة في فسيفساء سقفها المرتفع بألوانه المختلفة التي ترسم مع وهج نور الظهر

ضوءًا كقوس قزح يرسم لوحة على جدران المسجد ذي الثلاث مداخل الأمامية بأبوابها الخشبية العملاقة التي كنت أتعلق بها في صغير محاولًا عبثًا أن أغلقة.

ما إن وقعت عيناي على المشهد الزينبي حتى تطوقت النفس إلى صلاة ركعتين بداخله، تقدمت نحوه، كان ما يفصلني عنه بضع خطوات هي عرض شارع زين العابدين المزدحم.. كم اشتقت إلى زحامه! ضوضاء السيارات العابرة لحظة نداء الباعة الجائلين على جانبيه لملابس داخلية للرجال والنساء! نظرات البنات في نهاية المساء - وهن عائدات إلى منازلهن - لبضائع السوق المعروضة على العربات في الشارع.

تقدمت نحو المسجد، نزلت الدرجتين اللتين تفصلان المسجد عن الشارع، تغير الميدان، تغير العالم، أصبح أسرع، انتقلنا من زمن الناقة إلى السيارة ومن السيارة إلى الصاروخ، أصبحنا في عصر ثورة المعلومات والإنترنت، في عصر الفمتوثانية، في عصر التيك أواي، ولم يتغير المشهد الزينبي.. النساء المتوشحات بالسواد يجلسن على الأرض ساندات ظهورهن إلى سور المسجد من الخارج، بعض الرجال بملابسهم الصعيدية وعمائمهم المميزة وعصيانهم الشديدة يتكئون عليها، لا أعلم من أين يأتون ولا كيف يذهبون!.. أقف أمامهم أتأمل وجوههم، أشاهد فيها طين الإنسان المصري الذي نسي أصله وبات يلهث خلف مغريات ما بعد الحداثة وبريقها.

كم اشتقت في هذه اللحظة لأن يعود بي الزمن إلى الوراء.. أن أعيش في دور أحمد عبد العزيز في مسلسل الوسية، الفلاح النابت من طين الأرض الذي يقاوم المستعمر الأبيض - ما زال شعور المضطهد يحلو لي! - تقدمت من البوابة الأولى للمسجد، ما زلت أشعر بالألفة لبعض الوجوه، مع أني على يقين أن من يقف أمام خزانة جمع الأحذية قد تغير، إلا أني أشعر مع الجميع بالألفة داخل المسجد.. هي حالة لا يستطيع أن يفهمها إلا من عاشها، سأترك الفلسفة لأصحابها وأترك الخلاف الفقهي حول الصلاة في المساجد التي بها أضرحة لأصحابه، ولكني الآن أعيش هذه الحالة. لست من المتصوفة ولم أكن من مريديهم يومًا، ولكنهم كانوا يروقون لي دائمًا.. هي حالة لن أتعب نفسي في وصفها؛ لأنها لن تصل إلا إلى شخص عاشها، ومن عاشها لن يحتاج إلى وصفها الآن.

ساعة العصاري في المسجد كما هي.. الكون يتقدم ويتأخر، تتغير الخرائط وتتحول البلدان وتنقسم الشعوب، وتظل الناس تأتي لحظة العصاري إلى مسجد السيدة زينب لترتاح وتنعم بسكينة بجوار «الست الطاهرة».. مزيج من أطياف المجتمع، منهم المسافر الذي ينتظر القطار وأَحَبَّ قضاء ساعة قبل سفره في رحاب «أم هاشم ورئيسة الديوان» فغلبه النوم، منهم من تشاجر مع زوجته وترك لها البيت وجلس في المسجد لعل الله ينزل سكينة في قلبه ويؤلف قلوبًا مشتتة، ومنهم من تعلقت قلوبهم بالمسجد فكان مأواهم وسلواهم إذا ما ضاقت بهم الدنيا.

أجساد ممتدة على الأرض، عيون مغمضة وعيون مفتحة، كلٌّ سارح في

ملكوت الله، قليل منهم في هذه الساعة من يتكئ على جدار المسجد ممسكًا بيده المصحف أو يقرأ في كتاب فقهي، حالة من السكون التام يناسبها إضاءة خافتة لمعظم مصابيح المسجد في لحظة الانتقال من العصر إلى المغرب وقبل إضاءة باقي القناديل.. لوحة فنية مكتملة أمام المشاهد.. قد يعجز أكبر مهندس إضاءة في تصميم هذا الجو الخافت بما يلائم الحالة النفسية لكل هذه الكتل البشرية الهائمة في ملكوت الله كلٌّ بخلفيته الثقافية وميوله وانطباعاته وأهدافه من الجلوس في مثل هذه الساعة التي ليست وقت صلاة داخل المسجد، لا يكسرها إلا عمال النظافة بزيهم البرتقالي المتقطع على الأكتاف وهم يمسكون بالمكانس الكهربائية يجولون بها في أجزاء المسجد ينظفونه. بينما يعلو إذاعة المسجد الخشبية - المقابلة للمحراب الرخامي الجديد الذي تم وضعه مع الترميم الجديد للمسجد - عامل الكهرباء يُجري بعض التعديلات في الوصلات.. أظنه يعد الميكرفون لأذان المغرب.

الضريح في مسجد السيدة زينب كان بالنسبة لي دائمًا شيئًا ثانويًا، لم أكن أذهب إلى المسجد لأزوره، بل هي مرات قلائل وقفت على بابه أمسك حديده وأقرأ الفاتحة للست الطاهرة، تعلقي بمسجد السيدة زينب كان بسبب زيارتي الأولى له بمفردي.. ثم حبي للشيخ إبراهيم جلهوم أمام المسجد المسن الذي كنت أرى الناس تتهافت عليه، الكبير قبل الصغير يقبّل يده عندما كان يدخل المسجد وهو يمر على صفوف المصلين يوم الجمعة، بينما في الخلف أذان الجمعة يعلو بالتكبير «الله أكبر».

سألت عن الميضة فاكتشفت أنهم نقلوها إلى آخر المسجد في التجديدات الجديدة.. أشار إليّ أحدهم بالطريق، كنت أظنني أخرج من بوابة المسجد إلا أنني وجدتني أدخل مسجدًا آخر، هو امتداد لهذا المسجد، ولكنه الحديث منه.

اللوحات الرخامية تزين جانبيه بآيات الذكر الحكيم، النجف المذهب الفخم يزين سقفة ذا النقوش والرسومات الإسلامية، الرسومات والأشكال الهندسية تتجمع في تناسق تام نحو بؤرة القبة التي تنتصف هذا المسجد بجدرانه الذي حاول المصمم أن يحاكي فيها جدران المسجد القديم المكونة من حجارة عتيقة عتق الزمان، وكأنك في مسجد آخر غير السيدة زينب.. اجتزت هذا المسخ الجديد وصولًا إلى مكان الوضوء والحمامات، الحداثة ودورات المياه الرخامية لم تستطع أن تقضي على هذه الرائحة المميزة، لم تكن رائحة كريهة ولا بالكريمة أيضًا، ولكن كانت رائحة مميزة لا أستطيع أن أصفها إلا لمن عاشها.

أنهيت وضوئي في خشوع مفرط لم ينتابني إحساسه منذ زمن، وجلست أمام المحراب في انتظار إقامة صلاة العصر، سمعت صوت الشيخ عصام، انتابتني وخزة في قلبي، هو نفس الصوت القادم من بعيد:

«هو الكريم.. أكرمنا يا رب.. الطف بنا.. اغفر لنا ..وارحمنا يا رب.. يا «نور سيدنا النبي».. مدد يا رب»

كلمات كنت أسمعها على مدى تكرار زيارتي إلى المشهد الزينبي، كنت

أشوق إلى حفظها دائمًا، كتبتها ذات مرة كي أحفظها ولكن كان ينقصها لحن الشيخ عصام.. الكل هنا يعرف اسمه وربما لم يتكلم أحد معه.. أول ما يدخل إلى المسجد ويقول ابتهاله الشهير يتردد اسمه بين المجتمع..

- الشيخ عصام وصل.

علامة أخرى من علامات السيدة زينب التي لا تتوقف عند حدود الزمان وطاهرة آل البيت الشريف أو عتق جدران المسجد وتاريخه.. التركيبة الاجتماعية للبشر جزء من فلسفة الزمان العاصية على الفهم.

أتذكر في هذا اليوم أنه نظر إليّ وأطال النظر بضع ثوانٍ ثم ابتسم، وقال بصوته الجهوري عبارته التي كان يختم بها ابتهاله - الذي لا أعلم إن كان هو من ألفه أو ورثه من أحد الصالحين - «أنا جيت»

كانت نظرته هذه تعني لي الكثير، كنت أشعر فيها بالحب والدفء، كأنه تذكرني، يريد أن يقول لي أين كنت يا رجل؟ أو حمدًا لله على سلامتك. سعدت بنظرته التي هربت منها بابتسامة خجل وكأنني كرهت أن يتذكرني أحد فما زلت أعشق دور المجهول.

أقام شيخ جديد لا أتذكره صلاة العصر.. صليت في الصف الأول لأول مرة في حياتي رغم تكرار زيارتي إلى المسجد، ثم جلست لأستمع إلى شيخ اتخذ من محراب المسجد مسندًا لظهره وهو يقص فضائل آل البيت على أهل مصر والخير الذي حل بهم منذ أن وطئت قدمهم الشريفة أرضها.. لا أعلم لماذا لم أذهب إلى بيتي في قلعة الكبش مباشرة بعد انتهاء الصلاة؟!

ربما هي محاولة مني لتأجيل صورة ما زلت أرسمها لأختي مع الشيخ عبد القوي، الرجل المسن الذي يريد أن يقضي ما تبقي في حياته يلهث في جسد بنت في سن بناته، وجميع زوجاته يعشن حوله كأنهن جواريه، أما صورة أختي فهي خادمة لزوجتيه الاثنتين السابقتين عليها.. هل أنجبت أختي؟ كيف حياتها معه؟ هل ستكون سعيدة بلقائها بي؟ أم هو مجرد إحساس فطري بعودة شخص يربطها معه اسم أب واحد في شهادة الميلاد؟.

مهما أجلنا اللقاء لا بد منه، استجمعت ما تبقى من قواي وغادرت مسجد السيدة زينب سائرًا في شارع زين العابدين بزحمته وضوضائه، توقفت عند محل عصير قصب «النسر الذهبي» الذي اعتدت أن أشرب منه دائمًا، درت بنظري في المحل أبحث عن الحاج خالد صاحب المحل الذي كان يقابلني كل مرة بابتسامة رقيقة تثير الخجل في نفسي أكثر مما تثير الحب!، لم أجده إلا في صورة معلقة على الحائط خلف بنك تحصيل النقود وتعلوها شريطة سوداء.. بينما امرأة، يظهر من ملامحها - لا أعرف لماذا ولا كيف؟! - أنها زوجته.

شربت كوب عصير القصب الساقع الذي روى ظمأ سنين من العطش لهذا الحنين، وعاودت رحلتي في الشارع المزدحم حتى انعطفت يسارًا في شارع سلامة بمقاهيه الكثيرة التي تصطف على جانبيه.

كانت معظم هذه المقاهي لا تتعدى غرفة صغيرة لا تتجاوز مترًا مربعًا

أو مترين تكفي ليقف فيها عامل البوفيه ليعد «المشاريب» للزبائن الذين أخذوا من أرصفة الشارع محلًا دائمًا لإقامتهم، كثيرًا ما اصطفت هذه الكراسي بالعرض في الشارع مغلقة إياه تمامًا أمام المارة عندما يكون هناك مباراة كرة القدم مشفرة! وكم تراشق مرتادو هذه المقاهي المتلاصقة بالكراسي في مشاجراتهم على مكان ركنة سيارة أو معاكسة بنت كانت تسير أمامهم!.

أكملت مسيرتي.. وصلت إلى الدرجات الأولى لسلم قلعة الكبش، السلم الكبير الذي يربط هذه الربوة المرتفعة من الأرض بميدان السيدة، تذكرت والابتسامة تعلو شفتي محاولاتي كثيرًا وأنا نازل على هذا السلم أمسك بيد والدتي أن أعد درجاته، هممت هذه المرة أن أعدها، ولكن كعادتي تلعثمت في آخر بضع درجات وضاعت الأرقام مني، وضاعت فرصة جديدة في معرفة عدد درجات السلم، وما زلت راغبًا في أن يمن عليّ الله يومًا ما وأحسن عدها، كم أتمنى أن أعرف عدد درجات هذا السلم! حتى الآن أظنها اقتربت من المائة.

سلم قلعة الكبش الذي كان على حاله طول هذه السنوات لم يتغير كما تغير كل شيء حوله، ظل شامخا ثابتًا كجبل راسخ يشق عنان السماء.. سلم قلعة الكبش ليس مجرد مجموع درجات تربط (أو تفصل) قلعة الكبش عن ميدان السيدة زينب، بل هو بمثابة حياة كاملة بمعنى الكلمة، توقفت عليه كثيرًا أشاهد وجه الناس المارة عليه، هذه سيدة عجوز بجلبابها الأسود وطرحتها السوداء تمسك في يدها «شنطة خضار» بلاستيكية

قادمة من سوق الخُضَر بإحدى ضواحي الميدان، لا تعبأ بتعب المشوار أو مشقة صعود درجات السلم بقدر ما ألفته من لذة في «تنقية» الخضراوات بنفسها صباح كل يوم من سوق الخضر، أو طمعًا في توفير بضعة جنيهات قلائل يزيدها بائعو الخضار الجوالون بعرباتهم «الكارو» التي تجرها الحمير الجربة طوال النهار في شوارع قلعة الكبش وهم ينادون على بضاعتهم «حمار وحلاوة بكام؟ بجنيه وربع».

ما زلت أذكر أمي عندما كانت تنزل السيدة زينب لتشتري الخُضَر من سوق الخُضَر بشنطته المخصوصة التي تضعها فوق المطبخ في بيتها.. انقلب الحال وحلَّتْ الشنط البلاستيكية الرخيصة محل هذه الشنط، تلتقط السيدة العجوز أنفاسها بصعوبة، لا أعرف ما الدافع إلى استمرارها في رحلتها اليومية إلى ميدان السيدة لشراء الخُضَر.

مشاهد سلم قلعة الكبش كما هي، أطفال صغار يلعبون على السلالم يتهافتون على درجاته خلف آبائهم وبجوارهم، بعضهم يأخذ من «ترابزين» السلم آلة هبوط لهم يتزحلق عليه، أطفال يتهافتون على السيدة العجوز يحاولون مساعدتها في حمل الشنطة منها إرضاءً لطلب أمهم أو طمعًا في نصف جنيه تجود به السيدة العجوز على الأولاد ليشتروا به قطعة حلوى، قبل أن تحل محالّ الكمبيوتر «سيبر» مكان محالّ الحلوى في استنزاف نقود الصبية والأطفال.. وأعلى درجات السلم كان عم يوسف بائع الجرائد الذي اتخذ من درجات مستقيمة كبيرة له محلًا لبيع الجرائد اليومية التي يبيعها أغلى من ثمنها خمسة وعشرين قرشًا.. لسبب ما أجهله

خشيت أن يراني.. هربتُ منه، انتابني الرعب من التقاء نظرة عينه في عيني، أسرعت الخطوات، كنت أعرفه جيدًا، وهو كذلك كان يحبني كثيرًا، يوميًّا كنت أشتري منه جريدة الأخبار، أذكّره تأكيدًا بالطبعة الثالثة، والدي كان لا يقرأ إلا الطبعة الثالثة وتكون كارثة وطامة كبرى إذا عدتُ إليه وأنا أحضر القطار صباحًا بجريدة الطبعة الأولى.

أنهيت درجات السلم، فصلني آخر رابط عن ميدان السيدة زينب وأصبحت الآن أعود إلى عالمي قلعة الكبش، وكأني عصفور عائد نهاية يوم إلى عشه أو سمكة عادت إلى مياهها.. أعود مرة أخرى إلى قلعة الكبش.

كانت أجواء حملة انتخابات مجلس الشعب بادية أمام نظري منذ الوهلة الأولى لنزولي ميدان السيدة، ولكن مع اقترابي من قلعة الكبش أصبح الأمر أكثر وضوحًا، لافتات مرشح الحزب الوطني تملأ كل شوارع المنطقة، صورة كبيرة له على أوراق فاخرة تزين واجهات المنازل، خصوصًا في هذه المنطقة المطلة مباشرة على سلم الكبش التي بها مقهى يتخذ منه المرشح -ولصوص قلعة الكبش- مقرًّا له تُوضع على بابها صورة بالحجم الطبيعي له وهو يقف في مجلس الشعب على منصته الرئيسية أمامه ميكرفونات وهو يشير بيده في الهواء، وتظهر على وجهه علامات الغضب بينما د/ أحمد فتحي سرور يجلس على منصته الأعلى منه في الصورة، تعلوهما صورة النسر الكبير، وهي الصورة التي أظنها مصطنعة، التقطها له أحد المصورين المحترفين وقت استراحة إحدى الجلسات في

الدورة البرلمانية المنقضية؛ لما أعرفه عن مرشحنا الهمام من أنه لا ينطق بكلمة في الجلسات فهو من أنصار حزب «موافقون موافقون».

فمع غيابي عن المنطقة في سنواتي الثلاث التي قضيتها في السجن، فإنه كان طوال عشرين عامًا عضوًا في مجلس الشعب عن دائرة السيدة زينب، أهالي قلعة الكبش أظنهم لا يحبونه، وإن كان الجميع يعطي له صوته في الانتخابات بلا استثناء إعمالًا بمبدأ «اللي نعرفه أحسن من اللي ما نعرفوش»، أما الفريق الثاني فسيذهب إلى أنه سوف يفوز شاء من شاء وأبى من أبى، فهو مرشح الحزب الوطني الذي توضع صورته بجوار صورة د/ أحمد فتحي سرور رئيس مجلس الشعب، والذي يظن البعض أنهم يذهبون لانتخابه رئيسًا للمجلس مباشرة، ولا يعلمون أنها خطوة أولى قبل الانتخابات الداخلية في جلسته الأولى.

لم يكن يعنيني كثيرًا - مرشح الحزب الوطني - إلا من خلال كلمات أبي القليلة عنه التي كان يذكرنا فيها دائمًا بقلة أصله، وعن صلة القرابة التي تجمعهم من بعيد، والذي لم يراعها المرشح أكثر من مرة عندما كان يذهب إليه والدي في طلب أي خدمة مكتفيًا بما حوله من صيع وبلطجية يستخدمهم في تأديب خصومه في الانتخابات التي لا نرى وجهه في قلعة الكبش إلا في أيام الدعاية لها، ويغيب بعد ذلك أربع سنوات لا يظهر إلا السنة الأخيرة تمهيدًا للانتخابات.. وهكذا.

□□□

اجتزت «قهوة الثلاجين» سريعًا تلافيًا لذلك الزحام الشديد الذي كان عليها؛ فكما يبدو أن الحاج حسن كان جالسًا عليها.

سرت في الشارع المستقيم والذي يعتبر أحد شوارع قلعة الكبش الرئيسية الذي يمتد من بداية سلم الكبش حتى منطقة الأكشاك ومساكن زينهم، الذاكرة الآن لم تسعفني أن أتذكر اسمه، أو ربما لم أحاول أن أعرف اسمه من قبل، بل اعتدت أن أستخدم اسم محل شهير به للدلالة عليه فأقول ذاهب إلى شارع حسين الجزار، الذي يقف ابنه أمامي الآن بجلبابه الأبيض الملطخ بالدماء وملامح وجه أبيه المتطابقة معه.. زاغ مني البصر للحظات أبحث عن عم حسين الجزار وتنتابني حالة فزع أن أجده هو الآخر في صورة معلق عليها شريطة سوداء، قبل أن يستقر نظري عليه جالسًا على كرسي متحرك مشلول اليدين، بينما يصطف أمام الدكان مجموعة ليست بكبيرة من الزبائن ربما لا يتجاوز عددهم أصابع اليد الواحدة، وإن لفت انتباهي أنه جدد ثلاجته الخشبية القديمة بثلاجة فاخرة جديدة بعرض المحل كاملًا.

جميع ملامح الشوارع تغيرت، واجهات المحالّ باتت أكثر زينة وإنارة، عمارات حلت محل البيوت الصغيرة التي كنت أتذكر ملامحها وطرازها المعماري القديم.. سرت ونظرات المارة تأكلني حتى إنني شعرت بغربتي عن المكان لعصور طويلة، هذه الوجوه ما عدت أعرفها ولا أشعر تجاهها بالألفة، هذه الوجوه ليست كالوجوه التي تركتها منذ ثلاث سنوات، حتى منها من تجمعت بعض ملامح وجهه القديم أمامي وأصبح شابًّا بعد

أن كان طفلًا بت لا أعرفه، تبادلت بعض النظرات مع بعض أصحاب المحالّ الذين حافظوا على وجودهم وسط حالة الشتات التي طرأت على المكان، تبادلت السلام فشعرت ببعض الراحة، تبعث به إشارة اليد وابتسامة الوجه وبشعور بألفة افتقدتها في حي من المفترض أني أحد أهله الذي عاش حياته كلها فيه ولم يغادره قط!.

إذا كانت هذه هي الحالة التي أشعر بها وسط ناس تربيت بينهم، إذا كانت هذه حالة الغربة مع المكان فما سيكون المصير مع أهلي؟! كيف سيكون الاستقبال واللقاء مع أختي وزوجها وأولادها؟!

□□□

(١٣) القاهرة

قبل ثلاث سنوات..

في رواق طويل بمجمع المحاكم بباب الخلق سار وكيل النيابة بجوار كاتب المحضر الذي رافقه في زيارة للمجني عليه في المستشفى، كانت خطواته بطيئة، يملأها الخوف وكأنه يمشي تجاه المجهول، لم يعبأ بالأتربة التي لزقت بملابسه الأنيقة التي كانت تملأ الأرض وعلى جانبي مباني المحكمة جراء عمليات الترميم بالمبنى الرئيسي للمحكمة، بينما يسير خلفه كاتب المحضر يشاركه أفكاره بعد هذه الزيارة التي ظن أنها ستكون مفتاحًا للقضية، لتكون أكثر الألغاز فيها.

توقع أشرف أن يسمع من المجني عليه قصة معرفته بالجاني، تهديده له بالقتل إذا اقترب من حبيبته، ولكن اصطدم كعادته في تلك القضية بنكران جميع الأشخاص للجاني.. إذا كانت العروس لا تعرفه، ولم تحبه قط!! ولا المجني عليه يعرفه، ولم يصله تهديد منه بالقتل كما ادعى!! ولا أهل العروسة يعرفونه، وأنكر والدها أن يكون جاء ليطلب يدها!!

فما الدافع للقتل؟! وما الدافع أن يجعل شابًا في مقتبل العمر يقوم بمثل هذا الفعل المجنون؟! حتى المرأة ذات الشعر الأحمر الذي ادعى أنه كان على علاقة بها، ليس لها أي وجود، بحث في الشارع بأكمله عن مواصفات مثل هذه المواصفات فلم يجد، ربما يُخفي عن الجميع شيئًا؛ فالقضية تمس عرضي بنت وامرأة متزوجة، طبيعي أن تنكر البنت أي علاقة لها بالموضوع.. الأقوال تتضارب ولكن يجذبه شيء من التصديق بقول العروس خصوصًا بعد زيارة المجني عليه في المستشفى، بالطبع أحجب وكيل النيابة من المعلومات التي أدلى بها الجاني له في التحقيق، لم يستطع أن يخبره أن سبب الجريمة هو محاولة إخفاء ثوب البنت التي كان سيدخل بها بعد لحظات، ترك لعنانه الكلام، تحدث معه عن قصة حبه من الفتاة، التي نشأت بينهما في الجامعة، كيف تحدى والديه وأصر على أن يتقدم لخطبتها، المصاعب التي واجهتهما في شراء الشبكة وتجهيز الشقة حتى اقتربا من تحقيق حلمهما في أن يجمعهما بيت واحد.

قصة حب كهذه لا يمكن للعروس أن تكون أقامت معها قصة حب أخرى مع ذلك الشاب، قالها بصوت مسموع:

- «البنات اليومين دول يعملوا كل حاجة».

كم من كوارث حقق فيها كانت سببها النساء، وتذكر حديث رسول الله ﷺ «ما تركت بعدي فتنة أضر على الرجال من النساء» صدق رسول الله ﷺ.

تذكر أول حب له في الجامعة مع نسرين، حينما شاهد عيونها البريئة تنظر إلى عينه الجامدتين، تذكر أول حديث بينهما عن مذكرات الامتحان، غضبها منه عندما طلب رقم هاتف بيتها، إصرارها على عدم مواعدته، «اتركها للصدفة»، أحس ساعتها بحبه لها، حاول الاقتراب منها، وهي أيضًا حاولت، بدأ يشعر تجاهها بعاطفة لم يشعر بها في قلبه من قبل، وعندما صارحها بحبه صارحته بإعجابها به، حلم أن يعيش معها أجمل أيام الجامعة، يجلسان معًا في مدرج الكلية، يخرج معها ليشتريا مذكرات الامتحان أمام الجامعة من الأكشاك التي تبيع مذكرات ليلة الامتحان، يجلس معها متجاورين في حدائق الجامعة التي تمتلئ بالعشاق، وكأن الجامعة باتت حديقة للعشاق ملحقًا بها جامعة، إلى أن انهارت كل أحلامه، فلم يجلس معها بمفرده كلما أتت له كان معها صديقتها، كان يشعر بخيفة في قلبه منها، يريد أن يجلس يتكلم معها، يبني معها أحلامهما كلما هم أن يواعدها رفضت، علّلت ذلك بأن لها أقارب في الجامعة وتخاف أن يراها أحد معه فيذهب ويقول لوالدها، استحمل أن يكون فردًا من أصدقائها أمام الناس، على أن يرى في عينها الحب والجميع يقفون فيما بينهم لا يعلمون لغة العشاق الصامتة ونظرات العيون التي يملأها الحب.

صارحها ذات مرة بحاله، أم كبيرة في السن، قعيدة لا تقوى على التحرك، تسير بكرسي بعجل، ولا يستطيع أن يتخلى عنها خصوصًا بعد وفاة والده.. بدت علامات الغضب على وجهها، حاولت أن تقنعه بفكرة

الزواج في بيت آخر إلا أنه لم يكن أمامه حل آخر، توهم أنها وافقته ولكنها بدأت تغير من معاملتها له، ما كان يضحكها بدأت تشعر معه بالسخافة، كلما حاول الاختلاء بها بعيدًا عن أصدقائهما رفضت، يحاول أن يجلس معها بمفردهما يبنيان معًا أحلامهما إلا أنها بدأت في الابتعاد عنه.. كان يشاهدها في الجامعة صدفة، فتتعلل أنها نزلت مع صديقتها ولم يكن لديها وقت تخبره أنها في الجامعة! بدأ الضجر والغضب يظهر عليه في معاملتها معه، ومع أول خناقة ظن أنه اختلاف عادي يحدث بين الأحباب في فترات الارتباط فيأتي كل واحد منهما يتغزل في الآخر عن لوعة الفراق وآلامه، وأنه ما كان يراود جفنه النوم وهو بعيد عنها، اشترى لها «بوكيه» ورد أحمر ليعبر لها عن حبه، وقف في انتظارها على باب الجامعة ليشاهدها قادمة من بعيد وهي تسير بجوار زميل لهما، ظن في البداية أنها قابلته صدفة إلا أنه شاهد يده تمسك يدها، همّ أن يجري عليها ليصفعها بـ»القلم»، ولكن لم يشاهدها وسط الزحام، اختفت هي وهو ولم يجدها طوال النهار، دار بالجامعة كلها، حدائقها، وكافترياتها مدرجاتها فلم يعثر لهما على أثر، كانت نار الغيرة تكوي قلبه، عندما عاد إلى بيته لم يكن يشغله فراق الحبيبة على قدر الخيانة التي تجرع كأسها: متى تعرفت عليه؟ قبله أم بعده؟ هل هو الخادع أم المخدوع؟ أم هما الاثنان كانا لعبة في يد بنت تتاجر بأحلام الشباب؟!

إذا كان شعورها قد تغير نحوه، فلماذا لم تخبره؟! لماذا عشمته بوعود الحب والزواج وهي مع شخص آخر؟! أم أنها كانت تفاضل بينهما لترى

الأنسب لها، مثل التاجر الشاطر الذي يفصل بين أكثر من زبون حتى يستقر على أعلى سعر بيع؟!

قام من سريره والدمع يملأ عينيه وتوضأ وصلى ركعتين لله، حمدًا لله عز وجل - على أنه أنقذه منها؛ فمن تخون خطيبها وحبها لتفاضله مع الغير ستخون زوجها وهي بجواره على السرير.. أطال السجود ودعا الله أن يرزقه بنت الحلال التي تستحقه و يأتمنها على اسمه.. ما دعا الله صادق النية كمثل هذا اليوم ليرزقه ربنا بزوجته الحالية، التي تحملت معه الكثير ولم تترك والدته في مرضها، حتى في أحرج لحظات يمر بها الإنسان في سكرات الموت إلى أن فارقت الحياة على كتفها وهي تدعي لهما بالخير.

❑❑❑

دخل أشرف مكتبه على عجل بعد أن علم من العسكري الذي كان يقف على باب المكتب أن تقرير الطب الشرعي قد وصل، تقدم نحو المكتب وجلس على عجل يفتح المظروف البني الكبير ويمزقه بكلتا يده كأنه يشتاق إلى معرفة السر ليجد ورقة واحدة داخله مختومةً بخاتم النسر في أسفلها موقعًا عليه باسم الطبيب الذي قام بالكشف ومن ناحية اليمين أعلى الخاتم اسم كبير الأطباء الشرعيين.

رمى أشرف الورقة من يده وذهب في ثبات عظيم، حتى إنه لم يسمع صوت كاتب المحضر وهو يتساءل عن نتيجة الكشف الطبي على العروس، ليعلم أنه يواجه قضية شائكة ظن في البداية أنها سهلة لن

تأخذ منه سوى جلسة واحدة ينهي فيها أقوال جميع الأطراف، ليصل بقضية مكتملة الأركان إلى محكمة الجنايات، ليأتي تقرير الطب الشرعي مؤكدًا عذرية الفتاة وأنه لم يلمسها أحد من قبل؛ لتلغي كل أقوال الجاني وتخرج السؤال الكبير: ما سبب ارتكاب الجريمة؟!

كل العناصر كانت واضحة أمامه (الجاني، المجني عليه، مسرح الجريمة، أداة الجريمة)، تبقى عنصر واحد: ما الدافع وراء الجريمة؟!

جلس الأب أمام مكتب وكيل النيابة وابتسامة الفخر بادية على وجهه وكأنه انتصر هذا اليوم انتصار عمره، كأب في صعيد مصر يباهي أهل العريس بقطعة قماش بيضاء ملطخة بدماء ابنته ليلة دخلتها، عندما دخلت العروس التي كانت تحلم بقضاء ليلة عمرها في حضن زوجها تقضيها في حضن الزنزانة لحضن أبيها وهي تبكي:

- بهدلوني يا بابا.. أنا عملت إيه لكل ده.

مسك الأب البنت من ذراعها ونظر إلى عينها ومد يده الأخرى يمسح الدموع منها وهو يقول لها:

- شدة وهتعدي يا بنتي... اصبري.. إن شاء الله الموضوع يخلص كله دلوقت.

تابع وكيل النيابة هذا المشهد وهو يعتليه فرحة غامرة ببراءة البنت بعد أن كان اعتاد عدم الانسياق لعواطفه في القضايا التي يحقق فيها؛ ربما حتى

ينبغي له أن يكون عادلًا ولا تتدخل عواطفه في قراراته؛ ربما تبلدت مشاعره من كثرة الأيمان الكاذبة التي يسوقها المجرمون وهم يتوهمون أنها ستكون لهم طوق النجاة، أو دموع التماسيح التي تبلل الخدين من محترفات البكاء خصوصًا في قضايا الآداب، إلا أن هذه المرة كان يشعر بالسعادة ببراءة هذه البنت، وكأنه يبحث عن الخير في مجتمع بات الحق فيه سلعة نادرة.

فتح باب المكتب ليعلن العسكري بقدوم المتهم الأول الذي أشار إليه بيده أن يدخل، بينما الأخرى تمسك بالقلم الذي كان يلعب به في كتاب «سيكلوجية العنف والجريمة » الذي أخذ يقرأ فيه طوال الليل بعد لقاء مطول مع والد الجاني الذي جاء لزيارته بعد اليوم الرابع لغيابه عن البيت، أعلمه بالسبب، بينما كان يهتز على الكرسي الجلدي الكبير خلف المكتب عازمًا أن ينهي هذا الأمر، وما إن رأت العروسة المتهم الأول يقترب بخطواته الثابتة ويقف أمام المكتب حتى أصابتها حالة هياج وهجمت عليه تغرز - أظافرها التي كان ما زال عالقًا بها بعض زينة العروس - في خديه:

- أنا أعرفك قبل كده يا بن الكلب يا حيوان؟!

جرى إليها والدها ومسكها وحاول أن يهدئها، بينما طلب وكيل النيابة منه أن يجلس بها بعيدًا بعض الشيء على الأريكة الجلدية التي عن يمين المكتب.

بينما المتهم الأول واقف ثابت نظره على قدميه لم يتحرك قيد أُنملة وكان الأمر لا يعنيه، نظر إليه أشرف نظرة غضب يحاول بها أن يستشف من عينيه الثابتتين الخاليتين من أي مشاعر أي شيء يَهديه في هذه القضية، فلم يجد.

مد أشرف يده إليه بتقرير الطب الشرعي وهو يخبره أنها لا تزال بكرًا ولم يلمسها أحد وأنها لا تعرفه، كما أن والدها أنكر أنك قد تقدمت لخطبتها.. فما أقوالك؟!

بدت علامات الاضطراب على وجه المتهم، ظهرت رعشة في يده وهو يحاول أن يخفيها تارة بأن يضعها في جيب سترته البنية، وتارة أخرى في أن يشبكهما معًا، حاول أن يخفي الرعشة في كلامه وفي حركة كتفيه، بدأ يهذي بكلام غير مقصود، كلمات غير مترابطة لم يستطع أحد أن يجمع منها جملة منطقية واحدة معتبرة في القضية أو في أي شيء، بدأ يتحدث عن الحب، والحياة الجميلة التي حلم بها معها، بينما كان يهرتل بهذا الكلام غير المفهوم بات يسترجع أشرف مادة علم النفس الجنائي والتعرف على سيكولوجية المجرم ومحاولة معالجة الجريمة قبل وقوعها، وهي المادة التي حصل فيها على ممتاز، وتمنى أن يعد فيها رسالة الماجستير إلا أن مهام عمله في النيابة وانشغاله بالحياة الخاصة أثناه عن هذا التوجه، ليعاود استرجاع بعض خصائص سيكولوجية المجرم وهي تعلو شفتيه ابتسامة باتت له طوق النجاة في هذه القضية، يلتفت إلى الكاتب بجواره الذي توقف عن الكتابة بعد أن عجز عن تفسير أي كلمة من كلمات المتهم ليقول بصوت مسموع:

الكتب يا بني.. أمرنا نحن أشرف مهران وكيل نيابة جنوب القاهرة بالإفراج عن المتهمة الثانية/ كوثر مجدي صبحي من قصر النيابة، وتحويل المتهم الأول إلى مستشفى الأمراض العقلية للتأكد من سلامة قواه العقلية، وأقفل المحضر في ساعته وتاريخه.

القاهرة ٢٠٠٧/٢/٢٥

□□□

(١٤) محمود

سهرت الليالي و ياما لفيت وطفت
وفي ليلة راجع في الظلام قمت شُفْت
الخوف كأنه كلب سد الطريق
كنت عاوز أقتله.. بس خُفت

«صلاح جاهين»

بس خفت.. الخوف شعور يسيطر على الإنسان يفقده كل متع الحياة.. خائف من أن أكبر.. خائف من أن أتحمل المسئولية.. خائف من أن أفشل.. حتى إنه من الممكن أن تخاف من أن تنجح؟!

أكاديميًا يُعرِّفون الخوف بأنه شعور قوي ومزعج تجاه خطر ما، إما حقيقي أو خيالي، والخوف هو العدو الأعظم للإنسان، إذا كان الخوف حقيقيًا فإن أمره سهل تستطيع بسهولة القضاء عليه وأسهل طريقة للقضاء على الخوف الحقيقي الذي يعتريك هو مواجهته مباشرة.. في كل الحالات التي

واجهتني مشكلة حقيقية كانت تسبب لي الخوف كانت دائمًا نتائجها تأتي بأقل من المتوقع، نتيجة أول جرد بالصيدلية مثلًا عندما اكتشفت وجود عجز في العهدة وما أصابني من حالة رعب عندما يعلم د/ أبو الغار بالخبر وما يتبعه من تأنيب لي، وربما اتهام مباشر أو غير مباشر بالسرقة. يوم كامل لم يذق جفني النوم لم أذق فيها طعم الزاد حتى جاءت لحظة الحسم وأنا أتابع ملامح الدكتور/ «أبو الغار» وهو يقرأ «ورقة الجرد» الخاص بالصيدلية ويتابع الأرقام بالزيادة والنقص وتظهر على ملامحه ابتسامة رضا وهو يقول:

- «لا، الشهر دا الشغل أحسن كتير».

أما الخوف الخيالي فهو الطامة الكبرى التي لا تستطيع فيها أن تحدد مخاوفك تجاه أي شيء.. حالة يختلط فيها إحساس القلق بشعور الخوف، تجلس في لحظات الصمت تبحث لنفسك عن شيء يقلق حالك! حالة إذا سيطرت على إنسان أفقدته كل متع الحياة وجمالها ولذتها، حالة تعدم كل لحظات السعادة التي يعيشها الإنسان، ولعل أسوأها حالة الخوف المستمر من المستقبل.

□□□

لم أستطع وأنا أعبر شوارع قلعة الكبش أن أحدد أي نوع من الخوف الذي يتملكني في هذه اللحظة، هل هو خوف خيالي من رد فعل قاس لزوج أختي أو خوف حقيقي من واقع جديد قادم عليه؟! أسرة كاملة

ربما أجد فيها أقرب الناس إلى قلبي، بت أتخيل ما يمكن أن تكون عليه الحال عندما أدخل شقتي، الشيخ عبدالقوي يجلس على الأرض بلحيته الكبيرة وجلبابه الأبيض الواسع أمامه طبق فاكهة فيه ما لذ وطاب يأكل منه بكلتا يده، على يمينه زوجته الأولى وعلى يساره زوجته الثانية، بينما أختي تقف بعيدًا عنهم تنظف الشقة أو تعد طعام الغداء.. كيف أقبل هذه المهانة لأختي، كيف أدافع عنها وأن آتي لها بحقها من هذا الذئب البشري الذي لا يتوانى عن صيد الأرامل والمطلقات ليقضي منهن وطره ويقضي فيهن شهوته الحيوانية.

وقفت أمام البيت القديم، لم تتغير ملامحه، بيت قديم مكوّن من ثلاثة طوابق، يتوسطه باب حديدي مغلق ما إن لمسته فتح معي، إلا أن صريرًا شديدًا صدر من احتكاك مفصلات قديمة صدئة، بينما درجات السلم الصفراء المتآكلة ما زالت واقفة في وجه عوامل التعرية تناطح الحياة بدرابزينها الحديدي الصدئ الذي تزينه مجموعة من الوردات المعدنية المتآكل لونها، تقدمت نحو درجات السلم ببطء إلى الدور الثاني حيث وخزت قلبي أولى ضربات القلق من الرسومات اليدوية البسيطة التي كانت تزين الحوائط: عبارة عن جمل وهلال وصورة للكعبة الشريفة مكتوب تحتها بلون أحمر «حج مبرور وذنب مغفور»، ثم سهم مكتوب عليه إلى «منزل الحاج عبد القوي»، بينما كفوف حمراء تسيل منها خطوط واضح أنها كانت من دم ذبيحة احتفالًا بعودة الحاج من الحجاز.

«منزل الحاج عبد القوي»

لم يبقَ مكان للشك ما عاد المكان مكاني، وما عادت الناس أهلي، ولم أجد ملابسي القديمة مع بعض قطع أثاث لوالدتي ملقاة في إحدى الغرف في انتظار عودتي لطردي معهم من الشقة، عن يمين درجات السلم كان باب الشقة المكوّن من «درفتين» نصفهما السفلي من الخشب بينما النصف الأعلى من الزجاج الأصفر، أمامه ثلاثة قضبان من الحديد، وإن اعتلت شفتي ابتسامة ذكرى جميلة عندما لمحت آثارًا على زجاج باب الشقة الذي كسرته أول يوم العيد منذ زمن وأنا ألعب كرة أمام باب الشقة وكلمة والدي الذي لم يُرِدْ أن يعكر جو فرحة العيد علي وهو يقول:

- كمل لعبك.

وقفت أمام باب الشقة أضرب بقبضة يدي على لوح الخشب الفاصل بين الدرفتين بضربات أبطأ من وتيرة ضربات دقات قلبي المتسارعة ليكسر حاجز الصمت صوتٌ ألفته منذ سنين، شعرت منه لأول مرة بالألفة وبحنان أمومي افتقدته وبت في أشد الحاجة إليه ليعاود صوت أختي أكثر وضوحًا مرة أخرى.

- أيوا ياللي على الباب مش في جرس؟! مين؟!

لم أود أن أجيب النداء، توقفت لحظة عن طرق الباب وعاودتُ مرة أخرى، كنت أستمتع بلحظة الإثارة والتشويق هذه، لحظة الخوف والقلق والحب والأمل، لحظة الحنين والطيبة والرقة المرتقبة التي سألقاها

في حضن أختي، عاود صوت أختي إشراقة حياتي مرة أخرى مع إنارة الضوء سلم الطرقة وهي تردد:

أيوا جايه اهو مين على الباب؟!.. يوه!! ما بتردش ليه انخرست؟!

مع صوت ترباس الباب تدور تروسه كاشفة الستار عن غبار سنين من الاغتراب، أشرق وجه أختي التي كانت تقف أمامي غير مدركة اللحظة، تحاول أن تلف طرحتها على رأسها ممسكة بطرف جلبابها الأسود حتى تجمعت ملامح وجهي على نظرة الشوق في عينها بضمة حاجبيها التي كانت دائمًا مؤشرًا على غضبها مني؛ فلم أستطع أن أملك نفسي من الإلقاء بنفسي في حضنها الذي تراجعت معه - جراء اندفاعي إليها - بضع خطوات إلى الخلف، اختلطت فيها آهاتنا معًا مع بعض محاولاتها نطق اسمي ممزوجة بالدموع.

على أريكة متهالكة بملاءتها الخضراء المطعمة بالورد الأحمر تغطي جانبيها والتي كانت أسفل شباك الصالة الذي ينعكس منه ضوء مصابيح الشارع الكهربائية الهادئة متسللة من بين حنايا الشيش تغلف جو الغرفة بحالة شجن غريبة كثيرًا ما أشتاق إليها - وجدتني أجلس وبجواري نجلاء شقيقتي التي باتت ملامح وجهها أكبر من الوجه الذي ألفتُه منذ آخر مرة أتت إلى زيارتي تخبرني فيها بزواجها من الشيخ عبد القوي.

عادت الصورة الكلاسيكية للشيخ السلفي/ عبد القوي تسيطر على مخيلتي، تصورت أنه سيخرج الآن من إحدى غرف البيت وعلى وجهه

كلمات الغضب يدعك بكلتا يديه عينيه يتوعد صاحب هذه الضجة الذي أيقظه من نومه.

- جوزك فين؟!

- في المكتبة، شوية وأبعت له حد ينده له.. بس لما نقعد مع بعض شوية وأشبع منك.

- مرتاحه معاه؟

- الحمد لله يا محمود.

- ما لِك بتقوليها كده ليه؟

- والله يا محمود يا خويا ما حد مرتاح في حياته، عبد القوى طيب وغلبان وبتاع ربنا، وادويني عايشة معاه على الحلوة والمرة، علشان خاطر العشرة والعيال..

- معاك أولاد إيه؟!

- محمود بس.

نظرت إلى ملامح الرضا في وجهها الذي لم ألاحظه منذ دخولي، واعتلت شفتي ابتسامة راحة وأمل في الغد حينما همّت بالوقوف، وهي تقول:

- خش ارتاح جوه في غرفة عبد القوي شوية لحد ما أعملك حاجة تأكلها تلاقيك على لحم بطنك، هعملك شوية فتة على لحمة ضاني مش خسارة فيك.. خسارة في عبد القوي كان عايز يعزم عليها واحد صحبه.

تركت جسدي المتهالك يرتمي على سرير والدي القديم الذي طالما شهد لحظات مرحنا ولعبنا، لهونا وتعنيفنا، لحظات العدية صباح يوم العيد بعد الصلاة وأنا أرتدي جلبابي الأبيض والطاقية البيضاء، إخفاء والدتي كيس النقود أسفل المخدع، سكرات موت جدتي التي فاضت روحها الطاهرة عليه، ألقيت بجسدي الذي يحمل هم السنين وظلمات السجن على السرير ليصدر صوت مفصلاته الحديد أنينًا كأنه صراخي على ما فات من عمري بعيدًا عن هذا السرير، لتمر لحظات أخلد بعدها لنوم طويل.

□□□

استيقظت على صوت كحة آدمية تصدر من خارج باب الغرفة، بينما ملامح صوت عبد القوي الغليظة تعاتب أختي.. في البداية كنت أظن أن العتاب أني نمت في غرفته، تذكرت أنها غرفة أبي أنا، ولكن مع وضوح بعض ملامح الحوار كان السبب كثرة نومي وطول فترته الذي أضاع عليّ صلاة العشاء، حاولت أن أستجمع ملامح الساعة فلم أتبين إلا ظلام الغرفة المصمت التي كنت فيه حتى إضاءة أعمدة الإنارة وبعض لافتات المحالّ في الحارة كلها تُؤْذِن بهجوم الليل يطرد ضوء النهار.

بينما كانت أختي نجلاء تحاول أن تخفف من حدة حواره، وتحاول أن توضح له مدى التعب الذي كان باديًا علي، توجهت مباشرةً إلى باب الغرفة أفتحه له وأنا أرسم على وجهي علامات التثاقل من كثرة النوم،

بينما ضوء الصالة الساطع أكمل ملامح وجهي من أشعته التي ضربت عيني فأغلقها علي فجأة لأعاود فتحها مرة أخرى على ملامح عبد القوي ترتسم أمامي.

شخص تجاوز الخمسين من العمر، يرتدي جلبابًا بني اللون، ضخم الجثة طويل القامة يقترب من مائة وتسعين سنتيمترًا طوله، يظهر من أسفل جلبابه البني القصير بنطلون أبيض، يرتدي شبشبًا جلديًّا في قدميه، بطنه منتفخة من كثرة الطعام، لحيته تصل لمنتصف صدره، صبغها بلون الحنة الحمراء، حليق الشارب، خفيف شعر حاجبيه، حليق الرأس تمامًا.

- السلام عليكم.

- وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته.. نورت بيتك يا بني، نفسي أشوفك من زمان.

مدتُ يدي أصافح الشيخ عبد القوي، بينما أتظاهر بتساؤلي عن الساعة، فردَّ هو بنبرة حزينة كأنه ينقل لي خبرًا سيئًا تحاشيت أن أسمعه:

- الساعة عشرة دلوقت، ضاعت عليك صلاة العشاء جماعة.

- لا حول ولا قوة إلا بالله.

تظاهرت بالحزن على ما فاتني في تأدية فريضة ربي، نظرت نظرة عتاب مصطنعة إلى أختي ألومها على عدم إيقاظي لصلاة الجماعة.. لم أكن أصلي في حينها ولكني في هذه اللحظة عاهدت الله ألا أترك فرضًا.

- يلا قدّر الله وما شاء فعل.. قوم خد فوطة وادخل اغسل وشك واتوضى وصلّ على بال ما أختك تحضر لنا لقمة.. إنما إيه متوصية بك أوي.

ثم التفت إلى نجلاء يداعبها وابتسامة أبوية حانية ظهرت فيها معظم أسنانه الصفراء المتآكلة:

- يعني دلوقتي مش تعبانة ودهرك مرقدك في السرير يا مرة؟!

تعالت ضحكات نجلاء وهي تغادر الممر الطويل الفاصل بين الصالة والمطبخ المنعكس علينا ضوؤه الخافت قائلةً:

- دا الغالي.. دا أنا لو أطول كنت وديت له الأكل كل يوم لحد عنده.

- أهو رجع بيته بالسلامة أكليه كل يوم بقى يكش ألاقي لقمة معاه بقى.

ثم التفت إليّ مداعبًا:

- يا بخته اللي نجلاء راضية عنه، ويا سواد ليله لما تقلب عليه.

□□□

الطبلية على الأرض وأرواق جرائد قديمة تغطيها، أطباق صاج أعلم ملامحها تعطي في نفسي شيئًا من الراحة وتذكرني بزمن مضي - يبدو أن عبد القوي لم يدفع مليمًا في فرش أختي ولم يشترِ لها شيئًا - أطباق مرصوصة تتوسطها صنية الفتة بلونها الأحمر الشهير والأرز أسفل منها، مرصعة بقطع اللحم الضاني برائحته الشهية تتصاعد منها أبخرة الدخان

تغلف جو الغرفة برائحتها الذكية، شمر عبد القوي كلتا يديه وكأنه ذاهب إلى اغتصاب الطعام وليس أكله.. محمود ابنه الذي يرتمي في حضنه بجسده الضئيل يختبئ من الزائر الجديد الذي طل عليهم فجأة كسر روتين البيت كله.. نجلاء ومجلسها بجواري تسند يدها إلى الأرض متكئة عليها، تظهر على وجهها علامات الألم والتعب من مجهود.. كلها أشياء أضاعت كل ملامح الخوف التي كانت تعتريني.

شعرت مع عبد القوي بالراحة خصوصًا بحس الدعابة الذي لا يفارقه وقفشاته التي كانت على كل كبيرة وصغيرة، جلسنا على أريكة الصالة أسفل الشباك نحبس «بكباية» الشاي بعد هذه الأكلة، يبدو أنه كان من الشخصيات العملية التي لا تضيع الوقت ودخل في الموضوع مباشرة.

في البداية عندما أخبرني أنه يريد أن يتحدث معي ظننت أن هذا الفلاح يريد أن يفتح موضوع الشقة، ويريد لي أن أبحث لي عن مسكن آخر، لم يكن لدي رد إذا فتح هذا الموضوع لم يكن لدي أي فكرة عن رد فعلي.

- صلِّ على النبي.. قول عليه الصلاة والسلام يا مؤمن.

- عليه أفضل الصلاة والسلام.

- إحنا مش هنتكلم في القديم، خلينا في دلوقت. انت ارتاح لك يومين ونبدأ نشوف لك شغل، عندك مثلًا ممكن تنزل المكتبة معايا.. هي مش مكتبة كبيرة هو كشك صغير تحت كوبري «أبو الريش» بتاجر في الكتب القديمة، غير أن لينا معارفنا برضه كتير، ريح لك بس انت يوم

ولا اتنين وشد حيلك معانا بقى عايزين نجوزك، وأنا في سنك كان معايا اتنين يا راجل.

□□□

مضت ثلاثة أيام من الراحة الكاملة، صممت خلالها ألا أنام مرة أخرى في غرفة والدي الكبرى وتركتها - كما كانت قبل عودتي - إلى عبد القوي ونجلاء واستقررت أنا في غرفة صغيرة بها بضع أرائك كانت تستخدم لاستقبال الضيوف.

أكل ومرعى وقلة صنعة.. رغم أن المدة لم تطل في الإقامة في بيت أختي - الذي أصبحت أشعر بالغربة فيه رغم الترحيب الذي لاقيته - ولكن بمجرد عودة عبد القوي إلى البيت أشعر بأنني ضيف ثقيل الظل عليهم، لا يهون من هذا الشعور الذي كان يتخاطفني بين الحين والآخر إلا إحساس بأنني أسكن في بيت أبي وهو من يحل علينا أنا وأختي ضيفًا.

مع جلساتي مع نجلاء علمت منها الكثير، اشترطت على عبد القوي ألا يجلسها مع زوجتيه السابقتين اللتين تجلسان في بيت مِلْك تملكه زوجته الأولى أم نعمات، وبان من كلامها أن نعمات هذه من كان يرمي إليها أن أتزوجها، هي ابنة زوجته الأولى من زوجها الأول الذي كان يعمل عنده عبد القوي صبيًا، وعندما توفي تزوج زوجته وحافظ على فرشته، كانت في البداية فرشة كتب على رصيف مجاور لسور مدرسة السيدة زينب الثانوية بنات، يجلس فيها بائعو الكتب القديمة يشترون الكتب القديمة

ويعيدون بيعها إلى أن خصصت لهم الوزارة - لا أعلم أي وزارة ولكن هذا ما سمعته - مكانًا أسفل كوبري «أبو الريش» بجوار محطة مترو السيدة زينب، عبارة عن أكشاك متزاحمة أسفل الكوبري تكفي بالكاد لرص الكتب فيها، بينما يجلس أمامها على طاولة صاحب كل كشك.

تزوج عبد القوي زوجته الثانية وكانت مطلقة، والغريب أن الذي كان يسعى في زواجه منها زوجته الأولى إرضاءً لأخوها الذي كانت تجمعه مصالح (لا أفهمها حتى الآن) معها، وعاشا معًا في بيت واحد لا أعرف إذا كان الشيخ عبد القوي هو الذي أحكم سيطرته على البيت أم أن كلًا من الزوجتين تعرفان حدود علاقتهما ودورهما في البيت والحياة.

بالطبع كان الزيجة الثالثة من أختي في ظروف مشابهة لكل الزيجات السابقة، إلا أنها كانت البكر الأولى له فأذعن لطلبها ألا تذهب لبيت زوجتيه الأخريين، وهو شرطها الوحيد لإتمام الزيجة.

تعجبت من قوة أختي التي كانت تجلس بمفردها وسط رجالة الحي الذين اجتمعوا (ليستروا عرضها) كما أخبروها، وتقف لتُملي عليهم شروطها بكل قوة، على عكس صورة المرأة المنكسرة التي جاءت على بالي وهي تخبرني بخبر زواجها، وقد أوحت لي عيناها بأنهم أجبروها عليه، وبت ليالي أحلم بعذاب أختي التي تعمل خادمة وجارية عند شيخ سلفي يستخدمها لخدمة زوجتيه صباحًا ومزاجه الشخصي ليلًا.

□□□

(١٥) سعيد مرجان

لم يكن سعيد مرجان بالحالة التي تسمح له بالرد على كمية الرنات التي انهالت على هاتفه الجوال من نرمين أثناء انتظاره في مكتب سكرتارية السيد اللواء مدير الجهاز.

حالة من الفزع والضيق تسيطر عليه منذ مكالمة الاستدعاء التي تلقاها منذ ساعتين تقريبًا إلى جانب استدعاء رسمي في جهاز الاستقبال اللاسيلكي يطلب منه سرعة التوجه إلى مقر الجهاز بمدينة السادس من أكتوبر على عجل.

لم يعبأ المقدم/ سعيد مرجان بمثل هذه الاستدعاءات في بداية الأمر خصوصًا في يوم على مثل هذه الدرجة من الأهمية؛ فخلال عمله بالجهاز منذ خمس سنوات لم تكن له علاقة اتصال مباشرة برئيس الجهاز، إلا بعض الثناءات على عمله أو المهام التي توكل إليه بطريقة غير مباشرة، لكن أن يطلب رئيس الجهاز مقابلته بنفسه خصوصًا بعد الملاحظات التي تلقاها في آخر عملية فهذا شيء يدعو إلى الشك والريبة، فربما يلقى مصير من سبقوه. كلمة سمعها كثيرًا:

«العمل بهذا الجهاز كاللعب بالقنبلة، الغلطة الأولى هي اللحظة الأخيرة»

إلا أن سعيدًا ما زال مقتنعًا في قرارة نفسه بأنه عمل الصواب، وأن توقعاته للعملية تعد الاختيار الأصعب والأنسب، على الرغم من أنه تجاوز الأمر المباشر في تحديد هوية مرتكب الجريمة إلا أنها في النهاية تمت.. تمت العملية وبنجاح كامل، نجاح تستطيع القيادة السياسية استغلاله على الوجه الأمثل في استمرار قانون الطوارئ والتنكيل بخصومها السياسيين أصحاب اللحى منهم على وجه الخصوص.

لم يترك رنين الهاتف المحمول لسعيد مرجان من الوقت ما يحاول أن يستجمع فيه شتات أمره قبل المقابلة المنتظرة مع الرئيس، ليعود اسم والدته يظهر هذه المرة على شاشة الهاتف ليحاول أن ينهي هذا الأمر ليعود إلى صفاء ذهنه مرة أخرى، لعله يجد الرد المناسب لسؤال غاب عنه!

نظر سعيد إلى جهاز هاتفه المحمول بغضب قبل أن يضع إصبعه على زر غلق المكالمات لمدة طويلة، يعلن بذلك غلق الهاتف تمامًا، ويسود الهدوء بعض الوقت قبل أن يخرج عليه أحد أفراد الأمن بلباسهم المدني يسمح له بإشارة من يده دون أن ينطق ببنت شفة الدخول إلى غرفة الرئيس.

تقدم سعيد بخطوات بطيئة إلى داخل الغرفة التي بها من الفخامة ما يضاهي أفخر مكاتب مديري البنوك والمؤسسات المالية الأجنبية، على

عكس الصورة الكلاسيكية لمقرات الجهات الأمنية الغامضة، وهو يقف بين يدي رئيسه والكلمات التي بات يرسمها في بنات أفكاره باتت تتطاير من رأسه من مهابة منظر اللواء/ عزام المنياوي رئيس الجهاز الذي خلع النظارة وألقاها على المكتب أمامه بكل حنق وهم يمسح بيده وجهه، وهو ما ينفك يضغط على أعلى أنفه بالقرب من عينه علامة على صداع حاد يحاول أن يخفف من ألمه على رأسه.

- ممكن أفهم إيه العك اللي حصل دا؟!

- العملية نجحت الحمد لله يا فندم، وأنا متابع التليفزيون والناس كلها بتغلي، وبكدا تم تمرير قانون الطوارئ بغطاء شعبي وإعلامي رسمي ولا حد من المعارضة هيقدر يفتح بؤه.

- انت فاهم أنا بتكلم على إيه؟ العملية المفروض يقوم بيها واحد من فلسطين، حد من بتوع حماس، أو على الأقل واحد من عرب سينا، انت جبت لي شاب من السيدة زينب، أقول إيه أنا دلوقت للناس، أنا مشغل شويه (....) مش عارفين يعملوا شغلهم. أنا واخد العملية دي على مسئوليتي الشخصية بعيدًا عن رسميات الجهاز.. يعني لو طلع بيها خبر هلاقي نفسي كبش فدا للي أكبر مني، ودا كله ليه؟!.. علشان مشغل معايا شوية (....).

- يا فندم أنا شايف إن العملية نجحت، الناس كلها بتغلي، مجلس الشعب وافق على مد قانون الطوارئ،

قاطعه اللواء/ عزام المنياوي وهو يضرب بيده على المكتب.

- انت هتعرفني يا أفندي العملية نجحت ولا لأ.. مجلس الشعب إيه اللي أنا ههتم أشوفه وافق على مد قانون الطوارئ ولا لأ!.. شعب إيه اللي بيغلي! إعلام إيه اللي بتتكلم عليه!، أنا عندي وقت أتفرج على الأراجوزات دي... أنا بتكلم على الأوامر اللي اديتها ما تعملتش ليه.. يا حمار افهم إحنا مش لوحدنا، في أجهزة تانية أعلى مننا في البلد دي.. لو كُلفت إنها تحقق في الموضوع دا رقبتي أنا وانت هتطير ودا بسببك.

- يا فندم ما دا بناءً على ترشيح واختيار الشيخ «أبو حمزة» اللي انت حضرتك أمرت إنه يساعدنا في العملية.

- الشيخ أبو حمزه يتصفى... كفاية عليه كده.

- تمام يا فندم.

- تمام إيه؟ انت تعرف طريقه أساسًا؟

- أكيد يا فندم هوصله.

- يا شيخ اتلهي بلا ستين نيله، انت لو أعدت تدور عليه في بيت بيت في مصر مش هتعرف توصله.. أنا هشوف الأمر دا بنفسي.. مشكلتك انت دلوقت مش عايز شوشره ورا الموضوع دا وتقفل كل سكه ممكن تفتح علينا فاتحه، كلامي واضح.

- واضح يا فندم.

- مين عندك من طرفه دلوقت؟

- الدكتورة منال عشيقته.

- لا دي سيبك منها، مش هتوصل معاها لحاجه، دى كانت نزوه كده وخلاص.

- قبضنا امبارح على الشيخ عبد القوي جوز أخته وأخته.

- ملكش دعوه بالمرة، شغلك كله على الشيخ، يكون الواد اتكلم معاه في حاجه كده ولا كده، غير إنه هو دا أساسًا كان الواسطة بينه وبين أبو حمزة.

ألقى سعيد التحية العسكرية على اللواء، وهَمّ بمغادرة المكان قبل أن يسمع صوت اللواء يعاوده مرة أخرى بنبرة تحذير:

- سعيد، خف بهدله شويه على الشيخ مش عايزين مشاكل مع السلفيين، كمان كفايا دلوقت الإخوان مش عايزين نعمل مشاكل مع كل أصحاب الدقون.

نظر إليه سعيد نظرة لم يعرف كلاهما تفسيرها قبل أن يعاود إليه التحية العسكرية ضاربًا قدمه اليسرى في الأرض بشيء من الحقد، ويهم مغادرًا مقر الجهاز لآخر مرة في حياته.

□□□

(١٦) مريم سعيد

كانت الساعة تقترب من العاشرة، نظرت مريم سعيد في ساعة منزلها للتأكد من دقات الساعة التي سمعتها، لأول مرة منذ فترة لم توجد في إستديو القناة في مدينة الإنتاج الإعلامى لتقدم برنامجها على الهواء مباشرة، حالة من التعب والإرهاق قد ألمت بها في الفترة الأخيرة، خصوصًا بعد الحلقة التي قدمتها على الهواء مباشرة ليلة رأس السنة، وجاءتها فيها أنباء احتراق كنيسة القديسين وحالة الانفعال التي انتابتها على الهواء مباشرة، أحست بعدها أنها غير قادرة على إدارة الحوار، فاعتذرت عن تقديم البرنامج على الهواء، وبعد اللقاء تقدمت بطلب إجازة إلى رئيس القناة الذي كانت تربطها به علاقة قوية منذ أن زاملها أثناء حادث مقتل زوجها في لندن منذ سبع سنوات ليعود إلى مصر كرجل أعمال مهتم بالإعلام، وشريك مع بعض رجال الأعمال الخليجيين في مجموعة قنوات فضائية فيما يعرف بعصر السماوات المفتوحة، والذي أتاح لها العمل كمقدمة برنامج «توك شو» بعد أن عرضت عليه الفكرة حينما كانا يتناولان العشاء في أحد مطاعم لندن الفاخرة، بينما كانت هي تناقش رسالة الماجستير الخاصة بها.

لقد حققت مريم سعيد وبعد أيام قليلة من البرنامج نجاحًا كبيرًا لم يكن متوقعًا له خلال الفترة القصيرة هذه، لضحكتها الصافية وملامح وجهها الشرقية التي يملأها الرقة وعذوبة صوتها، هذا إلى جانب مواقفها الجريئة التي كانت ظاهرة جديدة على وسط إعلامي رسمي كان يحتل فيه الرئيس مكان الصدارة والقداسة، لتأتي هي وتخترق أولى مقدسات الإعلام المصري بالحديث عن الرئيس ورموز نظامه، مستغلة في ذلك ثقة مطلقة من رئيس القناة إلى جانب غطاء أمني لا يمكن إغفاله كأرملة أحد رجال المخابرات الذي قتل في عملية سرية في لندن لا يعرف أحد عنها شيئًا، هذا إلى جانب اهتمامها بقضايا الإنسان المصري البسيط والتجول في أعماق المشاكل الاجتماعية المعاصرة بصورة بسيطة بعيدًا عن زيف الإعلام وكذبه، وهو ما جذب إليها أنظار واهتمام الجميع في المجتمع في فترة قصيرة.

في البداية، لم يثنِ الكثير من مُلاك القناة على ما كانت تقدمه على شاشة برامجها، إلا أنه بعد اهتمام الشارع بها والتي باتت دقات العاشرة مساء موعدًا يجتمع فيه جميع أفراد الأسرة ليشاهدوا فقرات برامجها، كما اعتادت الأسرة منذ عشرات السنوات القليلة السابقة أن تلتف حول شاشة التلفاز لتشاهد مسلسل الساعة السابعة على القناة الأولى.

جلست مريم هذا المساء على الأريكة الفاخرة المقابلة لشاشة التليفزيون (lcd) الكبيرة التي كانت تغطي معظم الحائط المقابل لها لتنعم مثل باقي المشاهدين بلحظات الراحة والاسترخاء التي ينعمون

بها بعد قضاء يوم عمل شاق، يجلسون فيه قُبيل نهاية المساء بلحظات قليلة حول شاشة التلفاز ممسكين بأيديهم جهاز التحكم، يتنقلون بين القنوات الفضائية التي غزت البيوت المصرية، كانت هذه الإجازة بمثابة فرصة جديدة لمريم لالتقاط الأنفاس بعد سنوات من العمل المتواصل في إعداد البرنامج الذي تشارك فريق العمل فيه كل كبيرة وصغيرة، من بداية اختيار الفقرات والديكور إلى الإضاءة ودخلة الكاميرات، لتجد نفسها أيضًا في البرنامج متنفسًا لها بعد أن اهتمت بمشاكل البسطاء التي لم تعفها طبقتها الراقية من الاهتمام بمشاكلهم في برامج «التوك شو» التي باتت تغزو القنوات الفضائية، وبات كل صاحب قناة يسعى إلى اجتذاب أشهر مذيعي التوك شو الذين غلبت شهرتهم شهرة الفنانين، وباتت أسعارهم في الحلقات تتجاوز أسعار كبار نجوم الشباك في السينما المصرية.

كانت القنوات الفضائية كما هي رتبتها على جهاز الاستقبال بداية من القنوات الدينية التي يأتي على رأسها قناة المجد للقرآن الكريم والتي ترتل القرآن طوال الأربع وعشرين ساعة بصوت جميع مشاهير القراء، وإن كانت لا تسمع هـذه القناة إلا في الصباح حينما تقوم من نومها لتعد الإفطار بنفسها لابنها الوحيد إلى أن يصل أتوبيس المدرسة، ويستقبله الطفل بعد أن تمتع نظرها بابتسامته الرقيقة وتلويح يده لها بالسلام والسيارة مسرعة تغادر شارعها، بينما رقبة الطفل الصغير ما زالت ملتفة من نافذة السيارة المسرعة متشبثة بآخر نظرات من وجه أمه، لتعود إلى

غفوتها مرة أخرى قبل أن تستيقظ مرة أخرى في الثانية ظهرًا مع قدوم ابنها من المدرسة لتتغدى معه، وتبدأ رحلة عملها اليومي الذي ينقسم الجزء الأول منه إلى اجتماع مع طاقم العمل للإعداد للحلقات القادمة، ثم فترة استراحة بعدها يبدأ البث المباشر لبرنامجها الذي زادت ساعات عرضه من ساعة يوميًا إلى ثلاث ساعات أو أكثر، بحسب الشخصية التي تستضيفها وبناءً على الضوء الأخضر الممنوح لها من رئيس القناة وأحد أهم الشركاء الخليجيين الذي بات يتغزل في جمالها في الفترة الأخيرة.

لم تقف مريم كثيرًا أمام القنوات الكوميدية التي تجاوز عددها العشرة، وهي تعرض نفس المشاهد الكوميدية التي لا تخلو من الإسفاف والتفاهة؛ حيث انقطعت الشعرة بين الكوميدية والإسفاف لتنتهي بسرعة من هذه القنوات لتبدأ قنوات الأفلام، كانت القائمة طويلة كمية من قنوات الأفلام حتى باتت لا تتذكر أسماءها، لم تخلُ من بعض الأسماء الشعبية والتي تعرض أفلام السبكي الحديثة، لم تتابع الكثير منها؛ فلم يكن ذهنها الآن يسمح بمتابعة فيلم سينمائي يستمر لمدة ثلاث ساعات، ناهيك عن الفواصل الإعلانية المملة التي تعلن عن أدوات منزلية ومراتب والتي تأخذ وقتًا أكبر من وقت الفيلم نفسه، حتى ينسى المشاهد أحداث الفيلم قبل عودته، أو ربما يأخذه الملل ويلجأ إلى تحويل القناة ومتابعة فيلم آخر، وينسى ما كان يشاهده قبلًا.. ظهرت على وجهها ابتسامة تذكرت معها لحظات كانت تنتظر فيلم السهرة يوم الثلاثاء في القناة الأولى ومسرحية «العيال كبرت» على القناة الثانية في

السهرة يوم الخميس، أنهت تدويل القنوات الثلاثين الخاصة بمسلسلات التليفزيون التي ما زالت تتبارى في عرض مسلسل محمود عبد العزيز «رأفت الهجان» الذي يذاع على خمس قنوات فضائية في وقت واحد، وربما يتابعه المشاهدون في الخمس قنوات معًا، أنهت بسرعة قنوات الأغاني الخليجية التي ملأت الفضائيات بنسائها المتوشحات بملابس ضيقة بشعورهن الطويلة وأجسادهن الراقصة على أغاني ربما لا يفقه مطربها شيئًا من كلماتها، وهي تتعجب من كمية هذه القنوات الخليجية التي يقترب عددها من عدد سكان إحدى دول الخليج لتصل في النهاية إلى القنوات الرياضية التي كان ابنها لا يقوم من أمامها.

على الرغم من عدم اهتماماتها بالرياضة فإنها في هذا اليوم توقفت كثيرًا أمام مقدم البرنامج الشهير وحارس مرمى مصر الأسبق، الذي كان يظهر في كل القنوات والشاشات في كل الأوقات بوجهه المزيف الذي بات الناس يكرهون حتى أسلوبه في الحوار، لتهرب منه جميع القنوات قبل أن يفتتح له قناة خاصة به (مع شريك من الباطن رجل أعمال وعضو بارز بلجنة السياسات في الحزب الحاكم) يظهر فيها طوال الأسبوع وقتما شاء ويتحدث فيها عن جميع القضايا السياسية والاقتصادية والاجتماعية؟! على الرغم من أن القناة كانت رياضية إلا أن المذيع الشهير اتخذها مرتعًا له يعبر فيها عن آرائه السياسية التي لا تعني أحدًا غيره في شيء إلا نفاقًا لمن يتملقهم ليصعد على أكتافهم.

لم يكن مذيعًا شهيرًا ولاعب كرة قدم قديمًا فقط، بل كان عضوًا بارزًا

في الحزب الحاكم في مصر، وليست مريم سعيد في حاجة إلى من يوضح لها أسباب تألق نجمه في سماء السياسة والإعلام بعد أن كان زميلًا لها في نفس القناة يقدم برنامجه الرياضي الأسبوعي الذي استهوى المشاهدين، وتجمع حوله عشاق الرياضة مرة كل أسبوع، حتى تحول يوميًا استغلالًا للنجاح الذي حققه قبل أن يستغل حضوره الإعلامي القوي في الترويج لسياسات الحزب الوطني الحاكم، والتنكيل بكل خصومه السياسيين، باعتبارهم خصوم الوطن أصحاب أجندات أجنبية وأيادٍ مندسة لتدمير أمن وسلامة واستقرار الوطن، الوطن الذي ينعم في رغد العيش في ظل القيادة الحكيمة لسيادة الرئيس!.

كانت دموع هذا المذيع تنهال من عينيه كدموع التماسيح وهو يعرض الصور ولقطات من الأحداث المأساوية التي تعرضت لها الأسكندرية مع بداية السنة الجديدة، صور الحادث الإرهابي الشنيع الذي هز أركان الاستقرار القومي، وهو يدعو المصريين بجميع طوائفهم وميولهم للاتحاد في هذه اللحظة، وبينما كانت الدموع تنهمر بشراهة وصوته يكاد يختنق من حالة حزن وانفعال مصطنع، حاول أن يرسمها على وجهه فيما يظهر في الخلفية رئيس الجمهورية بملامح وجهه التي تعلوها علامات الحزن والألم وهو يلقي البيان الخطير إلى الأمة في هذه اللحظات العصيبة التي تمر بها البلاد.

لم يكن لاعب منتخب مصر في كأس العالم هو الوحيد نجم برامج التوك شو الرياضية، ليأتي منافس له في الصدارة، إنه اللواء السابق ومقدم

البرامج الترفيهية في شهر رمضان السابق أيضًا، ليجد في هذه الفضائية مرة أخرى مرتعًا له ليدهشنا يوميًا بخفة دمه الثقيل واستظرافه المتواصل، وعلى عكس الحال في قناة اللاعب الشهير كان الوضع في قناة سيادة اللواء، فالمرح واللهو لم ينقطع عن هذه الحلقة رغم إعلانه في بدايتها أنها ستكون حلقة حداد على أرواح الشهداء في الحادثة الإرهابية، وبعد أن عرض بعض الصور للحادث والترحم على الشهداء الكرام على شاشة قناته الموضوع على زاويتها العليا شريطة سوداء حدادًا على الشهداء، قبل أن يقرأ رسائل المشاهدين من جهاز اللاب توب الموضوع أمامه، وهي الرسائل التي لا تخلو من السخرية والدعابة والشكر له ولأسرة القناة على المجهود الذي يبذله، وهو يرد على كل رسالة سريعًا قبل أن يقرأ الرسالة التالية لها؛ فربما تكون نكتة إباحية فتعلو الضحكات شفتيه وهو يقرأها، أو ربما تكون حديثًا شريفًا فيحاول أن يرسم على وجهه آيات الإيمان وهو يتلوه و«يمصمص» شفتيه من التقوى والإيمان.

أدارت مريم جهاز التحكم الذي في يدها على باقي القنوات المنتظرة في قائمتها المفضلة لتجد نفسها عائدة مرة أخرى إلى أعلى قائمة القنوات، مستمعة إلى صوت الشيخ محمد الطبلاوي يتلو ما تيسر من سورة التكوير.

حالة من الملل شعرت بها مريم وهي تعيد نفس القنوات لتشاهد نفس المذيعين تتحدث عن نفس الموضوع، ربما أساسًا مع نفس الضيف التي تتعجب من ظهوره في برنامجين في وقت واحد على قناتين مختلفتين، يكسو

وجهه علامات الجدة العسكرية مزين اسمه الموضوع أسفل الشاشة بلقب(اللواء) بينما يختمها بمهنة «الخبير الإستراتيجي»!.

لم تكن مريم سعيد بعد هذه الجولة في حاجة إلى قوائم الاستقصاء التي طلبت من إحدى طلابها في الجامعة عملها كبحث عن أسباب عزوف المشاهد عن برامج التوك شو، وهو البحث الذي كان يمثل لها هي شخصيًا حلقة هامة في حياتها بعد انخفاض نسبة الإعلان بصورة واضحة في برامجها في الفترة الأخيرة، وهو ما يعني الموت لها.. فضائية بلا إعلانات كجسد بلا حياة، إلا قنوات التمويل الخارجي الموجه والتي أصرت الابتعاد عنها.

□□□

(١٧) القــــاهــــرة

قبل ثلاث سنوات..

استقبل وكيل النيابة التقرير الطبي المرفق مع طلب الإفراج عن المتهم في قضية مضى عليها ثلاث سنوات، لم تغب نظرة المتهم عن ذهنه لحظة، ولم يغفل فيها عن متابعة سير العلاج مع د/ يارا خلال تلك الفترة لتصل إلى محطة النهاية مصحوبة بطلب الإفراج عنه والتقرير الطبي الخاص بالحالة.

لم يعبأ بكمية الأوراق والأختام المرفقة معها والتي كانت تنتظر توقيعه الأخير حتى يتأكد من الحالة بنفسه، قبل أن ينتقل إلى مقر مستشفى الأمراض النفسية بالعباسية لمقابلة د/ يارا ومشاهدة الحالة بنفسه.

في غرفة متواضعة يجلس بها الأطباء ونحو مائدة طويلة يجتمع حولها الأطباء تقدم أشرف وكيل النيابة ليقابل د/ يارا التي رحبت به ترحيبًا مبالغًا فيه، وشكرته على اهتمامه بالحالة التي أراد أن يشاهدها بنفسه، قبل أن تأخذه إلى غرفة فارغة تمامًا إلا من لوحة زجاجية كبيرة تتوسط

الحائط الأمامي لها تكشف بوضوح الغرفة الفاصلة بينهما؛ وما يحتاج الوضع لكثير من الشرح حتى يفهم أن هذا زجاج عاكس يُرَى من جهة واحدة، بحيث يشاهد هو مَن خلف الزجاج، بينما الناحية الأخرى تكون مرآة تعكس وجه الناظر إليها.

كان المتهم يجلس على سرير أبيض حديدي قديم، هادئ الطبع على عكس الصورة الكلاسيكية لمريض بمستشفى الأمراض العقلية، والتي ما كان يتخيل المتهم عليها، فهو يمسك بيمينه مجموعة أورق يقلب فيها باهتمام بالغ بنظرة إعجاب وثقة في النفس.. تبادل وكيل النيابة نظرة راحة مع دكتورة يارا التي أخذته إلى كافيتريا المستشفى لتكمل معه الحوار.

- انتِ شايفة إن الحالة مستقرة وتسمح له بالخروج للحياة مرة أخرى والتعامل مع الناس برا؟

شعرت دكتور يارا بمغزَى وراء كلام وكيل النيابة، وكأنه يشكك في تقريرها أو يحاول أن يؤجل طلبها في الإفراج عن المتهم، فردت عليه ونبرة صوتها لا تخلو من الحدة:

- أظن التقرير المرفق مع سيادتك بيوضح أن الحالة في تحسن مستمر، وأن بقاءها في المستشفى مبقاش له لازمة. دا غير أن خطة العلاج الموضوعة له تتطلب احتكاكه بالمجتمع والتعايش معاه.

- د/ يارا أنا مقدر مجهودك مع الحالة دي.. واطلعت على التقرير بالتفصيل، وأظن إن الحالة دي هي موضوع رسالة الماجستير ليكِ، وأنا

ماش بشكك في مجهودك بس الفكرة إن الموضوع مش حالة مرضية عادية المريض فيها هياخد فترة علاجه في المستشفى ويخرج يكمل علاجه برا.. دا متهم في قضية الشروع في قتل ومن حقي أضمن إن الحالة استقرت وما أعرضش الأبرياء برا لخطر مجنون.

هزت كلمة مجنون في نفس يارا وهي تخاطب وكيل النيابة:

- أظن حضرتك عندك من الثقافة اللي تسمح لك بالتفرقة بين المريض النفسي والمجنون.. الحالة دي مش حالة جنون هو شخص كان بيعاني من فصام في الشخصية بصورة غريبة.. ماكنش بيقدر يتأقلم مع الواقع بتاعه، أو بمعني أدق مش قادر يندمج مع المجتمع، فكان بيهرب من مشاكله بالخيال. كل ما يحلم بحاجة أو يتمنى حاجة ما يقدرش يحققها على أرض الواقع كان يعيشها في خياله، ودي حالة ممكن يكون كل إنسان بيعشها عندما يعجز الواقع عن استيعاب الحلم يبدأ الخيال.. لحظة ارتكاب الجريمة انقطع الحبل الرفيع اللي بين الواقع والخيال ومبقاش عارف هو عايش في الواقع ولا في الخيال أو حاول إنه يثبت لنفسه إنه مش عايش في الخيال.. كان إنسان نفسه يحب ويتحب.. نفسه يعيش لحظة إن في حد متمسك به.

- بس أنا قريت في التقرير أنه بينكر كل اللي حصل، وكان بيقول أن كل دا كان جزء من رواية بيكتبها وأنه كان بيحاول يعيش تجربة البطل في الرواية بتاعته!.

- بالظبط.. الحالة دي لو قعدت معاها هتلاقيها متزنه جدًا.. شخص على قدر عالي من الثقافة والأدب والاحترام.. هو مشكلته بس إن خياله واسع.. بيعيش كل لحظة في حياته.. أحيانًا بيتقمص دور مؤلف رواية بينسج أحداث روايته في خياله، وأحيانًا بيبقى بطل من أبطال روايته.. بيعيش كل لحظاتها وأبطالها.. أنا قعدت معاه أكتر من مرة واتكلمت معاه في الموضوع دا.. هو مشكلته بس إنه بيخاف يوصل للي كتبه في روايته.. بيخاف يكون طه أو محمود.. بيعيش لحظة الغربة اللي عاشها محمود وبيعيش لحظة الغدر اللي بيعيشها طه.. وجوده في المستشفى مش هيفيده بالعكس.. لازم يخرج ويحتك بالواقع ويعيش التجربة كاملة.. لازم يحتك بالمجتمع ويبقى جزء منه.

- أنا مقدر اهتمامك بالحالة، بس دا مش لازم يبقى على حساب الناس برا.

- ياريت الناس بس برا تقدر تتعايش معاه، أنا مش خايفه على المجتمع منه.. أنا خايفه عليه من المجتمع.. الجنون مش في المستشفى يا أ. أشرف الجنون الحقيقي في المجتمع برا.

أخرج وكيل النيابة سيجارة من علبة سجائر كانت موضوعة أمامه وعزم على د/ يارا التي شاركته التدخين، وقد بدا شارد الذهن للحظات قبل أن يستجمع شتات أمره ويكمل حديثه.

- أنا موقع بالموافقة على الأوراق، ونقدر نستكمل الإجراءات بشكل طبيعي، يمكن نقدم للمجتمع إنسان صالح.. يمكن نقدم للمجتمع إنسان جديد، ودا أظنه نجاح كبير لو قدرنا نحققه.

- وأنا واثقة من كده، بس المجتمع يسيبه في حاله.

□□□

(١٨) محمـــــــود

كما وعدته جهزت نفسي بعد صلاة الفجر ونزلت مع عبد القوي أجلس معه عند أكشاك بيع الكتب القديمة.. سلكنا أسهل الطرق، الطريق الفاصل بين قلعة الكبش وشارع زين العابدين من المنطقة الخلفية للحي، وإن كان تحوطه الأكشاك البالية التي كان يقطنها بعض الهاربين من ثأر في الصعيد أو المسجلين خطر، وبعض الفقراء من أبناء الحي وأرباب بعض الصناعات الفقيرة، والذين اتخذوا من المنطقة الفاصلة بين قلعة الكبش وزينهم مأوًى لهم، والمتشردين والمتلطعين على النواصي، وقد لاحظت أن عبد القوي لا يفوّت إلقاء السلام عليهم، وعندما سألته كان جوابه قاطعًا:

- حتى لو واحد فيهم في نيته شر ناحيتك، السلام يحفظك وتتقي شره؛ أفشوا السلام بينكم.. صدق رسول الله ﷺ.. سنة مجهورة يا محمود يا بني.

وصلنا إلى الطرف الأيمن لبداية الشارع الذي تترامى عليه أكشاك بيع الكتب.. أكشاك لا يتجاوز عرض كلٍّ منها مترًا إلى متر ونصف،

تتعالى على قممها أسماء المكتبات وأصحابها.. في البداية أخذني الفضول والشوق إلى هذا المكان.

كنت أحسبه سيكون ملتقى تتبارى فيه أسماء كبار الكُتاب، وتتداخل الأسماء والموضوعات في فوضى مشوقة في لوحة زينة لكمية غير محدودة من كتب الأدب والشعر والسياسة والتاريخ والدين واللغة والحضارة والفلسفة.. ليتحطم كل ذلك بالواقع الأليم.

معظم الأكشاك عزفت عن بيع الكتب القديمة واكتفت بالكتب الدراسية، فبمجرد أن ينهي الطالب امتحانه يأتي هنا ليبيع الواحد منها بجنيه أو اثنين، لا أعرف ماذا يعمل بهذا المبلغ الزهيد، ليعاود تاجر الكتب بيعها مرة أخرى إلى تلاميذ ضاعت منهم كتبهم ويخشون عقاب المدرس، أو لتلميذ يريد كتابًا يضعه في البيت؛ لأنه يترك كتابه في المدرسة حتى يخفف عنه حمل الحقيبة المدرسية، أو لتلميذ مجتهد يشتري الكتب قبل الدراسة ليبدأ المذاكرة «بدري»، ولكن أكثر هذه النوعيات حظًا ذلك الذي يشتري الكتب القديمة، لأن التطبيقات تكون محلولة فيها، فلا يجهد نفسه في حلها ولا يعبأ بحمل الواجب المنزلي.

أما باقي الأكشاك فكانت قد تخصصت في كتب الدين، المجلدات الكبيرة منها التي يتجاوز عددها العشرة مجلدات للعنوان الواحد، مجلد بجلدة خضراء مكتوب اسم الكتاب عليها بالذهب، على كل مجلد جزء من الاسم ليكتمل الاسم باكتمال وضع كل المجلدات بجوار بعضها.

أذكر منها: شرح صحيح البخاري، والفتوحات المكية لابن عربي، والبداية والنهاية لابن كثير، وفي ظلال القرآن لسيد قطب، والتفسير الميسر لمحمد سيد طنطاوي، وغيرها من الأسماء.

ما بقي من المكتبات اهتمت بالأدب، وإن كان أغلبها أصبح مكتبات لبيع الكتب الأجنبية باللغات المختلفة، لتجد في طلاب كليات الآداب واللغات والألسن زبائن لها.

على الطرف الآخر من ناحية الشارع يقبع مكرم القهوجي، أول من عرّفني عليه الشيخ عبد القوي مستخدمًا اسم «العفريت مكرم»، يفرش «نصبة شاي» أسفل الكوبري عبارة عن درفتي صاج يغلقهما نهاية اليوم بقفل نحاسي يضع فيها أدوات بسيطة من بضع كبايات زجاجية اصفرّ لونها من قلة النظافة، وموقد نار للقهوة و«بستلة» كبيرة يغلي دائمًا فيها المياه المعدة للصب بـ«الكوز» الألومنيوم الصدئ الموضوع فوقها.

من كلام الشيخ عبد القوي على مكرم العفريت أنه «سبع صنايع»، يشتغل في كل شيء، ملامح وجهه العظمي وجسده الطويل وملابسه الرثة «بنطلون جينز زهري وقميص أبيض ضاعت ملامحه» لا يُنبئ أبدًا عن سنه الذي أخبرني به الشيخ عبد القوي.

- آه والله زي ما بقول لك كده، ٣٧ سنة.

من الواضح أن مكرم يستخدم نصبة الشاي كغطاء لأعمال أخرى، فهو

أساسًا مسجل خطر سرقة وهجّام، عمل فترة كمرشد للمباحث في تلميع كثيرًا ما يذكر به زبائنه ليرهبهم منه، أو في خناقة قبل أن يقول:

- دا أنا جسمي من جوه خريطة.

كذلك يخدم مكرم من يريد قرش حشيش، قطعة سلاح، سيجارة بانجو «خالص ويعرف يخلص حاله من الآخر يعني»، ولكنه في النهاية شخص محبوب من الجميع، يتميز بخفة الظل تظهر في لهجة كلامه وسرعة حركته التي لا تهدأ بين أكشاك الكتب.

جلس الشيخ عبد القوي على الكرسي المجاور لكشك الكتب، ومد يده يجذب الكرسي المجاور، وأذن لي بأن أجلس عليه بجواره.. بدأ عبد القوي برص كمية كتب بجوار بعضها على المائدة التي حملها على ساقين من الخشب المتعاكسين على شكل (x) أمام الكشك للعرض المباشر أمام الجمهور.

- الكتب بتكسب يا عم عبد القوي؟

- والله يا محمود يا بني انت شايف الحال.. السوق واقف والزبون مبقاش زي الأول - اللي جاي يشتري كتب مدرسة أو روايات قديمة، كمان الكتب الدينية سعرها غالي - والناس بتكسل تقرأ، وبقت تستسهل الشرائط الكاسيت، غير بقى لما القنوات الدينية فتحت دي قضت علينا خالص، السوق بار خلاص أهو حاجه بدل القاعده، وتكسب فيها ثواب.

بينما كنت أتبادل الحوار مع الشيخ عبد القوي الذي كان لا يقطعه إلا زبون يقف أمام الكتب يقلب فيها فيسأل: بكم هذا وبكم ذلك، بعضهم يهتم به عبد القوي، والبعض الآخر لا يعبأ حتى بالرد عليه إلا بكلمات متقطعة، وعندما سألت:

- في زبون يشتري وزبون بيحب يسأل ويمشي، بكرة تعرف تميزهم.

فهمت ما كان يصبو إليه عبد القوي، إلا أن هذا الجو رغم ما أشاع في نفسي حنينًا للكتب وإحساسًا بالتميُّز في هذا الجو، إلا أنه لم يكن ما كنت أصبو إليه، بالطبع لم أجرؤ على أن أخبره برأيي في هذا الوقت، خصوصًا أنه لم يصرح لي وربما يكنّه لي بأن هذا المكان الذي سيكون ملاذي الأخير إذا تقطعت بي السبل وضاقت عليّ الأرض بما رحبت.

حتى اقترب منا رجل في حوالي الأربعين من عمره، قصير القامة، طويل اللحية، يرتدي جلبابًا أبيض قصيرًا يصل إلى ما أسفل ركبتيه بقليل، يرتدي عليه «صدري» أسود اللون، وعلى رأسه طاقية سوداء، وفي يده مسبحة طويلة، على خلاف عبد القوي لم يكن يرتدي الشبشب بل حذاءً يلمع من أشعة الشمس المنجذبة إليه.. لهجته تدل على أنه ليس من أهل القاهرة، ولا لهجة أهل الصعيد التي أعرفها، ولكن لكنته الغريبة تميل إلى العربية البدوية والتي تتناسب تمامًا مع ملابسه.

رحب به عبد القوي ترحيبًا لم يكن على المستوى الذي كنت أتوقعه، خصوصًا من ملامحه التي جعلتني أظن لوهلة أنه ربما يكون صديق عبد

القوي المقرب.. مد هذا الرجل يده وجذب كرسيًّا كان من الواضح أنه يخص كشكًا آخر، وبدت على وجهه علامات الضيق والأرق.

- كنت فين يا شيخ؟

- هكون فين يعني أهو زبانية جهنم جم خدوني من بيتي من يومين ضرب و إهانة وشتيمة وبعدين يفرجوا عني.

- عليك بإيه كل دا يا شيخ؟

ظهرت علامات الضيق أكثر على وجه هذا الرجل الذي بات يأخذ نفسه بصوت مسموع يعلو معه صدره.

- وأنا عملت إيه يا عم الحاج؟! ما أنا في حالي أهو! هما اللي بييجوا يخدوني من بيتي.. والله الواحد يرجع الواحة يجمع البلح من النخل أحسن.. مين دا؟!

نقلة الحوار المفاجئ بالاستفسار عن شخصي أصابتني بالدهشة والخوف، فقال الشيخ عبد القوي:

- محمود.. أخو مراتي كان مسافر ورجع.

- حمد الله على السلامة.. في حد يرجع المخروبة دي، خدها من قاصرها وارجع تاني.

غير عبد القوي مجرى الحوار وهو يعرفني بهذا الشخص:

- الشيخ سويلم المصري.

مد يده يسلم عليّ والابتسامة تعلو شفتيه بكل ود وكأنه يعرفني منذ زمن طويل، وهو يقول لي:

- قولي «أبو حمزة» على طول.

وحاولت أن أرد إليه المجاملة.

- ربنا يخليهولك هو كام سنة؟

تعالت ضحكات الاثنين معًا، فهمت من خلالها أن «أبو حمزة» مجرد لقب له ولم يكن له ولد اسمه حمزة، لم يطل أبو حمزة الجلسة معنا، وهمّ قائمًا يتوجه إلى كشك كتبه وهو يسلم على يدي ويضغط عليها وهو يقول لي.

- لينا قاعدة كبيرة مع بعض يابو محمود.

اقدم مني عبد القوي مرة أخرى يضع يده على ساقي وهو يقول لي:

- ها يا محمود، إيه رأيك في الجو هنا.. تبتدي معانا من بكرة.

- والله يا شيخ عبد القوي أنا مش عارف أقول لك إيه؟ الجو هنا جميل والناس محترمة وما شاء الله عليكوا كلكم، بس مش دا الجو اللي بحلم بيه أنا عايز أستقر في حاجة أكون فيها نفسي.

- يا محمود انت زي أخويا الصغير وصعب تلاقي حاجة كويسة؛ حتى لو مش علشان شاهدتك علشان الموضوع القديم.

أسررتها في نفسي - وإن كانت ظهرت على ملامح وجهي التي تغيرت وبت أشعر بالدماء تتحرك فيه، وكأن جيش نمل يغزو كل جسدي إلا أن هذه الحالة لم تكن غائبة عن عبد القوي الذي ارتسمت على وجهه ابتسامة يحاول أن يخفف بها ما كان للكلمة من صدى في نفسي ظهرت مع أسنانه المتآكلة، لكنها أعادت البسمة على وجهي.

- والله يا محمود أنا بعاملك زي ابني أو أخويا الصغير.. وأنا عايز أخدك لابنتي فأمرك يهمني.

أهملت الموضوع بعد الانتقال من التلميح للتصريح إلى أن عاود كلامه مرة ثانية:

- وإحنا لينا معارف كتير، يعني يوم ولا اتنين وربنا يرزق بحاجة أحسن إن شاء الله، متشيلش هم انت بس وارمي تُكالك على الله، وعلى عمك عبد القوي.

□□□

بينما أقبع في البيت تنتابني لحظات الضيق من تلميحات عبد القوي عن ضرورة أن أبحث عن عمل تارة، وعن أن أرى العروسة التي يصر على أن يزوجني إياها والتي انتقلت مرحلة التلميح والتصريح إلى حد أن جاء بالبنت إلى البيت وأجلسها معي.

كانت بنتًا تظهر على ملامحها الهدوء والراحة، في حوالي العشرين من عمرها، أو ما يقل بقليل عن ذلك، كلماتها بسيطة، مفرداتها توضح أنها

تربت في بيئة دينية محافظة، عيناها لم تفارق الأرض طول الجلسة، حينما خرجت عليها كانت تجلس بعباية بيضاء أما وهي مغادرة المنزل عائدة إلى بيتها أنزلت الطرحة على وجهها لأعلم أنها منتقبة، بالمناسبة في هذا اليوم أول مرة أعرف أن أختي هي الأخرى منتقبة عندما خرجَتْ معها لتشتري لها بعض المستلزمات (حجة مجيئها إلى البيت).

عندما خرجت أختي مع هذه العروس انفرد بي عبد القوي الذي جلس بجواري يحاول أن يملأ جو الحوار بالود.

- ها.. إيه رأيك في العروسة؟

كانت هذه الحركة منذ بدايتها قد أثارت حفيظة نفسي، أن أستيقظ في الصباح أجد أحدهم آتٍ لي بعروسة لحد البيت! شيء يثير حفيظة أي إنسان.. فوجهت كلامي بكل حدة إلى عبد القوي وصوتي لا تخلو منه نبرة الغضب.

- أنا سبق وقلت مش عايز أتكلم في الموضوع دا.. أنا مش بيعة وشروة.. انت عايز تحافظ على فلوس البنت وميراثها علشان ما يخرجش برا إيدك.. أنا مش زيك يا شيخ عبد القوي باصطاد الأرامل والمطلقات علشان فلوسهم ويصرفوا عليا.

ظهرت كلمات الغضب على وجه عبد القوي الذي قام من جواري على الأريكة ملقيًا بحدة الفوطة التي كانت على كتفه، كان يجفف بها ماء الوضوء وهو ينظر إليّ بكل حدة موجهًا كلامه إليّ:

- يا أخي انت مش عارف انت عايز إيه، نعمل لك إيه تاني؟! لا عايز تشتغل ولا عايز تتجوز، ولا عارف تصرف على نفسك ولا حتى عارف تدور على شغل، نايم ليل ونهار ولا حتى بتحاول.. اخرج حتى اقعد على القهوة مع حد.. إيه اللي انت فيه دا.. عيشة مؤرفة.

قالها وهو يعطيني ظهره متوجهًا إلى غرفته التي كانت في الأصل غرفة والدي لأدخل أنا الآخر غرفتي ألقي بجسدي على الأريكة سارحًا في بحر من الخيال، متخذًا من سقف الغرفة المتساقط من جراء الرطوبة والتي ترسم عليه خريطة من الأملاح، تظهر مع تقاطع خيوطها وجه حبيبتي المأمول، والتي تبتسم لي بثغرها الرقيق وتهفو هفو الريح الحاملة لنسيم هواء الصباح، يرسم نداه على وريقات الورد بشعرها الأصفر الحريري الذي يصل إلى منتصف ظهرها، وبلوزتها البيضاء المطعمة بـ«الترتر» الأزرق من جهة الصدر والجنبين، وبنطلونها القماشي الخفيف ذي اللون الأصفر، وأنا أتبادل معها نظراتي الأولى في مكتبة نبحث فيها عن نفس الكتاب الذي لمسته أيدينا في نفس اللحظة التي التقت فيها عيني بعينها، فابتسم الحب بداخلي وأنا أحاول أن أجتذب طرف الحديث معها والخجل يحدو حديثنا.

خِفت أن تسيطر عليّ هذه الحالة مرة أخرى، لم ينقذني منها إلا صوت إغلاق الباب بقوة، مؤشرًا على مغادرة عبد القوي للبيت، بينما توجهت أنا مباشرة إلى الدولاب أبدل ملابسي.

كنت أحتاج أن أرى د/ يارا الآن...

□□□

كانت هذه زيارتي الأولى للدكتورة/ يارا منذ مغادرتي المستشفى، كنت أشعر بتغير في طريقتها، باتت أكثر ألمًا، كنت أسمع في صوتها نبرة شجن يأخذني من الدنيا، باتت تسمع أذني كلمات منها لم أعهدها من قبل.. كلمات عن ظروف الحياة؛ أن الدنيا لا تعطي لها شيئًا، كنت أشعر أحيانًا وهي تكلمني أنها توجه هذا الكلام إلى نفسها.

في هذه الجلسة أعطتني هذا الكشكول.. أخرجته من درج مكتبها وكتبت عليه إهداء بخطها العربي الرديء

«كن أنت كما تريد بين دفتي هذا الكتاب»

د / يارا فؤاد

□□□

عدت المسافة كلها من عيادة د/ يارا في شارع وادي النيل بالمهندسين إلى ميدان السيدة زينب سيرًا على الأقدام، باتت الأحلام تداعب مخيلتي مرة أخرى، بت أحلم بما لم يتحقق منها وحتى أخجل أن أذكره الآن، لأجد نفسي أمام مسجد السيدة زينب مع ارتفاع أذان العشاء، فقررت أن أغتنم ركعتين في رحاب المشهد الزينبي تعيد إلى نفسي الطمأنينة والراحة.

عندما عدت إلى البيت كان الشيخ عبد القوي يجلس على الأريكة

المواجهة لباب الشقة أسفل الشباك بجوار نجلاء، بينما محمود يمسك في يده سيارة قديمة بلاستيكية يلعب بها تارة يسيرها على الأرض وتارة يرفعها إلى السماء كطائرة مقلدًا صوت حركة الطائرة «فووووووو» وهو يسير معهما متخذًا من ذراعيه جناحين.

ما إن رأني عبد القوي حتى قام من مكانه متوجّهًا إلى غرفته، بينما وجه كلامه إلى نجلاء:

- قولي له لو وافق الناس مستنياه بكرة.

عندما دخلتْ نجلاء خلفي إلى غرفتي وجلستْ على الأريكة المقابلة للأريكة التي أنام عليها (في غرفة الكتب) بينما أتجاهلها تمامًا وأنا أضع ملابس الخروج في الدولاب وأكمل ارتداء ثيابي.

- شفت عبد القوي بيحبك إزاي؟! ما رضيش يسيبك زعلان.

- لو العروسة اللي جبتوها دي أنا مش رايح في حته.

- لا يا عبيط عروسة إيه؟! دا جايب لك وظيفة في صيدلية كبيرة في القصر العيني.

- صيدلية؟! حد قاله إني دكتور؟!

- مش عارفة بقى.. روح طيب خاطره بكلمتين وافهم منه.

كنت في أشد الحاجة إلى هذه اللحظة التي أحاول فيها أن أعتذر إلى عبد القوي لما بدر مني صباحًا دون أن أجرح كبريائي، فما رأيت من هذا

الرجل إلا كل ود، فخرجت من غرفتي متوجهًا إلى غرفته، طرقت الباب عدة طرقات وأنا أخبره أني أريد أن أتحدث معه.

دخلت عليه وهو يجلس على الأرض بجواره مائدة الطعام يبدأ في تناوله، فحاولت أن أداعبه.

- كنت هتاكل من غيري؟!

- يعني.. ماحبتش تاكل من مال الأرامل والمطلقات.

- انت قلبك أسود قوي كده، يا شيخ عبد القوي أنا ماقدرش أتقدم لواحدة كده إيد ورا وإيد قدام.. اصبر بس أقف على رجلي ولو فيه نصيب يبقى أتقدم وأنا أشرفك... ولا إيه؟

لم أكلمت بعد أن شاهدت علامات الهدوء على وجهه، بينما يداه ما زالتا تتناول الطعام.

- إيه أخبار الشغل الجديد بقى؟

- مش عارفين هيرضي جنابك ولا مش قد المقام؟

- طالما جاي منك يبقى أكيد هيعجبني.

- على العموم الناس مستنينك بكرة.. صيدلية د/ «أبو الغار» في شارع القصر العيني.

كنت قد عزمت أيًا كانت هذه الشغلانة على قبولها؛ إرضاءً لعبد القوي، وتجنبًا لمزيد من المشاكل التي ممكن أن أسببها لأختي، رغبة في الخروج

من هذا الإطار الضيق الذي كنت أعيش فيه والتجديد في حياتي، فلربما أتعرف على شخص يفتح في قلبي الحياة الحقيقية، بدلًا من عالم الخيالات الذي كان يؤنب مضاجعي؛ خوفًا من أن تعاودني هذه الحالة وتسيطر عليّ وترمي بي إلى جحيم لا أعرف إلى أي منقلب ستنقلب إليه الأمور. فعزمت أن أقبل العمل في الصيدلية أيًّا كان الوضع، فأنا مقبل على الحياة بنظرة جديدة يملأها الأمل والحب والحياة.. ولكن كنت أظن أن العمل في الصيدلية هو نهاية بداية شاقة في حياتي.. لم أكن أعلم أنه بداية لنهاية حياتي كلها.

□□□

(١٩) المــــؤلـــــــف

اقتربت الساعة من الرابعة فجرًا، تطاير النوم من عين المؤلف كما تطاير في سماء الغرفة دخان السجائر المتعالية التي بات يحرقها المؤلف بكثرة في الآونة الأخيرة، مرات قليلة هي التي شعر فيها بالسعادة عندما تتجمع في رأسه باقي خيوط روايته، ويشعر معها بمدى إتقانه لها ولحبكتها، ومرات أكثر يشعر معها بالضيق والحنق من جراء تطاير الأفكار من رأسه.

ولكن في هذا اليوم كان الوضع مختلفًا، ذهنه صافٍ، يشعر بأن لديه القدرة على الكتابة لساعات وساعات، حتى ساعات العمل الشاق لم تنل من هذه الهمة التي باتت قليلًا ما تزوره في الآونة الأخيرة، يحاول دائمًا أن يبرر كسله في الكتابة بعناء العمل أو تعب الحياة.. ثم يشعر بالإحباط يراوده شعور الفشل.. الفشل ككاتب. حلم بات يحلم به كثيرًا يرى في لحظة تتداعي بنات أفكاره أنه اقترب من تحقيقه، ويرى في لحظة أخرى نجاحه فيها الخيال أو دربًا من دروب الجنون، وأنه أضاع من الوقت والعمر في سراب ربما يكون محط سخرية الآخرين باقي عمره.

مد يده إلى علبة السجائر الملقاة أمامه على المكتب، فتحها وأخرج آخر سيجارة فيها، نظر إليها والنيران تضيء شفا طرفها العلوي، ذهب مع خياله مرة أخرى في الرواية، لم يعد يدري كيف يمسك بخيوطها.. أحس بأن العقد بات ينفرط منه وما عادت لديه القدرة على الإمساك بزمام هؤلاء الأبطال مرة أخرى.. تشتتتْ منه الرواية والأحداث والأبطال.

لفظت السيجارة نفسها الأخير، بينما تتداعى الأفكار في رأسه، عاد يزهو بنفسه يشعر بأنه مُقدِم على عمل جاد، ولكنه ما زال يحتاج إلى مساعدة.. ما زال هناك شيء ناقص لا يعرف كيف يمسكه، يعرف كل شخصيات الرواية، عاش معهم، سمع آلامهم، وبكى لحزنهم، وكان يشعر في البداية أنه سينهي هذا العمل بسرعة فائقة؛ فقد ترك في سبيله رواية اقترب من الانتهاء منها، وهي اللحظة التي لم يعشها إلا مرة واحدة في حياته يوم أنهى أول رواية له وظلت حبيسة درج مكتبه، كم تمنّى أن تعاوده هذه اللحظة مرة أخرى، وعندما اقتربت منه في روايته الثانية، ولم يبقَ فيها إلا بضع صفحات ويتمّها لينتشي مرة أخرى بلحظة سعادة ولادة رواية جديدة له حتى سيطرت عليه فكرة الرواية، باتت خيوطها تتجمع في رأسه، ضحى من أجلها بفكرة روايتين أخريين فكر فيهما في لحظة صفاء ذهن قلما تمتع بها في الفترة الأخيرة، دمج الرواية مع الفكرتين، شعّب الأشخاص، عدّد الأحداث، حاول أن يجد بينهم رابطًا إلى أن وصل إلى هذه اللحظة التي بات فيها غير قادر على استيعاب أحداث روايته.

شعر في هذه اللحظة بيأس رهيب يسيطر عليه، ما كان يكتبه كاد يمزقه

في لحظة حتى ينهي عنده وهم الكتابة، شعر مرة أخرى أنه فقد السيطرة على أحداث روايته، شعور رهيب بالضياع عندما يفقد الإنسان السيطرة على من حوله، ولكن هذا ليس شعور فقدان سيطرة الأب على أبنائه، أو الزوج على زوجته، أو المعلم في إحدى الحصص المملة على تلاميذ أقصى أمانيهم أن يدق جرس الحصة لتنتهي معاناتهم في مادة اللغة العربية، ولكنه شعور من فقد السيطرة على أبطال هو رسمهم بيده ثم باتوا يحاربونه. تمنى أن لو استطاع أن يخترق عالمهم الوهمي ليجازيهم بيده على ما اقترفوه تجاهه من ذنب العصيان.

اقترب المؤلف من نافذة غرفته، يفتحها.. حاولت نسمات الفجر الندية المحملة بصقيع ليلة شتاء باردة أن تطرد دخان السجائر التي عبأت الغرفة، وقف المؤلف ينظر من شباك غرفته إلى بعض الوجوه المتجهمة العائدة من صلاة الفجر، فيما تعالت الفكرة في رأسه.. أحتاج إلى مساعدة.. من؟! من؟!

هل من المعقول أن يذهب إلى أحد الكتاب الكبار يقص له فكرة روايته؛ طالبًا منه أن يساعده في إتمامها، سيكون مثل الطبيب الذي ترك المريض في غرفة العمليات وخرج ليطلب مساعدة طبيب آخر، حتى وإن عثر على هذا الكاتب، هل سيكون إحساسه مثل إحساس المؤلف؟! هل سيكون وصفه للأحداث والأشخاص والانفعالات والعواطف مثلما بات المؤلف ليالي يحلم بها في أحداث روايته؟! مثلما ضحى المؤلف بنشوة الانتهاء من روايته الثانية ليدخل في رواية ثالثة لا يعلم متى ولا كيف سينتهي منها إلا بدافع واحد هي محاولة وصف بعض المشاعر التي اعترته

هو؟! بتحويلها إلى أشخاص تتفاعل معًا على وريقات بيضاء مكونة عالمه الوهمي الذي يعيش فيه.

لا يشعر بالمأساة إلا من يعيشها، حتى الاستعانة بكاتب يساعده ستكون إعانة نفسية؛ ربما يعطيه الكاتب من وقته بعض لحظات يصف له فيها المواقف المشابهة التي يمر بها وهو يكتب روايته، فيتشجع المؤلف وهو يشعر بأنه يسير في درب الكبار، ولكنها ليست المساعدة التي يصبو إليها؛ يحتاج إلى من يلهب أفكاره ويشعل حماسه، يحتاج إلى الجمهور الذي يلتف حوله كلاعب كرة قدم مقدم على ضربة جزاء في نهائي كأس العالم.. يحتاج إلى الشخص الذي يشعر بما يشعر هو به، شخص يشاركه همومه وتأملاته. فكر كثيرًا فيمن حوله.. أحب كثيرًا.. صادق كثيرًا.. استمتع بحكايات الحب والهوى ولكن لم يجد من بين صديقاته من تستطيع أن تطفئ نار ظمأه في هذه اللحظة، لا يعرف بالضبط لماذا تراءت له أسماء صديقاته البنات سواء في العمل أو الجامعة؟! ولماذا لم يتذكر أحدًا من أصدقاء «النت»؟! يعلم علم اليقين أن الرواية لن تلقى قبولهم، ثم اعتلت على وجهه ابتسامة سخرية وهو يتذكر أنه لم يتناقش مرة مع إحدى هؤلاء الصديقات المزيفات حول كتاب حين يقرأه أو رواية انتهى منها، وكأن الشباب في هذه الأوقات باتوا لا يتخذون للقراءة سبيلًا، وهو الشعور الذي كان يحلو له دائمًا ويعطيه ميزة نسبية في وسطه، بعيدًا عن الاستمتاع بمشاهدة مباريات كرة القدم أو أغاني الفيديو كليب العارية.

فلم يكن في حياته الأدبية كمؤلف سوى بضع صديقات جادت عليه ببعض الوقت وقرأن روايته الأولى، أو دخل معهن في بعض الحوارات الثقافية، إلا أنهن أيضًا لم يعدْنَ يفين بالغرض.. يحتاج من هو أقرب منهن له وأقرب لهن منه، حتى حب عمره الوحيد ما عاد يستطيع أن يتناقش معها في مضمون رواياته، بعد أن تحولت إلى صورة من والدته وهي تؤنبه على انشغاله بالأدب عن حياته، لينتهي الحوار بسؤالها الذي يؤرق عليه أيامه:

- هتيجي تتقدم لي إمتي؟

يحتاج المؤلف إلى أحد أبطال الرواية، مثلًا: يجلس معهم ويناقشهم في تصرفاتهم، يترك لذاكرتهم العنان لوصف عواطفهم وشعورهم، يتجرد من أنانية المؤلف الذي يضع أسماء الشخصيات كما يرى، ويصيغ وصف الأماكن كما يحلو له، ويرسم ملامح وأبعاد الشخصيات النفسية كما يتوهمها هو ليقنع بها آلاف القراء، يريد أن يتجرد من هذه الأنانية ويترك الحرية لأبطال روايته في سرد قصصهم، بعيدًا عن أنانية المؤلف الذي يحتكر كل الأحداث والحوارات.

ارتدى ملابس الخروج على عجل، ترك معطفه الصوف واكتفي بقميص خفيف، كان لديه شعور رهيب ورغبة في الإحساس بلفحات الصقيع.. وفي فجر الشتاء البارد نزل إلى الشارع، بينما كانت المساجد تغلق بعد صلاة الفجر مع خيوط نور بسيط تخنق ليل كئيب معلنة عن صباح يوم جديد.

حاول أن يذهب إلى أحد المواقع التي تدور فيها روايته، ركب مترو الأنفاق ونزل محطة السيدة زينب، وقف على سور السلم المرتفع الذي ينكشف عن يمينه صف أكشاك الكتب القديمة المتراصة أسفل كوبري «أبو الريش».. هنا تدور أحداث روايته، وهنا كان يسير محمود، هنا تعرف على الشيخ «أبو حمزة المصري»، وهنا الشيخ عبد القوي يجلس خلف مائدة الكتب المرصوصة أمام الكشك.. التفت حوله بينما زادت حركة مرتادي قطار مترو الأنفاق على الازدحام مع قدوم الساعات الأولى للنهار، وبدأت حركة ذهاب الطلبة إلى مدارسهم والعاملين إلى أشغالهم، فغادر المكان غير مكترث.

لم تشفع له هذه الزيارة في شيء، لم تروِ ظمأه، ركب المترو مرة أخرى ودخل وسط زحام الناس، ترك نفسه لتدافع الركاب الذين أدخلوه داخل القطار قصرًا، حتى إنه لم يعد يعي كلمات السب والغضب التي يتناولها من النازل من عربة القطار.. لم يشعر بدهس جسده وسط أجساد الناس في عربة أشبة بكوسة محشية «بني آدمين» يسمون مجازًا «بشر» في علبة سردين تسمى مترو الأنفاق، متأملًا وجوهًا تعلوها الكآبة والحزن والغضب.. ماذا حدث للمصريين؟! أين حس الدعابة والمرح الذي لم يكن يفارق ملامحهم؟! كما ترك نفسه لهم في الدخول ترك نفسه لهم في الخروج، لم يسمع أسئلة الناس له هل سينزل المحطة القادمة أم لا؟ ترك نفسه لتدافعهم فنزل.

التفت حوله ليقرأ اللافتات الإرشادية الملونة باللون الأزرق على خلفية

بيضاء ليجد ضالته المنشودة محطة المعادي، لم يشعر أنها صدفة، بل هي العناية الإلهية ألقت به الآن في هذا المكان لترشده إلى الطريق الصواب الذي يجب عليه أن يسلكه.. يد القدر تمد إليه ساعدها أخيرًا ليجد من المعادي ملاذًا أخيرًا ينقذ به روايته، إن كان يجهل كيفية الوصول إلى المكان المرجو، وهو المكان الذي رسم معالمه بدقة في روايته!

خرج من محطة المترو يحاول أن يتذكر الوصف الدقيق لمنزل منال الذي رسمه في الرواية منذ قليل.. بعض ملامح الشوارع كما تخيلها، لم يكن من مرتادي حي المعادي كثيرًا، بل إنه يتذكر المرتين اليتيمتين الذي دخل فيهما هذا الحي فسحةً مع زملاء الجامعة في أحد الكافيهات في شارع ٩ وزيارة عمل إلى إحدى الشركات التي يجهل الآن مكانها، كما لم تسعفه الذاكرة بتذكر أسمائهم محاولًا أن يطرد هذه الأفكار من رأسه، فما عادت رأسه تتحمل شقاء محاولة تذكر شيء هو على يقين أنه لن يتذكره.

وقف أمام إحدى البنايات القصيرة، لا تتعدى أدوارها الأربع شرفات، ووجهاتها المتوازية التي تدل على تقسيمة الشقق داخل الرواية، وبواباته الحديدية التي يحرسها بواب العمارة، باتت الفكرة في رأسه وبات على يقين أن منال تسكن هذه العمارة.. لاحظ إحدى المقاهي المقابلة للبناية والتي كادت واجهتها الكلاسيكية أن تتعارض مع عصر «الكافيهات الفاخرة والشيش الفواكه»، اقترب منها وجلس على أحد كراسيها الزان يطلب كوب شاي بالحليب، جلس المؤلف شارد الذهن أمام هذه البناية يحاول أن يتخيل من أي شقة ستخرج منال الآن، كان يتمنى أن يكون

معه الآن أوراقه وقلمه يرسم ملامح الشقة وبعض الأحداث الجانبية، أو يتاح له الانفراد بمنال لبضع لحظات يعطيها فيها شرف التحدث في روايته، يترك للسانها العنان تعبر فيه عن خواطرها وشعورها، ولكن هل حقًّا منال كانت تحتاج هذه الفرصة؟! هل منال في انتظار مؤلف مجهول في صفحات ورق متكومة في درج أحد المكاتب وسط عمارات القاهرة الكبرى ليعطيها فرصة لتعبر عن نفسها؟!.. بالتأكيد لا.

شخصية كشخصية منال هذه التي رسمها المؤلف ربما تمتلك - مثل العديد من بنات سنها - كشكول خواطر.. بالتأكيد ألوانه زاهية «بينك، موف، أصفر».. لا يعرف إن كان الأصفر من هذين اللونين أم لا؟! ولكن سمع البنات تتحدث عن هذه الألوان كثيرًا، بالتأكيد منال مثل كل البنات تستمتع بكشكول خواطر صفحاته من هذه الألوان.. تترك فيه وردة حب ذابلة أهداها لها حبيب قديم، تكتب فيه رغبة رومانسية جميلة تهديها لحبيب منتظر، ترسم فيها خيالها، باتت الصورة أوضح أمامه الآن بعد أن كانت ضبابية.. هذا ما كان يصبو إليه.

كشكول منال

إذا استطاع الحصول على هذا الكشكول سيجد فيه ضالته المنشودة، المأساة التي أذهبت عنه ساعات النوم وأقلقت منامه، ولكن من أين له أن يأتي بهذا الكشكول؟ بات يعصر رأسه محاولًا تذكر ملامح أسرة منال التي يرسمها في خياله.. الأسرة كلها عاملة، بالتاكيد يذهبون إلى عملهم

صباح كل يوم.. نظر في ساعته التي اقتربت من التاسعة.. فرصة سانحة لاقتحام الشقة والعثور على كشكولها الشخصي.

وضع المؤلف كوب الشاي بجوار الحساب وهو يخترق الشارع نحو باب البناية المفتوح والذي تركه البواب ذاهبًا لإحضار الإفطار.. لم يكن يعبأ المؤلف في هذه اللحظة كيف سيفتح باب الشقة، وكيف سيواجه مصاعب العثور على كشكول ربما لا يكون له وجود.

لحظةً تذكّر.. أنه ليس المؤلف، إنه بطل الرواية.. لحظة انقطع عنه الحبل بين الواقع والخيال فما عاد يعرف الآن أين يقف، فما عاد يعرف هل منال حقيقة ملموسة أم شخصية وهمية من خياله؟ ما عاد يعرف أين يقف الآن.. أمام منزل منال أم في شرفة منزله.

أطفأ سيجارته التي كادت تقترب بنيرانها من إصبعه، دخل من النافذة التي ما زال واقفًا عندها منذ أن فتحها، لملم أوراقه ووضع القلم جانبًا، داعيًا الله أن يريحه من هذا الهم الثقيل، فإما أن ينهي هذه الرواية اللعينة وإما أن يموت.

□□□

(٢٠) محمـــــــــــــود

غريبًا عشت في الدنيا نزيلًا مثل آبائي
غريبًا في أساليبي وأفكاري وأهوائي
غريبًا لم أجد سمعًا أفرغ فيه آرائي
يحار الناس في ألفي ولا يدرون ما بائي
ترنيمة الغربة لقداسة البابا شنودة
بابا الأسكندرية وبطريرك الكرازة المرقسية

الغربة إحساس موحش يتملك الإنسان حتى وإن كان وسط أقرب الناس إليه، الغربة ليست ترك الوطن والمكان، الغربة هي ترك أفكارك وحياتك، الغربة أن تعيش قريبًا وسط مجتمع وناس وحياة لم تكن منها يومًا ولزامًا عليك أن تتأقلم معها.

والاغتراب مفهوم يدل على تجربة يشعر فيها الإنسان بالغربة عن الذات؛ فهو لا يعيش ذاته كمركز لعالمه أو كصانع لأفعاله ومشاعره، فالغربة

هي شعور بانحلال الرابطة بين الفرد والمجتمع الذي يسكن فيه، فيجلس معهم بجسده ولكن روحه في عالم ليس تدري ما أقاصيه، يتبادل معهم الحديث ولكن يبحث عمن يفهم حديثه، يتقنه، يعيشه، لا يفهم الناس سلوكه ولا غرائزه ولا هو يفهمهم أحيانًا.

الغربة التي يشعر بها الإنسان ربما تكون بسبب بُعده عن ربه، فتكون بذلك وفقًا للأساس الديني الذي يعتبر الإنسان العاصي خارج رحمة ربه «غريبًا في الدنيا»، على عكس القصيدة التي أعشقها لقداسة البابا شنودة التي عبر فيها عن الغربة كدليل للقرب من الله.

أيًا كانت التعريفات الأكاديمية للغربة والتأملات الفلسفية لكبار الفلاسفة والشذرات التي كانت تدور بخيالي وأنا أستعد للكتابة عن هذا الموضوع، والتي ما عدت أتذكر منها الآن شيئًا، إلا أن الغربة في النهاية شعور موجع يخلق في النفس حالة من الشجن والوحشة، تجعل الإنسان في حالة صمت دائمًا، تلمح في نظرته الخوف والألم، ينتابه القلق المستمر، وما ينتج عن كل ذلك من فقدان الاستمتاع بالحياة (وهو الشعور الذي كان يحلو لي أحيانًا!).

إحساس الغربة هو الإحساس المسيطر علي منذ اللحظة الأولى لدخولي صيدلية «أبو الغار»، منذ اللحظة الأولى التي رأيت فيها اللافتة الكبيرة الموضوعة على باب الصيدلية المطل على شارع القصر العيني أمام مستشفى الفرنساوي بملامحها الكلاسيكية القديمة.. لافتة عمرها من عمر الصيدلية التي ربما لم يتم تجديدها منذ أن فتحها الدكتور أبو

الغار في أواخر الستينيات.. لافتة بيضاء تمامًا مكتوب عليها بخط نسخ بسيط صيدلية دكتور/ أبو الغار باللون الأحمر الداكن، وبجوارها شعار الصيدلية الشهير (الكأس والثعبان) وأسفل يسار اللافتة بنفس الخط واللون - لكن بخط أصغر كثيرًا - كُتِبَ على اللافتة «خدمة ٢٤ ساعة»، باب الصيدلية عبارة عن درفتين من الزجاج الكامل، تتوسطه «أوكرة» باب فضية اللون مكتوب تحتها «ادفع».

عندما دخلت الصيدلية لم أرها أحسن حالًا من خارجها، أرفف خشبية متهالكة تُغلقها دُرَف زجاجية بإطار خشبي أبيض اللون، مرصوص على كل الجوانب كميةً من الأدوية تغطي الحائط بالكامل.. في الواجهة «بنك» خشبي ذو واجهة زجاجية يقف دائمًا خلفها الدكتور الصيدلي ليصرف الدواء للمريض، بينما على اليمين هناك ماكينة استلام نقدية نحاسية قديمة أتذكر أني شاهدتها في أحد أفلام إسماعيل ياسين القديمة في محل حلويات، وعلى عكس هذا الطراز الكلاسيكي وجدت نبرة نشاز في هذه الجو القديم متمثلة في جهاز حاسب موضوع على مكتب الدكتور «أبو الغار» يأتي بين الحين والآخر أحد العاملين بالصيدلية ليستخدم مؤشر «الباركود» ثم يعود إلى الزبائن.

د/ أبو الغار هو شخص تجاوز السبعين من عمره، حليق الرأس تمامًا بصورة لا تظهر فيها الشعيرات كاملة البياض المنتشرة برأسه، يرتدي نظارة طبية سوداء يسقطها عن عينيه بعض الشيء تعطي له هيئة الخواجه كوهين في الأفلام العربية القديمة.

كان يقف أمام فاترينة الصيدلية شخص تعرفت عليه ممن تعرفت عليهم هو د/ نادر منير، والناصية الأخرى د/ سارة مراد، بينما كانت مشغولة بأحد الزبائن د/ هبة سرور، وقد غطّى على نظرتي العابرة التي أتعرف فيها للوهلة الأولى على الصيدلية صوت آتٍ من خلف الستارة القماش بضجة كبيرة اتضح بعد ذلك أنها د/ منال رجب التي كانت تعنف شابًا أكبر مني بكثير خرج يظهر على وجهه علامات الغضب وهو يقول لها:

- «يا شيخة والله دا الواحد هيرتاح منك».

د/ منال بنت لم يتجاوز عمرها الثلاثين، طويلة القامة ممتلئة الجسد، ترتدي بنطلون جينز أزرق لازقًا على جسدها، ومن الأعلى بلوزة صفراء فاقع لونها، فيما يغطي شعرها الأحمر - كحمرة السماء الملبدة بغيوم ليلة عاصفة بالمطر - منتصف كتفيها بشكله المعقوص المموج يعطيها غموضًا على غموض، يغلف شخصيتها بعصيان محبوب إلى قلبي مع رغبة في ترويض هذا الوحش الجامح.

تقدّمتُ نحوي د/ هبة:

- أؤمر يا فندم.

- أنا عايز أقابل الدكتور أبو الغار.. أنا جاي من طرف الحاج عبد القوي.

التفت أبو الغار إلى كلامي عن طريق إنزال ورقة كان يقرأها وهو

يعدل موضع النظارة الطبية لينظر لي لبضع لحظات قبل أن يوجه كلامه إلى د/ منال:

- يا منال.. الشاب اللي بعته عبد القوي جه، استلميه بقى.

بداية غير مبشرة «استلميه بقى »؟! على أساس أني بضاعة ستوقع تحتها بالاستلام، ناهيك عن الشخص الذي سيقوم باستلامي د/ منال ذات الشخصية العنيدة والمعالم الغجرية صاحبة الشعر الأحمر المعقوص.

تقدمت واجتزت الحاجز الفاصل في منتصف الصيدلية لأقف بين يدي د/ منال التي طلبت مني أن أجلس بجوارها؛ فجلسنا على كرسيين كانا مسندين إلى أحد الحوائط:

- اسمك إيه؟

- محمود فرغلي.

- معاك إيه يا محمود؟

- ليسانس حقوق.

- كويس أوي.. المؤهلات العليا بتساعدنا في شغلنا.. رغم إنها مش بتكمل معانا كتير.

- خير إن شاء الله.

- بص يا محمود - انت هتشتغل في مجال عمرك ما سمعت عنه، لازم تبقى

صاحي ومنتبه كويس علشان تتعلم بسرعة، المجال كبير واللي يمشي فيه رزقه فيه كويس.

- إن شاء الله خير، بس أنا لسه مش عارف هشتغل إيه؟

- «تكنيشن»: مدخل بيانات ومساعد صيدلي.

- إن شاء الله.

- اتعرفت على ناس هنا؟

- لسه.

همت ترفع صوتها ليسمعه الجميع، وهي تنقل إشارة يدها إلى كل فرد من أفراد الصيدلية جالس في مكانه بينما تنطق اسمه مسبوقًا بكلمة دكتور.

- «د/ نادر منير، د/ هبة سرور، د/ سارة مراد، وأنا د/ منال رجب».

ثم التفتت إليهم بحركة مسرحية وكأنها بطل مسرحية يحيي الجمهور في نهاية العرض، ويعرض الممثلين على خشبة المسرح، وهي تشير إلي:

- أستاذ محمود فرغلي، زميلنا الجديد في الصيدلية.

□□□

كنت أقضي بالثلاث ساعات - أو ربما أكثر - جالسًا في مكاني على الكرسي الموضوع خلف باب الصيدلية، مكانٌ عبقري أتابع من خلاله

كل كبيرة وصغيرة أمامي، لأضمن بها عدم تحدث أي شخص من خلفي وهو الهاجس الذي كان يعتريني دائمًا، أنه بمجرد أن أدير ظهري لأحد يتحدث عني بما أنا لست أهلًا له.. حتى الأماكن التي لم تكن ضمن مجال رؤيتي كنت أتابع انعكاسها في «الفترينات» الزجاجية التي تعتبر كاميرات مراقبة حين يتابع كل من في الصيدلية بعضهم بها.

لا يكسر حاجز الصمت المطبق علي إلا أذان الظهر الذي أستأذن في وقته د/ «أبو الغار» أو د/ منال في الذهاب إلى المسجد للصلاة؛ وربما أنتهزها فرصة لقضاء حاجتي التي كنت أخجل حتى من القيام لقضائها.

كنت أجلس مكاني كأني صنم يتابع فقط ما يدور حوله، ناهيك عن الشعور الموحش بالغربة الذي كان يقتلني.. لحظات تمر علي فيها الثانية بسنة، بالطبع لم يكن حال الصيدلية كذلك؛ فالقوم يموجون في مرح وفي صخب وضوضاء.

❑❑❑

كانت الصيدلية عبارة عن خلية نحل في العمل، لم أشترك أنا فيها حتى الآن بسبب عدم خبرتي حتى في موضع أماكن الأدوية، حتى في فترات الراحة التي كان يغادر فيها د/ أبو الغار الصيدلية ذاهبًا إلى بيته في حي المنيرة على بُعد عدة أمتار قليلة من الصيدلية لتناول الغداء في تمام الساعة الثالثة عصرًا، لم يخلف يومًا ميعاده خلال الفترة التي عملت فيها معه أو ربما طول حياته، في هذه الفترة تتحول الصيدلية إلى جلسة هزار

وضحك، تعلو فيها ضحكات منال مع هبة، وهي العلاقة التي لم تكن بحاجة إلى خبير ليفهم مدى كره كل واحدة للأخرى واصطناعهما مودة زائفة، تُظهر حقيقتها بين الحين والآخر كلمات التوبيخ مغلفة بحالة المرح.

د/ هبة لم تُضِيع فرصة منذ اللحظة الأولى في التعامل معي بأن تخبرني أن زوجها ضابط شرطة.

- «لا أوعى تزعلني منك.. أنا جوزي ظابط.. يسجنك».

تقولها بأسلوب كأنها تداعب طفلًا صغيرًا، ولكنها في نفس الوقت تحاول أن ترسل بها رسالة.. أحيانًا كنت أظن أنها تتمنى أن تلغ العلامة النحاسية الموضوعة أعلى البالطو الأبيض المدون بها اسمها dr. Heba sror لتكتب مكانها (أنا زوجة ضابط شرطة) لا تتوانى في أن تذكرني بها في كل لحظة، عند حديثها عن الغسيل:

- «لا، أصل البدلة البيضا محتاجه كلور».

عند الحديث عن نزهة:

- «لا، أصل عنده نوبتجية في القسم النهارده».

حتى الحديث عن العلاقات الحميمية التي كانوا أحيانًا يتبادلون الغمز فيها على مسمع ومرأى منّا، متوهمين أننا لا نلاحظ تلميحاتهم، أو ربما يعشقون هذه اللعبة معنا! حتى كانت تستخدمها أحيانًا مع بعض

الزبائن الذين يشترون الدواء من الصيدلية ويظهر على وجههم الرغبة في العراك:

«لا، أزعل منك.. وأنا جوزي ظابط يسجنك».

العلاقة بين د/ هبة ود/ منال لم تكن بها أي ود كما أسلفت ولاحظت، فكلتاهما تحاول فرض شخصيتها على المكان والعاملين به، خصوصًا مع مجيء الصيف بعد موسم الامتحانات وهجوم طلبة كلية الصيدلية على الصيدلية للتدريب بها، فيتحول العمل إلى حلبة صراع بين فريقين يحاول كل منهم استقطاب أكبر عدد من الأنصار، ليضيع كل هذا هباءً مع انقضاء فصل الصيف وعودة المصطافين - أقصد المتدربين - إلى جامعتهم وتفرغ الصيدلية إلا من ثلاثتهم، فتعود حالة التوأم المصطنعة بينهما، والتي تحولت بفضل الزمن الذي مر عليهما إلى صداقة، حقيقةً ما عادت تغفل.

في البداية كانت كل منهما توضح أنها الأقدم من الأخرى، إلا أن اتضح لي بعض معالم الوضع.. البداية كانت للدكتورة/ هبة هي التي عملت بالصيدلية منذ تخرجها، ولكنها تركتها بعد الزواج لمدة سنة أو ما يزيد لتعود وتجد مكانها د/ منال التي لم تنقطع عن العمل تمامًا مستحوذة على ثقة د/ «أبو الغار» لإخلاصها في الشغل واجتهادها، خصوصًا بعد أن قل مجهود د/ هبة بعد الزواج وطلبها دائمًا الانصراف مبكرًا لأسباب تتعلق بزوجها الضابط طبعًا.

على الجانب الآخر يقبع دائمًا نادر صامتًا يمسك في يده «كتاب قرآن» كنت أحسبه في البداية مسلمًا متدينًا، وعندما سألت عنه د/ منال التي توطدت علاقتي بها بعض الشيء أسرع من غيرها: لماذا لا أشاهده يصلي رغم أن المصحف لا يفارق يده؟ فأجابت بما أدهشني:

- «يصلي إيه يا بني دا مسيحي».

انتابتني الحيرة من أمر هذا الكائن.. نادر شاب في مثل عمري تقريبًا صامت دائمًا، ولكنه ذلك الصمت الذي يقربك منه، و يعطيه حالة من العظمة والمهابة، طويل القامة، شديد بياض الوجه، تنبت في وجهه لحية صغيرة تميل إلى الحمرة عندما تكبر أكثر، مع شعر ناعم كالحرير يجعل مظهره دائمًا كنجوم السينما المصرية، جسده متناسق، رياضي كان بطل الجمهورية في السباحة، معالم ذراعه التي تظهر منه العضلات والذي يظهره دائما من خلال «تي شيرتات» قصيرة الأكمام يعطيه مظهر أحمد رمزي في أفلام الستينيات.

هدوء طابع نادر يظهر مع طريقة كلامه الذي ينطق بها الكلمات، كان يتحدث بكل هدوء ليعطي كل كلمة حقها في النطق كأنه يعزف على أوتار الكلمات، من شذرات الكليمات حوله عرفت عنه بعض المعلومات الخاصة بعائلته.. ينتمي نادر إلى عائلة مرموقة اجتماعيًا، والده يعمل في منظمة الصحة العالمية بنيويورك، وهناك ولد نادر الذي بالطبع يحمل الجنسية الأمريكية، قبل أن يترك والده هذا المنصب ويعود مع نادر

وأسرته إلى القاهرة، يسكن في عمارة مطلة على نهر النيل بشارع عبد العزيز آل سعود في المنيل.. لنادر أخت وحيدة ماتت وهي في أمريكا بعد إصابتها بالسرطان، وأظن هذا كان سبب إنهاء والدها عمله في أمريكا والعودة إلى مصر، على الرغم من أنه كان قد اتخذ قرارًا بالهجرة النهائية.

لم يتبقَّ من العاملين بالصيدلية إلا د/ سارة مراد، ذلك الوجه الهادئ القابع دائمًا على جانب الصيدلية في أذنيها سماعة الهاتف المحمول الخاص بها «الهدفون» تستمع إلى أغانٍ أجنبية، تنتابها حالة تعب عندما تقوم للصرف مرتين متتاليتين - بسكوتة الصيدلية - الجميع يشعر تجاهها بالحب كأنها أخته الصغيرة، على الرغم من سرعة غضبها من أتفه الأسباب.. أتذكر أن أول خلاف كان بيني وبينها عندما خلعت شاحن الهاتف الخاص بها لأضع مكانه براد الماء الكهربائي، وهو الشيء الذي فعلتُه بحسن نية لم أكن أظن أنه أمر معقد يتطلب غضبها الذي وصل إلى طلب الانصراف مبكرًا.

مع مرور الوقت بدأت علاقتي تتوطد مع العاملين بالصيدلية باستثناء د/ «أبو الغار» الجالس دائمًا خلف مكتبه يحيطه الصمت دائمًا.. أما أسرع من اندمجت معها في الحوار كانت د/ منال، رغم صوتها المرتفع دائمًا وغضبها السريع فإني كنت أرى فيها بنت البلد التي كانت تظهر في طريقة كلامها، حوارها، حلها للخلافات بين الزبائن، ترفع كم بلوزتها حتى منتصف ذراعها، وتنظف الأرفف بنفسها عند غياب عم بسيوني

عامل الصيدلية، سندوتشات الفول من العربية التي تعودت أن آتي بها لها يوميًا.

د/ هبة ما زالت ترسم دور زوجة الرجل المهم بكبرياء يثير ازدراء كل العاملين في الصيدلية، وما ظننت أنها تلقى قبول أحد، ولا حتى د/ «أبو الغار» نفسه الذي - لولا زوجها الذي يسهل له بعض الأمور في الحي - ما كان صبر على عجرفتها وأسلوبها المتعالي الذي يسبب دائمًا المشاكل مع الزبائن.

سارة، عفوًا د/ سارة - لأن هذه الكلمة تثير حفيظتها - ما زالت جالسة في مكانها تسمع الأغاني الأجنبية، بينما من يزال يثير حفيظة فضولي هو نادر الذي أحاول مرارًا التقرب منه لمحاولة فك رموز هذا الكائن غريب الأفعال.

□□□

(٢١) سعيد مرجان

لم يكن ذلك اليوم ببعيد عن ذهن سعيد عندما كان يحضر الاجتماع الأمني الخطير، والذي دُعِيَ له لأول مرة لمناقشة الأوضاع الأمنية في مصر، وسُبل سيطرة الدولة على الجناح المتطرف دينيًّا، خصوصًا بعد زيادة أنصار هذا التيار، وما فعلته الدولة في ملاحقة الدعاة الشباب.. من ملاحقات أمنية تارة أو طردهم من البلاد تارة أخرى، أو بالإشاعات التي تنال من شخوصهم بصور مفبركة أو حقيقية تنتهك خصوصية حياتهم، خصوصًا مع اقتراب انتهاء العمل بقانون الطوارئ الذي بدأت بعض القوى السياسية في الدولة تطالب بعدم مده، بدعوى الاستقرار الأمني في البلاد، والقضاء على الإرهاب الذي اقتلعت شوكته في نهاية التسعينيات.

حضر الاجتماع مجموعة من كبارات رُتَب الداخلية ورؤساء الأجهزة الرئيسية فيها، يتداولون الآراء حول كيفية مواجهة خطر هذه التيارات الدينية، إلى أن حضر في ذهن سعيد هذا اليوم البعيد عندما فتح والده باب المنزل والابتسامة تعلو شفتيه ومناديًا على زوجته وأولاده بزهو المنتصر العائد من فتح القدس.

جلس سيادة العميد/ أحمد مرجان عميد كلية الهندسة جامعة القاهرة على كرسي الصالون، وأولاده وزوجته يلتفون حوله وهو يحكي لهم كيف أنهى على «فتنة النقاب في الجامعة».

- قاعدين عاملين لي حكاية وشغلانة في المجلس الأعلى للجامعات علشان موضوع دخول المنتقبات إلى الجامعة، وحوارات واشتغالات، أنا حليت الموضوع دا كله ببساطة وانتهى الأمر.

- عملت إيه يا أحمد؟ (تساءلت زوجته والابتسامة تعلو شفتيها).

- أجرت طالب من جامعة عين شمس واديته ألف جنيه وخليته يلبس النقاب ويحاول يدخل الجامعة، وكنت موصي الأمن يقفشه متلبس على الباب، واتعمل له محضر واتحول للتحقيق، وفي ساعتها أخذت قرار بمنع دخول المنتقبات الجامعة.. من غير ما حد يقدر يفتح بقه أنا بحافظ على أمن الجامعة.

تعالت أصوات الصياح والفرح بالنصر المبين الذي حققه رب الأسرة على هذه الفتنة التي كادت تفتك بالمجتمع المصرى!! والذي بحكمة سيادته و إرسال العناية الإلهية له لينقذ البلاد من هذه الفتنة!! تعالت الأصوات التي تسب المنتقبات وأصحاب الحجاب على أنهم متخلفون عقليًا وأصحاب عاهات نفسية، يحاولون أن يخفون فضائحهم في هذه الملابس، فيما كانت الدكتورة رحاب ابنة سيادة العميد - الدكتورة بقسم الاجتماع كلية الآداب - تشرح لهم كيفية توغل الفكر الوهابي

في المجتمع المصري، والنقود التي يرسلها أمراء الخليج إلى مريدي هذه الجماعات لنشر هذا الملبس بين بنات مصر، في محاولة لطمس هويتها، مع الأخذ في الاعتبار الجانب الاقتصادي الذي دفع بعض البنات لارتداء الحجاب أو حتى ارتداء النقاب من أجل توفير نفقات الكوافير التي باتت باهظة! فقد كان خليقًا بهن أن يجلسن في بيوتهن بدلًا من خروجهن بهذا المنظر المشهوه!

عاد ذهن سعيد مرة أخرى إلى الاجتماع الذي باتت كلماته تتطاير في فضاء سكون هذا الجهاز المهيب، قبل أن ينطق سعيد بالكلمة مرة واحدة بصوت عالٍ:

- حيلة - خدعة.

فأنصت له الجميع، أحس سعيد بالمأزق الذي وجد نفسه فيه إلا أنه لم يكن أمامه مناص إلا الاستمرار وقت التفتت إليه العيون والأسماع وبات محط أنظار الجميع:

- إن الأمر يحتاج إلى حيلة.

هكذا قالها بلغة فصيحة «إن الأمر يحتاج إلى حيلة»، وكأنه تحول إلى كومبارس في أحد الأفلام العربية القديمة التي اجتمع فيها كفار قريش للكيد لرسول الإسلام الذي جاء بدين جديد يسب فيه آلهتهم!، لم يكن ينقصهم إلا قول «خذ من كل قبيلة رجلًا».

استجمع سعيد بعض شجاعته، وهمّ يشرح لكمية السيوف والنسور المعلقة على الأكتاف فكرة في تدبير حادث يقوم به أحد المتطرفين الإسلامين؛ فيكون لهم المبرر بالفتك بعدها بخصومهم السياسيين، واستمرار قانون الطوارئ.

ساد الصمت بعض الوقت، أحس سعيد خلالها بالارتياح، فإن فكرته لاقت القبول وحتى لو لم تنل فهي محض تفكير كبار رجال الدولة - وإن لم تنل إعجابهم أو الموافقة عليها - على الأقل لاقت اهتمامًا منهم، بعد أن انتابه الخوف أن يكون كلامه محل سخرية أو سخط الجميع عليه.

- ولكن الموضوع دا احنا سايبينه من زمان.. وعملية بالشكل دا ممكن تقلب علينا مشاكل كثيرة.

- وغير إن موضوع بالشكل دا لازم ناخد عليه موافقة القيادة السياسية، ماينفعش يحصل من دماغنا.

وتحدث ثالث وبان على وجهه علامات الاستغراق في التفكير، لم ينطق بكلمة منذ بداية الاجتماع بلباسه المدني، حتى لم توضع أمامه اللافتة النحاسية التي كانت موضوعة أمام الجميع تبين رتبهم ومراكزهم في الداخلية، جاء متأخرًا عنهم فجلس على الكرسي الخالي يمين رئيس الجهاز الذي بالغ بالترحاب به في ود مصطنع لم ينطق خلالها اسمه واكتفى بكلمة «باشا».

- ولكن الموضوع خطير، ونقدر به نصطاد أكثر من عصفور بحجر

واحد، عندنا مشاكل كثيرة في الداخل والخارج! ممكن عملية بسيطة بالشكل دا تحلهلنا.. المهم التخطيط الجيد لها، وموافقة القيادة السياسية عليها؛ لحسن في الآخر تتهمنا بالتقصير ونلاقي نفسنا لابسين جلاليب وطرح وقاعدين في البيت.

تعالت أصوات الضحكات في المجلس مجاملة لدعابة لم تَرُقْ للجميع، وانتهى الاجتماع بعد أن أصدر توصياته (ليست ثمة قرارات في هذه المجالس) إلى المقدم سعيد بإعداد تقرير عن العملية وكيفية تنفيذها لحين أخذ الموافقة عليها من القيادة السياسية.

□□□

(٢٢) يـــارا فـــــــؤاد

لم تحمل مقابلة د/ يارا مع أ/ شريف وكيل النيابة - الذي تابع معها الفترة طويلة طريقة علاج محمود والتي انقطعت في الفترة الأخيرة - ذات جدوى توصف إلا من بعض كلمات الغموض التي أغلقت حديثًا وعلامات استفهام زادت الأمور تعقيدًا.

- النائب العام حظر النشر في الموضوع.

جملة أنهت لقاء تم في أحد نوادي القاهرة العائمة على شواطئ النيل الخاصة بالهيئة القضائية، لم يحمل ليارا إلا المزيد من الألم والأسى على حياة شاب ضاعت وهو يحاول أن يتأقلم مع مجتمع باهت مشوه، وعلى الرغم من أنها خرجت من هذا اللقاء بضرورة مقابلة منال صديقة محمود المقربة، الذي تحدث عنها قليلًا ليارا عندما تحدث عن أصدقائه معها ومدى تعلقه بها، فإن كلمات وكيل النيابة حول اعتقالها و إطلاق سراحها والغموض المفروض على التحقيقات، رأت أن تؤجل اللقاء بضعة أيام لتعود السكينة مرة أخرى إلى منال، تحاول فيها يارا هي الأخرى

استجماع ما تبقى لها من شتات أمرها في محاولة لبحث الحالة التي أدت بمحمود إلى هذه العملية.

حاولت يارا خلال الفترة السابقة محادثة محمود، وأن تعيد التوازن إلى حياته، تأملت الواقع الغبي الذي يعيشه المجتمع وينعكس بصورة أو بأخرى على حياتها مع زوج لا تتوقف أذنها عن سماع كلمات الإطراء عليه في كل المحافل التي تكون فيها من أناقته ووسامته وحضوره وتعليمه وشخصيته، كلها تعتبر مواصفات قياسية لرجل يشارك امرأة حياتها، ولا يعلمون أن كل هذه مظاهر عز تخفي وراءها ذلته؛ رجل مريض عجزت هي أن تشفيه.

تساءلت يارا في نفسها كثيرًا هل حقًا عجزت عن محاولة إبراء زوجها من عاداته الخبيثة المسيطرة عليه من جنون العظمة، والتباهي بالنفس، إلى سقطاته خلف التحرش بالخادمات وزوجات البوابات، أم تراها تتخذ من هذه السقطات ذريعة تحاول أن تبرر لنفسها بها ابتعادها النفسي والجسدي عنه.

حالة من الملل والزهق تسيطر عليها، تتنقل بين قنوات التليفزيون المتعددة عربية منها وأجنبية، لا تجد لنفسها ما يروح عنها.. تتركها، تذهب إلى جهاز الحاسب الآلي المحمول الخاص بها، تتنقل بين صفحات النت تبحث عن جديد، صفحات الموضة والرياضة والفنون لا جديد، صفحات سياسية تافهة أفاقة لاجديد، صفحات التواصل الاجتماعي

وموقع «الفيس بوك» الشهير الذي تزايد الناس في الانضمام إليه بسرعة رهيبة، تقلب في صفحاته بملل، ما زالت تبحث عن جديد، أو ما زالت تحاول أن تقنع نفسها أن هذا ما لا تريده.

أخذتها أناملها إلى محرك البحث تكتب اسم حبيبها القديم ترتشف من ريح الماضي بعض قطرات المستقبل تعيش على شذى ذكريات خلت.

Taha sayed

قلّت الاختيارات بل انعدمت على الموقع الاجتماعي من كثرة ما بحثت عن الاسم، فلم يبقَ غيره.. دخلت صفحته الشخصية تستشف منها أخباره، صورة له على مكتبه في الكويت ابتسامة هادئة، خلفه في الصورة صديق يظهر من ملامحه أنه من أهل البلد يداعبه بصورة واضحة.. ملامح وجهه البيضاء يعلوها شعيرات من لحيته الصغيرة كما تركته آخر مرة لم تغير، فقط صلعة الرأس التي ملأت جزءًا كبيرًا منها. لم تدرِ بنفسها ودقات قلبها المتسارعة وهي تضغط على زر الرسائل وتكتب له رسالة من كلمة واحدة:

- Ezyak?

تبعها شعور بالندم تمنت لو كان بإمكانها إعادة الزمن للخلف والتراجع عنها، وتمنت أن لو كانت ضمن خيارات الفيس بوك مسح الرسائل ولا يمكن أن ترسلها، هل هي في حالة تسمح لها الآن بالدخول في مثل هذا المعارك؟! كلمة منها إلى طه كفيلة بأن يعود مرة أخرى إلى حياتها، هي

هذه الكلمة التي تعتبر تصريح دخول إلى عالمها، هل سيستجيب لها في هذه المرة مثل كل مرة؟ هل هي حقًا في حاجة إلى طه بجوارها؟ والسؤال الأهم: كم ساعة ستمضي في انتظار الرد؟!

ركزت نظرها على شاشة الحاسب الآلي لفترة لم تحسب عددها تنتظر الرد، خجلت من نفسها ومن فعلتها، حاولت أن تداري الموقف أمام نفسها وتفعل أي شيء.. لا يوجد شيء يفعل.

توجهت إلى المطبخ، ووقفت أمام البراد الكهربائي تضغط على زر التشغيل، بينما تدعك بيدها مسحوق النسكافيه بالسكر التي اعتادته، سارحة في الخيال عندما التقت عينيها في عين محمود للمرة الأولى، حينما جلس محمود أمامها وهو يقول بضع كلمات لا تتناسب مع كونها أمام مريض نفسي في مستشفى الأمراض العقلية، أتت لتجري بحثها عليه.. حالة من الاتزان والهدوء.. ثقة في الحوار، وجهة نظر في المواقف، بعض ملامح طه تطل من كلماته.. تذكرت طه معه وفي كل مرة يجمعها لقاء مع محمود تعود بالذكريات إلى طه؛ وهو ما دفعها في إحدى الحوارات التي حاولت فيها إخراج محمود من حالة الانطواء والعزلة التي كان يعيشها، وتسبب له الهرب من الواقع بالخيال إلى الاقتراح عليه أن يتعرف على إحدى البنات على الإنترنت.

- جربت تكلم بنت على النت.. في بنات كويسين أوي ممكن تكوّن معاهم صداقات وتفتح لهم قلبك هتلاقي في حياة حلوة جرب.

كانت هذه نفس الكلمات التي قالتها لها صديقتها في الكلية عن أحد مواقع الشات قبل أن تدخله يارا وتتعرف على طه.

- في بنات كويسين أوي.

أكملت يارا حديثها بهذه الكلمة.. لم تكن موجهة إلى محمود ولا إلى طه بل إلى نفسها، نعم ليس كل بنات النت ساقطات تبحث عن المتعة مع الشباب.

إن تقاليد المجتمع التي لا تسمح للبنت أن تبوح لأخيها ولا لأبيها وأحيانًا لأمها عن بعض مشاعرها، تجد في مثل هذه العلاقات الإلكترونية المتنفس لها.

جذبتها شخصية طه.. كانت حواراتهم ساذجة بسيطة لم تحمل إلا مجرد دعابات حول قطتها المفضلة إليها، والتي كان يكره طه تربيتها، وتمضي الأيام ويكون طه جزءًا من حياة يارا؛ محادثات يوميًّا على النت.. تطورت إلى مكالمات هاتفية سمعت في نبرة صوته اتزانًا ووقارًا كانت متشوقة إليه، سمعت خلف صوته حيوية ومرح وانطلاقة أبهجت حياتها، هربا معًا من اللقاء واستمرا على هذا الحال بضعة أشهر، إلى أن تقدم أول عريس إلى يارا.. شعرت وقتها بمدى الحزن الذي خلف صوت طه وهو يرد عليها بكلمة «مبروك»، حاولت أن تستفهم منه عن سر حزنه فتهرَّب، كانت تعلم ولكنها تمنَّت أن تسمعها منه، تمنت أن تسمع منه كلمة «بحبك» إلا أن كبرياءه منعه من قولها، قال لها:

- سلام.

- يعني مش هتكلمني تاني؟

- لأ.

- ليه بس ؟! احنا أصحاب.. وأنا ليا أصحاب كتير.

- انت اتخطبتي وما ينفعش أكلمك تاني.

- سلام.

- سلام.

أغلقت المحادثة والابتسامة تعلو شفتيها، لم تبادله الشعور، ولكن إحساسه وصلها وعلمت حينها أنه يحبها، وارتسمت الابتسامة الجميلة على وجنتيها قبل أن تدخل تجربة الخطوبة الفاشلة مع معيد تعرفت عليه في الجامعة، كان كل همه الوصول إلى منصب أبيها، لتنهي الخطبة بعد بضعة أسابيع قليلة من تخرجها، وتعاود حياتها مرة أخرى وقد نسيت طه نهائيًّا إلا من محادثة عابرة، عندما شاهدها على صفحة التواصل الاجتماعي الجديدة «فيس بوك»، والذي كان حديث العهد به.. بحث عن حبيبته القديمة يتبادل معها الحوار والذكريات والتي انتهت بكلمة..

- بحبك.

لم يكن طه بحاجة إلى كلمات الاعتذار والحلفان لصدق كلماته، كانت تشعرها يارا منذ اللحظة الأولى، وقبل أن ينطقها، إذا كان في البداية

داعبها إحساس المعجب بها، فالآن يقتحم حياتها كعاشق ولهان يبيت الليالي يقص على مسامعها حكاوي عن كيفية معاناته في إخفاء مشاعره عنها.

أيامًا قليلة أمضتها يارا في غيبوبة من العشق الجميل وكلمات الحب والشوق الصادق التي تغلف حديث طه الذي لا ينقطع معها سؤاله عنها، أسباب تأخرها في العمل. خروجها مع صحباتها، حياؤه الذي كان يغلف سؤاله عنها هل هناك أولاد في هذه الخروجة، اعتراضه على صورها على «الفيس بوك»، مضايقاته من تعليقات الأصدقاء على صورها، حياة من الغيرة والحب ملأت قلب وعقل وحياة يارا لتفيق منها على صدمة:

- يعني انتَ عايز تحب بس؟!

- انتِ مش فاهمة حاجة.... في ظروف أقوى مني.

- إيه هي؟!.. أعرف.. لو ظروف مادية أنا ممكن أتحدى العالم كله علشانك وأستناك.. أنا ممكن أستناك.

- ربنا يرزقك بواحد أحسن مني.

- بالسهولة دي.. لا بقى أنا لازم أعرف إيه اللي غيرك فجأة.

- ....

- طه؟!

- ....

- رد يا طه!!

- ماما مارضيتش.

- ليه؟!

- قالت لي مش هتتجوز واحدة اتعرفت عليها من النت.

ساد الصمت لحظات، كلمة قصمت كبرياء يارا وأهانت حياتها، لم تجد أي كلمات ترد بها هذه الإهانة، شعرت بخيبة الأمل في طه الذي لم يقو على مواجهة والدته بحبه لها ودفاعه عنها، وانتهت العلاقة.

□□□

مشـــــهـــد (خـــلـــفـــي)

- قرار القيادة السياسية جه أهو.

- خير يا فندم؟

- الرفض!. (علامات الأسي تكسو وجهه وهو يلقي بخطاب مدموغ بالشمع الأحمر يعلوه ختم أسود اللون بكلمة «سري»)

- لكن يا فندم الخطة محكمة واحنا محتاجين العملية دي دلوقت.

- الراجل تقريبًا كبر وإيده بقت تترعش.. مش حمل عملية كبيرة زي دي.

- والحل.

- هنعمل العملية لحسابنا.

- ؟!

- أيوا لحسابنا بس لو حد عرف بالكلام اللي أنا بقلهولك دلوقت رقبتك هتطير يا سعيد.

(٢٣) محـمــــــود

كنت أشعر بحالة من الحزن في الصيدلية.. ينتابني إحساس بالدونية، فأنا رقم اثنين.. كنت أعيش في خيالي رقم واحد، أنا بطل أحداث روايتي، محور مواقفها، الكل يخدّم علي فيها، أما في الصيدلية فإن الحياة موحشة، أجلس على الكرسي بالساعات و إن كنت قد بدأت أتعامل مع الجمهور بعد أن تعرفت على أسماء الأدوية وحفظت أماكنها، إلى جانب إجادتي التعامل مع برنامج الحاسب الآلي سهل علي كثيرًا في معرفة العمل في الصيدلية.. حوارات جانبية مع منال معي تخفف أحيانًا من وحشة الصيدلية رغم اختلافنا الأيديولوجي الحاد.. أظن أنها تؤمن بالنظرية الماركسية الاجتماعية الآخذة في الاندثار مع مجموعة الأفكار الليبرالية الأخرى، الأمر الذي معه في النهاية يصعب تصنيفها أيديولوجيًّا، و إن كانت أفكارها الاشتراكية ما زالت ترسم بعض ملامح شخصيتها.

إلا أنني بمجرد خروجي من الصيدلية أشعر بحالة الغربة، أمشي في الشوارع أحلم بما يمكن أن أحققه، بت أهرب مرة أخرى من الحياة بالخيال مع ازدياد حديثي مع نفسي الذي بات خارج سيطرتي تمامًا، فكان

لزامًا على زيارة د/ يارا التي طلبت مني أن أتصل بها قبل زيارة عيادتها التي لا تتواجد بها دائمًا.

في عيادتها المطلة على شارع وادي النيل الرئيسي بالمهندسين كانت العيادة الخالية من المرضى إلا الممرضة الحسناء التي كانت بنظرتها وابتسامتها الرقيقة تفتح لي باب غرفة د/ يارا وكأني أهم مريض عندهم وهي تقول لي:

- «اتفضل الدكتوره في انتظارك».

مكتب بيضاوي أنيق خلفه لوحة زيتية لامرأه تجمع العنب من أحد حقول أوروبا، مسلط عليها إضاءة خافتة من كشاف ذهبي معلق أعلى اللوحة على الحائط، يعطي الصورة مهابة، بينما على الجانب الأيمن يقع شازلونج الطبيب النفسي الشهير، أزرق اللون له نصف ظهر مرتفع قليلًا، مسلط عليه هو الآخر كشاف إضاءة كبير الحجم موضوع على الأرض، بينما يميل كشافه الكبير على وجه المريض عند استرخائه على الشازلونج مباشرة.. كل ذلك في غرفة يغلب عليها اللون الأصفر، وخلف المكتب البيضاوي تجلس د/ يارا على كرسيها العالي الذي قامت عنه منذ أن رأتني وهي تمد يدها إليّ تصافحني، بينما نظري كان على فتحة البلوزة الذي يظهر منها نهداها النافران، وهي تبتسم لي مداعبة إياي بمداعبة ملأتني خجلًا، تمنيت لحظتها أن تنشق الأرض وتبتلعني:

- عينك يا محمود.

أشارت إلي أن أجلس على الكرسي الموضوع أمام مكتبها يمينًا، تكلمت بتردد وأنا أحاول أن أخفي توتر أعصابي الذي كان يتملكني، إلى جانب الموقف المحرج الذي وضعت فيه منذ لحظة قائلًا:

- انت ليه مش بتخليني اقعد على الشازلونج؟

- بس كده.. ريح على الشازلونج وأنا جيالك.

في الحقيقة كنت أريد أن أهرب بعيني من بلوزتها التي كانت تشع ضوءًا، فوجدت في الاسترخاء على الشازلونج مهربًا لنظري الذي ثبته في سقف الغرفة.

- بقالك فترة مابتجيش.

- كان فيه جديد في حياتي.

- ودلوقت؟

- ملل.

- مشكلة.

- عارف.

- احكي لي.

بدأت أحكي حكايات غريبة، ربما لا أكمل حكاية، مواقف متعددة انطباعات عن شخصيات أزيّلها دائمًا بالتحليل الشخصي الخاص بي في

هذا الصدد، عيني مثبتة في السقف المضيء بإضاءة خافتة، لساني يستمع من عقلي بعض شذرات ليس بينها رابط.. ابتسامة دائمة على وجه يارا الذي يشع نورًا، وقد تركتني أتحدث لأكثر من ساعة لم تقاطعني ولم تستفسر عن شيء سوى ابتسامة رقيقة لم أستشف منها أي شيء سوى كلمة نطقتها بعد أن أعياني الكلام.

- مش عايزاك تحب منال يا محمود.

ساد الصمت بيننا للحظات، كانت الكلمة صدمة بالنسبة لي لم أتوقعها.. قالتها يارا تظن أنها تبعد عني الحب، فيما كانت تضع ألف خط تحت الكلمة التي كنت أهرب منها لأجدني الآن أمامها.

- أنا مبحبهاش.. أنا بس بقولك انطباعي عنـــــــ...

قاطعتني بلهجة أمر.

- محمود.. اسمع الكلام اعمل كنترول شويه على مشاعرك.. منال بنت كويسة بس دخولك في علاقة حب معاها ممكن يدمرك.

- علشان مش أد المقام؟! هي الدكتورة وأنا المساعد بتاعها؟

- لا.. دي مش شخصية منال دي ممكن تبقى شخصية سارة أو هبة، ولكن منال لا، بالعكس منال ممكن تحبك وتحارب المجتمع كله علشانك؛ دا هيرضي غرورها.. هتحب إنها تكون محل أنظار الجميع إنها حبت إنسان أصغر منها سنًا وأتحدت المجتمع.. اللي بشخصية منال دي بتشبع غرورها

العلاقات الشاذة اللي من النوع دا، وهتحبك فعلًا، وهتتحدى المجتمع وتحارب الناس علشانك وهتبقى مستمتعة بالمعركة دي جدًّا.. لكن انت مش هتقدر تكمل.

- أسيب الصيدلية؟

- لا طبعًا.. أنا مبسوطة بشغلك فيها جدًّا، انت بقيت تتعامل مع الناس على الواقع.. والتعامل مع الزباين كمان هيكسبك لباقة وثقة بالنفس انت محتاجها.

- أعمل إيه طيب؟ أنا حاسس بالغربة في المكان دا، كلهم بيقعدوا يضحكوا ويهزروا وأنا قاعد على جنب على كرسي مش عارف حتى أدخل في الحوار، حاسس إن بينا ألف حاجز.

ساد الصمت لبضع دقائق مرة أخرى.. كنت أشعر بأن د/ يارا تفكر في شيء، تركتها على راحتها تبحث لي عن شيء يملأ هذه الفجوة حتى عادت تخاطبني مرة أخرى بصيغة حوارية كأنها تفكر مع نفسها:

- جربت تدخل تكلم بنت على النت؟ في دلوقت منتديات كتيرة فيها بنات بتقعد تتكلم على النت في موضوعات عامة، سياسية، أدب، فن، ثقافة... موضوعات كتيرة ادخل اتعرف على بنت، صاحب، خلي في حياتك ناس كتير.. مش هتتكسف لو ما ردوش عليك لأنك ما تعرفهاش.. هتبقوا صحاب، في حاجز بينكم مش هتتكسف منها.. هتقدر تتكلم معاها بكل صراحة في كل حاجة.. وهي كمان هتفتح لك قلبها لأنها عارفة

إنها ممكن ماتشوفكش خالص فمش هيبقى في بينكوا خجل، وقت ما تحس إنك عايز تشوفها تطلب اللقاء معاها.. حاول تخرج من دايرتك الضيقة.

□□□

(٢٤) سعيد مرجان

لم يكن سعيد مرجان بحاجة إلى الالتحاق بهذا الجهاز الأمني كي يصب جام غضبه على الإسلاميين من أصحاب «لحى التيوس وخيمات الوجه» كما كان يحلو له أن يسميهم، بل إن إلحاقه بالعمل بهذا الجهاز جاء كمكافأة لسنوات طويلة حاول فيها أن ينتقم من أصحاب هذا المشروع (المؤمن به والجاهل أيضًا الذي يجد في الدين عباءة له يواري فيها ضعفه وهوانه).

لم يكن في حاجة إلى شعور بعدم الأمان جراء هذا المشروع الإسلامي، فكانت كل أحاديث أمه على حمام السباحة بنادى هليوبوليس حول مائدة الوجاهة التي تجتمع فيها بأصدقاء النادي صباح كل خميس بالبكيني عن تخلف هؤلاء المحجبات التي يتخيلن أن الشرف والعفة في ستر هذا الجزء أو ذاك من الجسد.

وفى أبحاث أخته الدكتورة رحاب في علم الاجتماع الحديث عن التغيرات التي طرأت على المجتمع المصري الحديث إبان عصر الانفتاح،

بعد تغلغل الفكر الوهابي في طبقات المجتمع المصري، عن طريق عودة الطيور المهاجرة من الخليج مع بداية الثمانينيات والتسعينيات، لتغير مجال بحثها التي كانت مشغولة به عن خطورة التوغل الإيراني في المجتمعات العربية.

إلى جانب مسامرات أمه على حمام السباحة، وأبحاث أخته في أروقة الجامعة، لم تضن مسامع الأصدقاء بين الحين والآخر عن حكايات وكفاح الأسرة العظيم في مواجهة هذا التوغل الديني في المجتمع، عندما كان يجلس على مائدة الإفطار الرمضانية يومًا مع عمه الذي يعمل كمدير عام لأحد المستشفيات الجامعية، وهو يحكي كيف أنه كان يجذب الممرضات المنتقبات من «خيماتهن» وسط طرقات المستشفى وجرى خلف إحداهن حتى ركلها في موخرتها، عندما جاء يومًا ووجد بعض الممرضات منتقبات، وبالطبع لم يكتفِ بهذا السلوك بل أحالهن للتحقيق، وحولهن قبل انتهاء التحقيق إلى أعمال إدارية.

حكايات خاله رجل الأعمال الكبير الذي استورد أطقم بنطلونات جينز، وأنزلها السوق بأرخص الأسعار لمواجهة ظاهرة انتشار الإسدال الإيراني، في محاولة منه للحفاظ على الهوية المصرية! بعدما أكدت له يومًا ابنة أخته الدكتورة رحاب أن السبب وراء انتشار الحجاب والإسدال هو انخفاض المقدرة الشرائية لبعض الأسر، فتهرب البنت إلى الإسدال بدلًا من ارتفاع أثمان بعض الأزياء الحديثة، كذلك الارتفاع الرهيب في سوق أدوات التجميل والشامبوهات التي أدت بالبنات إلى ارتداء الحجاب.

ولكن ما زاد الطين بلة هو ما حدث لزوجته بنت المجتمع الراقي التي كانت تفتخر بين صديقاتها بأغلى أنواع العطور الباريسية، ويتباهى هو بها بين أصدقائه بأجمل أنواع الفساتين التي تظهر أكثر مما تخفي، ذلك البدر المشرق عليه دائمًا بوجهها المُضيء وشعرها الذهبي الذي يغزوه على استحياء بعض خيوط السواد، فيضفي عليه جمالًا وإثارة، على ملابس كلاسيكية (جيب قصير أعلى الركبة دائما، جاكت تحته بدي ينزلق باستمرار ليظهر الخط الفاصل بين النهدين، قبل أن تهم بين الفنية والأخرى برفعه ليستمر لحظات، قبل أن تعاود الكرة مرة أخرى). شاهدها أول مرة في ماراثون رياضي نظمه نادي روتاري القاهرة ببنطلونها الجينز الأزرق و«تي شيرت» أحمر عاري الكتفين، يتوّجه شعر مموج كموج البحر في النوة بلون سماء حمراء (يبدو أنها كانت مولعة بتغير لون شعرها كثيرًا).

كان هذا الحلم الجميل الذي يطل عليه في حفلات المجتمعات الراقية، نوادي الروتاوي وحفلات مارينا الراقصة، وفي بعض الحفلات الكبرى بفنادق القاهره والتي لم يجرؤ على الاقتراب منها، بعد أن حاول لفت نظرها ببدلته الميري التي حضر بها أحد أفراح أصدقائهم المشتركين، كان على علم أنها ستكون هناك، وهي اللحظات التي ألهب الشوق قلبه في انتظارها قبل أن تهل عليه بفستانها الأسود السواريه المرصع بـ«اللولي» وشعرها الكستنائي المموج، لتملأ المكان بهجة حينما تقدم منه العريس بعد أن لاحظ الجميع أن عينيه لم تفارقها، وهو يخاطبه بكلمات قليلة وجد معها أن بدلته الميري لن تجدي في هذه الحالة:

- خلي بالك أبوها في المخابرات.

لم تجد محاولات إثناء الجميع له عن الاقتراب منها إلا الفشل.. حاول خطب ودها بأكثر من صورة.. ذهب إليها في مكتب الديكور الخاص بها يطلب منها أن تتولى الإشراف على ديكور شقته الجديدة بالمهندسين، وعندما سألته عن «الإستايل المطلوب» أردف بكل رقة لم يعدها من قبل:

- على زوقك؟ انت اعتبريها شقتك.

لم تَرُقْ دعاباته القديمة لها، فتهربت من تنفيذ ديكورات الشقة بسبب انشغالها لتحضير ديكور فيلم عالمي يصور على أرض مصر.. إلا أنه وبإصرار لم يكن من طبعه يومًا - لم ييأس.. وجد من دروس التانجو التي كانت تلقيها في معهد الباليه المتنفس الأخير له، حينما ذهب إليها ووجدها في مكتبها قبل المحاضرة، وعلت الابتسامة شفتيها وهي تقول له:

- لا كده كتير أوي.. اوعى تقولي جاي تتعلم تانجو.. أنا عمري ما علمت ظابط أمن دولة.

الابتسامة التي سرقت منه النوم في ليالٍ كثيرة وكانت بداية إشراقة الأمل في حياته.. تبادل معها المكالمات واللقاءات.. بدأت تملأ حياته.. وبدأ يملأ الحب قلبها.. شدها إليه أنه لم يكن الضابط الجاف المتسلط.. بل إنه شرح لها برصانة عقل كثيرًا من أرائه المتفتحة، وليس أدل على ذلك من أنه لم يعترض ولا مرة على ملابسها في الخروج أو على البكيني التي كانت

لوالديه في رحلة الصيف بفيلا العائلة بالساحل الشمالي والتي استضافته فيها لتعرف العائلة على عريس المستقبل.

أغدقت عليه من الحب ما كان يصبو إليه.. كان يعود مساء كل يوم من عمله منهك الجبين من أصوات صراخ تعذيب واستجوابات المعتقلين ليجد موسيقى عمر خيرت تملأ فراغ بيته وفي انتظاره زوجته معدة له العشاء الكلاسيكي على أضواء الشموع، ناهيك عن الحفلات الراقصة والسهرات في أرقى بيوت صفوة المجتمع والتي ما كان يدخلها سعيد إلا بتصريح مرور «زوجته».

ليتغير هذا الوجه الجميل وموسيقى التانجو التي كانت تملأ حياته بصوت داعية إسلامي شاب سمع اسمه أكثر من مرة، إلى جانب أنه صادر بعض شرائطه أثناء مداهماته بعض أوكار الإسلاميين.

□□□

ليتبدل الحال.. فدوام الحال من المحال.. كانت البداية عندما عاد سعيد من عمله فلم يجد موسيقى عمر خيرت في انتظاره، بل وجد صوتًا مبحوحًا لداعية شاب بات يؤرق مسامعه كثيرًا هذه الأيام بشرائطه التي تملأ السيارات، ومحطات الفضائيات التي باتت تتسابق على التوقيع عقد برامج تلفزيونية معه.

لم يعبأ سعيد كثيرًا في البداية بالأمر.. ظن أنها مرحلة وستمر.. تجاوز عن انتظارها نصف ساعة يوميًا حتى تنهي حلقة الداعية الشاب وتأتي

لتتعشى معه.. لم يكن يعي كثيرًا في بداية الأمر أن هذا التحول التدريجي الذي بدأ يطرأ على حياة زوجته سيتطور، فبعد حفلات الرقص الصاخبة وإيقاع موسيقى الراب والروك أند رول التي كانت لا تنقطع في البيت استبدلت بصوت الداعية الشاب ذي البدلة الأنيقة وثيابه المهندمة ولحيته الحليقة إلا من شارب صغير يظلل به أسفل أنفه، ليبدأ ملاحظة التغيير الكبير الذي بدأ يتملك من زوجته عندما دخل غرفة نومه فوجدها لأول مرة تجلس بالإسدال المنزلي - الذي اعتاد سكان المناطق الشعبية والمتوسطة ارتداءه بألوانه الزاهية وهن ينشرن الغسيل في البلكونات أو يدلين القفص الخوص لبائع طماطم متجول - كانت زوجته ترتدي هذا الذي كثيرًا ما كان يثير اشمئزازه وهي على سجادة الصلاة تمسك في يدها المصحف تتلو منه بصوت مرتفع.

كثرت المشاجرات.. شحنت النفوس خصوصًا بعد أن قررت ارتداء الحجاب! لم يتخيل سعيد مرجان نفسه يسير في الشارع جنب هذا الوجه الملفح بالأوشحة، حاول كثيرًا إثناءها عن هذا القرار بالترهيب والترغيب، حلف يمين الطلاق ألا تستمع إلى هذا الداعية الشاب.. حذف قناة «إقرأ» التي كانت بمثابة الملاذ الأخير له بعد طرده من مصر، وظن أنه بذلك ارتاح من هذا الهم، وأن زوجته ستعود إلى رشدها وإلى حياتها المليئة بالحيوية والنشاط، وبالطبع لم يكن ارتداء الحجاب هو الحاجز النفسي الوحيد بين سعيد وزوجته؛ فارتداء هذا «الإيشارب» يمنعها من دخول بعض الملاهي الليلية التي اعتادوا الذهاب إليها في عطلات الـWEEK END مع بعض

أصدقاء النادي أو دخول بعض الفنادق الخمس نجوم وكذلك صالات الديسكو، خصوصًا التي يشعر فيها سعيد بأنه يسلخ من جلده.

ازداد هذا الخلاف، زاد الهجر النفسي والجسدي، ما عاد يطمع فيها كبداية حبهم، هي كذلك عزفت عنه ولم تعد تحاول أن تجذبه إليها كما كان يحلو لها أن ترى نظرة الشوق في عينيه وتتلاعب به. أغلق في وجهها قناة «إقرأ» فارتمت في حضن قناة «الناس» الجديدة، لم يكن يسمع بها إلا عندما وصلت إليه التقارير الأمنية عنها أنها قناة سلفية، لم يهب يومًا لنفسه برهة من الوقت ليشاهدها.. لأنه يعلم مسبقًا محتوى الحوار وفحوى الفكر السلفي الذي لا يتابعه إلا أصحاب اللحية الطويلة والجلباب الأبيض، الهيئة التي تثير في نفسه الاشمئزاز! لاحظ تغيرات جديدة على زوجته تخلت عن البنطلونات الجينز الضيقة التي كانت تحافظ عليها مع الحجاب، ازدادت ملابسها اتساعًا وزاد هو نفورًا منها.

□□□

عاد إليها يومًا بعد منتصف الليل فلم تفزع، فهي عادته في الأيام الأخيرة - بعد أن نفر منها- كانت علامات السكر واضحة عليه، تمنت من الله له الهداية، فدعت بصوت خفيض.

- اللهم اهده ...

سمعها.. أحس بأنها تسبه بهذا الدعاء، اعتبرها إهانة أنها تدعو له بالهداية! قامت المشاجرة بينهما كالعادة، حاولت التحلي بالصبر بعد أن

ظهر لها أنه غير قادر على كبح جماح غضبه وأن شيطانًا يتملكه، حاولت أن تهدئه وتخبره بأن دعاء الهداية للناس جميعًا.. ذكرتها له مرارًا.

- «يا رب يهديني ويهديك».

- أنا مش محتاج هداية.. أنا عارف أنا بعمل إيه كويس.

- ربنا أمرنا بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

- أنا بقى اللي هيؤمرنى بالمعروف.. هعمل معاه المنكر.

حاولت أن تجعل هذه الليلة تمر بسلام؛ فزوجها سكير ولا يعي ما يقول، حاولت أن تكف عن الكلام معه ليس خشية منه بل خشية عليه من ارتكاب المزيد من الحماقات، ولكن السيف قد سبق العزل، ألقى عليها يمين طلاق ألا ترتدي الحجاب مرة أخرى، وأن تخرج معه الآن بفستانها السواريه الأسود عاري الأكتاف الذي شاهدها بيه أول مرة في فرح زميله، فتح الدولاب فلم يجد كل ملابسها، كل فساتين السواريه العارية اختفت تمامًا.. نهرها.. باتت ترى الشرر يتطاير من عينيه، بيد أنه قد فقد السيطرة على أعصابه.. تقدم منها يطالبها أن تخرج معه الآن بأي طريقة.. مسكها من ذراعها بكل غلظة فنهرته وأبعدته عنها بضربه في صدره، قبل أن يرد عليها بلطمة على خدها تورمت منها ثلاثة أيام، وهي اللمطة التي كانت بمثابة رصاصة الرحمة الأخيرة لحياتها معه.

□□□

(٢٥) محمود

لم تنقطع زياراتي إلى كشك عبد القوي، ومع مرور الوقت أصبحت من أهل هذا المكان، أتبادل الكلام مع هذا، وأصافح ذاك.. أسأل عن أحدهم إذا تأخر يومين، أتبادل معهم حديث الثقافة والأدب والدين، يحضر لي مكرم بمجرد حضوري كوب الشاي بالسكر «المظبوط»، أجلس في وسط اثنين يلعبان «الطولة» أمام كشك أحدهم، أحاول أن أفض شجارًا حول الغش في رقم النرد بطريقة فكاهية، لا تخلو من الدعابة بين رجال كبار يتشاجرون كما الأطفال الصغار، أجلس أسترق الحوار أمام كشك نعمان، أشهر كشك في سور السيدة زينب، الذي تعلوه صوره المرسومة بالزيت بالحجم الطبيعي لوجهه النحيف، كان قد رسمها له أحد الرسامين على هيئة كاريكاتير؛ إكرامًا له لكتب كان يشتريها منه وهو صغير، نعمان هو الوحيد الذي يحافظ على نظافة ونظام رص الكتب وطريقة عرضها، لولا ضيق خلقه، وعدم سعة صدره، لكان من كبار أصحاب المكتبات مثل مدبولي الناشر الشهير الذي بدأ ببيع الجرائد على الأرصفة، وصولًا إلى صاحب أكبر مكتبة في مصر. على عكس هذا الحال

عم متولي صاحب الكشك المجاور له، والمتخصص في بيع الروايات الأجنبية المترجمة، تسيطر العشوائية على كل مكان في الكشك الخاص به، وهو يستمتع بها و يألفها، بل أشعر أحيانًا أنه إذا أعاد ترتيب كشكه ربما يضل أماكن الكتب التي يحفظها على عشوائيتها.

على الرغم من عدم قربه من عم عبد القوي فإنه بدأ يتقرب لي - أبو حمزة المصري- ذلك الرجل الأربعيني الغامض، بالطبع كان شعورًا جيدًا عندما كنت أسمع كلمات الإطراء على شخصي المتواضع («أيموشن» وجه ضاحك) والذي لا يتوانى في امتداح شخصيتي التي يرى فيها خالد بن الوليد.. تلك الكلمات التي كانت تثير إعجابي، وتطفئ لهيب أغوار نفسي.

□□□

ذات مرة اجتمع ثلاثتنا «أنا وعم عبد القوي وأبو حمزة « في حوار حول الصلاة في المساجد التي بها أضرحة.. حاولت في البداية أن أوضح من خلال خلفيتي الصوفية، عدم التعارض بين الصلاة وعبادة التوحيد التي هي جوهر الدين الإسلامي وبين الصلاة في أماكن الأضرحة، وأن من أثار هذه الإشكالية هي أفكار محمد بن عبد الوهاب، والفكر الوهابي الذي كان يخشى فقط من الغلول في حب آل البيت، وصولًا إلى حد الشرك بالله، خصوصًا بعد أن تطرقت بعض كتابات الصوفية إلى الحلول والاتحاد مع الله كدرجة من درجات المكاشفة الصوفية، والتي لا يصل

إليها إلا العارف بالله، كما في بعض كتابات ابن عربي، أو ما أشيع فهمه من كتابات الحلاج.

إلا أن الشيخ عبد القوي ما زال مصرًا على وجهة نظره، أن الصلاة في المساجد التي بها أضرحة تعتبر نوعًا من الشرك بالله، وقص علينا موقفًا.. أنه لم يصلِّ صلاة الجنازة على زوج أخته الذي أقيمت شعائرها في مسجد السيدة نفيسة، واكتفى بانتظار الجنازة خارج المسجد لحين تشيع الجثمان إلى مثواه الأخير، وذلك قبل أن يقوم غاضبًا من الحديث، داعيًا الله لنا بالهداية.

اقترب مني أبو حمزة المصري، وجلس على الكرسي الذي خلا بقيام الشيخ عبد القوي، يضرب على ساقي بيده بكل ود قبل أن يفتح معي حوارًا مختلفًا، مستمدًا طرف خيطه من الحوار القديم...

- سيبك منه.. إنت صح، هو عقله على أده.. إش وصله لثقافتك إنت.

- هو مشكلته بس إنه مش قادر يفهم إن في فروقات نسبية بين البشر.. اللي ينفع لإنسان مش شرط ينفع لإنسان تاني بس دا لازم يتم وفق ثوابت الشريعة والدين الإسلامي.

- الله ينور عليك.. أهو دا الفكر المستنير اللي الواحد محتاجه.

ثم أخذ نفسًا عميقًا يحاول أن يستجمع به شتات أمره الذي غاب في خيالات بعيدة، قبل أن يعاود الحديث...

- إنت عارف يا محمود يابني.. الأمة الإسلامية محتاجه شاب زيك.. الشاب البطل.. اللي شايف اللي محدش شايفه.. اللي يقدر يكسر الخط بين الظن واليقين، ويسافر في رحلة ملكوت الله .

- إيه الكلام الكبير دا يا عم أبو حمزة.. الموضوع بسيط مش أكتر من إني بس مؤمن بالتنوع والاختلاف، وكل واحد يعبد ربنا حسب خلفيته الثقافية.. أنا قريت كتاب في الفلسفة كـ...

- سيبك من كتب الفلاسفة الكفرة.. تخيل نفسك وإنت واقف قدام جيوش الظلام دي كلها بتحاربها لوحدك علشان ترفع راية الإسلام.. نور يخترق ظلام حياتنا.. إنت مكانك مش هنا.. إنت البطل اللي الأمه مستنياه يا محمود.

لم أشأ أن أدخل في حوار فرعي معه حول طبيعة الفلسفة وماهيتها، وأن الفلسفة ليست كفرًا، خصوصًا وأني كنت أقرأ في هذه الفترة كتاب ابن رشد « تهافت التهافت» الذي يرد فيه على الغزالي الذي اتهم الفلاسفة ومنهجهم بالكفر والإلحاد في كتابه «تهافت الفلاسفة» لكني اكتفيت بما أطرب أذني من كلام «أبو حمزة» قبل أن تذهب بي الخيالات مذاهبها، وأنا أقود جيوش المسلمين لفتح الأندلس من جديد، بينما تنكسر رايات الشرك والكفر تحت سنابك خيول جيش أنا قائده...

أنا البطل المنتظر.

□□□

مشـــهــد (خـلـفــي)

تعليق د / يارا عندما قرأت هذا الحوار في مذكرات محمود.

استطاع ذلك الثعبان الماكر بهذا الحوار، وبطريقة عملية أعجز عن فهمها؛ الغوص في أغوار نفس محمود، كما لم أستطع أنا الوصول إليها، رغم قربي منه خلال كل هذه الفترة.

استطاع أن يدخل إلى أدق منطقة في حياة محمود ويمسكه منها، فأحكم عليها قبضته، وبدأ يتحكم في حياة محمود منذ ذلك الحين، حتى قلت زيارات محمود إلى عيادتي، إلى أن انقطعت تمامًا، قبل أن تعاود أخباره الظهور مرة أخرى مع صورة له في جريدة الأخبار، مكتوب تحتها بالبنط العريض.

«الإرهـــــــــــابي»

د/ يارا فؤاد

□□□

(٢٦) مريم سعيد

كان الطريق مزدحمًا كعادته كل يوم، عندما خرجت مريم بملابسها الأنيقة التي يغلب عليها السواد، عائدة إلى عملها بعد إجازة حاولت فيها أن تتخلص من أعباء العمل، لتجد نفسها مصطدمة بواقع إعلامي مغاير لما يشعر به الإنسان المصري، سواء البسيط «الذي يتشدق بها الإعلام الحكومي» أو المصري عمومًا الذي بات يعيش في عالم و إعلامه في عالم آخر، وهو يتفرج عليه كمشاهد يشاهد أحد أفلام الخيال العلمي التي لا تمت للواقع بصلة.

لم تكن مريم في حاجة إلى الدراسة التي طلبتها من بعض المعدين في فريق العمل الخاص بالبرنامج الذي تقدمه، عن سبب قلة الإعلانات في برنامجها، وهو ما يعكس قلة المشاهدين لهذا البرنامج، على عكس بدايته التي كان يحظى فيها بأعلى نسبة مشاهدة، وبالتالي أكبر دخل إعلانات، وهو ما جذب إليها الثناء من رئيس القناة الذي لم يتوانَ كذلك في الفترة الأخيرة بتذكيرها بانخفاض نسبة الإعلانات، مع تلميح بقرب نهاية العقد، والحاجة إلى اجتماع للاتفاق على بنود العقد الجديد، وهو الذي

كان يتمنى سابقًا تجديد العقد معها سنويًا، ولو بزيادة ٥٠٪ من دخل إعلانات الحلقة.

لم تكن مريم في حاجة إلى كثير من الأبحاث التي كانت تتوقع أن تجدها على مكتبها في الفرع الإداري للقناة، فمشاهدة يوم واحد للبرامج التي تقدم في التليفزيون أرضيًا أو فضائيًا كانت كفيلة لتعكس المزاج العام للمجتمع، والنوعية التي بات المشاهد يفضل الالتفاف حولها.. ما بين برامج تافهة تقدم له المخدر في فيلم كوميدي تافه يضحك عليه قبل النوم، وأخرى في برامج سياسية موجهة، تجد فيها المرسى لأحلامها البالية.

إلا أن حالة الإحباط هذه التي كانت تمر بها مريم لم تكن أبدًا لتثنيها عن قرارها الذي اتخذته من اليوم الأول لها في عملها كإعلامية، في عدم تقديم إلا كل ما له قيمة، وينفع الناس، حتى الفقرات الخفيفة التي كانت تحاول أن تزين بها برامجها كانت تحمل في طياتها أبعادًا ثقافية وعلمية.

❑❑❑

كانت غرفة مكتب مريم سعيد أشبه بورشة عمل دائمة النشاط، أو كخلية نحل لا تهدأ فيها الملكة إلا بعد أن تتم عملها كاملًا.. مكتب حديث أمام أحد نوافذ الغرفة المغطاة بالستائر البلاستيكية زهرية اللون، يعلوه كمية كبيرة من الأوراق التي باتت غير قادرة على تصنيفها والاستغناء عن عديم القيمة منها.. على يمينها برواز مذهَّب موضوع فيه صورة لها مع زوجها على خلفية ساعة بج بن الإنجليزية الشهيرة،

والابتسامة تعلو شفيتها فيها، بينما زوجها يشير إلى شيء غامض في السماء بيده، يتوسط الغرفة مائدة اجتماعات، تتسع لأكثر من عشرة أفراد، كثيرًا ما كانت شاهدة على خلافات بين مريم وفريق عملها من معدين ومساعدي إخراج ومخرجين ومهندسي ديكور، الذين يعترضون على تدخلها في كل صغيرة وكبيرة، وقد يفرح البعض الآخر من اهتمامها بكل تفاصيل عملها، كل حسب تمكنه من مهنته وثقته بنفسه.

تقدمت مريم إلى مائدة الاجتماعات التي اصطف حولها سبعة شباب وشابات من حوالي أكثر من ساعة، يتناقشون حول موضوعات البحث، وقوائم الاستقصاء التي عملوا عليها لمدة ٢٤ ساعة في اليوم لمدة أسبوع كامل، كل منهم يحاول أن يعرض وجهة نظره في أسباب عزوف المشاهدين عن البرامج الحوارية «التوك شو» مع زيادة ملحوظة في مشاهدة القنوات الكوميدية.

نظرت مريم في وجوه مجموعة الشباب التي ترى فيهم الحماس والغيرة وحب العمل، تبادلت وبعضهم نظرات الثقة والمودة، فيما بدأ كل واحد منهم يشرح لها في عجالة من أمره ملخص ما توصل إليه من بحث، وهو يمسك في يده مجموعة من الأوراق، يحاول بالنظر فيها أن يهرب من نظرة مريم سعيد له حتى لا تتلعثم الكلمات على شفتيه، بينما ابتسامة الثقة لا تغادر ثغرها.

أتمت مريم الاستماع إلى كل الشباب الحاضرين، حاولت أن تستجمع

ما توصلوا إليه وحاولوا عرضه عليها، وحاولت هي أيضًا أن تجمع شتات ذهنها من شروده، وهي تنظر إلى كمية الأوراق الموضوعة أمامها لتعاودها الابتسامة مرة أخرى وهى تنظر في أعين الشباب الذين بات كل واحد يتطلع إلى كلمة إشادة منها للبحث أو ثناء للنتيجة التي توصل إليها.

مريم سعيد: مجهود كبير، لكنها أبحاث تقليدية.. قوائم استقصاء محفوظة.. تقسيم المجتمع إلى عينات، قوالب جاهزة، وإجابة بـ«نعم» أو «لا» مش دا اللي أنا عايزاه.

ظهرت علامات الصمت والصدمة على وجوه الشباب، بينما أكملت مريم سعيد كلامها...

مريم سعيد: عايزين نقدم شكل جديد في البرنامج، إحنا بقلنا فترة متوقفين، لازم نرجع بشكل جديد، ديكور جديد، موضوعات جيدة، أفكار جيدة.

فأكملت حوارها بشيء من الدعابة، تحاول أن تخفف به من جو التوتر الذي ساد الاجتماع، بعد رفضها مشروعات البحث، وتطاير أحلام الشباب في كلمات الثناء والمديح.

مريم سعيد: أو حتى مذيعة جديدة.

أسامة: بس أكيد لازم نتكلم عن حادث كنيسة القديسين، دا الموضوع اللي شاغل الناس كلها.

مريم سعيد، وماله.. طبعًا لازم نتكلم، بس إيه المانع أننا نتكلم بشكل جديد.

كوثر: إزاي؟

مريم: إنتِ بتشوفي التليفزيون يا كوثر؟

كوثر: طبعًا.

مريم: إتفرجتى على معالجة البرامج، سواء في التليفزيون الأرضي أو الفضائي للعمل الإرهابي دا؟

كوثر: أكيد.

مريم: طيب لاحظتي إيه؟

كوثر: عادي.. معالجة ...

لم تترك مريم سعيد لكوثر فرصة لتكمل ملاحظاتها.. اختطفت منها أول كلمة فقط، وكأنها ترى فيها ما كانت تبحث عنه، وتصبو إليه، فالتفتت إلى الجميع، وابتسامة الثقة تعلو شفيتها...

مريم سعيد: عادي.. هو دا اللي مش عايزاه، مش عايزه «عادي»، عايزه معالجة تكون مختلفة، الناس مش هتيجي لنا إلا إذا كان عندنا الحاجة المختلفة مش «عادي».

ظهرت علامات الانتباه على وجوه الحاضرين، بينما واصلت مريم شرح خطتها للتغطية الإعلامية لحادث كنيسة القديسين الإرهابي.

- كل القنوات استضافت خبراء إستراتيجيين.. اللواء فلان الفلاني واللواء ترتان الترتاني، وجوه بقيت محفوظة، وكلامها محفوظ، أسئلة المذيع بقت محفوظة، إحنا عايزين نشوف الجديد، مش هتستضيف لواء الشرطة السابق، علشان يقولنا خطوات القبض على الإرهابيين، ولا الخبير السابق علشان يقولنا الأبعاد الإستراتيجية لهذه الحادثة وتأثيرها على الأمن القومي المصري، ولا شيخ وقسيس يكلمنا على النسيج الواحد للمجتمع المصري والوحدة بين أفراد الشعب، ولا ولا ولا... ليه ما نروحشي للجانب الآخر؟!

ساد الصمت بعض اللحظات في الحضور، وهو ما أسعد مريم، وهي ترى علامات الانتباه والانجذاب تعلو ملامح وجوه الحاضرين، وترى كلًا منهم يسرح بخياله في هذا الجانب الآخر، فتحدث أسامة مرة أخرى..

أسامة: نستضيف أسرة من أسر الشهداء في الحادث ونتكلم معاهم؟!

مريم: تفكر هيقول إيه... هيقول إيه غير حكايات عن الحبيب الذي فُقِد.. هيقول إيه غير دموع ألم وحسرة، كلام شفناه قبل كده في حوادث إرهابية أو حوادث عادية، كلنا حفظناه من قصص حوادث القطار والعبارة، وبعدين الناس ذهقت من الكلام دا، قلبها موجوع خلقة، مش ناقصة تسمع قصة ابن ودع أمه وهو بيقولها «نص ساعة وهرجع» ومرجعش، ولا عريس سايب مراته وهي أعده مستنياه تبلغه بأنها حامل.. ولا ابن كان مستني أبوه علشان يصالحه.. ولا.. ولا.. ولا.

ساد الصمت مرة أخرى في المكان، بينما علت شفتي مريم سعيد ابتسامة ثقة وانتصار، قامت من مجلسها، فتحت حقيبة يدها.. وأشعلت سيجارة لأول مرة في جلسة عمل، أخذت منها نفسًا وأكملت كلامها...

مريم سعيد: هنبدأ من الإرهابي.

لم تترك مريم الفرصة للوجوه المترقبة لالتقاط أنفاسها من جراء مباغتتهم بالكلمة، لتجمع باقي فِكَرها التي بدأت تسترسل إلى ذهنها ككاتب قصة بات الليالي يفكر في نهاية لأحداث روايته، قبل أن ينزل عليه الوحي من السماء في لحظة واحدة يكتب ولا يعرف من أين يأتي الكلام.

مريم سعيد: الإرهابي دا مش له أسرة، أب، أم، أخت، أخ.. يمكن كان زوجًا وله أولاد!! ولو ملوش إيه اللي يخلي شاب في السن دا مايتجوزش؟! ولو متجوز إيه اللي يخليه يسيب أسرته وينتحر.. عايزين نعرف حبه الأول، أحلامه، حياته، صحابه، الجانب الآخر من الجريمة.. عايزه أعرف نفسية القاتل قبل الجريمة، الظروف اللي تخليه يحول نفسه لقنبلة يفجر بيها نفسه والأبرياء.

التقطت مريم سعيد السيجارة مرة أخرى، واستجمعت ما تبقى فيها من نيكوتين وهي تكمل حوارها...

مريم سعيد: في حكمة بتقول: إذا توجهت أصابع الاتهام إلى شخص، فإن باقي أصابع اليد تشير إليك.

أخذت نفسًا عميقًا بعد فترة تأمل، وقالت جملة واحدة...

«فن صناعة الإرهاب»

مريم سعيد: هو ده اللي إحنا بنحاول نقدمه مش هنمسك سكينة ونسلخ في الإرهابي، نحط صورته على الشاشة ونعيط، ونقول «قاتل شرير.. شرد كام أسرة؟!» لا.. دا يمكن يكون الإرهابي دا أساسًا مجني عليه من المجتمع اللي هو فيه، والمجتمع دا هو اللي صنع المجرم، مهمتنا إحنا بقى نعرف الأسباب والدوافع وراء هذه الجريمة.. الأسباب اللي تخلي شاب في مُقتبل حياته يحول نفسه إلى قنبلة ويترمي في جحيم النيران.. أكيد ماعندوش حاجة يبكي عليها في الدنيا.. إيه اللي وصله للحالة دي؟! مين السبب؟

«فن صناعة الإرهاب»

ثم نظرت إلى أسامة مساعد المخرج الذي كان جالسًا على يسارها، يستمع إليها بكل اهتمام، منتظرًا توجيه الخطاب إليه كعادتها دائمًا...

مريم سعيد: وآدى «البرومو» بتاع البرنامج يا عم.. أي خدمة تاني؟.

تعالت أصوات الشباب التي بدأ يعلوها الحماس مرة واحدة.. بعضها متسائلًا، وبعضها مجيبًا...

- طيب منين نبتدي؟

- أكيد من بيت الإرهابي - أمه- أخته - مراته - أي حد من قرايبه.

- وإنتِ فاكره إنهم ممكن يكونوا موجودين دلوقت؟، زمنهم على الكمبروسر في أمن الدولة.

- خلاص نبتدي من الشارع، أهله، جيرانه، صحابه في الشغل.

- تفتكروا أساسًا هيتصرح لينا إننا نعمل عمل زي دا؟

- أنا خايف يعتبرونا بنبرر الجريمة، مش كل العقول اللي هتفهم إننا بنحاول رصد جذور الجريمة مش تبريرها!

- مش مهم، المهم نعمل اللي علينا.

- تعالت الأصوات، وتناثرت الأفكار، بينما تابعت مريم الحالة التي وصل إليها الشباب لتقديم العمل في أفضل صورة، قائلة...

- المهم نبتدي.

«فن صناعة الإرهاب»

(٢٧) الشيخ عـــبـد القـــوي

لم يكن الشيخ عبد القوي في هذا اليوم في الحالة التي تسمح له أن يتحمل مداعبات مكرم بائع الشاي وصاحب نصبة الشاي، في بداية الممر الضيق لمكتبات الكتب القديمة، وهي المداعبات التي تقبلها منه كثيرًا.. مكرم المشهور بخفة ظله ومداعباته الحاضرة دائمًا، والتي يكثر منها مع الشيخ عبد القوي الذي يحبه ويعطف عليه كثيرًا، منذ أن كان والده صاحب نصبة الشاي الأصلي يصطحبه معه وهو طفل صغير، قبل أن يتحول هذا الطفل إلى الولد مكرم عامل الشاي.

وعلى الرغم من حالة الشيخ عبد القوي هذه، فإن نبرة صوت مكرم كذلك لم يكن عليها المرح والسخرية كعادته، بل إنه تقدم منه بخطوات يكسوها التردد والخجل، وهو يمد له جريدة الأخبار ملفوفة حول بعضها، لم يتضح منها إلا ما ظهر من نصف مانشيت رئيسي مكتوب باللون الأحمر غير مكتمل...

مكرم: سمعت عن الحادث بتاع الكنيسة؟

الشيخ عبد القوي: قدر الله وما شاء فعل.. لو تعرف الناس حجم غضب ربنا لقتل نفس.

مكرم: غريبة يا شيخ، مع إني كنت متوقع إنك هتفرح فيهم.

الشيخ عبد القوي: في حد يفرح في الموت يابني.

مكرم: بس دول كلهم مسيحيين.

الشيخ عبد القوي: مسلمين أو نصارى، الله هو اللي هيحاسب الناس على اعتقاداتهم يوم القيامة، وليس من حق أحد أن يتجاوز دوره الذي رسمه الله له في هذا الكون.. أنت عبد خلقت لكي تعمل وتعبد الله.. وليس عليك حساب الآخرين، أما الحساب فهو يوم الحساب لصاحب الملك والملكوت لا لبشر يا مكرم.

تقدم مكرم أكثر من الشيخ عبد القوي الذي انشغل عنه برد السلام على أحد أصحاب الأكشاك المجاورة له، وهو يفتح كشكه، بينما عين عبد القوي ما زالت عالقة عليه، حينما كان مكرم يكمل حديثه إليه، وهو ينظر إليه بخبث ومكر، بينما يداه تمتد إليه بالجريدة وهو يفتحها على مصراعيها...

- خلّي بالك بقى علشان هما عرفوا مين الإرهابي.

مد الشيخ عبد القوي يده يلتقط الجريدة من يد مكرم غير عابئ بالموضوع برمته، بينما لم ينتبه لتلميحات مكرم، فقد كان يشغل باله موضوع

محمود المتغيب عن البيت منذ فترة، بينما يتصفح بيده الجريدة بعشوائية انقع عيناه على صورة محمود بالجريدة مكتوب تحتها «الإرهابي».

حالة من الفزع والخوف تملكت الشيخ عبد القوي، بعد أن شاهد الصورة بدأت الأفكار تتصارع برأسه، وإن كانت ليست في حاجة إلى هذا الصراع بعد أن وضحت له أسباب غياب محمود عن البيت، وبحركة لاإرادية منه التفت إلى الكشك المجاور له ينظر هل فتح الشيخ أبو حمزة المصري دكانه، وفرش فرشة الكتب الدينية القديمة أم لا؟ فلم يجده ولم يجد كتبه مرصوصة كعادتها أمام الدكان على طاولتها الخشبية المتهالكة، لتتأكد شكوك في قلبه، حاول مرارًا أن يكذبها، ليقطع شعور الخوف والرهبة في قلبه كل طريق أمام الإحساس بالندم الذي كان على وشك السيطرة عليه.

بقدم لا تستطيع أن تحمله غادر عبد القوي المكان، بينما كانت الجموع من أصحاب الأكشاك تتجمع حول مكرم، تحاول أن تفهم منه ما حدث، وهم يتجاذبون أطراف الجريدة منه، بينما تطايرت التعليقات عن الحادث، حينما كان عبد القوي قد غادر ساحة المكان تمامًا، وابتعد عن الأنظار التي كانت تلاحقه.

□□□

ما زال صراع الأفكار يطحن رأسه، شعور بالندم يتملكه على أنه هو الذي قذف بمحمود في هذا المستنقع، ثم يعاود ليقول لنفسه «ما

أردت إلا الإصلاح قدر ما استطعت»، فكل ما كان يتمناه الشيخ عبد القوي مساعدة أخي زوجته الذي كان يعلم بأنه يقضي فترة في السجن بعد الحكم عليه بخمس سنوات، علم من أخته أنها في قضية اتجار في المخدرات لفقت له زورًا، وعندما شاهده أول مرة لم تكن ملامحه كما تصورها.. شاب أسمر اللون، شعره مجعد، بشرته تتصارع فيها خيوط متعارضة من آثار الجروح والغرز من الخناقات، لا تفارق السيجارة يده، نبرة صوته الغليظة تثير الاشمئزاز كما اعتاد رسمها المخرجون في الأفلام العربية، عروق يده متورمة وبارزة بوضوح، كأنها معصوبة دائمًا من أعلى معصمه من أثر كثرة حقن الماكس التي يتعاطاها.

إلا أن هذه الصورة قد تبددت عن ذهنه منذ اللقاء الأول به، منذ أن شاهد في ملامحه فتى محترمًا من أصل طيب، رأى في عينيه نظرة انكسار، في ملامح وجهه سمات الشاب المصري البسيط الذي تلمح سمار طمي النيل في وجهه، ونهر النيل يجري في عروقه، ناهيك عن نبرة صوته المنخفضة، بالرغم من حضوره الذي طغى على الجلسة الأولى بينهما.

لا يعلم كيف دخل حب هذا الفتى قلبه؟ فقد قابل في حياته كثيرًا، إلا أن هذا الولد قد جذب شيئًا ما في قلبه، عزم أمره منذ اللحظة الأولى التي قابله فيها على أن يساعده، حتى لا يعود إلى طريق الحرام مرة أخرى، كما رأى في عزم الشاب إصرارًا على شق طريق الحياة بكفاح وشرف، فتوسط له بالعمل في الصيدلية، وشاركه في تجارته في الكتب القديمة، مد له يد العون ليجذبه من مستنقع الفجر والفسوق والتجارة الحرام..

وكان شيء ما في قلبه يخبره أنها ليست سكة هذا الشاب، وما تخيل لحظة أن يكون محمود معاقبًا في السجن بتهمة الاتجار في المخدرات، ولا حتى للهيقًا كما حلفت له زوجته مرارًا، فأرشده إلى الصلاة، وحلاوة تلاوة القرآن بنية صافية لوجه الله عز وجل، كما اعتاد أن يفعل مع أولاد أزواجه الثلاث الأخريات.

كان طريقه إلى المنزل هذه المرة بعيدًا على غير العادة، فبالرغم من الخشونة في الركبة التي بدأت تظهر آلامها عليه في الفترة الأخيرة، والتي داوم على معالجتها بزيت الكافور وبعض الأعشاب، فإن قدميه كانت أسرع دائمًا في السير من هذه المرة، سار يقدم قدمًا ويؤخر الأخرى، يسير في الاتجاه ولا يريد أن يسير فيه، لا يعلم كيف ينقل الخبر إلى أخت محمود، كيف يخبرها أن أخيها قتل، أو مات، أو انتحر، كيف يخبرها أنه ترك وراءه عار العمر كله في حادث إرهابي أدمى قلوب الجميع؟!

على الرغم من أنه تردد في الذهاب إليها، فإن خوفه عليها من سماع الخبر كان أقوى من رغبته في الهروب من تلك المواجهة، إلى جانب حالة الفزع التي انتابته عندما تذكر أن من المحتمل أن أجهزة أمن الدولة تكون الآن تداهم منزلهم لتفتيشه، ولكن العجيب في الأمر أن الموضوع وصل إلى الصحافة حتى دون أن يأتي رجال الشرطة إلى منزلهم وتفتيشه؟! بل واعتقال كل ما فيه على سبيل التحقيق في القضية قبل أن تصل إلى الجرائد.

كانت الإجابة منطلقة في رأسه سريعًا.. إن القضية قضية رأي عام، وبالتأكيد ضغط الجماعات السياسية على جهاز الشرطة للكشف عن مرتكبي الحادث كان دافعًا للكشف عن هويته حتى قبل الانتهاء من التحقيقات.

عندما طرق عبد القوي بقبضة يده على باب منزلهم الخشبي بطريقته المعهودة، شعر بوخذة غريبة في قلبه، فرفع يده وضعها على قلبه من أسفل فتحة الصدر بالجلباب الأزرق الذي كان يرتديه، وبدأت يداه ترتعشان، بينما ظهر خلال الشق يدان تمتدان لفتح الباب.. فتحت زوجته الباب لتجده واقفًا أمامها متكئًا برأسه على حلق الباب، يمسك بإحدى يديه أسفل لحيته على صدره ناحية القلب، وهي تقترب منه في حالة من اللهفة والخوف عليه...

- ما لك يا شيخ؟! إنت تعبان.

رمى الشيخ عبد القوي ثقله على كتف نجلاء وصدرها التي حاولت أن تمسك نفسها، ولا تفقد توازنها وتقع به على الأرض، لتسنده حتى يصل إلى الأريكة المجاورة لباب الشقة، لتفرغ يده من كتفها وتجلس تحت قدميه تخلع له نعليه، وتدعك له أصابع قدميه، وهي مستمرة في طرح الأسئلة عليه...

- ما لك بس يا خويا، إنت تعبان تاني، العملية تعبتك، منا قولت لك ارتاح، إنت مبقتش قد حمل الشغل بعد العملية دي.. إنت فين يا محمود

داوقت كنت جبت لنا الدكتور.. ألبس العباية يا خويا وأنزل أشوف لك دكتور؟

رد عليها بصوت لا يكاد يكون مسموعًا وبكلمات متقطعة...

- هاتيلي كباية ميه يا نجلاء.

بسرعة البرق وعلى عكس عادتها جاءت نجلاء بكوب الماء إلى الشيخ عبد القوي الذي طلب منها قرص أسبوسيد للسيولة.. لتجري مرة أخرى إلى غرفة نومها وتخرج كيس الأدوية البلاستيك ترميه على السرير، وتلتقط من كمية العلب الملقاة - بيد ترتعش - علبة الدواء المطلوبة، وتجري عائدة إلى زوجها، بينما وجهها مصفر من خوفها عليه، ليلتقط منها القرص ويبلعه بكوب الماء الذي شرب جزءًا منه وهو يتمم بدعاء الشفاء، قبل أن يكمله لتسأله نجلاء...

- أجيب لك تاني يا خويا؟

أخذ الشيخ عبد القوي نفسًا طويلًا، وأشار إليها أن تأتي وتجلس بجواره، لتلقي بجسدها على الأرض، وهي تضع يدها اليسري على فخذه اليمنى، وكأنها طفل يجلس تحت قدم والده يداعبه، بينما عبد القوي الذي ما زالت أنفاسه تتعالى بصوت مسموع لها وهي بجواره، وهي تحاول أن تمسك يده، وباليد الأخرى تضعها على صدره تتحسس دقات قلبه، بينما يستجمع هو شجاعته ولا يعرف من أين يبدأ؟!

- ربنا يسترها معانا يا نجلاء، إحنا داخلين على أيام سودة.

- لا قدر الله يا حاج، مالك بس؟!

- مش عارف أقولك إيه، المصيبة كبيرة قوي.

- في إيه يا حاج قلقتني؟

- أخوكِ... !

- محمود... ؟! ما له؟!

- البقاء لله.

انطلقت صرخة مدوية من نجلاء، بعد سماعها كلمة «البقاء لله» من الشيخ عبد القوي، بينما تعالت كلتا يديها تصفع بها وجهها بكل قوة، وكأنها تنتقم من نفسها لذنب لم تقترفه، وهي تصرخ وتولول على أخيها مرددة اسمه عدة مرات بنبرات مبحوحة في نهاية نطق الاسم، حاول الشيخ عبد القوي تهدئتها وإن كانت حالته الصحية لم تكن بالقدر الكافي لكبح جماح حالة الحزن التي سيطرت عليها، بينما حاول الاقتراب منها ومد يده يغلق به فمها المملوء بالصراخ...

- اسكتي بقى ما تخليش حد يسمعنا.. خلينا نشوف هنتصرف إزاى في البلوه دي.

ردت عليه نجلاء وما زالت تلطم خديها، وتشق ملابسها بيدها بصوت منحوح ...

- مصيبة إيه، هو فيه مصيبة بعد اللي أنا فيه، مات إزاى إخويا، حادثة؟

- يابنتي اهدي بقى الموضوع كبير، وهنروح في ستين داهية.

- موضوع إيه إللي كبير، طمني يا شيخ، إيه اللي حصل.. الله لا يسئيك.

- أخوكِ هو اللي فجر كنيسة القديسين ومات فيها، والجرايد كلها نشرت صوره.

تعالت أصوات الصراخ مرة أخرى، وهي تشق ملابسها، وتندب حظها وحظ أخوها العسر، لتتغير نظرة الشيخ عبد القوي لها، وهو يجذبها من ذراعيها بآخر قوة استطاع أن يستجمعها من جسده الذي يجاهد المرض..

- اهدي بقى، إيه هنكفر بالله؟! خلينا في المصيبة اللي إحنا فيها دي.

- هو في مصيبة بعد اللي قولته؟

- أكيد طبعًا... شوية هتلاقى بتوع أمن الدولة هيجوا هنا يفتشوا المكان، وأكيد طبعًا هيقبضوا علينا، و إحنا شكلنا شبهة لوحدنا؟

- شكلنا ما له؟ كفى الله الشر يا خويا.. إحنا طول عمرنا ناس غلابة!

- غلابة إيه بس، دي حادثة قتل مسيحيين، وأنا بدقني دي مش هتعجب بتوع أمن الدولة، أكيد هيشكوا فيَّ، أكيد هيبهدلونا يا نجلاء لحد ما يبان لنا صاحب، دا إذا بان لنا أساسًا.

- طيب وإحنا ما لنا يا حاج عبد القوي، هما أكيد هيعرفوا إنه تعبان وإنه مش مسئول عن تصرفاته.

ظهرت علامات الدهشة على وجه عبد القوي، بعد أن سمع الكلمات الأخيرة من لسان زوجته، وردد كلمة واحدة منها باستغراب..

- تعبان؟!

شعرت نجلاء بحجم الخطأ الذي وقعت فيه، وإن كانت لا تعلم ما هو الخطأ أساسًا.. أنها أخفت الحقيقة عن زوجها واكتفت ترديد أكاذيب أخيها، أم أنها أخطأت في الكلمة التي قالتها الآن وفضحت أمرها؟

ولكن الكلمة قد خرجت، خرجت ولم تكن تحسب لها حسابًا لتقع على مسامع الشيخ عبد القوي الذي يطالبها الآن بتفسيرها... ما معنى تعبان؟!

حاولت نجلاء تدبر ما بقي من أمرها، وإن كانت في حالة لا تصبو بها إلى أفكار رشيدة، فكان خليقًا بها أن تكشف عن الموضوع بما خفي عنه.

- منها لله بقى اللي كانت السبب، دكتورة/ يارا دي، ما كانت سابته في المستشفى، على الأقل كنت بروح أزوره.. وكان في أمان، بدل ما هو راجع لي على خشبة.

- مستشفى إيه يا نجلاء، كنت بتروحي تزوريه فين؟ انطقي يا مرة.. مخبين إيه عليَّ السنين دي كلها.. أخوكِ كان مسجون ولا في مسشفى؟!

وليه ما كنتيش عايزاني أروح أزوره؟! يعني مش علشان مش عايزاني أشوفه في السجن بقى؟

نظرت نجلاء في الأرض، وعاودتها الدموع مرة أخرى، وهي تصرخ في وجهه...

- الله.. يا حاج سبني في حالي بقى.. سبني في مصيبتي على أخو يا الغلبان اللي ملطشة معاه لحد ما راح مني، راح وسبني لوحدي في الدنيا دي الناس تمرمطني.

مد عبد القوي يده ومسك ذراع نجلاء بعنف، كاد يمزق به عظامها وهو يقول لها...

- ردي عليَّ يا مرة أخوكِ كان فين؟ مستشفى إيه اللي كنتِ بتروحيله فيها؟

- مستشفى المجانين.. ارتحت.

لم يرحمها من استجواب عبد القوي إلا صوت ضجة بات يتعالى صوتها على درجات السلم، مع طرق على باب الشقة والذي كان ينخلع منه قبل أن تنخلع قلوبهما من أضلاعها ليعلم الله ما تؤول إليه الأمور...

□□□

(٢٨) محمـــــــود

بنات.. بنات.. في بلد البنات

كل البنات واقفة وظابته في إيديها الساعات

أغنية محمد منير

ثلاثة أيام متتابعة لم أذهب فيها إلى الصيدلية، انقطعت عن العالم تقريبًا.. لم يزر النوم جفوني.. قل ذهابي إلى الشيخ عبد القوي عند كشك الكتب، أصبحت كالممسوس الذي مسه الجن، فحوله إلى صنم يجلس أمام نافذة صغيرة، لا تتجاوز العشرين بوصة، فتحت أمامه عالمًا أو عوالم من الحياة لم يكن يسمع عنها.

سنتجاوز الآن عن بعض النقاط التي أرى أنها هامشية مثل مساهمة الشيخ عبد القوي معي في شراء جهاز حاسب آلي، بعد أن سمع إمكانية تحميل كل دروس الشيوخ أبي إسحاق الحويني، ومحمد حسان، ومحمد حسين يعقوب عليه، وهو الشيء الذي لعبت عليه، وأوضحت أنه الهدف الأساسي لشراء الحاسب الآلي أساسًا!!. - طبعًا كذب- وصولًا

إلى ذلك السلك ثماني الأطراف الذي يحول جهاز الحاسب الآلي من لوح صلب جامد إلى كائن حي كامل المشاعر، تستطيع أن تتعايش معه حياتك كاملة.. تحب.. تكره.. تشتاق.. يشاركك لحظات فرحك.. يحنو عليك وقت الألم.. يكون سرًّا لك في لحظات نشوتك السرية، أو ربما تتزوجه.

كان الهدف واضحًا منذ البداية.. التعرف إلى الجنس الآخر، والدخول معه في علاقة أيًا كان مسماها.. صداقة أو غيرها، من أجل كسر وحدتي التي بت أشعر بها، والغربة التي كانت تعتريني في الصيدلية، وخصوصًا بعد أن سيطرت منال على كل تفكيري، فكانت زياراتي لعالم الدردشة الإلكترونية بدايتها بعض المواقع المخصصة لذلك. كانت هناك فورمة واحدة أحفظها عن ظهر قلب.

Hi can I chat with u ?! -

تكتبها لكل اسم بنت تصادفه، مثل الصياد الذي يجلس على حافة نهر النيل يرمي الطعم بأكثر من سنارة، وينتظر من يشبك.. وشبكت كمية لا حصر لها، ما عدت أتذكر أسماءهم ولا حياتهم، مجموعة من الباحثين والباحثات عن المتع الأنانية اللحظية بصورة سرية في خلسة من الزمن، وغفلة من الأهل أو بعلمهم أحيانًا! أو تضييع بعض الوقت الذي يملؤه الفراغ في حياتها.

من المئات الذين تعرفت إليهم من أثر في حياتي، منهم من أذكر اسمه

حتى الآن.. ومنهم من تجاوز الحوار معي حدود الكلام في نواحي الحياة العامة.. مواردها أو ثقافتها وحياتها.

مثلًا تيسير طالبة كلية الطب التي كانت تهوى القراءة، وتصادفت هوايتها بهوايتي، جلسنا بالساعات نتبادل خبراتنا في الكتب، كنت دائمًا أجد في نفسي ميزة نسبية بقراءة الكتب التي ربما تجذب بعض البنات إلى شخص من المثقفين على النت.. فكان بداية افتتاح أي موضوع يكون حوار الكتب فتشعر البنت أنها ليست أمام شاب تافه كل همه التعرف إلى البنات على النت فقط إلى أن يبتلع السمك الطعم و يبدأ الحوار يأخذ مسالكه.

شروق إحدى نساء عرب ٤٨ ذات الوجه الجميل، صاحبة أول كاميرا تفتح لي ونحن نتبادل الكلام عن الصراع العربي الإسرائيلي، واستمرت علاقتي بها بضعة أشهر، كنا نتحدث في اليوم بـ (مايك وكام) أكثر من اثنتي عشرة ساعة متواصلة!.

طبيعة العلاقة على الإنترنت هي علاقة متعة لحظية، مثل الباحث عن جواز المتعة، تدخل في لحظة تتعرف إلى شخص لا تعرفه، تتحدث معه فيما شئت ثم تخرج، إذا توافقت الآراء ربما تحصل على البريد الإلكتروني الخاص بها، أو رقم هاتفها، ربما يتطور الأمر إلى اللقاء أو الحب أو حتى الزواج الذي انتشر في الفترة الأخيرة من خلال مواقع الإنترنت.

شخصيًا وبطبعي المحافظ كنت أرفض فكرة الزواج من بنت تعرفت

إليها من شبكة الإنترنت؛ لأني كنت أراهن بمثابة ساقطات باحثات عن المتعة.. وإن كنت أرى في بعض الشخصيات ما هو أرقى من ذلك - لا أنكر أنني تعرفت إلى بعض الشخصيات الجديرة بالاحترام - ولكن في النهاية كنت أضع خطًا أحمر إزاء هذا الوضع، فالهدف من دخول عالم النت والشات هو كسر حاجز التعامل مع الجنس الآخر، ولا يجب أن يتعدى الوضع حدود ذلك.

على الرغم من كسر الحاجز النفسي بالحديث عبر النت إلى الجنس الآخر، فإنه خلق حاجزًا نفسيًا أكبر، هو انعدام العلاقة الطبيعية مع هذا الجنس، أصبحت المرأة في حياتي مجموعة من الحروف والكلمات مختفية خلف صورة وهمية، فبمجرد أن أعجب ببنت - حتى لو في المواصلات العامة أو بادلتها الدعابة في الصيدلية يصبح أقصى آمالي أن أحصل على بريدها الإلكتروني، وأتحدث معها على النت، بت أفقد الرغبة في التواصل المباشر مع البنات، وأرغب فيه فقط عبر شبكة النت مخفيًا كثيرًا من مشاعري وحقيقتي خلف الحروف والكلمات، متقمصًا شخصيات ربما لا تمت لي بصلة، مستمتعًا بالكذب أحيانًا وضميري لا يؤنبني، فكلها لعب في لعب.

□□□

إن الحب هو أحد متطلبات الحياة الأساسية مثل الأكل والنوم، لا يوجد إنسان يستطيع أن يعيش دون عاطفة، فإن لم يستطع أن يعيش الحب

الصادق يبحث عن الحب المزيف، يبحث عمن تروي ظمأ العاطفة عنده، ربما هي الأخرى تحاول إطفاء هذا الظمأ.

حينما تتعرف إلى بنت جديدة تحاول - بميولك الذكورية - جذبها، وأن تمتلكها بمفردك، تحاول بشتى الطرق أن تسيطر عليها حتى تقع في غرامك، تتبادل معها أول كلمة «وحشتيني» ثم كلمة «بحبك»، تقولها أو تكتبها، وربما لا تشعر بها، لكن تحاول أن تروي حاجة فسيولوجية هامة في حياتك، عجزت عن إروائها في الحياة الطبيعية.

في بعض الحالات، وبعد أن تقع البنت في غرامك، تحاول أن تبحث في حياتها عن سقطة، في محاولة لنفسك أن تقدم المبرر الأخلاقي لهذا الفعل العاطفي الزائف الذي تعيش فيه، وتخشى أن تتعلق البنت به فيعاودك شعور تأنيب الضمير، فتجد في كلمة «ساقطة» أو «ما كلهم كده» المنقذ لذلك الفعل اللاأخلاقي والمبرر الأخلاقي للاضمير.

في البداية كان ينتابني حالة تأنيب ضمير كلما قولت كلمة «بحبك» لبنت، أجلس صامتًا بعدها أشعر بمدى الدناءة التي أنا فيها من استخدام كلمة أحاول بها خطف مشاعر بنت؛ كي أستحوذ عليها بحب امتلاك ورغبة في السيطرة من أجل إشباع بعض الرغبات اللحظية عندي، ومن أجل أن تملأ فراغًا معينًا في حياتي.

إلا أن ما كان يهدئ من روعي، ويمنحني بعض السلام النفسي أني أصبحت على يقين - ومع استمرار علاقاتي المتعددة، والتعرف إلى أنواع

مختلفة من البنات - أن البنت التي يمكن أن تمتلك مشاعرها بكلمة أو وعد أصبحت غير موجودة.. إن البنات خرجن لسوق العمل، جلسن على النت بالساعات، تبادلن الحوار مع الشباب بكل أخلاقهم وباختلاف سلوكهم، فأصبح الضحك عليهن، واللعب بمشاعرهن غير وارد، بعد أن أصبحن هن من يتسلين بالشباب أو على أقل تقدير تدخل اللعبة ممسكة ببعض خيوطها تعرف بدايتها ونهايتها.

إن الكلمة توزن بمعناها.. فمن الكلمات ما يبعث السرور في النفس، ويحرك المشاعر ويبهج الروح... قديمًا كانت البنت تقف في شرفة منزلها لتسترق نظرة من ابن الجيران.. تتأخر في العودة من المدرسة؛ لعلها تسمع كلمة تطرب أذنها من ابن الجيران الذي يسير خلفها، وتخشى أن يشاهدها والدها.. تقف خلف باب غرفة الصالون لتسترق البصر إلى العريس الذي أتت به خالتها، لتحاول تخيل حياتها معه، تجلس بالأيام تتبادل معه مكالمات هاتفية قبل أن تسمع أذناها كلمة «بحبك».

أما الآن.. فالكلمة مثل الماء والهواء، لا تحتاج البنت إلا أن تسجل دخول باسم أي بنت، حتى لو كانت «زليخة» على أي موقع شات، لتجد قبل حتى أن تتم الكلمة مئات من المتنطعين على النت، يطلبون التعرف إليها، يمطرون أذنيها بكلمات الغزل والحب المزيف، لإشباع رغباتهم المكبوتة، تتصادف مع ابتسامة سخرية من بنت تعلم أنها ليست إلا حقلًا لمتعة متنطع، إلا أنها هي الأخرى ترغب في اللعبة، وتحب أن تتحول اللعبة

إلى حقيقة، وتتحول إلى مشاعر حقيقية، تبدأ بالتعود وتنتهي بالحب، وفي أحيان قليلة بالزواج أو بتجربة فاشلة تهدم أكثر مما تبني!.

تنهال كلمات الغزل والحب على مسامع من تتعطش أذنهم لمتعة لحظية كاذبة، تصبح الكلمة بلا طعم، حتى وإن صادفت الحب الصادق فيما بعد، فلن يكون للكلمة طعم من كثرة ما سمعتها، فإذا تعطشت بنت لكلمة حلوة لا تحتاج إلا وضع حرف (هـ) عدة مرات متجاورة ليكون حوار أحدهم...

- هههههههههههههههه.

- والله ضحتك حلوة أوي.

على شبكات التواصل الاجتماعي، وبعد ظهور الفيس بوك، أصبحت المشاعر عبارة عن مجموعة من الوشوش الملونة «إيموشن» يقبع الشخص الحقيقي متخفيًا خلف شاشة حاسوبية، بينما يزيف مشاعره بمجموعة من الوجوه الملونة التي ربما لا تعكس حقيقة صاحبها.

حتى كلمات الذكر والقرآن الكريم التي كان الإنسان يؤجر على ذكرها، تحولت إلى رموز مختصرة في الحوارات، فلا تحتاج أن تتحمل عناء كتابة كلمة «الحمد لله» كاملة، كل ما عليك كتابة «AL7» أو «إن شاء الله» التي تحولت إلى «ISA» إلى جانب العديد من الرموز التي أفقدت اللغة رونقها، وظهرت معالم لغة جديدة بمصطلحاتها الجديدة متحررة من أي قواعد.

ربما تكون هذه اللغة الجديدة قد أصابت عين الصواب من حيث هدف الاتصال الشخصي بين الناس، متحررة من قواعد النحو والصرف، فثلاثة حروف كافية لتوصيل المعني، دون الحاجة إلى عناء دراسة اللغة العربية لسنوات، لتخرج بعد ذلك من الثانوية العامة لا تفقه الفرق بين (أل الشمسية، وأل القمرية).

□□□

مع التطور الطبيعي للمشاعر المزيفة عبر أسلاك شبكات التواصل الاجتماعي ظهر جنس النت، وهو شيء مقرف، يتبادل الاثنان- محتجبين خلف شاشات الحاسب- مشاعر قبيحة، وألفاظًا خارجة، يتفننان في وصف صور جنسية فاضحة، سارحين في بحر من خيال يشبع غرائزهما المزيفة، وعلى الرغم مما يصاحبها من متعة للحظات قليلة، يتبعها تأنيب ضمير تنتج عنه الكثير من المشاكل، ويخسر الإنسان بعض الأصدقاء الذين ربما لا يستطيع أن يعوضهم في حياته..

لقد مررت بكل هذه الحالات...

كان لزامًا عليّ أن أخرج نفسي من هذا المستنقع الذي ألقيت نفسي فيه، ولا أستطيع أن ألوم د / يارا على محاولتها خلق مجتمع جديد حولي، إن كان من الواضح أن تقديرها قد خاب هذه المرة.. أصبحت غارقًا في عالم افتراضي يضيع خلف شبكة عنكبوتية من الأسلاك، لا أستطيع أن أتجاوب مع العالم الخارجي.. خصوصًا بعدما أثر ذلك على نفسيتي،

وما كان يصاحبها من تأنيب ضمير مستمر على كل أفعالي، وما عدت أستطيع أن أضبط إيقاع حياتي، بل ما عدت أستطيع أن أحدد هل أنا على الخير أم على الشر.. بت أشعر بأني الشيطان بعينه.

لا أستطيع أن أنكر أنني تعرفت إلى شخصيات جديرة بالاحترام، إلا أنني لم أكن أعتد بمثل هذه الشخصيات في وسط كنت أبحث فيه عن متعة لحظية، مع بنت أحاول أن تكون ساقطة؛ حتى أقدم لنفسي المبرر الأخلاقي على تبادل مشاعر كاذبة معها.

لا أذكر المدة التي قضيتها في البحث عن هذه المتع عبر شبكات التواصل الاجتماعي بعد أن ورث Facebook ثروة msn &yahoo إلا إنني قطعت كل علاقتي بهن بالتدريج، ولم أخرج إلا ببضع علاقات، انتهت بالتدريج مع اكتمال مؤشر حياتي الرافض لمثل هذه النوعية من المتع الرخيصة الزائفة.

لا أعلم مدى رد فعل أصدقائي عندما يقرؤون هذا الرأي.. ربما كان كلامي صوابًا، ربما كان خطأ، ربما كان صوابًا يحتمل الخطأ، ربما كان خطأ يحتمل الصواب.. ربما - بل أكيد - أنني ما دخلت هذا العالم بنوايا سليمة، ولكني خرجت منه ببعض الحوادث والتشوهات النفسية، أذكر منها قليلًا عبر شذرات هذه المخطوطة.

اقتربت الساعة من السادسة صباحًا، والتعب حل بي، وما عادت عيني ترى، وما عاد في القلب كلام.

(٢٩) سعيد مرجان

ثلاثة أيام قضتها نرمين في منزل أهلها، قبل أن يتوسط بعض الأهل في اجتماع يجمعهما، لعلها تعود إلى رشدها وترجع إلى بيت زوجها، ويرأب الصدع الذي بينهما.

قابل السيد إبراهيم والد نرمين زوجها سعيد بوجه عبوس يمتلكه الغضب، لحظات قليلة هي تلك التي يفقد فيها سعيد غروره، وهو يجلس في حضرة «إبراهيم بك» كما كان يحلو له أن يناديه به.. ذلك الرجل الذي عمل كوكيل لجهاز المخابرات لأكثر من خمس عشرة سنة، قبل أن تزداد عليه الأمراض، ليعتذر عن هذا المنصب الحساس، ليقبل منصب الملحق العسكري بالسفارة المصرية بالولايات المتحدة الأمريكية، وهي السنوات التي درست فيها نرمين هندسة الديكور، ليستقيل من هذا المنصب، ويعود لمصر بعد سنوات من وفاة زوجته، ويتفرغ لكتابة بعض الدراسات التي كانت تشغله أثناء عمله في المخابرات حول التخطيط الإستراتيجي وإدارة الأزمات، وهي الكتب التي لاقت رواجًا في السوق في الفترة الأخيرة بعد انتشار علم «HR» في مصر.

ما كان يعني السيد إبراهيم من الأمر شيئًا سوى اللطمة التي نزلت على وجه ابنته.. كان يجلس ثابت العينين كأنه ضرير، ينظر أمامه على «الفاز» الموضوع على مائدة الصالون، بينما حاول سعيد أن يشرح له الجحيم الذي حولت ابنته حياته إليه بسبب هذا الحجاب الذي حرمها من متع الدنيا، وهو يلمح بين الحين والآخر أن هذا أسلم له من النظر للخارج ومرافقة العشيقات، وساعتها لن يستطيع أحد أن يلومه.

كانت نرمين تجلس هي الأخرى بملابس لم يألفها سعيد.. كانت ترتدي الحجاب، وكأنها بنت متقدم لخطبتها شاب وأتي الآن مع أهله ليشاهدوها.. جلست تكاد تكون لا تسمع من حوارهم شيئًا، وهي متخذة قرارًا لن تتراجع عنه.. الطلاق.

حاول سعيد أن يستجمع شتات ذهنه من بعض المصطلحات التي كانت أخته تمطر به أذنه ليل نهار عن خطورة هذا الفكر الوهابي القادم علينا من بلاد العرب، وهي الأحاديث التي لم يعرها اهتمامًا يومًا ما، ليجد عدم اكتراث من إبراهيم بك الذي يعد كل هذا ضمن الحريات الشخصية المكفولة لابنته، فهو من دافع عنها في حقها في ارتداء المايوه والبكيني على شواطئ شرم الشيخ وأوروبا، والآن يدافع عنها في ارتداء الحجاب في الخارج.

وهنا تذكر سعيد شيئًا من القرآن كان قد سمعه...

- ولكن أين طاعة الزوج التي من طاعة الله؟!

وهنا تدخلت نرمين لأول مرة منذ بداية الجلسة بجملة واحدة...

- لا طاعة لعبد في معصية لله.

حاول سعيد استعطافها بتغيير نبرة صوته إلى الورع المصطنع الهادئ قائلًا..

- طيب وحبنا يا نرمين نسيتى الأيام الجميلة اللي كانت بنا؟!

قامت نرمين من مجلسها وهي تقول له...

- من فضلك بدل ما تدخل في قضايا خلع.. وإنت راجل ليك مركزك في الدولة.. وإحنا لينا مركزنا.. من فضلك خلي الطلاق بهدوء، أفضل من المحاكم، وسيرتنا تبقى على كل لسان في النوادي.

□□□

(٣٠) محمـــــــود

سمر... هذا الكائن المحتجب خلف حروف الكلمات.

أمام هذا العدد الذي لا يحصى من بنات النت اللاتي تعرفت إليهن لم يستوقفني حالة كحالة سمر، هذا الكائن المحتجب خلف حروف كلمات النت، وصورة لامرأة باهتة الألوان لم تغيرها عبر سنوات تحدثت معها فيها.

بالطبع لا أتذكر اللحظة الأولى لكلامي معها، بداية محاولة عابرة عبر غرفة من غرف الشات المنتشرة على شبكة المعلومات الدولية (الإنترنت). اسم مجرد من أي معنى لا يجذبك إليه إلا العالم الأنثوي المحتجب خلفه، وبالطبع بدأت الحديث بالصيغة المحفوظة...

Hiiiiii

Can I chat with you,

لا أعلم متى أجابتني، ولا متى حصلت على «الميل» الخاص بها، ولكنني وجدتها في حياتي، ففي عالم الشات ربما تتعرف في اليوم الواحد إلى

عدد لا يحصى من البنات والنساء، لا تستمر صداقتك إلا مع واحدة أو اثنتين، هن من نجدهن باستمرار على هذه الشبكة، وقد كانت من هؤلاء القلائل سمر ...

تعرفت إليها، ولم أعبأ كثيرًا بعنوانها أو معلومات عن أسرتها، كنت أحاول فقط الحصول على رغبتي الأساسية؛ أن أرى صورة لها كخطوة أولى أجد في جمال ملامحها المبرر لاستمرار علاقتي بها، بالطبع لست بالساذج الذي يطلب مثل هذا الطلب في المحادثة الأولى، لعبت دور الشاب المثقف المتعلم الذي لا يطمع في ملذات حسية من محادثة النت، بل يطمح في إنسانة تشاركه لحظات الصفاء والألم، حضن يرتمي فيه وقت الضيق، صديقة تشاركه آماله وطموحاته، تقف بجواره في محنته وشدته، تكون له النور في دروب الحياة.

كلمات رددتها كثيرًا حتى بت أكرهها كثيرًا، مثل ما تحمله خلفها من كذب وزيف وزور وادعاء.

استمرار وجود سمر (on line) كان أحد أهم أسباب استمرار علاقتنا معًا.

ففي عالم النت هناك الكثير من البنات اللاتي تبحثن عن متعة آنية فقط، في محادثة إباحية مع شباب، في غفلة من والدها، أو في قضاء وقت الراحة أثناء مذاكرة الامتحان. تظهر الفتاة فجأة ثم تختفي فجأة دون أن تعلم عنها الكثير، أو دون أن تعلم حتى أبسط الحقائق عنها، إلا أن سمر استمرت معها المحادثة لأيام متواصلة، يوميًا في تمام الساعة

العاشرة مساءً تضيء صفحة الشات على الفيس بوك باسمها وصورتها الباهتة، ودائمًا كنت أنا من يبدأ المحادثة معها - كم تمنيت أن تبتدئ هي طرف الحديث، وهو ما أثار غريزتي، وجعلني أصر على أن أوقعها في شباك حياتي، فأوقعتني هي في بئر الخداع - استمررت فترة كبيرة في القيام بدور الشاب المثقف المهذب، هذا الصنف الذي يجذب بعض البنات في محاولتهن البحث عن شريك العمر في الشبكة العنكبوتية، أو في محاولة أخرى لإيجاد شاب مهذب لا يطمع في جزء من جسد البنت.

توطدت علاقتي مع سمر يومًا بعد يوم، انتقلنا من مرحلة اللقاء صدفة على الإنترنت إلى التواعد في مواقيت محددة تجمعنا، بدأت حريتي تزداد معها، وأشعر معها بالألفة، تكلمنا في كل شيء، شدها في شخصيتي نهمي بالقراءة، بت أحكي لها عن بعض الكتب التي أحبها، وأقترح عليها بعض الروايات، فكانت تسرع إلى اقتنائها، ومناقشتي فيها بعد الانتهاء منها، كانت تجدني في حالة من الفخر عندما تبلغني بأن الرواية التي اقترحتها عليها حازت إعجابها.

بدأت أشعر بميل تجاهها، بدأت تكون جزءًا مهمًّا من روتين حياتي، أنهي عملي صباحًا في الصيدلية، وأنا آمل في العودة إلى البيت لأشاهد علامة «الشات» خضراء؛ دليلًا على وجودها، فأشعر تجاهها براحة غير طبيعية أثناء حديثي معها. ربما لا يستوعب حالتي إلا من مر بها.. من يدخل بيته لا ينتظر أن يبدل ثيابه، أو أن يجلس مع أهله، ولكنه يتوجه مباشرة إلى جهاز الحاسب الآلي يفتحه والرغبة في اللقاء والخوف من عدم وجودها

يعتصران جوانحه في كل ثانية تمر عليه، حتى يراها ((online فتعلو البسمة على وجهه مرة أخرى.

كان الانتقال للمرحلة التالية هو النتاج الطبيعي لعلاقتنا.. أطمع في صورتها ورقم هاتفها المحمول، طلبته مرارًا ورفضت، فضلتْ أن تكون كائنًا مختفيًا خلف حروف الإنترنت، لا يجمعنا شيء على أرض الواقع، حاولتُ معها مرارًا وتكرارًا أن أرى صورتها إلا أنها رفضت، وقد احترمت هذه الرغبة فيها، إن كان هذا هو مبدأها فليكن خيرًا.

احترمت فيها هذه الرغبة، وبدأت أقدم لها في نفسي المبرر الأخلاقي الذي يسمح لها بالتعرف إلى شاب غريب تتحدث معه يوميًا في شتى أمور الحياة، دون أن يكون بينهما حاجز أو مانع.

كنت أتفهم رغبة الطرف الآخر في أن يكون لديه علاقة بإنسان، شخص يتحدث معه بكل صراحة عن أحلامه وطموحاته، وعما يعكر صفو حياته أو يكدر نمط معيشته، فكانت تحكي لي عن مشاكلها مع أبيها، وتسلطه عليها في البيت، وتعنيفه لها على أبسط الأمور؛ حتى انقطع الحوار بينهما تمامًا تقريبًا، وأصبحت تعيش في البيت كزائر غريب إلا من بعض جلسات العائلة التي تجد نفسها مضطرة إلى حضورها بجسدها فقط، بينما يدها تعبث على أزرار هاتفها المحمول تتواصل مع عالمها الافتراضي، رغبة بنت في أن تتحدث مع ولد دون أن يراها، دون أن تشعر بالخجل عندما تقابله في الصباح في العمل أو في الكلية من جراء حديث

أمس، كلمات محتجبات على شبكة المعلومات يخرج كلانا فيها مخزونًا من المشاعر والأحاسيس؛ لتجدد نشاطنا في هذا العالم الافتراضي الذي خلقناه لأنفسنا؛ لنعودها على قسوة الحياة ومراراتها.

بعد أن أصبحت سمر جزءًا من روتين حياتي اليومي، اختفت فجأة ولمدة أشهر لم أعرف عنها شيئًا، تبخرت من حياتي كأنها لم تكن، كان هذا الإحساس يضايقني جدًا، كيف يقتحم شخص ما فجأة حياتي، ثم يغيب عنها؟! لم تترك لي عنوانًا أستطيع أن أستشف أخبارها منه، لم تترك لي هاتفها لأطمئن عليها حين غيابها، وخرجت من عقلي كما يخرج المخدر من جسم المدمن ببعض التعذيب والشجن والذكريات الجميلة، وبدأت رحلة أخرى مع نساء أخريات كنَّ كفيلات أن ينسينها؛ لما أدفقن على مشاعري من لهيب الحياة ومتعها.

على الرغم من العدد الكبير من البنات اللاتي تعرفت إليهن على النت في هذه الفترة، فإنني وبين كل فترة وأخرى أشتاق وأحن إلى سمر، فأدخل على صفحة الفيس بوك أشاهد صورتها الباهتة التي لا تغيرها، أحاول أن أستشف أي خبر عنها، ولكن بلا فائدة، كنت أشعر بالحنق منها، لا يمكن أن يدخل إنسان حياة إنسان ويكون جزءًا مهمًا منها، ثم تتركه هكذا دون سابقة إنذار أو اعتذار.. إحساس موجع بالدونية عاد ينتابني، كان يجب أن تخبرني وتستأذن مني.

□□□

(٣١) الشيخ عبد القوي

لم تكن دقات الباب المتتابعة والمتسارعة، وأصوات الأقدام على السلم؛ لتسمح للشيخ عبد القوي ليستكمل حلقة الإثارة في المسلسل الذي باتت زوجته بصدد الكشف عن حلقته الأخيرة فيه، وحل لغز اختفاء البطل، ليصطدم مع من حاول أن يكذب نفسه وهو في انتظاره.

رجال مباحث أمن الدولة.. بملابسهم المدنية، وأسلحتهم البسيطة، وعددهم الكبير الذي ملأ عليه الشقة فيما بين غفلة عين وانتباهتها بعد أن كسرت أيديهم الباب، ليجدهم أمامه منتشرين في المنزل كالنار في الهشيم، يتدفقون داخل غرف المنزل كالماء يتدفق عبر جداول الأرض العطشى التي اشتاقت إلى قطرة ماء تروي ظمأها، بينما ارتمت نجلاء في حضن زوجها، تحاول أن تتضاءل فيه محتمية بحضنه من هذا الإعصار الغاضب، لتجد في حضن زوجها الذي ملأها حنانًا؛ خوفًا لا مفر منه، ورعشة كادت أن تحول جسده إلى زلزال، وهو يردد في سره.

- إلطفها من عندك يا لطيف... اللطف يا رب.

تقدم أحد زائري الليل من الشيخ عبد القوي وجذبه من جلبابه.. يرميه على الأرض هو وزوجته، ليرفع مرتبة الأريكة التي كانوا يجلسون عليها ليتقصى أسفلها، بينما تحاول نجلاء أن تسند زوجها، وهي تنظر بغضب لفرد الأمن وتقول له..

- حرام عليك ده راجل كبير، وعامل عملية قلب مفتوح مش حمل البهدلة دي.

مد الشيخ عبد القوي يده ليغلق فمها، وهو يقول لها:

- اسكتي يا نجلاء، أنا كويس.

مد الشيخ عبد القوي يده يسند بها جسده الهزيل من على الأرض، وهو يحاول أن ينهض ليوجه خطابه إلى ضابط بدا من توجيهه الأوامر أنه المسيطر على الموقف، فتقدم منه، فيما كانت نجلاء تحاول أن تساعده، حينها كانت عينه تدور في الشقة التي تبعثرت مفروشاتها جراء التفتيش.

- يا سعادة البيه والله إحنا ناس غلابة ملناش في أى حاجة، والشقة عندكوا فتشوها، وأنا مستعد آجي معاكوا لحد ما تتأكدوا بنفسكوا إننا ملناش ذنب في الموضوع دا كله.

هكذا... وعلى غفلة لم يشعر عبد القوي إلا بجسده يصطدم بالأرض، بينما يرتطم وجهه بمقعد الكرسي الخشبي الذي كان مقابلًا له جراء صفعة على أسفل رأسه، وهو يسمع رجل يقول له..

- ما تتكلمش مع الباشا إلا لما يؤمرك يابن القحبة.

امتدت يد نجلاء لتساعد زوجها مرة أخرى على النهوض، بينما الدماء تنزف من جبهته وجبينه، وهي تحاول أن تكتم الدماء المنهمرة بمقدمة جلبابها، أما هو فحاول أن يطمئنها.

- أنا كويس... أنا كويس.. إبعدي بس إنت.

ثم عاد مرة أخرى إلى ترديد الدعاء «استرها يا ستار»، «الطف بينا يا رب» مرت بعض اللحظات حاول الشيخ عبد القوي أن يقضي فيها على شعور الخوف الذي كان يظهر في كل رعشة من جسده، مرددًا ذكر اسم الله كثيرًا؛ لينجده من هذه العسرة، بينما دقات قلبه المتسارعة تتزايد بوضوح، والعرق يخرج من كل أجزاء جسده ووجهه بغزارة، رغم برد شتاء شهر يناير، وإن كان الشيخ عبد القوي حاول مرارًا أن يخفي حالة الفرغ هذه؛ ليخفف عن زوجته، ويجعلها تشعر بأمان كاذب، وهو يعلم حق اليقين أنها لن تشاهده مرة أخرى في حياتها، وستظل صورته وهو يرتعش أمامها عالقة في ذهنها.

أنهى الموجدون في المنزل عبثهم، بعد أن مزقوا كل مراتب السراير؛ ليتأكدوا أنها خالية إلا من بعض القطن العفن الذي كان فيها، وكسروا كل دلف الدواليب والمطبخ كحل أسهل من محاولة فتحها ليعبروا في النهاية على مجموعة كبيرة من الكتب الملقاة في كل مكان... منها الديني وغير الديني.. يتقدم واحد منهم ويرمي الكتب أمام الضابط الذي ما

زال محافظًا على هدوئه واتزانه، دون أن يعبأ أحد منهم باسم الله جل جلاله الذي يزين أغلفة الكتب، وآياته القرآنية الشريفة التي تملأ صفحاتها.. ينظر إليها الضابط نظرة إهمال مصطنعة، تضفي على منظره وضعًا سينمائيًا، ثم يصرف نظره عنها، ويأمرهم بأن يأتوا بها.

أمام باب البيت القديم اصطفت خمس سيارات ملاكي من ماركات مختلفة... اثنتان فيات موديل ١٢٨، واثنتان موديل ١٣٢، وواحدة بيجو ٤٠٥ استقلها الضابط، بينما نزل عبد القوي مسوقًا بصحبة زوجته مكبلَي اليدين معصوبَي العينين.

طوال الطريق لم يكف فم عبد القوي عن الذكر، حتى تعالى صوته نسبيًا فبات مسموعًا إلى الضابط الذي يجلس على الكرسي الأمامي للسيارة، قبل أن ينهره فيكف عنه حتى في سره.

حاول الشيخ عبد القوي أن يهدئ نفسه، توقف عن ذكر الله بلسانه، بات يردده بقلبه، على يقين أن الله لن يخذله في هذا الموقف، وأنه سيكون له اختبارًا لقوة إيمانه في الدنيا، يعود بعدها إلى بيته وأهله وقد جزاه الله كل خير عنه في الآخرة.

□□□

(٣٢) محمـــــود

أنا مش فارس ولا فتى أحلام

أنا زحمة وربكة وشغل جنان

نص بيضحك والثاني زعلان

أنــــا شـيـــخ فـلـتـان

«أغنية لفريق بلاتيما»

الموقف الآن داخل الصيدلية تغير تمامًا.. أصبحت شعلة من النشاط في العمل، البسمة لا تفارق وجهي، الدعابة لا تخلو من حديثي، لا أضيع فرصة ما إلا أنتهزها للسخرية والضحك والدعابة، على مستوى العمل أصبحت أحفظ جميع أماكن الأدوية، أستطيع أن أقرأ كل روشتات الأطباء، بل أحيانًا أعدل عليها بعد أن عرفت الأدوية وبدائلها، أصبح الاعتماد الأكثر عليّ في كل شيء خصوصًا بعد حالة الفراغ الدستوري - هكذا وصفت هذا اليوم في وقفة عيد الأضحي المبارك - غادر كل العاملين الصيدلية إلا أنا والدكتور أبو الغار، وكنت في ذلك اليوم شعلة نشاط..

أنتشر في كل ربوع الصيدلية، أحضر هذا، وأصرف ذاك، وأراجع هذا مع فلان، وأوصف ذلك لعلان، وسط التفاتات مني من لحظة وأخرى أتابع فيها عين د / أبو الغار التي تتابعني، وتعلو شفتيه ابتسامة رضاء عن سير العمل، وأدائي في الصيدلية.

عشت في هذه الفترة أجمل أيام حياتي... وضحك ولعب وجد وحب، علاقتي مع د/ أبو الغار يملؤها الود والاحترام... علاقتي مع د / منال في تطور مستمر، تصل إلى حد الصداقة والتحدث بالساعات في أمور دائمًا ما نختلف عليها - ربما لا تتوافق آراؤنا في أي شيء - إلا أننا نعاود الحوار والحديث، حتى الدكتورة هبة أصبحت كثيرًا أداعبها وأنا الذي أصبحت أذكرها بزوجها الضابط، خصوصًا بعد أن التقيته ذات مرة عندما جاء إلى الصيدلية يأخذ بعض متعلقاتها التي نسيتها في الصيدلية، وتحدثت معه وكان شخصية ظريفةً جدًا، يتمتع بالمرح والدعابة، تعجبت حينها كيف يتعامل مع «عجرفة» د/ هبة سرور، أما سارة فكانت حوارتنا متقطعة، كلما سمحت الفرصة وخلعت «الهيدفون» من أذنيها، يبقى نادر الذي حدثت معه حادثة لا أعرف هل قربتنا، أم أنها كانت بداية نهاية علاقة لم تبدأ بعد؟!

□□□

ما زال ذلك الصمت المريح الذي يجذب النفس هو المسيطر على نادر، إلا من ابتسامة رقيقة كان يتبادلها مع من يحاول جذب طرف الحديث

معه، في مرات قليلة استطعت أن أدخل في حوار مع نادر، حينما كنا نحضر بعض المتعلقات للصيدلية من آخر شارع القصر العيني، وانجذبنا إلى حوار حول مفهوم الله في الديانات، لم أكن أتخيل سعة أفق نادر وهو يتحدث عن مفهوم الله عند هيجل، ونظرية المحرك الأول عن أرسطو، والرؤية الإسلامية لله الواحد الأحد. توقفت كثيرًا عند «صفات الله السالبة».. جاءت على وتر إيماني كمسلم، ولكن وضحها لي نادر عندما أخبرني عنها وفق كتاب الله الذي وصفه الله بأنه «ليس كمثله شيء» فكانت الصفة بسلب الصفات عن الكل، وليس عن طريق إيجاد صفات لله عز وجل... منطقة شائكة، التحدث في الذات الإلهية يعطي للقلب خشوعًا، وفي نفس الوقت عندما تستمع إلى آراء الفلاسفة المحدثين تصيبك رعشة خوف.

كانت الحادثة بعد ذلك اليوم.. كان نادر يمسك المصحف الخاص به الذي أراه معه كثيرًا، والذي بسببه كنت أشعر أنه مسلم مستقيم، حتى إنني ذات مرة حاولت أن ألفت انتباهه بالتلميح أنه لا يجوز مس المصحف إلا للطاهر، فسبقني هو وقال:

- الحمد لله.. طاهر على طول يا محمود.

يبدو أن نادرًا كان يمر بتجربة حب جديدة، تظهر ملامحها في كثرة حديثه في هاتفه المحمول خارج الصيدلية لفترات طويلة، في هذه الأثناء ترك نادر المصحف من يده على الرف الزجاجي المجاور له، وخرج

يتحدث في الهاتف، لا أدري ما الذي دعاني إلى هذا الخاطر.. توجهت إلى المصحف أفتحه.. كنت في البداية لا أشك في أنني سوف يقع نظري على آيات المصحف المدونة بالخط العثماني الجميل، تتوسطها براويز مدون فيها أرقام الآيات في إطار زخرفي ملون.. لكن صرعتني المفاجأة، لكنني لممت شتات نفسي وحاولت التماسك.. لتقع عيني على ما أذهلني، دققت النظر هل يمكن أن يكون ما أشاهده صحيحًا؟!، بدأت أقلب في الصفحات تباعًا، تتأكد الرؤية لدي، حالة من ضيق التنفس انتابتني وأنا أقلب صفحات المصحف.. يدي بدأت ترتعش، أسترق النظرات من لحظة لأخرى أراقب نادرًا الذي ما زال مشغولًا بمكالمته الهاتفية.. كنت أحاول أن أربط أو أصل إلى علاقة لما تراه عيني، لأفيق على صدمة جذب نادر المصحف من يدي..

- إنت إتجننت.. إزاي تتعدي حدودك؟!

حالة الغضب التي سيطرت على نادر، وصوته المرتفع الذي سمعه الجميع بنبرته الحادة، أصابت الكل بالفزع، فإن أرخم الزباين وأكثرهم سفالة لم يستطع أن يخرج نادرًا عن هدوء ابتسامته الرقيقة! فما يمكن أن يفعله شخص ليخرج نادرًا عن حالة الهدوء هذه، تقدمت منا د/ منال التي حاولت أن تستفسر عن السبب الذي دعا نادرًا إلى هذه الضجة، إلا أن نادرًا بات ينظر إليَّ بعين يتطاير منها الشرر، أما أنا فكنت مصدومًا من هول ما رأيت أو من صدمة اكتشافه أمري.

ما زالت الصورة قائمة أمام عيني رغم لمحتها السريعة التي مرت بنا، توقف نادر للحظات قبل أن يغادر الصيدلية، وكان يمسك في يده المصحف، لم يستأذن حتى من د / أبو الغار الذي صقف بيده ليعيد الجميع إلى أماكنهم، مع دخول مريض جديد إلى الصيدلية.

مضت ثلاثة أيام ثقال على قلبي لفراق نادر الذي أغلق هاتفه، قبل أن يرسل رسالة لدكتور أبو الغار على الهاتف يطلب فيها إجازة لمدة ثلاثة أيـام.. عندما جئت في صباح اليوم الرابع كنت أخشى أن تقع عيني في عينه، هل هو إحراج من أنني فعلًا قد تجاوزت حدود علاقتي الشخصية واطلعت على مصحفه الخاص، أم هي حالة الفزع التي انتابتني من صورة صفحات المصحف التي ما زالت تراود مخيلتي بين الحين والآخر؟!

دخلت الصيدلية مبكرًا، كنت أريد أن يأتي هو بعدي لأكون أنا رد الفعل، هل سيلقي عليّ السلام أم لا؟ كنت أنظر إلى دقائق الساعة الموضوعة على الحائط الأمامي في انتظار وصول نادر، إنه اليوم الوحيد الذي لم أشعر فيه بالغربة لتأخر منال التي لم أشعر بها إلا حينما دخل نادر الصيدلية، وقال لأول مرة:

- السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

لا أعلم لماذا قالها كاملة بالصيغة الإسلامية؟! ولكنه دخل، لم تقع عيني في عينه، ربما هو الآخر كان يملؤه الخوف والخجل مما رأيت، أو خشي أن أكون قد حكيت لأحد ما رأيت ،إلا أنني كنت أهرب من النظر إليه.

جلس مرة أخرى قابعًا في مكانه بنفس حالة الصمت، إلا من بعض الحوارات القليلة مع الزبائن، لينتهي اليوم دون أن تقع عيوننا على بعض، فكلانا يتجنب الحوار، إلا من نداء باسمي سمعته من نادر فتوجهت إليه.

- وراك حاجه بعد الشفت دا؟

- لا.

- تحب نتمشى شوية مع بعض؟

- دا أكيد.. أنا كمان عايز أتأسف على اللي صدر مني.

- لما نخرج نتكلم، شوف شغلك دلوقت.

أنهينا اليوم - لا أنكر أنني شعرت براحة بعد حديث نادر - بدت أكثر نشاطًا ومرحًا. ارتسمت البسمة على وجهي مرة أخرى، وظهرت في مجادلاتي الكوميدية التي لا تخلو من الجد مع منال - ثم توجهت معه خارجًا من باب الصيدلية سالكًا الطريق العمودي المؤدي إلى كوبري الجامعة كما طلب نادر، يريد أن يقف على النيل الآن، كانت الساعة الثامنة مساءً عندما بدأت أشعة شمس الصيف في الغروب مع مجيء ظلام الليل، وامتلأت أرصفة كوبري الجامعة بالكراسي البلاستيكية التي يفرشها بائعو حمص الشام والترمس.

- شوفت إيه بقى؟

- اللي إنت عملته.

- وإيه رأيك فيه؟

لم يكن الأمر يعني كثيرًا.. نادر مسيحي، أي أنه خارج ديانة الإسلام، وبالتالي لم يكن يثير غيرتي عبثه بالمصحف، كما أنني على يقين من أنه لم يكن يتعمد إهانة؛ لذلك كنت أكثر هدوءًا منه في موقف بات فيه هو المدافع عن نفسه أمامي، لأحسم الموضوع بسؤال مباشر...

- نادر.. إنت ملحد؟!

- لو كنت كده كنت قولت.. بس مشلكتي إني شايف ربنا في كل حاجه حوليا.

كان نادر يتحدث وصورة صفحات المصحف المرسوم عليها صلبان ونجوم داود، وبعض علامات الاستفهام باللون الأحمر، كذلك بعض الرموز أظن أنها ماسونية على هوامش صفحات المصحف؛ قابعة في مخيلتي، ظاهرة أمام عيني، وعندما حاولت أن أضع علاقة بين هذه الرموز لاحظت أن كلمة شيطان يقع تحتها خط أخضر بقلم إظهار فسفوري.

- لكن يا نادر إنت تقدر توصل للحقيقة بطرق كثيرة.

- جربت كل الطرق، حتى طريقة المكاشفة الصوفية ما أشبعتنيش.. الصوفية دلوقت بقت موضة، موسيقى زي موسيقى الراب والجاز، جلسات دروشة في الجوامع تجمع المتلطعين الطامعين في طبق عدس بعد

خطبة الجمعة في مسجد الحسين ولا السيدة زينب، لكن الصوفية بمعناها المكاشفة الروحية، والحدث الذي يلقي النور الإلهي في قلبك، وما قرأناه في أشعار ابن الرومي والحلاج تقريبًا ملهاش وجود.

- والمسيحية - دينك أساسًا؟!

- كل ما أفهم حاجة ترجع تتلخبط، صفحة تلغي صفحة.. متن يلغي نصًا.. إيمان بالقلب فقط لا دور للعقل فيه وسط هذه الكمية من التناقضات.

- الإيمان روعته أنك تؤمن بما يخالف العقل؛ لأنه لو اتفق مع العقل لأصبح فلسفة مادية أو منهجًا إصلاحيًا.

- أوغسطين قال إن الإيمان ليس عاطفة غامضة أو تصديقًا أعمى يعجز العقل عن إثباته، بل هو عملية عقلية مؤيدة بشهادة الرسل ومعجزات الأنبياء، يعني أيضًا ربطًا بين اللاعقليات والغيبيات.

- أنا مش متبحر في الموضوع دا.. تقدر تسأل الشيخ أبو حمزة.. تعال أعرفك عليه.

تعالت ضحكات نادر الهادئة، متماشية مع نسمات ليل صيف القاهرة ليكمل في هدوء...

- لا.. ما تتعبش نفسك، شيوخك دول ما عندهمش إجابة عن أسئلتي ،أسئلتي أكبر من فهمهم المتواضع للدين.. أو على الأقل يتناسب مع

الطبقة اللي بيخاطبوها.. طبيعة المنهج السلفي وعقليته مش هتناسبني، عايز أعرف بس الحقيقة.. بص حواليك العالم فيه المسيحية بمختلف مذاهبها؟ ٢ مليار نسمة، الإسلام ١,٥ مليار نسمة، الهندوس ٩٠٠ مليون، البوذية ٣٦٠ مليون نسمة.. الديانات الوثنية في أفريقيا ٩٥ مليونًا، السيخ في الهند ٣ ملايين، اليهودية ١٩ مليونًا.. ودا بقى غير حالات التحول.. بمعنى أن البوذية تعتبر أسرع الأديان نموًّا من الديانات الأوروبية والغربية، ٨٠٪ من المسلمين يعيشون خارج العالم العربي.. الإلحاد وصل إلى ٨,٤ ٪.. السؤال بقى هنا وسط كل دا مين الصح ومين الغلط؟! ليه دا الصح، وليه دا الغلط، كل واحد مؤمن أنه هو الصح، هتحاول بمنهج العقل هتلاقي كل في دين العقل لازم يتصدم فيه بالإيمان، حتى الإسلام قرأت محاولات محمد عبده في محاولة تجمع النقل بالعقل الذي أسسها قبله كثير من الفلاسفة أمثال ابن سينا وابن رشد أيضًا.. مجموعة من التلاعب بالألفاظ لا ترقى إلى مستوى الحقيقة التي لا يساورها شك. البعض يظن أن الاستنتاجات المنطقية والاستقراءات الأرسطية قادرة على حل مشاكل العالم المعقدة.. بعض من يمتلك الكلمة يتلاعب بها، ويوظفها لخدمة أهدافه.. ويل للحق إذا امتلك الباطل الكلمة!.

- دا شيطانك اللي تعبك كده، وبيحاول يشكك في كل اللي حواليك.

- يبقى أنا محتاج أجلس مع الشيطان أعرف الحقيقة فين.

□□□

(٣٣) المـــــؤلــــــف

بطريقة ما يجهلها المؤلف استطاع أن يحصل على كشكول منال، كان كما تخيله تمامًا.. كشكول كبير يمسك ورقاته سلك حلزوني.. مقسم أجزاء ظاهرة من أطراف الكشكول ذي الألوان الزاهية التي تميز كل جزء.. على جلدته رسم لبعض شخصيات الكارتون المشهورة التي يجهل اسمها، والتي كان دائمًا محل سخرية بعض البنات التي كانت تتعجب أنه لا يعرفها. ما عاد يتذكر حتى اسم ذلك الذي لا كان يعرفه!

في صفحات كشكول منال التي كانت كما رسمها في خياله.. قلم ذو لون لبني جميل، يعلو خطه المستوي المنمق بعض فتات الذهب اللامع، به بعض المقتطفات من أغاني يعلمها المؤلف، لم يتوقف عندها كثيرًا.. وإن أثارت في نفسه بعض الشجن.. يراها مجموعة غير متجانسة من الأفكار والخواطر التي كانت تتداعى برأس منال.

ساد الصمت خيال المؤلف مرة أخرى، تعالت على وجهه ابتسامة سخرية من نفسه، أراد اقتحام الرواية ليعطي الفرصة لأحد أبطالها ليعبر عن

نفسه، ليجد نفسه هو من يشاركهم حتى بعض الصفحات التي جادت بها عليهم الدنيا بعد أن ضاقت عليهم في الواقع.

نظر إلى الكشكول مرة أخرى.. ورغم أنه لم يستطع أن يتخلى عن أنانية المؤلف، فإنه في النهاية استطاع العثور على باقي مفتاح الرواية «كشكول منال» قام من مجلسه وجلس خلف الدرج، ووضع أمامه على المكتب ذلك الكشكول.. همَّ ينتقي منه ما يحلو له قراءته ليزين به روايته.. شعر للحظات قليلة بالندم هذه المرة، أليست سرقة أسرار منال ونشرها على الملأ دون إذنها عملًا مشينًا؟! لا يرتقي به ككاتب.. ولكن ربما الشخصية التي رسمها ستتقبل هذه الفكرة.. لم يكن الشعور بالندم لأنانيته.. ولكن لأنه سرق أفكار منال، وحاول أن ينسبها إلى نفسه، ولكنه عاد يتذكر أن كل ذلك من أجل روايته.. ولكنه أيضًا عليه أن ينسب الفضل لأصحابه.. لن ينسب هذه الكلمات إلى نفسه.. بل إنها كلمات منال.. لذلك سيدخلها في روايته تباعًا في فصول باسم «كشكول منال» بل إنه سوف يذيل نهاية كل فصل منها بتوقيعها، وبذلك يكون أثرى روايته بخواطر منال وانطباعاتها، وفي نفس الوقت ارتاح من تأنيب ضميره لسرقة الأفكار.

أمسك الكشكول، وهو يقرأ فيه لم يلاحظ خيال أمه التي اقتربت من باب غرفته لتطمئن عليه، وجدته يجلس ممسكًا بيديه الكشكول ويتحدث مع نفسه.. وقفت برهة تتابعه.. كان في نهم شديد، وكأنه في سجال حاد مع أشخاص أمامه ..صرخت فيه وصبت عليه جام غضبها..

لعنت الكتب التي ستلحس دماغه وتقضي على الربع الباقي له.. توعدته إن لم يعد إلى صوابه ستشعل النار في تلك الكتب.

فتح المؤلف درج مكتبه بسرعة وحاول إخفاء الكشكول.. على الرغم من حالة الضيق التي كانت تنتابه عندما يدخل عليه أحد وهو يحدث نفسه، فإن هذه المرة كانت أقلهم، فهي تداري جريمة أكبر... جريمة العثور على كشكول منال.

إذا كان أفراد أسرته لم يكن لديهم القدرة على فهم خيال المؤلف، وحاجته أحيانًا إلى التحدث مع نفسه وهو يتقمص بعض أدوار شخصيات روايته، فلن تستطيع الأم أن تصدق أن كشكول منال الذي بيده هو محاولة منه ليساعده في كتابة روايته.

كشكول بألوان زاهية.. معطرة.. تتوسطه وردة ذابلة.. مدون به خواطر حب، وكلمات أغاني أصالة وجنات وإليسا وتامر حسني، في يد شاب في أواخر العشرينيات من عمره، وفي هذه الساعة المتأخرة من الليل، بالطبع لن يخطر في بال والدته أنه أحد المصادر الخام لروايته الجديدة، لا بالتأكيد ستظنه أنه واقع في شباك بنت تحاول أن ترمي خيوطها حوله.. وبالطبع ستتحول الليلة إلى محاكمة واستجواب هو في غنى عنه.

حمد الله على ما آلت إليه الأمور.. جلس خلف مكتبه يستمع كلمات التأنيب من والدته، وهي تتوعده بمصيره في مستشفى المجانين، ارتسمت على شفتيه ابتسامة لم يستطع أن يخفيها.. هل ابتسامة ثقة بالنفس كمن

يعرف ما يجهله الآخرون؟ أم ابتسامة سخرية من مجتمع ما عاد يستطيع أن يتعايش مع مبدع؟

تأكد من مغادرة والدته محيط غرفته، وإن كان بواقي صوتها ما زال يهز أذنيه وهي عائدة إلى غرفة نومها، ليهم المؤلف من جديد أن يوصل حبل أفكاره في الرواية، مستجمعًا بعض فِكَرَه التي سيعرض بها كشكول منال في روايته.

فتح درج المكتب من جديد ليخرج الكشكول...

:

.... مكنش فيه الكشكول

لعن الكتابة بأعلى صوته، وعاهد نفسه أن يذهب في الصباح إلى مستشفى الأمراض العقلية ليخضع للكشف هناك، قبل أن تتفاقم حالته أكثر من ذلك، وتنتهي إلى ما آلت إليه مع بطل روايته.

ولكن الغريب أنه بعد أن قرر الذهاب إلى مستشفى الأمراض النفسية، تمنى أن يقابل هناك د/ يارا فما زال عنده بعض الشغف للتعرف على بعض الأبعاد النفسية لحالة محمود.

□□□

(٣٤) كشكول منال

لم أكن أحلم به كزوج يعود إلى البيت يجدني أعد له طعام الغداء، بينما هو يبدل ملابسه ليرتاح من عناء العمل.. كنت أحلم أن أكون له عشيقة.. نعم عشيقة.. من عشيقات محارب شيوعي في الستينيات، وهب حياته كلها للقضاء على الظلم المتفشي بالعالم.. شيوعي يؤمن أن الثورة نور ونار.. يؤمن أن ظلام العالم يحتاج إلى من يحترق ليضيء الطريق، لا يكف عن أن يحدثني في لحظات الحب عن الثورة وآمالها، لا يكف عن أن يخبرني، وأنا في أحضانه أذوب شوقًا، عن تطلعات أبناء الطبقة البروليتاليا المطحونة.. تختلط أنفاسي بأنفاسه المفعمة برائحة النيكوتين الكوبي التي أعشقها منه.

يتركني على الفراش متلحفة بملاءة بيضاء تداري جسدي العاري، وفي فمي سجارة أعطاها لي ليتفرغ لتنظيف سلاحه القديم، وهو خارج مع عشيرته ينفذون إحدى العمليات الفدائية ضد الإمبريالية الأمريكية، متمثلة في ظلم الحاكم المدعوم من الأمريكان في كوبا.

(٣٥) محمـــــــــــــــود

نرجع تاني لسمر...

كما ألفت وجودها في حياتي ألفت غيابها، وبدأت أشعر بالتحسن في غيابها، فما عدت أقوى على انتظار فتاة غامضة المعالم تأتي تتفضل عليَّ ببضع دقائق على الإنترنت وتغيب وقتما شاءت، كما قررت في هذه الفترة أن أوقف كل محادثتي على النت مع البنات، هؤلاء الفتيات العابثات اللاتي يمضين وقتهن في التعرف إلى الشباب الباحث عن متعة التحدث إلى فتاة عبر النت، كان شعور أن البنت الواحدة تتكلم في اللحظة نفسها مع أكثر من شاب يمزقني، فمن السهل على الفتاة أن تتعرف إلى عدد كبير من الشباب وقتما أرادت، وهي مختبئة خلف حاجز الكلمات، مقدمة لنفسها هذا المبرر الأخلاقي لقضاء وقت التسلية مع الشباب.

إلا أن سمر ظهرت مرة أخرى بصورتها المألوفة.. أضاءت نقطة «الشات» الخضراء فضاء الصفحة.. تسارعت دقات قلبي وأنا أشاهدها مرة أخرى، توجهت سريعًا إلى لوحة المفاتيح أكتب اسمها عدة مرات...

- سمر؟ سمر؟ سمر؟ إنتِ هنا؟ سمر؟.

وكأني أقف في محطة مصر بميدان رمسيس، أستقل قطار السفر إلى بلاد غريبة لا أعرفها، أشاهد على غفلة حب العمر يموج في بحر من البشر، ناديت عليها مرارًا عبر كلمات تعكس صوتي المبحوح من وجع البعاد.

- سمر.

تسارعت دقات قلبي مع ظهور كلمة «سمر تكتب الآن» على النت.. هي هي كما تركتها من عدة أشهر، ردت بكلمة واحدة.

- إزيك؟

عاتبتها عتابًا انسالت فيه الكلمات من عقلي بسلاسة، لم أعدها في نفسي من قبل، بت أقص عليها والشوق يمزق قلبي ذكريات ليالٍ طويلة انتظرتها أمام شاشة الكمبيوتر، أنتظر وجودها ليضيء حياتي، ليالٍ قضيتها على السرير أتذكر كلماتها لي. كانت ترد بابتسامات الفيس - المضافة حديثًا إلى الشات - بدأت أتحدث معها عن إحساسي تجاهها، كنت أرى الابتسامة تعلو شفتيها خلف شاشة حاسوبها، وكأني أجلس أمامها رأي العين، ردت بكلمات مختصرة، لم أعبأ، كنت أحترم حياءها وجمالها، أحيانًا وأنا أقرأ كلماتها أشعر بأني أسمع نبرة صوتها، أعود أعاتبها على غيابها، ترد بأسف، فسألت عن سبب غيابها، أخبرتني بأن حالتها النفسية كانت سيئة، وما كانت تقوى على الكلام، عاتبتها بشدة، كنت أتمنى أن أكون الحضن الذي ترتمي فيه وقت ضيقتها، لم أنهِ المحادثة إلا بوعد منها، وعد ألا

تفعل ذلك مرة أخرى، ألا تغيب عني فجأة حتى و إن أرادت أن تقطع علاقتها بي فعليها أن تخبرني، فعندي من الكبرياء ما يسمح لي بألا أفكر في فتاة لا تريد التحدث معي، ولكن ليس عندي من الصبر ما يسمح لي بغياب فتاة دخلت حياتي.

عادت سمر أجمل من ذي قبل، استمرت محادثاتنا لساعات وساعات يوميًا، يملؤها جو من العاطفة، بت أشعر معها بالسعادة، بت أطرب سمعها بكلمات الغزل والحب وتلميحاته، وأهميتها في حياتي، إحساسي عندما أشاهدها (أون لاين) حتى أخذت ذات مرة رقم هاتفها، كنت أشعر بالسعادة البالغة التي اعترتني وأنا أفوز بهذا الصيد العظيم.. رقم هاتفها الذي طالما انتظرته، سأستمع إلى صوتها، سيكون هناك وسيلة اتصال أخرى، وسأطمئن عليها إذا ما غابت عني، و إن كنت لم أتعجل الاتصال بها؛ حتى لا أشعرها بالندم أنها منحتني هذه الفرصة، مضى يوم أو يومان قبل أن أستاذنها في مكالمة هاتفية في الغد بعد أن قطعت وعدًا على نفسي ألا أحادثها في الهاتف إلا في أضيق الظروف.

كان صوتها رقيقًا، بدأت أشعر فيه بلمحة طفولية رقيقة في خجلها المحتجب خلف شبكات المحمول، به نبرة براءة جميلة، استمتعت به ساعات وساعات في محادثات، إن كانت تدور في مواضيع عامة حول الكتب والروايات أحيانًا، أو حول بعض مشاكلها العائلية أحيانًا أخرى، إلا أنها باتت تعيد الزهو إلى حياتي.

بالطبع ما كنت أغفل بين الحين والآخر أن أطلب صورة لها، كنت أسوق من معسول الكلام ما يشفع لي في رؤية صورتها، أريد أن أشعر أنني أتواصل مع إنسانة من لحم ودم، وليس مجموعة حروف وكلمات عبر الإنترنت، إلا أنها كانت مصرة على قرارها ألا تُرِيَ صورتها لأحد، تريد أن تكون ذلك الكائن الغامض الكامن خلف العالم الواقعي.

بت أشعر بالألفة نحوها، غلف إحساس الحب علاقتنا، وبدأت أبادلها كلمات الغرام، نطقت لأول مرة بكلمة «بحبك» عبر الإنترنت، على الرغم من المبدأ الذي كنت متمسكًا به بألا أقول هذه الكلمة لأي بنت على النت؛ حتى لا أعبث بمشاعرها، فأنا أتحمل كل شيء إلا العبث بمشاعر إنسانة تبيت الليالي تبكي من خداعي، فإن إحساسًا صادقًا اعتراني نحوها، بت أحب أن أردد هذه الكلمة كثيرًا على مسامعها عبر محادثات النت، وإن كنت لا أجرؤ على قولها في المحادثات الهاتفية.

بدأت أشعر بأحقيتي فيها، بدأت أسأل أكثر عن علاقتها مع أبيها، علاقتها مع أمها وأختها الكبيرة، وعلاقتها مع زوجها، وأخيها الأصغر منها الذي يفرض عليها رأيه بنزعة ذكورية، تبادلنا الأحاسيس إلا من منطقة كنت أهرب منها لم أتجرأ على سؤالها مع من تتحدث في غيابي على النت، هل تتحدث مع شباب غيري؟

كنت اقتربت من هذه المنطقة الملغمة بالنسبة لي، من بعيد أحاول أن أسألها عن تجاربها السابقة، هل كانت لها قصة حب من قبل؟ كانت ترد

بإجابات مختصرة في المرات القليلة التي سألتها عن علاقتها عبر الإنترنت، مع من تتحدث فترد بكلمة واحدة.

- عادي يا محمود يعني.

كلمة عابرة، تفسرها هي حسب رؤيتها وحقيقتها، بينما أجد فيها المسكن لغضب كامن في نفسي وغيرة عليها، إلا أنها فتحت قلبها لي يومًا ما بعد أن توطدت علاقتنا أكثر وأكثر، وأخبرتني بأنها تحب شابًا تعرفت إليه أيضًا عبر هذه الشبكة الأخطبوطية اللعينة.

لا أعلم لماذا لم أغضب؟! بل سعدت، شجعتها على الكلام، ربما بدافع أن أعلم المزيد عن هذا الغريم الذي امتلك قلبها دوني.. لماذا هو؟ ولماذا لم تشعر بهذه العاطفة ناحيتي؟، هل هي غيرة حب أم حب امتلاك وأنانية ذكورية مني، في محاولة امتلاك كل نساء العالم.

كان شابًا على الإنترنت تعرفت إليه، لا أعلم قبلي أم بعدي، ولكنيي شعرت حيالها بالخيانة، وبت أشعر أنها تتحدث مع شباب غيري!

كنت أسخر من نفسي حيال هذه الفكرة، إذا كانت تتكلم معي، فبالطبع تتكلم مع غيري، إذا كانت تصاحبني، فبالطبع تصاحب غيري، إذا كان باب الصداقة مع الشباب مغلقًا أمامها ولا تفتحه، فإنها أغلقته في وجهي أولًا.

بت أصب جام غضبي عليها في نفسي أولًا.. إنها بنت مثل باقي البنات الباحثات عن متعة عبر الشات، جبل من الخوف عليها بدأ ينهار، بدأت

أتعامل معها كأي فتاة أقضي معها سهرة، لا أهتم بغضبها أو رضاها عني، انتقلت كلمات الغزل العفيف إلى التلميحات الجريئة.

انتقل الحوار بنا إلى مناطق أخرى، أصبحت أقص عليها تخيلات لقائي معها لحظة سيري بجوارها على كورنيش النيل.. أول لمسة ليدي في يديها.. حكايات في فضاء الرومانسية.. بت أقصها عليها كل ليلة، بالطبع لم تخلُ من التلميحات الجنسية التي باتت صريحة، وأصبحت المحادثات كلها تدور في هذا الإطار، إلا في لحظات قليلة أحاول أن أعيد فيها التوازن إلى علاقتنا، وأن نعود نتحدث في الأمور العامة، وهو ما فشلنا فيه، فعندما يتطرق الحوار إلى تلك الأحاديث لا يمكنك التراجع للخلف.

ما بين الحين والآخر أحاول أن أسألها عن حبيبها، تخبرني أنها لا تتحدث معه كثيرًا، أسأل هل شاهد صورتها؟ تقول لي: لا، كنت لا أفهم هذه العلاقة من الحب، ولا أفهم دوري فيها، ولكنني وجدت نفسي أقضي أوقاتًا من التسلية، وإن كنت بين فنية وأخرى أود أن أوصل لها أنني لا أحبها، وأنها مجرد علاقة عابرة في حياتي، ثم أغضب عندما أجدها تكلمني عن حبيبها!

حالة غريبة لا أستطيع أن أفسرها، لم أحبها، ولكني تعودت عليها، وكنت أرغب في أن تحبني دون أن أحبها، ما زلت لا أجد تفسيرًا لها، ولا تفسيرًا لما حدث معها بعد ذلك من مصائب ومصاعب.

□□□

(٣٦) يـــارا فــــــؤاد

اعتادت يارا طقوسًا من زوجها د/ عماد مع قدوم شغالة جديدة.. نبرة الصوت القوية الحادة.. الجلوس على الكرسي الهزاز معظم أوقات النهار بأشيك الملابس الكلاسيكية.. قدم على قدم.. يمسك بيده كتابًا يجب أن يكون بالإنجليزية «فالبيه» لا يقرأ بلغة العامة، وفي يده الأخرى بايب ما بين فينة وأخرى يشعله بالولاعة الذهبية الخاصة به، بينما عينه لا تفارق جسم الخادمة الجديدة.

البنت هذه المرة بنت الرابعة عشرة عامًا، تعلو وجهها نظرة براءة جميلة، شعرت تجاهها يارا بحب وعاطفة منذ اللحظة الأولى التي وقعت عليها عينيها فيها، تمنت أن تكون مرافقتها استلمت البنت من والدها الصعيدي القادم إلى القاهرة حديثًا يبحث عن عمل كبواب لإحدى العمارات، بعد أن فر من شقتها جميع الشغالات، ورفض جميع البوابين ترك أبنائهم أو زوجاتهم في خدمة شقة (عماد بيه) بعد سمعته المملوءة بالتحرش بالخدامات التي لا توارى في العمارات بين البوابين، أو ما كانت تتحمل يارا بطردها بنفسها بعد أن ترى نظرات التلاعب في عينها وحركاتها، وتشتم رائحة الخيانة في البيت واضحة.

اقتربت يارا من عماد، وقالت له بصوت حاولت أن تخفي خلفه غضب السنين.

- حرام عليك كفاية كده يا عماد، إحنا كبار على الكلام ده، سمعتنا بقت وحشة قوي، غير أن دي بنت صغيرة وأهلها صعايدة، ولسه جايين القاهرة، و إنت ما تضمنش رد فعلهم.. يا أخي روح اعمل اللي إنت عايزه برا، أنا تعبت بس إبعد عن بيتي بقى.

نظر إليها عماد بعد أن تركها تكمل حديثها كله، ثم أغلق الكتاب الذي بيده بكل هدوء، ووضعه على المائدة الموجودة بجوار كرسيه الهزاز، ثم أخذ نفسًا أخيرًا من البايب قبل أن يضعه فوق الكتاب هو الآخر، وهو يرد عليها بهدوء..

- بتتكلمي عن إيه؟

أخذت يارا نفسًا عميقًا أخرجت زفيره في وجه عماد، تمنت ساعتها أن تكون تنفث في وجهه نارًا تحرق هذه الدمية الجالسة أمامها.

- يا عماد أنا عارفة إني مقصرة معاك ...بس صدقني مش قادرة إنت إنسان عاقل ومثقف.. كفايا بجد كده، نطلق وعيش حياتك بعيد عني، صدقني الحياة بنا بقت تحصيل حاصل.

- عايزة الناس يقولوا إن د/ عماد طلق مراته؟ والإشاعات تكتر وسيرتنا تبقى على كل لسان، نبقى لبانة في النوادي وقعدات الستات حتى لو حياتنا انتهت مع بعض، لازم نحافظ على الباقي منها قدام الناس يا يارا.

- لما إنت بتخاف على اسمك وسمعتك كده قوي قدام الناس، ليه ما بتخفش على الاسم دا و إنت بتنزل نفسك مع بنات البوابين والشغالين.

- بصي يا يارا.. أول مرة أتكلم معاكِ في الموضوع دا.. سمعتي عن ملك اليمين؟

- كمِّل.

- زمان كان الواحد بيتجوز واحدة بس علشان اسمها.. عائلتها.. نسبها.. واحدة يخلف منها عيال تشيل اسمه تبقى واجهة ليه في المجتمع، لكن حياته الشخصية أو بمعنى أدق الجنسية كان ليها الجواري الخاصة بيها، النظام دا كان بيحافظ على التماسك الاجتماعي والنفسي في المجتمع دا اللي أنا بعمله دلوقتي.

- أنا بكرهك.

- مش مشكلة.. في الآخر إنتِ حرم د/ عماد فخر الدين.

- صدقني إنت مريض نفسي.. لازم تتعالج.

- أتعالج عند دكتورة فاشلة وأبقي إرهابي في الآخر؟!

- إنت الكلام معاك ملهوش لزمة، بس أنا بحذرك المرة دي أنا اللي هقف لك، البنت دي لا يا عماد، فاهم ومش هسمح بكدة وعايزاك تقرب منها.

بدون وعي توجهت يارا والغضب يملأ قلبها إلى شاشة الحاسب الآلي تفتحه، وتتوجه نحو صفحتها على موقع التواصل الاجتماعي لتلاحظ

رسالة قادمة إليها، لم تعبأ بها كثيرًا إلى أن فتحتها بحالة لامبالاة قبل أن تتسارع دقات قلبها، وهي ترى رد طه عليها.

«آسف، بقالي يومين النت قاطع عندي.. إنت إيه أخبارك.. وحشاني أوي.. طمنيني عليكِ»

أخذت يارا نفسها بعمق، تحاول أن تحافظ على ثباتها من الرعشة التي تملكتها، كأن دش مياه ساقعة نزل على جسدها في ليل يناير البارد، بينما توجهت أصابعها إلى لوحة مفاتيح الحاسب ترد على رسالته، وتمنت أن يكون طه جالسًا الآن يبادلها الكلام

- Enta kman wa7shtny awy

3amel eh?!!

لم تنتظر يارا هذه المرة الكثير، بل جاءها الرد سريعًا بطلب إشعار بإضافة صديق جديد.

- Tamam

- Enta et8ert awy b2t tktb franko?

- Hahahaha

- el8orba b2a

- Elmohem enty 3amla eh?

- La gaded

- Ana fe Egypt.. 3ez ashafek

(٣٧) محمـــــود

هو الحب إيه.. غير نظرة من عينيه

غير لمسة من إيديه غير قلب تخاف عليه

«أغنية لعمرو دياب»

كانت هذه الأغنية بمثابة الإشراقة الأولى لنور الحب في قلبي، حالة من الخوف والاضطراب انتابتني، رعشة فرح مع اضطراب في ضربات القلب، حينما كانت كلمات الأغنية تنزل على مسامعي يهفو لها القلب، بينما صورة منال تغدو أمام عيني في ذهابها و إيابها في أركان الصيدلية، كنحلة تبحث عن زهرة تستنشق ريحها لتصنع منه العسل شفاء للشاربين.

لا أعلم هل أنا الذي اخترت منال أم هي التي اختارتني؟!.. لا أعلم هل أنا الذي أحببت منال أم هي التي أحبتني؟! لكنني على يقين أنها من جذبتني إليها باهتمامها بي.. كلمة «وحشتني» التي قالتها أمام الجميع في الصيدلية عندما أخذت إجازة يومين لنزلة برد ألمت بي، إصرارها على انتظاري لتناول الإفطار معًا إذا تأخرت عن الصيدلية، حكوا لي عن نظرة عينيها

عندما أغادر الصيدلية، وهي تتبعني برأسها غير عابئة بالنظرات المتابعة لها.

لذة انتعاشة الحب الأول هي أجمل لحظات وصول الإنسان إلى ذروة السعادة، حتى لذة الجماع الجنسي ما هو إلا تتويج للحظة الحب الأولى هذه، كل هذا الاهتمام، والحوارات الجانبية التي كانت لا تخلو من خلافات حادة في وجهتي نظرنا لم تكن تقطع الشك باليقين في قلبي الذي بات يكذب نفسه كثيرًا.. أو على الأقل ارتضى من الدنيا بانتعاشة الحب الأولى، لم أطمع في أكثر منها.

أبيت الليالي في غرفتي أرسم وجه منال في سقف الغرفة الآيل للسقوط، تكسوه طبقات الرطوبة وملح الأرض عليه كلوحة سيريالية كفناني عصر النهضة، بت أشتاق الذهاب إلى الصيدلية، يهفو قلبي إلى اللقاء... ألم لحظة الوداع وقسوتها، نظرة عين متبادلة يعتريها الألم في الفراق، كلها إرهاصات الحب الأول التي أشعلت نار القلب.

حتي مداعبات د/ هبة التي كان لا يخفى عليها الأمر، عندما تجدنا نقف متجاورين في أحد أركان الصيدلية نركن ظهرينا على رفوفها، بينما د/ هبة تنادي عليَّ وتتشدق باسمي بكل دلال بابتسامة السخرية..

- محمود.. عايزاك.

نظرة الكبرياء في عين منال وهي ترد عليها بنفس الضحكة التي يقودها العناد..

- محمود واقف معايا يا هبة.. سيبك منه دلوقت.

رنة ضحكة هبة التي كنت أقف بينهما والعرق يتسرب من جبيني زخات زخات، والحياء يملؤني بسبب هذه التلميحات الواضحة في الصيدلية، والتي عجزت ساعتها أن أتحملها، بعد أن بدأت أدخل الصيدلية كالسارق المرتكب لكبيرة.

من المفروض أنني أعيش أجمل لحظات في علاقة الحب، وهي فترة تبادل الابتسامات والمداعبة غير الصريحة الخالية من أي وعود، إلا وعود العين قبل القلب، هي فترة تكون في حياة الفرد أجمل الذكريات، يسترجعها في لحظات الضيق والألم، إلا أنه ربما يتملكني الخوف من أن شخصية مثل منال كان لها العديد من الصداقات مع الشباب، فربما لم أكن أكثر من ذلك بالنسبة لها... تجنبت أن أفتح معها الحوار، واكتفينا بنظرات الشوق فقط حتى أتى فصل الصيف.

□□□

مع بداية فصل الصيف يأتي طلبة السنة الرابعة بكلية الصيدلة المقابلة للصيدلية مباشرة، والراغبون في التدريب العملي في الصيدليات، بعد أن اتسعت الهوة بين الحياة النظرية والعملية، وأصبحت الشهادة العلمية بأعلى التقديرات غير كافية لشغل وظيفة مناسبة!.

اختيار المتدربين عملية يشرف عليها د/ أبو الغار بنفسه، لا يقبل فيها واسطة، بل واسطته هو جمال المتدربة، لا يخجل أن تعلو ابتسامة المغازلة شفتيه، وهو يقول ...

- أهي حاجة تلطف الجو بدل الغفر اللي شغالين معايا.

جو من الدعابة يقبله الجميع من د/ أبو الغار الذي يكن له الجميع احترامًا وتبجيلًا؛ لسنه وتاريخه، وروح الود الذي كان يعامل بها الجميع .

في هذا الصيف قبل د/ أبو الغار ثلاث متدربات هن: مها، وإبتسام، وخديجة، وعلى غير العادة كانت خديجة بنت منتقبة، ولكن من الواضح أنها أتت له بواسطة كبيرة، كما قبل كذلك د/ مؤمن الشاب المتدرب الجديد لأول مرة في تاريخ الصيدلية.

عندما كان يسأل د / أبو الغار: لماذا لا يقبل تدريب الشباب؟! كانت إجابته واضحة:

- الشباب جايين يلعبوا ويعاكسوا يا جماعة.. أنا عايز ناس تشتغل.

لم يكن يحتاج المرأ كثيرًا من الفراسة كي يعلم أن هناك علاقة عاطفية تجمع بين مؤمن وإبتسام التي كانت تشع من عيونهما لوعة الحب وجماله... حضورهما معًا إلى الصيدلية صباحًا، مغادرتهما معًا رغم أن كليهما يسكن في منطقة مختلفة، الرسائل النصية المتبادلة على هواتفهما المحمولة رغم جلوسهما في المكان، بسمة الحب التي تصحب قراءة الرسالة، وما يتبعها من نظرة إلى مرسلها، غيرة د/ مؤمن عندما يغازلها زبون، فيتوجه إليه مباشرة يجذب الأدوية من يدها، ويتعامل معه...

- حضرتك تؤمر بحاجة تانية؟!

د/ مؤمن كان من النوعية غير الراضية أبدًا، فرغم رفاهية ملابسه المزينة بأغلى ماركات الملابس العالمية، والسيارة التي كان يركنها دائمًا بجوار الصيدلية - فإن نظرة الحزن وحالة الضيق دائمًا مسيطرة عليه.. ما رأيته مرة في حالة سرور أو سعادة من أي شيء، دائمًا يشتكي من الدنيا والبلد، لا يحلم إلا بالهجرة من هذا البلد.

كنت أتعجب لحاله.. لقد منَّ الله عليه بكثير مما لم يصل إليه إنسان في مثل سنه، أب ثري يغدق عليه من الأموال ما تعجز ميزانية موظف حكومة، ربما يكون يحمل نفس الشهادة التي لم يحصل عليها هو بعد، إلا أن حالة الغضب دائمًا تكسو وجهه، نظرة عدم الرضا دائمًا مصاحبة له!!

في البداية كنت أظن أن مؤمنًا من أصحاب الشخصيات اللذيذة المرحة التي تكسر بينك وبينه كل الحدود، وجدته منذ اللحظة الأولى وهو يحاول أن يجذب معي طرف الحديث بخفة دم أحيانًا، إلا إنه سرعان ما اكتشفت أنه يحاول أن يظهر هذا التصرف حتى يقال عليه إنه متواضع، بينما هو يملؤه غرور الدنيا وكبرياؤها. يبدي الهزار والمرح، ويبطن العلو والكبرياء، كأنه يقول لك «من تواضعي أضحك مع أمثالك».

ذات مرة وأنا أجلس في الصيدلية طلب مني كوب شاي، لم أتضايق من الطلب، اعتبرته ضيفًا فأعددت له كوب الشاي، وجلست مكاني لتأتي د/ هبة تهمس في أذني...

- ما تعملش حاجة لحد تاني.. اللي عايز حاجة يعملها لنفسه.

حالة من الضيق سيطرت على نفسي في هذا اليوم من ذلك الموقف السخيف الذي وقعت نفسي فيه، لم آخذ الأمر في بدايته إلا أنه موقف عابر، مجرد طلب كباية شاي كنا دائمًا نتبادلها في الصدلية معًا (من يريد شرب الشاي يسأل ثم يعمل للجميع) إلا أن رد فعل د/ هبة وما رأيته من شخصية مؤمن بعد هذا الموقف خدش شيئًا في نفسي، جلست طوال اليوم على الكرسي المجاور لباب الصيدلية لا أقوم من عليه، ضاعت سنة خبرة قضيتها في الصيدلية، كسرت فيها حواجز كثيرة ليتملكني إحساس موحش بالغربة مرة أخرى.

هذا المكان ليس مكاني

هؤلاء الناس ليسوا أهلي

الشيء الذي يستحق الذكر هنا هو معاودتي الهروب إلى الخيال، في هذا اليوم وأنا عائد إلى منزلي كنت سارح في بحر من الخيالات حول هذا الموقف، وكيف كان يجب أن يكون رد فعلي هنا؟ أسرح بخيالي أحاول أن أعيد لكرامتي المهدورة كيانها، عاودتني عادة أن أتحدث مع نفسي في الشارع، هذه المرة بصورة أعلى، كانت انفعالاتي وحركاتي ملفتة لانتباه المارة في الشارع، وكانت نظرة أعينهم المثبتة عليَّ تنبهني في غفوتي، فتخرج مني دمعة ألم تجرح خدي، لتمر لحظات يعاودني فيها الموقف، فأرجع أتخيل رد فعل يرد لي كرامتي، يتبعه انفعال لاإرادي، وهكذا حتى وجدت نفسي أمام جامع السيده زينب مع تكبير أذان المغرب الخارج

من مئذنة المسجد المزينة بالأضواء الملونة، تعانق سماء القاهرة الصافية في لحظة أفول يوم من حياتي.

□□□

آلمتني قسوة الموقف السابق، وزاد يقيني أن الكثير لن يتفهمه، كما حدث مع منال التي قصصت عليها الموقف في اليوم التالي فوجدت برودًا في رد فعلها.

- الموقف ما يستهلش كل دا.. هي هبة بس اللي عنجهية ومزوداها شوية.

حاولت أن أستجمع كلمات منال دائمًا في محاولة مني أن أخفف من وطأة الموقف على نفسي، ومن ردي السلبي عليه.. إلا أن طبيعة منال وشخصيتها المتمردة التي لا تعبأ بأي شيء.. يظهر كل هذا في كلماتها، ضحكتها التي تجلجل الصيدلية، مواقفها التي لا تخجل أن تقصها علينا، ملابسها الأقل من العادية.. دائمًا بنطلون جينز أزرق اللون، لا أشاهدها تغيره أبدًا، مع بلوزة قصيرة تصل إلى حافة وسط البنطلون لونها أسود أو أزرق، شعرها المائل إلى الحمرة المموج يعكس انطباع بنت تميل إلى التوجه الشيوعي الذي اعتدتنا عليه ونشاهده في المسلسلات العربية.

في هذا الموقف وفي محاولة منها للتخفيف من الأمر الذي بات انعكاسه واضحًا على سلوكي في الصيدلية، كانت أول لمسة لمنال على يدي، لم أستطع أن أستطعم حلاوتها، ربما بسبب الحالة التي كنت عليها، وربما بسبب أنني ما زلت لا أستطيع أن أصف مشاعري تجاه منال، أو ربما لأنني

أحاول الهروب من ارتباط عاطفي مع إنسانة ربما خفق قلبي لحبها، ولكنها أبعد ما تكون عن حياتي!

قادتني منال غير عابئة بكل الموجودين بالصيدلية من يدي، ذاهبة بي إلى المخزن المحتجب خلف ستارة قماش بأحد أركان الصيدلية، وأخرجت من حقيبة يدها كشكولًا.. مثل كشكول الطلبة في المحاضرات، مدت يدها تعطيه لي، وهي تفتح بعض صفحاته على عجل.

- خد الكشكول دا اقرأه.. عمر ما حد قرأ فيه كلمة واحدة على فكرة.. دا كان بتاعي لوحدي لما ببقى مخنوقة بقعد أكتب فيه بقى بالساعات أغاني بحبها.. خواطر.. أشعار.. مقتطفات من حكم شدتني سجلتها علشان أبقى فكراها.. مش عارفه ليه حسيت إن نفسي تقرأه.

□□□

د/ سارة قدمت استقالتها، والتحقت بالعمل بالكلية بعد أن تم اختيارها كمعيدة، بعد قبول تظلمها الذي قدمته لأحقيتها بالتعيين، لم أفتقدها كثيرًا، وإن فقدت نظرة عينها البريئة، وبعض أغانٍ أحببتها كانت تسمعني إياها. كان لي معها بعض التخيلات.. رسمتها ربيعًا تزهو بجماله الزهور.

علاقتي بنادر تحسنت كثيرًا، كنا نتبادل أطراف الحديث في الموضوعات المختلفة، خصوصًا الدينية منها، تبادلت معه بعض الكتب، خصوصًا بعد زيارتنا إلى أكشاك الكتب القديمة، وتبادل الحديث مع عم عبد

القوي الذي علق عليه بتعليق آلم قلبي، وإن كنت تقبلته منه عندما قال لي تعليقًا على سؤال عن انطباعه عن عم عبد القوي...

- الأشكال دي هي اللي جيبانا وراء، لا بتفهم ولا عايزه تفهم ولا عايزه حد يفهم ...

أما تعليقه على الشيخ أبو حمزة المصري فكان أكثر حدة من انطباعه عن الشيخ عبد القوي.

- خلي بالك منه - عينيه فيها نظرة تعلب مكار - الراجل دا مش كويس.

كنت أتفهم الخلفية الثقافية لنادر.. الشاب الباحث فيما وراء الطبيعة.. متمرد.. الواضع على صورته الشخصية في صفحته على facebook صورة المهرطق، مخالفًا تعاليم كنيسته على الملأ.. الشاب الذي نشأ في أمريكا على مبادئ التحرر غير المقيدة بأي محددات دينية أو عقلية.. شاب بعقلية علمانية ليبرالية، ناهيك عن المستوى الاجتماعي الذي ينتمي إليه.

بالطبع ملابس عم عبد القوي - جلباب وشبشب جلد - لم تكن تروق لعين نادر المعتادة على أفخم الملابس من الماركات العالمية، حتى صيغة كلامه وأسلوب خطابه لم يكن من النوع الذي يقبله نادر.

هناك اختلافات نسبية بين البشر.........

□□□

(٣٨) كشكول منال

وعشقت الحزن في عينيه.

نعم.. كانت نظرة الحزن التي أشاهدها في عينيه هي التي حلمت بها طول عمري.. وكأنه يحمل كل هموم الدنيا على كاهله.. كثيرًا ما أسأل نفسي هل أنا حقًّا أستحق نظرة الحزن هذه.. أشاهده في الصيدلية ساكنًا دائمًا.. حزينًا لا أعلم لماذا؟.. أحاول الاقتراب منه.. حتى لحظة ضحكاته المتعالية التي كنا ننعم بها جميعًا في الصيدلية ما كانت تدوم كثيرًا، لتأتي نفس نظرة الألم والحزن والانكسار في عينيه.

كنت أعشقها.. تذكرني بنظرة أحمد ذكي.. بسمار وجهه وملامحه البسيطة.. لم يكن فارسًا ولكنه كان إنسانًا.. كنت أطمح أن أكون بسمة الأمل على شفاه حزينة.. والفرحة على وجه بائس.

عشقت الحزن في عينيه

□□□

(٣٩) محمـــــــود

نرجع تاني لسمر...

بدأت الغيرة تسيطر على قلبي عندما أتحدث معها على النت وتتأخر في الإجابة، أتساءل هل تتحدث معه؟! وأبدأ في سيل من السب والغضب، تنتهى أحيانًا بمحاولة استدراجها إلى محادثة إباحية، أشعر فيها أنني أمتلك فيها أكثر مما يمتلكه هذا الحبيب الذي منعتني حتى من معرفة اسمه؛ خوفًا من أن أتصرف معه تصرفًا أهوج عبر النت، ثم أستيقظ في الصباح بعد حمام مياه دافئ أعاتب نفسي على اهتمامي بها، وهي تحب غيري، أعاتب نفسي على استدراجها اليومي إلى «شات» تملؤه العبارات الإباحية والإحساسات الجنسية، إلا أنني أجد في بنت سمحت لنفسها أن تحب أحدًا، وتتحدث مع آخر بهذا الأسلوب المبرر الأخلاقي لاستمرار علاقتي بها. تبًّا لي ولها وله وللمجتمع جميعًا!.

ما بين الحين والآخر أطلب منها أن تتوقف عن الحديث مع الشباب على النت، تسألني السؤال الذي يغلق فمي:

- لو بطّلت أكلم شباب على النت مش هكلمك؟!

لا، لا أريد أن أقطع معها الحديث، رغم إحساسي بأنها على خطأ في الحوار على النت ومحادثاته، ولكنني أريدها أن تخطئ معي أنا فقط! لا أريد أن أجد تفسيرًا لهذه الحالة، بل إنني اكتفيت بوصفها، نعم كنت أريدها أن تخطئ معي، ولكن لا تتحدث مع غيري.. حب أم أنانية؟! ما بت أتعب نفسي للحصول على إجابة.

استمر هذا الحال فترة من الوقت، بت أستمع فيها إلى حكاياتها مع حبيبها، وطريقة معاملته القاسية معها، وكنت أتعجب منها: لماذا أحبته رغم قسوته معها؟! هل هي من النوع الذي يحب من يعنفه ويشعره دائمًا بحاجته إليه؟! أم هو إحساس الحب الذي يعطي الحبيب كل حقوقه!! وما بين حديث وآخر أسأل: هل تقابلا أو أظهرت له صورتها؟ تؤكد لي أنها لم تظهر صورتها لأحد ولم تخرج مع أي شاب، إنما هي محادثات عبر النت فقط.

في فترة ما وبعد أن شعرت بالغيرة تجاه هذا الغريب، خصوصًا بعد أن استجمعت بعض شجاعتي وسألتها عن طبيعة محادثاتها معه، هل تتطرق إلى أحاديث جنسية عبر الشات؟! وعلى مرات متباعدة بدأت الصورة تكتمل في ذهني تدريجيًا بداية من أنه كان يحاول أن يستدرجها إلى هذه الأحاديث، وصولًا إلى أنها هي التي باتت تطلب الحوار معه، بينما هو يتلذذ بمعاقبتها على عدم رؤيته لها أو الخروج معه إلى الآن، بالامتناع

من هذا الحديث، أو ربطه بشرط اللقاء، فبينما ترفض هي اللقاء يكتفي هو بالاستماع إليها دون أن يشاركها إحساسها!

عندما كنت أسمع هذا الكلام كانت الدماء تغلي في عروقي، وإن كنت لا أستطيع أن أقطع الحوار معها أبدًا، فكنت أعلم أنها تحبه، وكنت أعلم أن علاقة حب عبر حاجز الكلام على النت تسمح له بالتجاوز الحواري، ولكن أحيانًا أرتدي زي الواعظ مكتفيًا بتأنيبها على مثل هذه الحوارات، وأحيانًا أخرى أرتدي زي الذئب الذي يريد أن يستمتع بفريسته، خصوصًا بعد أن مات في قلبي الشعور ناحيتها بالذنب الذي كان يعتريني بعد كل محاولة معها.

ما بين قناع الواعظ الشاب الذي يستشهد بآيات القرآن الكريم، وأحاديث السنة النبوية التي تحض على الفضيلة ومحافظة المرأة على نفسها، وعدم الخضوع في القول، وما بين قناع الثعلب الذي تسيطر عليه نار الشهوة، ويريد أن يصلها مع طرف آخر استمرت علاقتنا فترة من الزمن، لم أُخفِ عليها فيها إحساسي بأي شيء، حتى بت أحلم بالليلة التي تخبرني فيها سمر أنها سوف تتزوج، وأطمئن عليها في بيت زوجها، بعد أن تقطع علاقتها مع هذا الحبيب المزعوم على النت.

إلى أن جاءت هذه اللحظة، وأخبرتني سمر بأنه تقدم إلى خطبتها شاب عن طريق زوجة عمها (جواز صالونات يعني) سألتُ عن ملامحه، وانطباعها عنه وإحساسها المبدئي عنه، أجابت بكلمتها المعهودة التي تخفي خلفها الكثير.

- عادي يعني يا محمود.

سعدت بخبر خطوبة سمر جدًا، ارتديت زي الواعظ، وبت أقص عليها قصص الحفاظ على سمعة الخطيب، وأنها يجب أن تكون له بمفرده، وبت أشجعها على ترك النت نهائيًا، وفي مكالمة هاتفية، وعدت أن تكون الأخيرة، غلفتها أحاسيس حب وخوف صادقة احتفالًا بحياتها الجديدة، في مكان يسوده جو من الحب والحنان، انتهت بكلمة الوداع النهائي، متمنيًا لها حياة سعيدة.

ولكنها لم تنتهِ!

□□□

(٤٠) يارا فؤاد

حاولت يارا خلال الثلاثة أيام الماضية أن تخرج من الحالة التي كانت عليها، حاولت أن تعيد فتح عيادتها مرة أخرى، إلا أن حالة الفتور عن العمل ما زالت مسيطرة عليها، ما زال ذهنها غير قادر على فهم ما اقترفه محمود من فعل، لم تتخيل أن تسوء حالته إلى هذه الدرجة التي تقذف به إلى التهلكة، أرادت له الحياة فقذفت به في طريق الموت. لم يكن تصورها وهي تضع رحلة العلاج النفسي لمحمود ليخرج من سجنه النفسي، والخيالات التي كان يعيش فيها، إلى رحابة مجتمع مشوه، ليصتدم بواقع أليم.. لم يستطع محمود التأقلم معه، ولا التعامل مع متغيراته.

على الرغم من أنها أحكمت الرقابة على زوجها، والشغالة الجديدة التي أصبحت مرافقة لها في كل مكان، ولا تتركها في البيت بمفردها مع زوجها، فإن نظرته لها وإيحاءاته باتت تؤرق مضجعها، خصوصًا بعد أن كثرت أسئلة البنت عنه.

- هو البيه بيشتغل إيه؟

- هو البيه مش بيروح الشغل ليه؟

- هو البيه بيعرف إنجليزي، يا ريتني كنت بعرف إنجليزي.

- تعرف يا بيه تعلمني إنجليزي؟

ضاقت يارا من ثرثرة الطفلة الصغيرة التي أمطرت سمعها بكلام عن تمثال الشمع الذي يعيش معها في البيت، وباتت ترى الأمور تؤول إلى غير موضعها، وتنذر بكارثة كبيرة إن لم تدرك الموقف.

- لو ما بطلتيش كلام هرجعك عند أهلك.

أحست يارا أنها أصبحت حبيسة البيت الذي تسكن فيه، لا تستطيع أن تغادره إلا برفقة «هنية» الشغالة، شعرت أنها مثل حارس شخصي لها، تحاول أن تحافظ عليها من نظرات ذئب عاتٍ يجلس على كرسيه الهزاز، ينتهز الفرصة للانقضاض على فريسته، حتى لحظات استمتاعها بحمام الصباح ما عادت تهنأ بها، بعد أن باتت تسترق السمع على زوجها، هل يحاول أن يتحرش بالشغالة؟!

كان القرار قاسيًا عليها جدًا، شعرت تجاه هذه البنت بعاطفة غريبة.. وجهها الذي يشع منه السكون والراحة، نبرة صوتها الجميل، الطفولة التي تغلفها البراءة، وسذاجة القروية في فيلم «دعاء الكروان» التي باتت ترى قصتها تعاد رسمها أمام عينها، بعد أن لاحظت نظرات البنت إلى زوجها.

أرسلت في طلب البواب.. وقفت تنادي على هنية بصوت عالٍ مسموع، بينما عينها ثابتة في عين عماد التي كان الشغف يتطاير منها كالنيران وهي تقول للبواب..

- خذ هنية وديها لأبوها البنت لسه صغيرة وشغل البيت كتير عليها.

تقدمت منها الفتاة الصغيرة، والدمعة كادت أن تفر من عينها.

- أنا عملت حاجة يا ستي؟!

أكملت يارا كلامها بما تبقى في صوتها من شجاعة.

- قلت خلاص... ادخلي لمي هدومك قبل الدنيا ما تليل.

التفتت البنت إلى د/ عماد تحاول أن تجد في موقفه بصيص أمل، أو تبريرًا لموقف سيدتها التي لم تتوانَ منذ اللحظة الأولى لها عن معاملتها بكل رفق.. محاولة أن تفسر هذا السلوك الغريب، بينما الغضب في قلب عماد الذي التقت نظرة عينه بعين بواب العمارة الذي تأكد أنه فعل فعلته مع البنت الصغيرة، لتلجمه هذه النظرة، تاركًا الموقف كله، عائدًا إلى غرفة مكتبه التي تركها منذ فترة.

شعرت يارا ببعض الراحة النفسية بعد مغادرة هنية المنزل.. إن كانت لا تستطيع أن توقف جنون زوجها، فعلى الأقل حمت طفلة بريئة من براثن هذا الذئب العاتي.

دخلت يارا تأخذ حمامًا لأول مرة براحة نفسية، دون أن تسترق السمع

إلى الخارج، حتى علا صوتها بالغناء للمرة الأولى منذ فترة على أنغام موسيقى محمد منير.

إنـت كنت جي تغني لا إعـرف قبلى أنا مين

متروحـش تبيـع الميـه في حـارة السقايـين

خرجت يارا من الحمام تلف حولها البشكير وعلى رأسها، بينما ما زالت تتمايل على نغمات الأغنية، وعينها تنظر في عين زوجها نظرة شماتة وتحدٍّ وهي تكمل.

على مين على مـين على مين!!

على مين يـا سـيد العارفين؟!

كان ذهنها هذه المرة صافيًا على غير العادة، شعرت لأول مرة بنشوة الانتصار على زوجها في الحياة، توجهت إلى حاسوبها، تمنت أن تتحدث الآن مع طه أكثر من أي وقت مضى، تأملت قائمة أسماء الموجودين على «الشات» تبحث عن ضالتها المنشودة.. بادرها هو بالكلام، تحدثت معه كما لم تتحدث من قبل، البهجة تملأ حروف كلماتها، شعر طه بها، وبين الحين والآخر يتساءل عن سبب سعادتها! استغل طه الفرصة أكثر وطلب اللقاء.. وعدته.. إلا أنها لم تحدد الميعاد، تلاعبت بمشاعره، والبسمة تعلو شفتيها، تخرجها في صورة وجه باسم «سمايل» على الشات، يشعر معها بمنتهى اللذة التي أضافتها على حياته.. منذ عودته إليها تشعر معه بمنتهى

الراحة التي افتقدتها.. هل لو كانت الآن في بيته كانت حياتها ستكون أفضل؟ علقت المحادثة معه، بينما أنغام نجاة الصغيرة تشدو في فضاء الغرفة..

حتى فساتيني التي أهملتها

فرحت به ورقصت على قدمين

سامحته وسألت عن أخباره

وبكيت ساعات على كتفيه

التشابه بين طه ومحمود يكاد يكون متطابقًا.. إن عودة طه في حياة يارا لم يكن إلا ليسد فراغ محمود الذي كان وجوده في حياتها هو الآخر ليسد فراغ طه من قبله، وهكذا هي الدائرة المفرغة التي تعيشها يارا. استغرقت المحادثة ساعات ملأت فيها البهجة قلب يارا في فترة لم تنعم براحة مثلها منذ وقت طويل، حتى رن جرس الباب عدة مرات، نسيت خلالها أن هنية قد غادرت البيت، علقت محادثتها مع طه بكلمة BRB وهمت ذاهبة إلى باب منزلها ترى من الطارق!

□□□

(٤١) محمـــــــود

بعد موقف د/ مؤمن معي توطدت علاقتي مع د/ هبة بعض الشيء، أحيانًا أتذكرها وهي تهمس في أذني وتقول لي لا تفعل ذلك مرة أخرى، كان إحساسي بدفء أسري غريب، شعرت حينها أني أحد أفراد هذه الصيدلية التي قضيت فيها سنة، موقف ربما يكون عابرًا عند البعض إلا أنه مثَّل لي الكثير د/ هبة آثرتني على الغريب، كانت ترى فيّ أحد أفراد أسرتها (الصيدلية) فيما ترى مؤمنًا ذلك الوافد علينا.

حتى كبرياء وغرور وتناكة د/ هبة التي لم تتغير باتت محببة إلى قلبي، كنا قد تعودنا عليها في الصيدلية، وألفناها وباتت محل مداعبتنا جميعًا، كانت العلاقة داخل الصيدلية أجمل ما يكون، خصوصًا بعد انقضاء فصل الصيف، وعودة المصطافين - عفوًا المتدربين - إلى جامعاتهم، واستقالة د/ سارة، لم يبقَ إلا هبة وأنا ونادر ومنال، والكائن القانع خلف مكتبه د/ أبو الغار الذي منّ علينا أخيرًا بعامل للصيدلية يتولى أعمال النظافة والمساعدة في رص الأدوية.

رجل في التسعين من عمره أو ما يزيد، يرتدي دائمًا طاقية بيضاء على رأسه، نحيل الجسد، محني الظهر، يمسك مسبحة ٩٩ خرزة خضراء اللون.. هيئة أحد دراويش السيدة، إلا أنه كان محافظًا على نظافة لحيته يحلقها صباح كل يوم، يظهر ذلك في خربشات الموس المتناثرة على وجهه إذا اقتربت منه.

مع اقتراب شهر رمضان المعظم، طلبت مني د/ هبة أن أساعدها في شراء بعض كتب الطبخ، بالطبع كنت كثير الكلام عن اهتماماتي بالقراءة، وعلاقتي مع بائعي الكتب بالقرب من سور «أبو الريش».. فعرضت عليّ أن تصطحبني إلى هناك بعد العمل، فوافقت.

بعد أن أتممت يوم العمل، وقفت على باب الصيدلية أتلكع وأختلق أي مواقف كي أتأخر.. لا أعرف هل أذكر د/ هبة بميعادنا أم يعتبر ذلك تجاوزًا مني؟! رغم كل ما ذكرته فإن الخجل ما زال يعتريني أن أصحبها في مشوار خاص، فخليقًا بها هي أن تذكرني به، بالمناسبة هذه أول مرة أخرج فيها مع امرأة في الشارع بمفردنا. وقفت منال على باب الصيدلية وهي تسألني:

- إيه مش مروح ولا إيه؟!

- لا مستني د/ هبة عايزة تشتري كتب طبخ.

- أوك.. سلام.

كنت أتوقع رد فعل من د/ منال أقوى من ذلك، كنت أتمنى أن تغضب أني ذاهب في مشوار شخصي مع أحد غيرها. باتت الغيرة تتطاير في قلبي، ورياح الشك تطحن عظمي عن طبيعة علاقتها بي؟

خرجت معي د/ هبة اتجهنا مباشرة إلى سور الكتب تحت كوبري «أبو الريش»، كان الخجل يتمكن مني وأنا أسير بجوارها، أجهل أقل بديهات الذوق، هل أسير أمامها أم تسير هي أمامي، هل أسير محازيًا لها، كيف أعبر معها الطريق؟ لفت نظرها ارتباكي.

- محمود.. دي أول مرة تخرج مع بنت في الشارع؟

- عرفتِ إزاي؟

تعالت ضحكات صاخبة، لا تليق مع الوقار المصطنع الذي كانت تضفيه على نفسها وسط المارة في الشارع، لفتت انتباه الجميع قبل أن تضع يدها على فمها وهي تكمل حديثها:

- أصل شكلك لخمه قوي.

كنت دائمًا ما أتهرب فعلًا من الخروج مع البنات، أشعر بالحياء الشديد إزاء ذلك، طبعي الخجول، بيئتي المحافظة، كلها عوامل لا تجعلني أتخيل الفكرة، رغم ما كسرته من حاجز التعامل مع الجنس الآخر عبر المحادثات الإلكترونية، فإنها ظلت عبر الأسلاك لم ترتقِ إلى مستوى الواقع.

حتى بعض محاولات منال للذهاب معي إلى أي مكان خلال العام الماضي، كنت كل مرة أتهرب منها.. خصوصًا أنها طلبت مني أكثر من مرة أن أصحبها إلى بائعي الكتب القديمة، وكثيرًا ما تهربت منها، أحيانًا أتساءل عن السبب الذي يجعلني أهرب منها وأوافق على الذهاب مع د/ هبة، ربما ملابس هبة التي تميل إلى الاحتشام قليلًا، بينما التبرج سمة ملابس منال جميعها، والذي أكرهه فيها، ولا أستطيع أن أسير بجوارها في الشارع بهذه الملابس، حيث أعين الناس تنهش جسدها، وإن حاولت أن أتجاهل الموقف، فإن تتبع أعين الشباب لها سيكون الرد ببساطة.

- يا عم ما هي اللي ماشية عريانة ماتلمها.

ملابس النساء في الشارع أصبحت مثيره بطريقة لا تطاق، أتعجب كيف تخرج امرأة بمثل هذه الملابس المزرية... لا أنكر أنني أتابعها بنظري أحيانًا بإعجاب، وأحيانًا بتعجب وأنا أضرب كفًا على كف..

- يا ميت خسارة على الراجل.

قطع حاجز الصمت الذي كنت فيه هاتف د/ هبة يصدر رنينًا بأغنية أم كلثوم الشهيرة سيرة الحب، لأفاجأ بالدكتورة هبة ترد على زوجها في الهاتف، في البداية انتابني الهلع، سرت بجوارها أستمع بعض كلمات المكالمة التي انتهت بالجملة الآتية:

- خلاص، هروح مع محمود أشتري الكتب وأرجع على طول ما تقلقش عليّ، هخليه يوصلني للمترو.

....

- منا بقولك محمود معايا متقلقش.

أفهم جيدًا الاختلافات النسبية بين البشر، ولكن لا أقبل أبدًا أن تخرج زوجتي بمفردها بصحبة رجل غريب للتجول في الشارع!! كما أنني لا أفهم كيف يسمح أب أو زوج أن تخرج ابنته بهذه الملابس إلى الشارع حتى حياء البنت أين؟! الجميع يعلم حالة الانحطاط الفكري والأخلاقي التي يعيشها المجتمع، وانتشار ظاهرة التحرش، مع ذلك يلبسْنَ كل ما يثير الغرائز وكأنهنَّ في تحدّ مع المجتمع وأنفسهنَّ ودينهنَّ...

«سنواجه الفساد بالفساد»

إن الكون قائم على منظومة ثنائية، هناك أوامر محددة، أمر الله بها الرجل، منها غض البصر، وأمر المرأة بالاحتشام في الملبس، وعدم الخضوع في القول حتى لا تثير الشهوات، يحدث التحرش حينما تنقلب هذه المنظومة، فلا يغض الولد بصره، وتتبرج البنت وتخاطب الجوانب الحيوانية في الإنسان، وعندما تأتي الفاحشة يلقي كل منهما اللوم على الآخر، هي تقول «هو حيوان مش قادر يحكم غريزته، اتحكم في نفسك ما تتحكمش فيَّ» وهو يقول «هي لابسة كده علشان تتعاكس»، وكلاهما على باطل، فتحدث العفة عند تمسُّكنا بأمر الله.. غض البصر، والحشمة في الملبس.. فغض البصر واجب وإن تبرجت كل النساء، والاحتشام فرض وإن كنت وسط أطهر الرجال.

وصلنا أخيرًا إلى ذلك المكان المكتظ بالكتب على جانبيه، كنت أمشي محتفيًا بنفسي وسط تبادل السلام مع أصحاب الأكشاك الجالسين بجوار أكشاكهم، إلى أن وصلنا إلى أحد الأكشاك التي كنت أعرف أن صاحبها يتخصص في هذا النوع من الكتب.

وقفت عنده، حاول القيام فهممت أن أجلسه مكانه حتى لا أثقل عليه، فهو من أصحاب الإعاقات، سألت د/ هبة عن كتاب معين في المطبخ، فأشار إلى بعض الكتب تختار منها، قبل أن يقوم من مكانه، وأنا أحلف عليه ألا يتحرك، وهو لا يسمع لي، بينما تمتد يداه إلى العكازين المتجاورين خلف الكرسي وهو يكمل حديثه.

- جالي من يومين كام كتاب جديد هيعجبكوا قوي.

اختفى داخل الكشك الصغير يفتح أحد دلفه، يخرج منه مجموعة من كتب الطبخ المرسوم عليها أنواع أكل، وعلى غلافها صورة فوتوغرافية للشيف أو السيدة صاحبة الكتاب، اختارت د/ هبة ما أرادت، ثم دفعت ثمنها بعد فصال مع البائع الذي حلف أيمانات الله أنه بايعهم بخسارة من أجل عيوني.

- كاذب.

على محطة مترو أنفاق السيدة زينب وقفت أسلم على د/ هبة التي شكرتني، وهي تنظر إلى الكتب، ثم مدت يدها تصافحني، كانت مصافحتها اعترافًا بالجميل تجاه خدمة مصاحبتي لها. ولأول مرة ألمس يدها وأشعر بلذة في نفسي تجاهها تملكتني في خيالي لبضعة أيام.

- جاي بكره الصيدلية؟

- أكيد.

- في دكتورة جديدة جاية مكان سارة.

- سمعت عنها اسمها نهال.. صح؟!

- صح بنت رخمة جدًا مش بطيقها.

- حسيت بكده لما دكتور أبو الغار قال لكم النهار ده إنها جاية تشتغل.. إنتوا تعرفوها؟!

- آه جت تدريب كام شهر كده في الصيدلية.. بس بنت رخمة جدًا ومغرورة جدًا.

- صحيح يا دكتورة هبة هما بيدرسلكوا التناكة في الكلية.

- لم نفسك يا واد إنت نسيت...

- آه صحيح إنت جوزك ضابط.

تبادلنا الضحكات الخالصة من القلب قبل أن تكمل حديثها...

- لا دي بقى غيري خالص.. دي لما كان حد يزعلها بس.. ولا يقولها يا نهال من غير دكتورة كانت تعيط وتمشي مأموصة وتاني يوم يجي أبوها معاها يشتكي للدكتور «أبو الغار» كأنه ولي أمرها وجايبها المدرسة.

- عارفة يا د/ هبة ساعات بحس إن في دكاترة بتقف قدام المراية تقول أنا دكتورة عشر مرات قبل ما تنزل علشان ما تنساش.

- بس يا واد لِمّ نفسك.

- سلام.

- سلام.

وتركتها في مخيلتي د/ نهال التي كانت لي معها قصة.

❑❑❑

بعد مغادرة د/هبة المكان ذهبت إلى عم عبد القوي أجلس معه على الكرسي المجاور له الذي سحبته بكل مرح، وأنا في حالة سعادة لا أعرف سببها بعد مغادرة د/ هبة، ربما فرحة بانتهاء مهمتي مع د/ هبة بسلام، وهي المهمة التي كانت تشغل بالي لفترة طويلة من اليوم، ربما شعرت براحة كذلك بعد مكالمتها مع زوجها، وإحساسي أنها لا تفعل شيئًا من وراء ظهره حتى لو كان هذا الشيء أرفضه أنا، ربما هي فرحة أول خروجة مع بنت... لا أعلم ولكني كنت سعيدًا.

- الشاي بتاعي يا مكرم.

التفتَ إليّ الشيخ عبد القوي بعد أن أنهى الآية التي كان يقرأها في المصحف الشريف.

- شكلك مبسوط.

- عادي.. واخدها بالطول والعرض.

صمت الشيخ عبد القوي للحظات قبل أن يعاود الكلام مرة أخرى.

- الناس دي مش من توبنا يا محمود يا بني.

- ناس مين يا عم عبد القوي.. دي د/ هبة زميلتي في الصيدلية.. متجوزة.. ضابط شرطة يعني فيها قطع رأس.

- اسمع كلامي يا بني.. أنت مبقتش صغير.. لازم تتجوز البت نعمات من توبنا وغلبانة وعارفين أصلها ولسه قاعده والناس شاريين.

- تاني يا حاج عبد القوي.. مش قفلنا الموضوع دا.

- اسمع كلامي يا بني إنت السكينة سرقاك.

- حاضر يا حج غير الموضوع بقى، ما تقوم تشوف لنا رواية أقرأها أنا بقالي كتير ما قرأتش.

بينما كنت ألتفت وأمد يدي لآخذ كوب الشاي، إذ بي أجد الشيخ «أبو حمزة المصري» يمد يديه لي به، وهو يقول له:

- قلت أجيب الشاي وآجي أشرب كباية معاك.

- بنفسك يا عم الشيخ دا انا اللي جاي أجبهولك.

- ما إنت يا عم ما حدش بيشوفك.. بتتقل علينا قلت آجي أقعد معاك بقى.

- تشرفنا.

بينما كنت أتبادل الحديث أنا والشيخ أبو حمزة المصري كان رجل متوسط القامة يرتدي جلبابًا وطاقية، يسير ممسكًا في يده ميكرفونًا وسماعة يضعها على عربية «كارو» يجرها حمار، وهو ينادي على الروبابيكيا.

- بتاع الروبابيكيا بيعمل إيه هنا؟!

- كل دا بتيجي هنا وأول مرة تشوفه؟!

- ماخدتش بالي منه.

- الكتب القديمة التي مش بتتباع ومرمية عندنا زحمة المكان على الفاضي، الكتب المقطعة اللي ملهاش لزمة بنبيعها له بالكيلو، هو بقى يروح يبيعها لبتاع الترمس والبطاطا، وهو ورزقه.. غير إننا ساعات بنستلقط منه كتب حلوة، في ناس بتكسل تيجي تبيع الكتب هنا ويودوها لبتوع الروبابيكا، يجي إحنا نشتريها منه بسعر أحسن شوية من بتاع الترمس.

قالها مبتسمًا.

وقفت للحظات أتأمل السيارة «الكارو» المتهالكة التي يجرها حمار أجرب، بينما سائقها ينادي بالميكرفون على الروبابيكا.. حاجات قديمة للبيع و«عربية الكارو» محملة على آخرها بكراكيب البيوت.. مروحة قديمة مكسور نصف ريشتها الأمامية، يد مكنسة طويلة خارجة من إطار العربة.. طشت نحاس قديم ربما يعود عمره إلى أكثر من مائة سنة، مجموعة من أسلاك متشابكة كشعر عروس يوم صباحيتها.

- عارف يا شيخ «أبو حمزة».. إحنا بقينا عاملين زي الروبابيكيا، مجتمع بقى زبالة.. حالة انحطاط ديني وأخلاقي وثقافي.. شايف البنات لابسة إيه مبقاش فيه حياء.. الراجل بقى عارف إن مراته قاعدة مع واحد بتشيش وهو عادي يقول لك: أنا بثق فيها.. ثقة إيه وأرف إيه!! إحنا بقينا مجتمع زبالة.. عايز الحرق.

بينما أنا أتحدث وأسرح بخيالي في بضع حصوات كانت في الأرض، رفعت نظري لأشاهد ابتسامة «أبو حمزة المصري» لي وهو صامت.

- ما لك يا عم الشيخ؟!

- إنت مكانك مش هنا يا بني.

- مش فاهم.

- بكرة تفهم.. أنا شايف قدامي واحد من الجنة.

نظرت إليه والابتسامة تعلو شفتي، وأنا أضحك في أعماق قلبي على الرجل الذي يظن أني شيخ ومتدين، ولا يشاهد الوجه الآخر القابع خلف قناعي المزيف.

□□□

(٤٢) يـــارا فـــــؤاد

على الرغم من طول القامة الواقف أمامها، وملابسه المميزة، ووجهه الأسمر من طمي نيل الصعيد، فإن نظرها قد تثبت عند البنت التي تكاد تصل إلى نصف ذراعه، وعينها لا تكاد تصدق.

- هنية؟! إيه اللي جابك تاني؟!

- أبو يا ضربني وقال لي إنت زعلتي الهانم في إيه.. أنا عملت حاجة يا أبلة؟!

توقفت يارا وعلامات الدهشة والغضب تتصارع في رأسها، بينما لمحت طيف زوجها يخرج من غرفته، تعلو شفتيه ابتسامة سخرية.

- البنت ما عملتش حاجة يا حج... أنا بس استكترت عليها شغل البيت وهي لسه صغيرة وكان نفسي تكمل تعليمها.

- يا ست هانم تعليم إيه دي بنت على سبع ولاد.. أنا عارف أأكلهم عيش حاف علشان أعلمهم أنا جيت بيهم من الصعيد مسطح على القطار علشان أشغلهم في البيوت، حتى لو ما جبتش فلوس أهي تشيل عنى لقمتها. أبوس إيدك يا ست هانم الله لا يسيئك ترجعيها.

وقفت يارا والحيرة تتملكها، لا تستطيع أن تواجه الموقف.. هذا الرجل الآتي من الصعيد، جاء لبيع بناته في القاهرة ليس بمقابل مال، بل حتى ترفع عن كاهله حمل طعامها، فلماذا أتى بها إلى الدنيا؟! كل نظريات تحديد النسل تقف عاجزة أمام هذا التدهور الفكري الذي يتفشى في البلاد من أقصاها إلى أدناها.

هذه البنت ليست عرضة فقط للتحرش من زوجها، بل لو أصرت على عدم عودتها للعمل مرة أخرى بالتأكيد لن تعجز الحيلة أباها في البحث لها عن عمل آخر، وإن لم يكن قد بدأ بالفعل قبل أن يحاول هذه المحاولة.. لتعود إلى بيت آخر مع زوج متحرش جديد، يرى في جسم البنت مرعى لشهواته الحيوانية، أو مراهق تتفتح عيناه على زهور الحياة، يحاول أن يقطفها قبل أوانها، لتخرج من البيت ملومة محسورة، أو لربما تأخذ أباها حمية الجاهلية الأولى ويتذكر شرفه الذي كان يدور يعرضه على البيوت يبيعه فيقتلها.

أفاقت يارا على صوت والد هنية يعيد على مسامعها دعاءه لها وتوسلاته المتذللة، لتنهي هذه المساومة بكلمة واحدة.

- ادخلي جوه يا هنية.

دخلت هنية من باب المنزل والسعادة تملأها، وكأن آدم قد مَنّ الله عليه مرة أخرى وأدخله الجنة بعد طرده منها، أما يارا فقد تقبلت نظرة التشفي من زوجها، وعادت لتكمل حديثها مع طه الذي شعر بتغير لهجة يارا معه ما بين جملة وأخرى يرسل لها.

- ما لك؟!

شهد طه ملامح الشر على وجه يارا متخفية خلف كلمات الحوار، انتهزها فرصة لتجديد طلب لقائه، كالمغيبة وافقت يارا على الميعاد والمكان، نفس مكان لقائهم الأول.. كوستا بشارع مكرم عبيد.

□□□

(٤٣) محمود

الغيرة هي اللحظة الحقيقية لنضوج الحب.

في صباح ذلك اليوم توجهت مبكرًا إلى الصيدلية، أرسم في خيالي البنت الجديدة التي ستأتي للعمل بدلًا من د/ سارة، أرسم في مخيلتي ابنة العشرين ربيعًا، ذات الملامح الهادئة والوجه الأبيض الجميل، ذات الأنوثة الطاغية والرقة التي تجذب النفس إليها دون اصطناع، دكتورة جديدة تعمل في الصيدلية، تعيد زهو أيامها بعد أن سيطر عليها الملل من كل الأرجاء، حتى في علاقتي بمنال التي لا تأخذ وتيرة معينة، تسير في خط متوازٍ غريب، أحيانًا يملؤني الشوق لها، وأشعر أنني لا أستطيع الابتعاد عنها، وأحيانًا أشعر بالملل من علاقتي بها، عندما أشعر بامتلاكي لها أنفر منها، وعندما أشعر أنها بعيدة عني يأخذني الشوق إليها، مثل ما حدث مع د/ مؤمن.

عاد هذا الوجه الكئيب علينا ذات مرة وهو يرتدي بدلة فاخرة، وكأنه عريس ليلة عرسه، يمسك في يده حقيبة جلدية، وفي اليد الثانية ميدالية مفاتيح ذهبية مكتوب عليها اسم إبتسام، تعلو وجهه نظارة طبية مذهَّبة

الذراعين شفافة اللون، حينما دخل علينا ظهرت علامات البهجة على الجميع إلا أنا!

لم تكن هذه المرة الأولى الذي يعود فيها متدرب إلى الصيدلية ليسلم على من بها، أو دكتور سابق يكون قريبًا من الصيدلية تأخذه الذكريات فيأتي يسلم على من في الصيدلية، مسترجعين جميعًا الذكريات عن أجمل أيام قضيناها معًا، ونحن نمصمص شفاهنا ونقول «أيام مش هتتعوض».

كل الأيام اللي فاتت ما تتعوضش، حتى الأيام اللي عايشنها لما تفوت هنقول عليها ما تتعوضش.

دخل د/ مؤمن الصيدلية وسط ترحاب مبالغ فيه من الجميع، خصوصًا منال التي جلست بجواره على كرسي وهي تسمع منه قصصًا عن عمله «ميديكال ريب» مندوب أدوية في إحدى شركات الأدويـة، وهو متخصص في نوع معين من الدواء، ثم يقوم بتنشيط مبيعات هذا الدواء في المنطقة الجغرافية التي كان يعمل بها، عن طريق زيارات الأطباء، وعرض مفعول الدواء، مع تقديم هدايا عينية لهم طبعًا تصل أحيانًا إلى دعوات مؤتمرات في أشهر فنادق البلاد، وذلك حسب أهمية الطبيب وشهرته، ثم يتابع مبيعات الدواء من خلال الصيدليات؛ لذلك يحافظ جميع مندوبي الأدوية على علاقة الود بينهم وبين جميع الصيادلة التي لا تخلو كذلك من هدايا مختلفة، تبدأ بأقلام مدون عليها اسم الشركة والدواء، وصولًا إلى ميداليات أو ما زاد حسب كل حالة، في محاولة

من مندوب الأدوية لتقصي حالة الدواء في السوق.. والعرض والطلب عليه، وهل زاد الطلب عليه بعد زيارة الدكتور الفلاني الذي أهداه دعوة لحضوره مؤتمرًا طبيًّا في شرم الشيخ أم لا؟!

رفع الدكتور أبو الغار النظارة الطبية عن عينه وهو يتابع د/ مؤمن حتى قاطعه قائلًا:

- بس إنت إيه اللي فكرك بينا دلوقت؟!

- كنت معدي قلت أسلم عليكوا.

- ما إنت شغال في المنطقة دي بقالك ٦ شهور.. ماجتش غير النهاردة ليه؟!

ظهرت كلمات الإحراج على وجه د/ مؤمن، بينما ابتسامة الثقة كانت بادية على وجه د/ «أبو الغار» الذي من فترة لأخرى يحب أن يبين للعاملين معه أنه ليس منكبًّا على مكتبه، بل إنه يتابع كل كبيرة وصغيرة في السوق وفي الصيدلية، وربما لا تكون هذه الحالة الأولى التي يستعرض علينا د/ أبو الغار معلوماته.. كانت الحالة الأولى عندما لـمَّح أن تعيين د/ سارة معيدة في الكلية أصبح وشيكًا، وحينها ظهرت عليها علامات الضيق بعد أن كانت مخفية كل الأخبار عن سعيها في هذا الشأن عن الجميع.

أما الدكتور مؤمن فقد حاول أن يداري الموضوع، حتى هم بالاستئذان وهو ينادي على د/ منال طالبًا أن يتحدث معها على انفراد.

خرجت منال ووقفت مع مؤمن على باب الصيدلية، ونار الحقد تملأ قلبي، أنا لا أعلم فيما يتحدثان، إلا من ابتسامات تتبعها ضحكات عالية من منال، تثير نار الغيرة والحقد في نفسي، بدت واضحة عليَّ من شرودي في الرد على إجابات الزبائن، وعيني اللتين لم تفارقا منال وهي واقفة تتحدث مع مؤمن لبضع دقائق، قبل أن تعود إلى الصيدلية مرة أخرى.

الغيرة إحساس لا يمكن أن تعبر عنه الكلمات، هو نار تحرق صاحبها وتدمره، كأنك تمسك بالسكين تحفر به، وهو كجمرة نار في القلب، بل ربما يكون هذا الشعور أهون، مرت عليَّ هذه الدقائق كدهر، كدت أشعر فيها بالاختناق وأنا لا أستطيع أن آخذ نفسي إلا بصعوبة بالغة، مع ارتفاع في درجة حرارتي تكاد تحترق اليد التي توضع على وجهي. ما إن دخلت منال حتى رأت نظرة الغضب في عيني بادية على كل أفعالي، أما هي فنظرة السعادة كانت تتطاير من عينيها، لا أعلم فرحة لقائه أو فرحة غيرتي عليها، كما كنت أريد أن أمني نفسي.

حاولت كثيرًا أن أتمالك أعصابي، إلا أن علامات الغضب كانت تتحكم في جميع أعصابي، أمسكت بالهاتف أرسل لها رسائل قصيرة، لم ترد عليها، كان هاتفها موضوعًا في حقيبتها ينذر برسالة قادمة فلا تحرك ساكنًا ولا تقوم لتقرأها، بالتأكيد كانت تعلم أنها مني، وهي تشاهدني أمسك هاتفي أكتب عليه. بالتأكيد لم يكن الوضع خافيًا على الجميع بالصيدلية، ولكن بدأت أفقد كل أعصابي، وما عاد بمقدوري أن أتحكم فيها، توجهت إلى المخزن ورعشة تمتلكني، فقدت فيها السيطرة على كامل أعصابي ثم

ناديت بصوت مرتفع على منال، أسألها أن تأتي لأن صنف PERFEGAN غير موجود.. تمثيلية ساذجة لا تخفى على طفل صغير، ردت منال بصوت عليه الغضب...

- مش فاضية دلوقت يا محمود، إنت عايزه في إيه؟

كنت أجلس على كرتونة أدوية أضع رأسي المشتعل بنار الغضب بين كفي، لا أعلم كيف أخرج إلى الصيدلية ليشاهد الجميع وجهي الذي كنت أشعر بالخجل يتراقص عليه، وكأني مجرد تمامًا من ملابسي، الجميع لاحظ نظرات الغيرة مني على منال.. قررت في هذه اللحظة أن أخرج من الصيدلية، وألا أعود إلى هذا المكان مرة أخرى، حتى أفقت على دمعة تجرح كبرياء نفسي، وعلى يد تمتد إلي بمنديل ورق، حسبتها يد منال، وحاولت أن أرسم الغضب على وجهي لعلي أنعم بنجوى مصالحتها، قبل أن تتطاير الأحلام من أمامي وأنا أشاهد د/ هبة تمد يدها لي وتقول:

بطل عياط قوم شوف شغلك.. ولينا كلام مع بعض.

□□□

(٤٤) كشكول منال

منين بيجي الشجن.. من اختلاف الزمن
ومنين بيجي الهوى.. من ائتلاف الهوى
ومنين بيجي السواد.. من الطمع والعناد
ومنين بيجي الرضا.. من الإيمان بالقضا
من انكسار الروح في دوح الوطن
يجي احتضار الشوق في سجن البدن
من اختمار الحلم يجي النهار
يعود غريب الدار لأهل وسكن
ليه يا زمان ما سبتناش أبرياء
وواخدنا ليه في طريق ما منوش رجوع
أقسى همومنا يفجر السخرية

وأصفى ضحكة تتوه في بحر الدموع
ولفين ياخدنـا الأنين
لليالي ما الهاش عينين
ولفين ياخدنا الحنين
لواحـــة الحيرانـين
مـا تسرسـبيش يا سـنيننا من بـين إيدينا
ولا تنتهيـش ده إحنـا يـا دوب ابتدينـا
والـلى لـه أول بكـرة حيبـان لـه آخـر
وبكـرة تفـرج مهـما ضاقـت علينـا
ولفـين ياخدنـا الأنـين
لليـالي ماالهـاش عينـين
ولفـين ياخدنـا الحنـين
لـواحـــة الحيرانـــين
تتر مسلسل ليالي الحلمية

□□□

(٤٥) محمـــــــود

خرجت من المخزن وحالة قلق ورعب تعتريني، نظرة خوف تملأ عيني عندما تلتقي نظرتي في نظرة أي أحد، وقفت أمام الفاترينة الزجاجية الأمامية للصيدلية الموضوع فيها أصناف الشامبو ومستحضرات التجميل شارد الذهن حينما بدأت د/ هبة الحوار مع د/ منال:

- كان عايز إيه د/ مؤمن؟

لم يكن الأمر يحتاج إلى فراسة ليعلم الجميع أن سؤال د/ هبة هو على لساني، في محاولة منها لتهدئتي، فردت منال والغضب يملأ صوتها:

- كان عايز آخد منه كمية من حقن «دالسن سي»، علشان الصنف واقع، ومحتاج يدخله في كشف نشاط الشهر بتاعه كمبيعات.

- بس الصنف دا راكد عندنا أساسًا هناخد تاني ليه؟!

- ما هو يوم ٢ في الشهر هيجي ياخده كمرتجع بس المهم يبان عنده في نشاط الشهر دا اللي بيقدمه للشركة ضمن المبيعات.

- طيب ما هيتكشف الشهر الجاي.

- هو عايز ياخد المكافأه الشهر دا بس وهينقل شركة تانية، خلاص فهمتي في أسأله تانية علشان ترتاحي؟!

كانت الجملة الأخيرة بالطبع موجهة لي.

في أثناء هذا النقاش، دخلت الصيدلية د/ نهال لتتطاير أحلام الوجه الجميل من أمامي بوجه أسمر طويل، إلا أنه هادئ الملامح، به سمرة أحببتها بعد ذلك، طويلة بعض الشيء، ترفع دائمًا حاجب عينها الأيمن، متوجهة إلى د / «أبو الغار» ملقية عليه السلام.

- إزيك يا أنكل ...

□□□

(٤٦) يـــارا فـــــــؤاد

كوستا مكرم عبيد: الساعة الثانية عشرة ظهراً..

على غير عادتها تصل يارا إلى الميعاد مبكرًا، بعد أن كانت تستمتع بصوت رن هاتفها المحمول، ورسائل الاستعجال من الأهل والأصدقاء عند لقائهم.. توجهت يارا منذ قدومها إلى المكان المخصص للمدخنين، تبادلت مع الشاب المهذب الذي تعلو شفتيه ابتسامة دائمة، تخفي وراءها مرارة سنين لا تحتاج هي إلى فراسة لاكتشافها، تبادلت معه كلمة Smoking أشار لها إلى المكان المخصص للمدخنين، جلست خلف المائدة تشعل سيجارتها، بينما يعلو دخان السجائر يرسم في فضاء المكان خيالاتها التي تدور في رأسها، زوجها الآن مع هنية بمفردهما في المنزل.

تعلم أن زوجها ليس من نوع صياد النساء الذي يصبر على فريسته «ويسويها على نار هادئة» إنما هو مجرد إنسان يفشل في السيطرة على غرائزه الحيوانية، فمتى وجدت لا يستطيع كبح جماحها، فهي على يقين الآن من أنه لا يداعبها بعلبة شيكولاته، أو يطربها بمعسول الكلام،

ولكنه ربما يطلب منها أن تأتي له بعلبة السجائر الملقاة أسفل مكتبه، أو أن تعد له كوب الشاي، ثم يتوجه إلى المطبخ ليعلمها كيفية صب الشاي. أما يارا فلم تكن نار الحقد تحرق قلبها؛ ربما لأنها تعودت على أفعال زوجها، أو ربما لأنها لم تشعر معه لمرة واحدة أنها زوجته حتى في اللحظات الحميمية التي كانت تتهرب منها.. إن غضبها منه عندما يطارد إحدى الخادمات، لم يكن نابعًا من غيرة زوجة على زوجها، بل أحيانًا يكون بدافع الشفقة على إنسان مريض، وأحيانًا أخرى تكون بدافع الاشمئزاز من قذارة هذا الرجل.

أما الآن فهي ربما تكون ترد له الصاع صاعين، فهي الآن جالسة في كافيه رومانسي، مطل على أحد أشهر شوارع القاهرة في انتظار حبها الأول.

بينما الأفكار تتصارع في رأس يارا، وكمراهقة في انتظار أول لقاء لها مع حبيبها، بدأت السجائر تحترق الواحدة تلو الأخرى.. وفي لحظة ما لمحت على درجات السلم الدائري المؤدي إلى الدور الثاني خطوات طه، يعلو بنفسه، وينكشف الستار تدريجيًا عن ملامح وجهه التي ألفتها، رسمت على وجهها ابتسامة مصطنعة، حاولت أن تخفي خلفها خوفها وتوترها، بينما يدها متوازية مع رأسها تعلو من بين أصابعها دخان سجارتها الأخيرة القابلة للأفول.

زاغت أعين طه متلفتة بين عين يارا والسيجارة الممسكة بها، وخصلات شعرها التي تغطي طرف عينها.

- إنت بقيتي بتشربي سجاير؟!

- آه... ماما هتزعق لك علشان قاعد مع واحدة بتشرب سجاير؟!

- إيه دخل ماما في الموضوع دلوقتي؟

- مش ماما قالت لك ما تتجوزش واحدة من بتوع النت... إلا يعني إيه واحدة من بتوع النت يا طه؟!

سادت لحظة من الصمت، تحركت فيها يارا لتطفئ السيجارة، بينما يدها مثبتة على الجدار الزجاجي الفاصل بين عالم الهدوء الذي تجلس فيه، والضوضاء في طريق النصر الساعة الثانية ظهرًا... إلى أن التفتت يارا إلى طه مرة أخرى...

- ما لك بتبص لي كده ليه؟!

- مفيش أصلك وحشتيني.

- غيرها.. بلاش الكلمة دي والنبي مش عايزة أسمعها.

- ما لك يا يارا إنت متغيرة قوي!

- قرفت.

ساد الصمت مرة أخرى المكان، شاركها طه هذه المرة تأملها ضجيج السيارات والفوضى التي تملأ المكان، كانت الصورة أمامها امرأة بعباءتها السمراء تسير في الشارع، تحمل ابنها ذا العامين، تحاول أن تمر به الطريق

المزدحم بالسيارات التي تسمع طفيفًا بسيطًا من أصوات آلات التنبيه التي لا تفارق يد السائق الضاغط عليها، بينما مجموعة من الشباب يتسكعون على ناصية الشارع، يتلفتون يمينًا ويسارًا يتفحصون كل بنت مارة بملابسها الضيقة المثيرة، تجذب عيون الشباب.. على الناحية الأخرى من الشارع نشبت خناقة، شاهدت حركة الشفايف بسب الدين بين مجموعة من سائقي الميكروباصات، اختلفوا على دورهم في تحميل الزبائن الذين وقفوا يتفرجون، دون أن يتدخل أحد لفض هذا النزاع، لحين انتصار أحدهم، فيتجهوا إلى سيارته وقائدها، بيد أنه قريب من المعلم بلطجي المنطقة الذي يفرض إتاوة على سائقي الميكروباصات التي تقف هنا لتحمّل. صفوف من محلات» تك أواي» ملأت طول الشارع، يقف عندها الشباب والبنات بملابسهم الزاهية بعد انتهاء يوم دراسي بمعهد التعاون المقابل للمحلات، وقرب نظرها جلس رجل بدا من ملامحه وملابسه أنه من الريف، يبيع قفص كيوي، وينادي عليه بصوت مسموع، ربما لم يذقه مرة في حياته.

صوت النادل وهو يقدم إلى يارا وطه قائمة المشروبات أعاد الحياة إلى المكان، بينما رفعت يارا يدها ممتنة وقالت...

- قهوة إسبريسوا من فضلك.

التفت الجارسون إلى طه الذي أعاد تكرار نفس الطلب، وقد ارتسمت ابتسامة على وجه يارا وهي تقول في نفسها حتى مشروبك مش عارف تطلبه!.

- ما لك بتبص لي كده ليه؟!

- اللّبس بتاعِك ضيق قوي.

- لو كنت معاك في شقة لوحدك دلوقتي كان عجبك.

- مش فاهم قصدك؟

- يعني إنت مشكلتك إن حد يشاركك فيَّ، لكن لو كنت بتاعتك لوحدك كنت انبسطت.

- هو عيب إني أخاف عليكِ؟!

- تخاف عليَّ بمناسبة إيه؟ لو كنت بتخاف عليَّ فعلًا كنت رفضت تقابلني وإنت عارف إني متجوزة.

ظهرت علامات الضيق على وجه طه، باتت الكلمات تهرب منه، كما ضاعت أحلام اللقاء الرومانسي الذي بات يمني النفس به.. التزم الصمت، ولكن يبدو أن يارا ما زال في قلبها كلام لم تلسعه به...

- نازل من الكويت إجازة ولا نهائي؟

- نهائي.

- ليه؟

- ماما جابت لي شغل هنا.. محاسب في وزارة الري.

- يا ختي جميلة.. ماما جابت لك شغلانة محاسب في وزارة الري! ومرتبك كام إن شاء الله؟

- لما تبطلي تريقه أبقى أكمل...

- سبحان الله! إنت عارف مشكلتك إيه يا طه؟ إنك خايف.. خايف من كل حاجة.. خايف تحب وترتبط.. خايف تاخد قرار في حياتك.. أسهل حاجة عندك تستنى القرارات تجيلك من مامتك؛ لو فشلت تبقى هي اللي اتحملت المسئولية و إنت تبان بدور الحمل الوديع اللي الناس بتظلمه.. لحد إمتى مش هتعرف تاخد قرار في حياتك.. دا انت حتى مش قادر تاخد قرار إنك تمشي وتسيبني دلوقت.. رغم إنك مش طايق كلامي.. ولبسي مش عاجبك.. وكمان بشرب سجاير وقاعد مكسوف مني.

- إنت شايفه كده.

- طبعًا... إنت حتى مش قادر تاخد قرار في مشروبك اللي هتشربه.. ريحت دماغك وطلبت زيي مع إني عارفة إنك مش بتحب القهوة.

تنهدت يارا ثم أخذت سيجارة من علبة سجائر فتحتها لأول مرة، بعد أن كورت القديمة وألقتها في سلة المهملات المجاورة لها، واستكملت كلامها وهي تشعلها والابتسامة على شفتيها..

- وكمان قاعد مع واحدة بتشرب سجاير.

- مشكلتي إني حبيتك.

- سيبك من الكلمة دي.. لو حبتني بجد كنت اتحديت العالم علشاني.. الحب بيقوي يا طه.. إنت بس مليت حياتك الفارغة شوية.

توقفت عن الحوار للحظات، ريثما يضع الجرسون القهوة ويهم عائدًا، ليبدأ طه طرف الحديث مرة أخرى.

- إنتِ عارفة أنا حبيتك واتعذبت قد إيه.

- عملت إيه للحب ده؟

- كنت ممكن أقف قدام الدنيا كلها بس كنت خايف منك، كنت حاسس إننا مش هنبقى مبسوطين مع بعض.

- شوفت قولت خايف تاني.

ارتشفت يارا رشفتين من فنجان القهوة، أتبعتهما بنفس من سيجارتها وهي تعاود الحديث، بينما نظرها معلق في سقف المحل، وابتسامة السخرية تظهر سؤالها..

- ممكن سؤال يا طه؟

- اتفضلي.

- لما تتجوز إنت اللي هتدخل على مراتك ولا أمك؟

- إنت قليلة الأدب.

- آه أنا نسيت إنك مؤدب و إني بنت صايعة من النت نازل تقضي معاها ساعتين جمال وخلاص.

- إنت كنت عايزة تقابليني علشان تسمعيني الكلام ده.

- والله ما أنا عارفة كنت عايزة أقابلك ليه على العموم يلا فرصة سعيدة إني قابلتك .

- يارا... أنا بحبك.

التفتت يارا إليه، وعلى غفلة باغتته بعد أن همت أن تعطي له ظهرها مغادرة المكان، وضعت كلتا يديها على المائدة وثبتت نظرها في عينيه الذي تحاشى النظر إليها، وقالت له...

- وأنا متجوزة وهطّلق مستعد تتجوزني.

- نعم؟

- لو قلت أيوا أوعدك إني أكون لك طول العمر.

- الموضوع مش بالسهولة دي.

- ماما هترفض.

- هو أنا مبقاش راجل غير لما أعصي أوامر أهلي كده أبقى راجل لما أروح أضرب أمي كلمتين وأقولها إنت اطلعي برا علشان هجيب واحدة بكرة، هنا كده أبقى راجل.. الراجل يبقى قليل الأدب وما يسمعش كلام أهله اللي يبقى سافل وواطي صح! دا الرجل في نظركوا.

- لا، الراجل اللي يبقى قد كلمته ويحافظ على حبه.. كفاية كده يا طه أنا عايزة أروح.

- هتطمنيني عليكِ لما تروحي.

- هبعت لك رسالة أول ما أوصل.

□□□

بعد أن سار طه في شوارع القاهرة بعض الوقت، يحاول أن يتنسم بعض الهواء؛ ليبرد من حرارة كلمات يارا له، وبمجرد عودته إلى البيت وجد أمه تجلس على الأريكة المقابلة لباب المنزل، تنظر في ساعتها وهي تعنفه على التأخير، وعلى غير العادة انطلق البركان الذي كان يخمده في نفسه من سنوات.. عاتبها أو عنفها إذا جاز التعبير على معاملته كطفل.. هو كبير بما فيه الكفاية.. أصدقاؤه متزوجون وأصحاب بيوت، وما زالت أمه تعاقبه عن عودته متأخرًا.. نظرت إليه ولم تقوَ على الكلام.. شعرت بحجم ما يعتريه من غضب، أما هو فتوجه مباشرة إلى جهاز الحاسب الآلي ليرى الرسالة من يارا التي جاءت أسرع مما توقع، وكانت صادمة بالنسبة له.

BLOCK

□□□

(٤٧) محـمـــود

نرجع تاني لسمر...

عادت مرة أخرى، لم أستطع أن أخفي فرحتي بها هذه المرة أيضًا، حاولت أن أحافظ على اتزان كلماتي مع بنت في يدها دبلة خطوبة شخص، استرقت الحديث معها على فترات متباعدة، أستشف طبيعة علاقتها مع خطيبها الذي اتضح للحظة الأولى أنه لم يملأ الفراغ التي كانت تعانيه سمر.

حاولت كثيرًا أن أكون حمامة السلام بينهما، ألتمس له العذر، وأقدم له المبررات مع تجاهله لها وعدم اهتمامه بها، أحاول أن أرسم لها مجال الحياة الزوجية والأسرة والبيت والأولاد، ولكن وعلى الرغم من أنها لم تصرح لي في هذا الشأن من قبل، فإنها كانت تعاني أزمة أسرية في بيتها، ألقت بظلالها على علاقتها مع خطيبها، وكانت ترى في الاستمرار معه انعكاسًا لحياة أمها مع أبيها، وفشلًا أسريًا عاشت فيه عمرها كله.

لم تنجح محاولاتي معها عبر النت، ولا المكالمات الهاتفية التي عاودتها مرة أخرى، في رأب الصدع بينها وبين خطيبها الذي من الواضح أنه هو

لم يحاول أن يقترب منها، بل اكتفى بدور الخطيب التقليدي.. زيارات عائلية.. مكالمات روتينية.. كلمة حب تخرج باردة خالية من الإحساس، فلم تصلها ولم تروِ ظمأ بنت جالست - بالساعات عبر شبكة الإنترنت - مَن يطرب أذنها بمعسول الكلام، وبات فارسًا منهزمًا غير قادر على سد فراغ هؤلاء الشباب.

سألتها والخوف يكسو حروف كلماتي عبر محادثتي الأخيرة معها على النت، هل ما زالت تتحدث مع حبها الأول؟! صمتت لحظة، أجابت بعلامة استفهام...

- إنت عايز إيه يا محمود؟

سؤال.. ولكن كان يحوي الإجابة التي لم تقوَ عليها، اشتعلت نار في قلبي ورأسي لا أعرف لها سببًا، لا أتخيل أن تكون بنت مخطوبة وفي يدها دبلة خطيبها، وهي على علاقة بحبها الأول، حبيبها الذي لم يعطها إلا لحظات من اللذة العابرة عبر شبكة التواصل الاجتماعي، ويتركها غارقة في بحر الرذيلة وتأنيب الضمير، بينما هو يقبع هانئًا في نوم عميق، مبررًا شهوته الحيوانية بـ «ما كلهم كده».

بت أسأل دومًا عن صيغة حوارها معه، وتكتفي بالرد الأجوف الذي بات بالنسبة لي يحمل كل مخاوف قلبي، والذي بمجرد أن أسمعه أتخيل أسوأ السيناريوهات في ذهني مباشرة.

- عادي يعني يا محمود.

امتلأت بنار الحقد.. الغيرة.. الخوف، لا أستطيع أن أصفها الآن في قلبي، امتلأت وبت أقذف في وجهها كلمات السباب والشتائم في صبر عجيب منها، أخبرتها الحقيقة التي لا تعرفها، أو تعرفها وترضاها لنفسها، أن هذا الحبيب المدعى على النت ينظر إليها كمومس يقضي معها وقتًا جميلًا على النت فقط، بينما يستمتع بالحديث عنها مع أصدقاء المقهى يوم الخميس، وهو ينفث أنفاس دخان الشيشة، يخبرهم بأنه مع فتاة يقضي معها كل ما يحلو له من أفعال دون أي مسئولية عليه.

«مخطوبة يعني لا هتقولي حب ولا جواز»

بت أشعر بخطيبها، ما الذنب الذي اقترفه في حياته كي يلقي به في حب هذه الفتاة، هل سيقبل ذلك لو علم به، كيف سيكون تصرفي معها لو كنتُ مكانه؟! ربما لا أقبل إلا قتلها. أم هو الآخر يشاطر قلبه مع حبيبة لم يستطع أن يصل إليها؟! تبًّا له من مجتمع وتبًّا لها من حياة، تماديت في السباب والتوبيخ، كنت أتعجب من تقبلها لكلامي ببرود أعصاب، وكأني ألطمها على خدها بكل كلمة دون أن تحرك ساكنًا، باتت إنسانة عديمة الإحساس والشعور.

لم أكتفِ بكلمة «عادي يا محمود» التي كانت تداري خلفها تخوفها، فتكون السلوى لي أحيانًا من مواجهة واقعها المقرف، بت أسأل عن عدد الشباب التي تحدثهم، بت أسأل عن طبيعة علاقتها بهم، كانت الإجابات تنزل على أذني كأنها كرباج نار يلسع جلدي، يبدو أنها على علاقة بأكثر

من شاب عبر الإنترنت، سألت هل تتحدثين معهم حتى الآن؟ أخبرتني أنها قطعت علاقتها بهم منذ الخطوبة، بالطبع لم أصدقها.

واصلت الأسئلة.. عن طبيعة الحوارات بينها وبين الشباب.. هل كانت تتعلق بحوارات إباحية؟ استمرت الإجابات الصادمة التي كانت تمزق قلبي، فعلت ذلك مع اثنين أو ثلاثة لا تعلم؟!

كان هذا اليوم غريبًا.. حدثتني فيه كما لم تحدثني من قبل.. تكلمت بمصطلحات نابية لم أسمعها منها حتى في قمة ذروتنا الحسية.. اعترفت لي بما لا يدع مجالًا للشك أنها كانت تهوى تلك المحادثات النابية، وما يتخللها من وصف لمشاعر جنسية وإباحية، صدمتني جرأتها عندما قالت لي ما نصه...

- «لما بحب أعمل كدة بعمل مع أي شاب من النت علشان ماعملش مع اللي بحبه ويقول عليا بنت مش محترمة».

نزلت كلماتها على مسامعي كلهب نار يكوي قلبي، بت تمسكني الرعشة وأنا أتحدث إليها، حتى أصابعي ما عادت قادرة على الكتابة على لوحة مفاتيح الحاسب، عدت لأتساءل وكأنني أتلذذ من العذاب الذي يمزق قلبي قبل أذني، وعيني التي تقرأ: هل ما زلت مستمرة معهم؟! أخبرتني أنها قطعت كل علاقتها بهم.

- المفروض إني أصدق؟!

تماديت في السباب والشتيمة لها، كانت ترد عليّ بكل برود.

- اعمل لي بلوك يا محمود.

انتهيت من السباب، وانتابني حالة غضب منها ومني على تصرفاتي التي باتت خارج سيطرتي، وخارج إطار المنطق والعقل.. هل أترك هذه الفتاة بماضيها الملوث القاسي وأعيش حياتي، أم أقف بجوارها حتى تعبر هذه المحنة وتستقر في بيت زوجها؟ بت أدعو الله والدموع تنهمر من عيني أن يرحمني من هذه الحياة الخادعة، فما أقوى أن أكون في موقف خطيبها، وهي تتلذذ بخداعه وخيانته ليلًا مع غيره، كيف أعطي ثقتي لفتاة وأسلمها اسمي وشرفي وسمعتي؟! بت أرسم في خيالي مواقف خُدِعَ بها هذا الشاب المسكين من هذه الفتاة اللعوب، أنهيت معها الحوار بأني لا أريد أن أعرفها مرة أخرى، توسلت إليّ ألا أتركها في هذه الفترة، ولكنني رفضت، رفضت أن أكمل مثلث الخيانة (العشيق، والخطيب المخدوع، وأنا الثالث الصديق الذي يلعب دور الضمير) رفضت أن تكون حياتي جزءًا من حكايات الغدر والغش والخيانة، ما عدت أقوى على الاستماع إلى قصص الألم والحزن، كلمات كجمرات نار تقتل الحلم الجميل في قلبي، فقدت الثقة في كل البنات، دعيت الله أن يريحني من هذه الحياة، بت الليالي والدموع في عيني لا أرى لها سببًا، وصورة الشاب المخدوع الذي يعمل ليل نهار محاولًا أن يوفر لها شقة تفتخر بها أمام صديقاتها، بينما هي تمارس الرذيلة مع الشباب عبر الإنترنت.

على الرغم من القرار السابق بانقطاع علاقتي بها، فإنني كنت بين الفترة والأخرى أرسل لها رسائل لأطمئن عليها، وكأني أتحسس فيها الإنسان الذي ربما يستيقظ من بحر الخداع، حتى عادت المحادثات يوميًا، شجعتها فيها على ترك خطيبها بدلًا من خيانته مع آخر، وقد كان.

استمرت علاقتي معها على هذا المنوال عدة أشهر، أعلم أنها تتحدث مع شباب غيري على النت، وإن كنت أحاول بين فترة وأخرى أن أرتدي زي الواعظ وأنصحها بعدم الحديث معهم، فيما تعتلي شفتي ابتسامة السخرية...

- يا بني ما هي لو ما بتصحبش صبيان مش هتصحبك، لكن طالما مصحباك فأكيد مصاحبة غيرك.

□□□

كوستا - مكرم عبيد..

لا يعلم المؤلف لماذا أصر هذه المرة على لقاء حبيبته في هذا المكان الفاخر، فهو يعلم أن فاتورة الحساب ستقضي على ما تبقى معه من نقود حتى آخر الشهر، إلا أن الإجازة التي حصل عليها في محاولة منه لإتمام روايته والتفرغ لها، ربما تكون طوق النجاة له من هذه الأزمة، فميزة الإجازة في البيت قلة المصاريف فقط.

على الرغم من أنه ربما كان يريد أن يختار مكانًا رومانسيًّا جميلًا يجلس فيه مع حبيبته التي أصابت علاقتهما في الفترة الأخيرة حالة فتور، لأسباب مختلفة.. بعضها مادي.. وبعضها نفسي، فإن رغبته في أن يعيش نفس تجربة يارا، وهي تقف خلف الزجاج العازل من الدور الثاني للمحل الفاخر تتابع حركة المارة في شارع مكرم عبيد في قلب مدينة نصر، والتي تعبر من وجهة نظره عن حركة المجتمع المصري الآن الذاهب إلى الهاوية والضياع.

مجتمع أصبح مثل لوحة فنان فاشل استخدم في رسمها كل أنواع الزيوت والألوان غير المتناسقة، وهو يقف أمامها يزهو بنفسه جراء هذا العك الفني، متخيلًا ذلك نوعًا من أنواع الجمال والخصوصية التي تميز أعماله الفنية عن أعمال باقي الفنانين، كذلك أصبح المجتمع يحاول أن يقدم كل ما هو قبيح تحت مسمى «خصوصية المجتمع المصري».. فن هابط.. انحلال أخلاقي.. تحرش جنسي.. تطرف ديني.. خيانة زوجية.. غش.. خصوصية حصرية.. وفي النهاية يظهر واحد من حسالة القوم على شاشات الفضائيات ليقول لنا...

- إحنا مجتمع متدين بطبعه.

كسرت «بيداء» حاجز خياله لتهل عليه من بعيد كأميرة أوروبية آتية إلى حفلة راقصة في قصر أحد أمراء اليونان، بضحكة وجهها الصبوح التي تنضم معهما عينيها الساحرتين لترسم الابتسامة في قلبه، قبل أن تظهر على ملامح وجهه.

في كل مرة السلام باليد يكون كأنه أول سلام، نفس إحساس اللمسة الأولى... حتى الحياء الذي ما زال يغلف حديثهما رغم اقتراب علاقتهما من سنة تقريبًا، ورغم الجرأة غير العادية التي تصل إلى حد الوقاحة التي يتمتع بها المؤلف مع كل المحيطين به، إلا هي ما زال يجلس معها كأنه طفل صغير مربع اليدين في أول أيام دراسته بالمدرسة.

- إشمعنى يعني هنا... وبعدين إحنا مش قولنا نوفر شوية إنت مش ناوي تبطل تبذير.

- يا ستي... مرة نقعد في مكان كويس.

- وحشتني.

غرق المؤلف في سيل من خيالاته التي لا تنتهي، وهو يحاول أن يتوقع سبب اللقاء الذي أصرت عليه حبيبة العمر، عنده إحساس يقيني أنه مقصر مع هذه الفتاة، لم يقدم لها منذ بداية علاقتهما أي شيء ملموس سوى إحساس حب صادق، ربما ما عاد يكفي في هذا الزمن، لتتواكب مع متطلباته، جاء في خاطره للحظة أن كلمة «وحشتني» هي بداية الخلاف الذي سيصير بينهما الآن، ربما يكون هذا هو الخلاف الأخير الذي تنتهي بسببه العلاقة.. إصرارها على اللقاء يؤكد أن أمرًا مهمًّا قد جد، بالطبع عريس يريد أن يتقدم لها، عنده الشقة جاهزة، والسيارة آخر موديل، ربما يكون دكتورًا عنده عيادة، أو رئيس قسم في المستشفى، لا يهم، الأكيد أنها فرصة العمر بالنسبة لها، كلمات الإشادة بالعريس الجديد تحمل في طياتها اتهامات الفشل للعاشق الولهان، كل كلمة تقولها عنه تصل له معكوسة في الكلام «إنت فاشل».

ككقصة حب كلاسيكية.. بداية بنظرة ثم ضحكة ثم لمسة.. بات الليالي يحلم بها أن تشاركه ليل حياته الطويل، وهو ينعم بنظرتها الرقيقة، بات يحلم بأول إهداء لروايته لها، وهو يلخص فيها قصة حبهما، وها هو يقف ليشاهد مشهد النهاية الكلاسيكي.. عريس «ما يتفوتش» يأتي لكي يخطف عروسة من حبيبها الفاشل، لتكون هذه هي نقطة البداية له،

ويجتهد ويتعب ويصمم أنه يندمها على تركها له، ليصل إلى قمة النجاح، حتى يصبح بعد بضع سنين هو العريس الذي لا يعوض، ليخطف هو حبيبة غيره من حبيبها، ويعيش جميعهم في تعاسة، هو يفكر في حبيبته الأولى.. وهي تفكر في حبيبها الأول.

- سرحت في إيه؟

أيًا كان الوضع فلن يسمح أن تكون النهاية كنهاية طه ويارا، سيكون هو الأقوى، لن يسمح أن تأتي حبيبة العمر تلعب معه دور المحلل النفسي، فتظهر له لحظات ضعفه وشخصيته الدميمة، وترسم دور من أرسلتها العناية الإلهية من أجل إصلاح شخصيته، سيكون هو الأقوى، تبًا للقلب إذا هان صاحبه.

- خير كنت عايزة إيه؟

- في موضوع كنت عايزة أفاتحك فيه.

- عريس؟

- نعم؟

- أكيد عريس عنده شقة وعربية وفيلا في المريوطية تعرفيه من إمتى؟ يعني كنتِ لما مش بتردي عليَّ بتفكري في الموضوع، ولا يمكن يكون معاكِ على «الويتنج» وماينفعش تقفلي في وش البيه وتردي عليا.

- إنت إتجننت إزاي تتكلم معايا بالشكل ده إنت إنسان مجنون.. إنت بترسم القصة في دماغك وتيجيى تحاسبني عليها؟! روح.. إتعالج يا أخي

بقى أنا زهقت ومش قادرة أستحملك ..إنت والله مجنون إتعالج يا وليد حرام عليك.

قامت من على الكرسي تمسك حقيبة يدها التي كانت وضعتها على المائدة أمامها، تهم أن تغادر المكان قبل أن يمسك يدها بقوة و يضغط عليها، وهي تنظر إليه نظرة غضب التقت بنظرة أسف في عينيه...

- إقعدي علشان خاطري بلاش نفرج علينا الناس.

رمت حقيبة يدها بكل قوة على المائدة مرة أخرى، وهي تحافظ على نفس نظرة الغضب في عينيها.

- إنت رجعت تكتب الرواية دي تاني؟

أشاح وجهه بعيدًا عنها يتأمل المارة في الشارع، محاولًا الهروب من السؤال، أو بمعنى أدق يجاوب عليه بصمت...

- الرواية دي هتقتلك على فكرة.. طالما مش قادر تفصل نفسك عن أحداثها سيبها، الرواية دي بجد هتدمر حياتك، إنت مش شايف نفسك بقيت عامل إزاي؟! لبسك.. شعرك.. دقنك.. حتى نظرة عينك.. مش ده الإنسان اللي أنا حبيته.. أنا حاسة إن اللي قدامي محمود.. وفي مشهد النهاية إنت اللي هتنتحر مش هو.

- اصبري عليَّ، أنا خلاص قربت أخلصها.. وخدت إجازة من الشغل شهرين بدون مرتب.. هقعد في البيت مش هخرج لحد ما أخلصها.. وأرسلها للمراجعة والتصحيح اللغوي.. ومش عايز أشوفها تاني.

- لما إنت كارهها قوي كده أومال بتكتبها ليه؟!

- كارها لأنها بتعرينا كلنا... أنا نفسي أكتب حاجة أعبر بيها عن معاناتنا.. مأساة الجيل كله بيفكر إزاي؟ بيحب إزاي؟ بيخاف من إيه؟ بيحلم إزاي؟ لو طلعتْ زي منا عايز بجد هحس إني قدمت حاجة في حياتي علشان خاطري استحمليني خليكِ واقفة معايا.

- أنا معاك والله وعمري ما هتخلى عنك وكنت جاية النهاردة علشان كده.

- صحيح كنت جاية ليه؟

- خوفت أقول لك في التليفون تعملي فيها شهيد الحب والكبرياء يقتلك.. الشركة عند ماما طالبة محاسبين والمرتبات كويسة وماما هي اللي قالت لي كمان.

- هي اللي قالت لك إيه؟

- قالت لي قولي للأفندي بتاعك على الوظيفة.

حاول أن يبتسم حتى لا يعيد جو المشاحنات مرة أخرى، وإن كانت أثرت فيه كلمة «الأفندي» هذه، ارتسمت على وجهه ابتسامة وهو يقول لها..

- وأنا موافق مع إنك عارفة مبدئي إني مابحبش واسطة من أهل مراتي.. علشان مابحبش حد يقولي إحنا اللي عملناك كنت جيلنا مش لاقي تاكل وخلينا ليك قيمة.

- سيبك من الروايات اللي إنت عايش فيها دي.. روح قابل ماما بكرة وهي مستنياك.

- إن شاء الله... وحشتيني أوي.

- و إنت كمان.

ارتسمت ابتسامة الحياء على وجهها، وهو يمد يده يمسك بيدها، والابتسامة تعلو شفتيه وهي تتابعها متسائلة...

- بتضحك على إيه؟!

- في مشهد في الرواية البطل فيها بيقبل بالشغل اللي مش عاجبه علشان يوفر لحبيبته.....

- الرواية تاني إنت بجد مفيش فايدة فيك.. سيبني بقى خلاص أنا مش قادرة أستحمل.. إنت إنسان مجنون بجد إنت إنسان مجنون.

□□□

(٤٩) محمود

بينما أقف على كوبري الجامعة المتعامد على نهر النيل، أستمتع بما جادت به نسمات الهواء الجميل التي ترسم على وجه الماء موجات خفيفة، تسطرها جداول تلمح وجه السماء منعكسًا فيها، فترفع نظرك إلى السماء كأنك ترى البحر في الأعلى، وتنزل بنظرك إلى الأرض ترى صفات نهر النيل كأنها السماء تسير أسفل منك في لوحة منسجمة مع الكون، في ليل يغلف سماء القاهرة التي أبت أن ترضخ لسكونه بضوضاء آلات تنبيه سياراتها العالي، ولعب الأولاد مع آبائهم، أو مغازلة الشباب لبنت تسير بمفردها، بينما يرفرف علم إسرائيل على ضاف النيل، معلنًا انتصار كامب ديفيد الذي نقل علم إسرائيل من الضفة الشرقية لقناة السويس إلى الضفة الغربية لنهر النيل!

وقفت أتابع حركة مياه النيل تسير بهدوء، لا تزعجها إلا مجموعة البواخر الفاخرة التي تمر عليه بمن يعتليها من الأغنياء، مغلقة على من بداخلها، لا تسمع لهم صوتًا، هم في عالمهم، بينما تسير بجوارهم مركب صيد فقيرة استخدمها أصحابها في التنزه لبعض راغبي الرحلات النيلية، موضوع

به جهاز DJ عالي الصوت، يصدر ضوضاء عالية، عندما كان يمر أسفل الكوبري بأغنية لفنان شعبي لا أعرف اسمه، ولم أحاول أن أجهد نفسي يومًا أن أعرف اسمه، رغم أني أحتفظ ببعض كلمات أغانيه التي كثيرًا ما أسمعها في الميكروباصات، أو عند محلات عصير القصب، أو كهذه اللحظة التي كنت أطمع أن أنعم بلحظة هدوء على ضفاف النيل الذي اغتصبته أصوات المراكب الراقصة، حتى أرصفة الكوبري التي احتلتها كراسٍ بلاستيكية، وضعها الباعة الجائلون على رصيف الكوبري أنهت متعة السير عليه.

حينها فقت من غفوتي على يد تربت على كتفي..

- «ما لك يا محمود؟

نظرت خلفي وجدت نادرًا يقف أمامي.. لم يكن ذلك نادرًا الذي أعرفه، بل كانت هيئته تبدي عليه الحزن، ابتسامته الخجولة الجميلة كساها الألم.. لحيته المحمرة الجاذبة أصبحت أطول وباتت رثة.. ملامح جسده الرياضي الذي يظهر من ملابسه الضيقة باتت مترهلة..

- مفيش «الحمد لله» إنت مختفي ليه بقالك فترة؟! كلنا قلقانين عليك.

- أنا كمان مفيش.

وقف بجواري نادر يتابع سير نهر النيل، يسند ظهره إلى أحد أعمدة الإنارة المنتشرة على الكوبري، مرسومًا عليها قلب يتخلله سهم أوله حرف A وآخره حرف M لم أجهد نفسي في محاولة استنتاج اسم الحبيبين

العائدين ذات مساء من الجامعة، واستوقفهما النيل، وهو يتأمل في عينيها نظرة الأمل، ويرتشف من لمسة يدها نشوة الحياة، يدونا على أعمدته ذاكرة حب جميلة.

- سرحان في إيه يا نادر؟! الميّه عجباك؟

- تسمع عن الصيرورة؟!

- لا.

- هرقليطس فليسوف يوناني قديم، فلسفته قائمة على أساس أن الماء أصل كل شيء في العالم.. العالم صادر من الماء وراجع إلى الماء، وأن كل الأشياء هي استحالات الماء.. قصد طاليس بكلمة الماء ليس المفهوم الطبيعي الذي تفهمه اليوم، إن الطبيعة عند طاليس لها نظرة أعم وأشمل، لها معنى ميتافيزيقي يجب تميزه عن المعنى الفيزيائي الساذج. فالتغير والتحول هو سمة كل شيء في الكون، ولكن النهر الذي تنزلون فيه للمرة الثانية ليس هو نفسه النهر الذي نزلتم فيه أول مرة؛ الكون في حالة حركة مستمرة، وحالة صيرورة مستمرة.

- مش فاهم عايز تقول إيه.

- اليونان قبلنا عرفوا إن الدنيا ما بتقفش على حد يا محمود، فهمت دلوقت.

كانت عبارة نادر أوضح من أن تفسر، يريد أن يفتح معي موضوع منال، وما حدث في الصيدلية اليوم - ولا أعلم متى عرف به، ولا كيف؟ وهو

متغيب عنها منذ بضعة أيام - فأشحت بنظري عنه بعيدًا أتابع حركة المياه المستمرة والسيران بلا انقطاع.. من أين؟! وإلى أين؟! وأنا أتذكر مصطلح الصيرورة، ربما أثار في نفسي بعض السخرية.

لم يقطع حاجز صمتنا إلا سيارات آتية من بعيد، تعبر الجسر على النيل في زفة عروس نزلت مع عريسها تلتقط بعض الصور على الكوبري مع بعض الأهل والأصدقاء، وقفت أنا ونادر نتابع حركة العروسين، والبسمة تغلف حياتهما، وفرحة الأهل والأصدقاء بملابسهم الزاهية، وضحكات المرح من الأولاد والصغار الذين يخاف الأهل عليهم من الضياع، وتمسك كل أم ابنها في يدها.

لحظات مرت قبل أن يعود الهدوء مرة أخرى إلى المكان، خصوصًا مع اقتراب الساعة من الحادية عشرة مساءً، وقلتْ حركة السيارات والمارين، ويعاود نادر معي الحوار مرة أخرى:

- العاقل بين مجموعة مجانين بيكون هو المجنون.

- بس أنا تعبت، خلاص ما بقتش عارف حاجة في الدنيا دي، أنا الصح ولا الغلط.. كل واحد شايف نفسه صح وماحدش راضي يعترف بغلطه.. كله بيغلط وبيقدم لنفسه المبرر الأخلاقي للغلط.. فين الصح وفين الغلط.. اختلطت الأمور وضاعت القيم، «ليس العجب ممن هلك كيف هلك، ولكن العجب كل العجب ممن نجا كيف نجا».

- إنت مشكلتك يا محمود عدم اتساق الفكرة مع التطبيق.. اتساق الفكرة

مع التطبيق درب من دروب السعادة، إنك تبقي مؤمن بحاجة وهي دي أسلوب حياتك بغض النظر عن مدى تقييمنا للفكرة من حيث الصواب أو الخطأ، والعكس صحيح.. عدم اتفاق الفكرة مع التطبيق درب من دروب الجحيم.

- مش فاهم!

- يعني لو إنت شايف الصداقة بين الولد والبنت عادية ومشروعة.. لما تصاحب بنت وتخرج معاها مش هترجع تضايق، لكن لو إنت شايف إن الصداقة بين الولد والبنت حرام، لما تخرج معاها وترجع هتبقى مخنوق رغم إن إنتو الاتنين عملتو نفس الفعل.

- بس الذنب يكتب عليك متى وقعت فيه وليس متى اعترفت به يا نادر.

- الخطأ صفة بشرية يا محمود!

- علشان كده عندما يخطئ المتدين أو الملتحي ورجل الدين - أو حتى المتحدث بالدين أيًا كان المسمى- تقوم القيامة عليه ويقولك دا «منافق» «تاجر دين» «أدي بتوع قال الله وقال الرسول» «أدي اللي مربين دقنهم» ولما يغلط واحد بيجاهر الله بالمعاصي، ولا يعترف بأوامر الله، ولا يؤمن أن الحجاب فرض، ولا الاحتشام في الملبس والخضوع في القول، لما يعلن صراحة رفضه لأمر الله يبقى اسمه اتساق الفعل مع القول.. ليه ما بتقولش الخطأ صفة بشرية لما الشيخ بيغلط؟! ليه مستني لما واحد مربي دقنه يغلط علشان تمسكها حجة عليه طول عمرك، وتقعد تقول أنا

أعرف واحد بدقن عمل وعمل وعمل؟!.. حاول إنت إنك تنسق كلامك الأول.

ساد الصمت بضع لحظات اكتفينا فيها بالنظر إلى صفحات النيل المتموجة، فيما سرحت أنا في مصطلح الصيرورة مرة أخرى، وكأن نادرًا كان يفكر في شيء ما .

- هو مثلث له ثلاثة أضلاع.. « الفكرة» - «التطبيق» - «الشخص» الذي يؤمن بالفكرة ويطبقها، أي خلل في ضلع من الضلعين الباقيين لازم يحصل فيهما خلل، أحيانًا يكون الخلل في الفكرة، ويكون العقاب في الآخرة، وأحيانًا يكون الخلل في التطبيق، ويكون العقاب في الآخرة أيضًا، ولكن مع الأخذ في الاعتبار أن إيمانك بالفكرة يمكن أن ينجيك، هذا مبدأ كل الأديان.. فالمسيحيون يرون أنه يكفي أن تكون مسيحيًا لتدخل الجنة، واليهودية ترى أنهم شعب الله المختار؛ لأنك ولدت لأم يهودية فقط.. وفي الإسلام من قال لا إله إلا الله خالصة من قلبه ومات دخل الجنة، الضلع الثالث لما يبقى الخلل في الشخص.. دا بقى شقاء في الدنيا وجحيم في الآخرة.

- نرجع تاني نقول ليس العجب كل من هلك كيف هلك، ولكن العجب كل العجب ممن نجا كيف نجا ...

□□□

(٥٠) محمود

بعد حواري مع نادر على كوبري الجامعة في ساعة متأخرة من الليل، عدت وفي ذهني فكرة التطرف الديني وأسبابه والنتائج المترتبة عليه، حاولت أن أستجمع بعض شتات أمري في هذا الشأن، وجاءت في خاطري فكرة عمل بحث كبير أحاول أن أتتبع فيه نشأة الأصولية في الأديان السماوية الثلاثة، وتأثيرها على عقلية معتنقيها، ودورها في نشأة الإرهاب الديني، والفرق بينها وبين الإرهاب القائم على أساس العرق أو النوع.

التشدد الديني ينشأ نتيجة لعوامل كثيرة، منها النشأة المحافظة التي ترى أن الأصل في الأشياء الحرام، وما عداها هو الحلال، وقد ينشأ نتيجة لصدمة نفسية يمر بها الإنسان في حياته، تجعله يفقد إيمانه بيسر الدين وتسامحه، إلى جانب ذلك قصور الفهم وضعف البصيرة عند كثير من علماء الدين، وأصبح الدين معلوماتية متلقية بعيدًا عن أي إعمال للعقل.

موضوع البحث أثار فضولي، قررت أن أذهب بعد انقطاع إلى سور الكتب القديمة؛ لعلي أجد ضالتي في حوار مع الشيخ «أبو حمزة المصري»

الذي ما شككت في لحظة أنه أحد أقطاب الفكر المتشدد، ربما يكون الفكر التكفيري في مصر.

كان الشيخ أبو حمزة المصري يجلس بملابسه المميزة التي تشعرك بأصوله الليبية، كان قد أفصح عنها ذات مرة أمامي صدفة.. عندما دخلت عليه أقطع خلوته وهو يقرأ في كتاب «الأغاني ..لأبي الفرج الأصفهاني» عندما التقت عينه بنظرة الإعجاب في عيني، وأنا أهم بالجلوس على الكرسي الفارغ المجاور له الذي كانت آثار استضافة شخص ما بادية على الجلسة من صينية الشاي الموضوع عليها أكواب شاي فارغة، مع فنجان قهوة، ينبئ أن الجلسة كان بها أربعة، والتي لم يأتِ مكرم لحملها، بينما يمد أبو حمزة المصري يده ليصافح يدي وهو يجيب على استفهام نظرة عيني..

- تعرف إني كنت بكتب شعر زمان؟!

- هو الشعر حرام؟؟

- هو أنا لما أبطل حاجة معناها إنها لازم تكون حرام!

- أومال ليه بطلت؟

- الدنيا يا محمود.. مين في الدنيا دي دلوقت فيه دماغ يكتب شعر؟!

صمت للحظات.. سرح فيها الخيال في شيء أجهله، قبل أن يستكمل حديثه وابتسامة سخرية على شفتيه..

- تعرف إني كمان كنت عازف جيتار وبيانو؟

- لا.. لا.. وسعت منك دي شوية يا شيخ.

- لا والله، أنا كنت البيانست بتاع فرقه الكلية.. وأنا أول واحد اشتغل على جيتار كهربائي في الكلية، قبل عمر خورشيد حتى.

- صحيح إنت كنت جامعة إيه وكلية إيه؟!

- طب.. طب القصر العيني.

- معقولة وسيبت الكلية ليه ما كملتش؟!

- ومين قال لك إني سيبتها.. أنا خلصت.. واتعينت معيد في الكلية كمان.

- كمان!!.. وليه سيبت كل دا؟!.. وليه راضي لنفسك تعيش هنا؟!

- الرسالة.. رسالة يا محمود.. آمنت بيها ومستعد أفني حياتي من أجلها، لما الهدف تلاقيه في حياتك يبقي كل مفاتن الدنيا دي ومظاهرها ملهاش قيمة.. بكرة تفهم كلامي.

مر بعض الوقت في صمت، بينما كنا نتبادل نظرات مع المارة أمام أكشاك بيع الكتب القديمة.. تتبادل أيديهم أغلفة الكتب المرصوصة على موائد خشبية أمام الأكشاك، بينما بعضهم يدخل في فصال مع بائع، يتبادل معه الحوار وهو على يقين أنه لن يشتري، ولكن بهدف كسر حالة الملل في ساعة الظهر، وأشعة شمسها الحارقة، قبل أن يعاود أبو حمزة المصري حديثه معي مرة أخرى.

- إنت بتفكرني بشبابي يا محمود.

- أنا؟!

- كنت زيك كده، عايز أمسك الدنيا بإيديا، عايز أبقي كل حاجة، كانت مفاتن الدنيا وخدانا لحد ما لقيت الطريقة.. ساعتها بس مش هتحس بمتعة غير وإنت بتفني عمرك من أجله، لحظة تحقيق الحلم.

لم يمضِ كثير من الوقت يسمح لي بتأمل كلمات «أبو حمزة المصري» التي تجعل مني رأفت الهجان القادم، لم يترك لي من الخيال ما أسرح فيه، وأستمتع بزهو هذه اللحظة قبل أن يفاجئني بطلبه..

- إنت محتاج تغير جو.. ما تيجي تتغدى معايا في البيت.

□□□

رغم أنني من أهل السيدة زينب أبًا عن جد، قضيت كل حياتي فيها، طفلًا ألعب في حواريها.. شابًّا يجلس على مقاهيها تداعب عيناه مفاتن بناتها في الطرقات، دخلت بيوتها مع الدروس الخصوصية، لفيت شوارعها بحثًا عن فرن عيش بلدي فاتح أول يوم العيد، اختبئت في أزقتها من أصدقاء المدرسة حين العودة، بالرغم من كل ذلك، فإنني سرت مع «أبو حمزة المصري» في طريقه للبيت في دروب لم آلفها من قبل، وعلى الرغم من تكرار أسئلتي له طول الطريق عن هذه الدروب التي سلكلها.. لماذا لا نأخذ شارع مجرى العيون الرئيسي المؤدي مباشرة إلى السيدة نفيسة الذي كنت أعلم أنه يقصدها، وبالرغم من إجاباته الملتوية التي لم أفهم منها شيئًا، إلا بعض الغموض، فقد أثرى معالم الرحلة بحلاوة لم أعهدها من

قبل وسط جو المنازل القديم المتهالكة عبر عوامل الزمان، وواجهاتها ضائعة الألوان، ونوافذها التي تغلفها مشربيات أرابيسك متهالكة، أبواب المنازل الخشبية القديمة كالتي أتخيلها عند قراءة روايات نجيب محفوظ عبر عصر الحرافيش والفتوات، تماثيل رأس الأسد المنحوتة على أبواب البيوت، وكأنها تخبر الغريب أن بالبيت سبعًا.

كمية لم أتخيلها من أضرحة أولياء الله الصالحين بمساجد متواضعة إلا من شباك حديدي، يعكس إضاءة خضراء من المقام المحتجب خلفه، أعلاه لافتة توضح اسم صاحب المقام ونسبه إلى سيدنا الحسين أو آل البيت الكريم، نساء يجلسن على حجر كبير - ربما يعود عهده إلى ما قبل العصر الفاطمي - بجلابيبهن البالية وملابسهن الرثة ولفات الرأس التقليدية، تبادلن النميمة وسيرة الناس، فيما كان أبناؤهم على مقربة منهن يلعبون - حفاة القدم عراة الأجساد إلا من سترة تحفظ عورتهم - بكرة مصنوعة من «شرابات» قديمة.

أزقة ربما لا تسع ثلاثة يسيرون فيها متجاورين، أبواب منازل تحت سطح الأرض بسبب الارتفاع الناتج عن تراكم الأتربة، وبلاط الأرضية الحجري الذي تلمح فيه لمعة كأنه الرخام.. امرأة على ناصية إحدى الأزقة تنادي «وراور يا جرجير» فيما يعود في نهاية الشارع رب عمل، تبدو ملامح التعب على وجهه وملابسه، حينما وصلنا إلى بداية شارع فقير نزلنا فيه درجتين مصنوعتين من حجارة سوداء اللون، متهالكة من كثرة السير عليها، قديمة قدم مدينة القاهرة، على يمينها مقام مهدوم لا

ترى منه إلا قبته المزخرفة بالنقوش الإسلامية وشباكًا حديديًا عتيقًا غطى ملامحه الأتربة وخيوط العنكبوت، فيما صوت بائع الروبابيكيا ينادي على بضاعته في منطقة ما هنا، لم أستطع أن أحددها قبل أن أدخل البيت.

كانت درجات السلم عبارة عن حجارة صفراء اللون متآكلة هي الأخرى، كما تآكل كل شيء في هذا الحي القديم، ظلام كامل إلا من إضاءة خافتة متسلسلة رأسيًا من أشعة الشمس الهاربة من منور السلم.. صعدت خلف «أبو حمزة المصري» أدبًا لزيارة المكان واحترامًا لحرمته قبل أن يخرج مفتاحًا من جيب سترته، ويهم بالدخول وهو يخاطبني...

- تعال مفيش حد هنا.. أنا عايش هنا لوحدي.

دخلت خلف «أبو حمزة» شقته، كانت شقة متواضعة الشكل، أثاث قديم أرائك تلتف بجوار الحوائط، فرشتها من ملاءات بيضاء بها ورد أحمر، في مقدمة الصالة برواز قديم لرجل وامرأة وطفل صغير، رجل كان يرتدي بدلة كالتي نشاهدها في أفلام الخمسينيات، والسيدة ترتدي فستانًا عاري الأكتاف، نظرة عينها وطريقة تصفيف شعرها أشبه «بمنيرة المهدية» التي كنت أرسمها في خيالي، لم يكن لدي شك في أن الصغير هذا هو أبو حمزة المصري، وتوقفت أمام الصورة كثيرًا أحاول أن أرسم تغيرات الوجه الذي ألفته في «أبو حمزة» مع براءة عين الطفل الموجود في الصورة.

على يمين تلك الصورة كانت شهادة من كلية طب القصر العيني، تشهد أن الطالب/ نجيب أحمد حمزاوي حصل على درجة بكالوريوس الطب، وقفت أمامها أتأملها كثيرًا، بينما ربت على كتفي أبو حمزة وهو يبتسم لي..

- إنت مش مصدقني ولا إيه؟!

تقدمت وجلست على إحدى الأرائك التي علتها الأتربة، كما كان يغلف كل أركان البيت، بما لا يدع مجالًا للشك أن هذه الشقة غير مأهولة بالسكان، عندما غاب أبو حمزة المصري وابتلعته إحدى طرقات المنزل خلف ستارة لا أتذكر لونها الآن.

كانت فرصة غياب «أبو حمزة المصري» مواتية لي كي أتأمل بعض بواقي المنزل.. متهدم السقف.. مكشوف الأرض إلا من بلاط حجري قديم لا أتذكر أني شاهدته حتى في الأفلام القديمة، وأنا أتأمل حياتي وما اعتراني من أوهام الفرح والحب والسعادة والغيرة والحقد والألم.

قبل أن أفيق فزعًا على صوت طرق الباب متلاحقًا، فيما خرج سريعًا أبو حمزة المصري وهو يمسح يده بفوطة وذقنه تتساقط منها قطرات مياه من أثر الوضوء، وهو يعنف من بالباب ويتوعده بالضرب، بينما يتقدم نحو الباب والغضب باديًا على حاجبيه اللذين أغلقهما على بعض ضامًّا إليهما أنفه الغليظ، فتحول إلى صورة من عم شكشك، الشخصية الكاريكاتيرية الشهيرة، وهو يفتح الباب.

كانت فتاة لم يتجاوز عمرها العشر سنوات، تحمل على رأسها صينية مغطاة بالكامل، يظهر منها أطباق الأكل وأكواب الشراب، مكونة مجموعة من التلال الصغيرة، مغلفة بتلك الملاءة البيضاء، كانت علامات التعب من حمل الصينية بادية على البنت التي كانت تطرق الباب بقدميها، فيما فتح أبو حمزة الدرفة الأخرى لتسمح بدخول الصينية التي وضعتها البنت أمامي على مائدة قصيرة من الأرابيسك، قبل أن تجري عائدة إلى الخارج.

- بنتي زينب.

- ربنا يخليها لك.

- مد إيدك بقى من غير كسوف، لما نشوف عاملين لنا إيه.

كان غداء عمل (إيموشن وجه يضحك)، كانت جلسة ممتعة بكل المقاييس.. رائحة البط البلدي الشهي الذي كان يتوسط الصينية، مع رقائق الرقاق المحشية كبد وقوانص، وطبق الأرز، مع شوربة لسان العصفور.. هذا الطعام أغلق حديثًا تهفو له الروح عن طبيعة علاقات المجتمع المشوه الذي تعيش فيه.

- بعدنا عن ربنا فابتلانا بكل ما هو قبيح، ضاعت نعمة الراحة، وأصبحنا في شقاء مستمر، ضاعت نعمة السكن وأصبحنا في غربة مميتة، ضاعت الأموال في صالات القمار وتحت أقدام الراقصات، ذهبت النخوة من الرجال فتبرجت النساء وخرجن كاسيات عاريات إلى الشوارع يخاطبن

شهوات الرجال الذين لم يغضوا البصر، انتشر الغلاء، عجز الشباب عن الزواج، وعجزت العفيفات عن صون شرفهن، ذهبت الكرامة والكبرياء، أذل الحرص أعناق الرجال. وفي النهاية نلعن الدهر ونسبه.

- والحل يا شيخ «أبو حمزة»؟!

- الحل هو العودة إلى منهاج الله الذي رسمه لعباده، وعدم الخروج منه أبدًا، والموت في سبيله شهيدًا، تقف تزفك الملائكة إلى الجنة في انتظارك الحور العين.

بات حلم الجنة يداعبني دائمًا بعد هذا الحديث، هل يمكن أن أنعم بما أعده الله لنا من نعم، ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، فكل متاع الدنيا التي نحارب ونتقاتل عليها لا يساوي جناح بعوضة فيما أعده الله لنا في الدار الآخرة، فكيف الفوز بها؟

□□□

مشهد (خلفي)

يقول الدكتور عبد الوهاب المسيري:

«التعصب الديني هو في جوهره ظاهرة علمانية، فالمسلم الذي يتعصب ضد المسيحيين لا يلتزم بتعاليم دينية، كما أنه يرى أنه باعتباره مسلمًا مهمته ليست إقامة العدل في الأرض، بل التمتع بامتيازات خاصة، وهو في نهاية الأمر يصبح مرجعية ذاته».

□□□

(٥١) يــارا فـــــــؤاد

كان هواء القاهرة المفعم بالأتربة وعوادم السيارات يختنق في حلق يارا، وهي تخرج من كافيه كوستا يملؤها شعور غريب بالراحة بعد أن قررت إغلاق صفحة طه للأبد بكلمات يملؤها القسوة.. لم تكن موجهة لشخصه بقدر ما كانت هذه الكلمات طعنات لما تبقى في قلبها من حنين، لتغلق هذه الصفحة تمامًا هذه المرة، وهي متأكدة أن ذكريات الماضي لن تعاودها مرة أخرى في أوقات الضيق، بعد أن تعمدت تشويه صورة طه أمام نفسها.

كانت يارا تعلم مدى قسوتها على طه هذه المرة.. طه لم يكن الشاب السيئ، ولا كان هذا المتعربد عبر صفحات التواصل الاجتماعي والإنترنت، يصطاد الفتيات ليقضي معهن وقت سهرة جميلًا، إن طه ومحمودًا وغيرهم من الشباب الذين ضاقت عليهم الدنيا بما رحبت، وتضاربت بهم الأفكار والأيدلوجيات فكانوا نتاج مجتمع مشوه.. مجتمع أعطى للذكر حقه في ارتكاب ما يحلو له من أخطاء، ويسير وسط الجميع يتباهى بها على أنها ذكريات وعلامات رجولته، ويحرم على المرأة فقط أبسط أنواع المشاعر والأحاسيس، مجتمع يستبيح فيه الرجل عرض

امرأة لمجرد أنه وجدها ترتدي ملابس ضيقة، أو تضع صورة لها في موقع الفيس بوك،، فيظن فيها أنها أصبحت مشاعًا للسائلين.

أغلقت يارا باب سيارتها التويوتا، وأحكمت إغلاق زجاج السيارة وهي ترمي بجسدها المنهك على كرسي القيادة، تأخذ نفسًا عميقًا تخرجه من فمها، وكأنها تطرد فيه الماضي، وتخرج من زخات زفيرها بقاياه، مدت يدها أشعلت تكييف السيارة الذي اختنقت منه للحظات، مع خروج أتربة منه ليعاود صوت فريونه الصادر من سماعاتها الاتزان النفسي لها، قبل أن تعود بها الذاكرة أنها مضطرة الآن إلى القيادة في وسط شوارع القاهرة في مثل هذه الساعة، وسط دقات قلبها المتسارعة على هنية التي تركتها مع زوجها في البيت.

سخونة لقاء يارا مع طه جعلها تنسى لبعض الوقت الوضع الراهن في بيتها، ولكن بمجرد العودة إلى سيارتها وتذكرها أنها مضطرة إلى العودة إلى هذا البيت، قد عاودها إحساس الخوف والقلق اللذين بديا عليها أثناء قيادتها السيارة، ويدها التي لم ترفع من على آلة التنبيه لتسابق الزمن لتنقذ هنية من براثن زوجها.

كانت يارا تعلم خطورة الخطوة التي أقدمت عليها، كان بإمكانها أن تأخذ هنية معها، تنتظرها في السيارة لحين عودتها، إلا أنها صممت أن تتركها تخوض التجربة، تتعرف على رد فعلها، هل سترفض أم ستقبل أن تترك نفسها ألعوبة في يد زوجها وهي راضية النفس؟.

حاولت يارا طول الطريق أن تبعد هذه الخيالات عنها، تمني النفس بأن زوجها سيلتزم السكون، ويحفظ ما تبقى من ماء الوجه، ولا يتحرش بالبنت الصغيرة، إلا أنها لم تغادرها ابتسامة السخرية التي ترتسم على شفتيها، وهي متأكدة أن زوجها لن يضيع هذه الفرصة من يده هباءً.

على باب شقتها أدارت المفتاح في الباب مع تسارع دقات قلبها، والقلق البادي في رعشة يدها، بعد محاولات في وضع مفتاح الباب في المكان المخصص له، بينما السكون يسيطر كعادته على كل أرجاء المنزل الهادئ.. السكون الذي أقلقها هذه المرة.. لحظات قليلة حاولت فيها يارا أن تحدد قبلتها داخل المنزل، وإن كانت لا تحتاج إلا التوجه مباشرة إلى المطبخ تستشف من نظرة هنية ما حدث.

على باب المطبخ أدارت يارا نظرها دورة كاملة فيه، فلم تلاحظ أي شخص، المكان نظيف كما تركته، حالة من السكون تغلف خطاها على أرضية المطبخ، وقبل أن تستدير وتخرج مستكملة رحلة بحثها، سمعت صوت همهمات طفولية آتية من أقصى يسار المطبخ، تقدمت لتشاهد هنية جالسة على الأرض بجلبابها الأسود ترفع كلتا قدميها تضمهما إلى صدرها، تلف يديها حول ركبتيها، متقوقعة بداخل نفسها، تغطي كل ذلك برأسها المكومة على جسدها، اقتربت منها يارا، وضعت حقيبتها على الأرض بجوارها، وتقدمت منها ترفع رأسها بيدها، دموع البنت كانت قد جفت إلا من بعض الهالات السوداء أسفلها، رعشة في جسدها لم تهدأ حتى أخذتها يارا في حضنها.

- ما لك؟!

وإن كانت يارا لم تترك لشفتيها البراح لتتحدث به، وهي تضم رأسها إلى صدرها بقوة إلا أنها استطاعت أن تستجمع ملامح الكلمة الخارجة منها.

- الـ بـ يـ ـه.

رفعت يارا رأس هنية من على صدرها، ونظرت في عينها بكل قوة، وهي تقول لها بلهجة مدرسة تؤنب تلميذة لم تقم بعمل الواجب المدرسي.

- عملك حاجة؟

عادت الرعشة إلى جسد البنت مرة أخرى، ضمتها يارا إلى صدرها للحظات قبل أن تعاود سؤالها.

- ماروحتيش عند أبوكِ ليه.

- أبو يا هيموتني لو عرف.

مدت يارا كلتا يديها تمسك ذراعي هنية، منهية معها الحديث، وتركتها حيث وجدتها وكأنها طفلة أنهت اللعب بعروستها ووضعتها مكانها، عازمة على أن تغلق اليوم كل صفحات الماضي الكئيب.

□□□

غرفة مكتب كلاسيكية، إضاءة خافتة إلا من أباجورة مسلطة على مكتب مزين بطقم من العاج والجلد الطبيعي، على يمينه حامل مصحف

مذهب، وعلى اليسار كرة أرضية من الكريستال النقي، خلفه يجلس د/ عماد على كرسيه، ما إن شاهد يارا تدخل عليه غرفته حتى ملأت وجهه الكآبة، وهو يعلم أي حديث ستحدثه فيه، اقتربت يارا من المكتب وجلست على الكرسي المقابل له، فيما هو مد يده يمسك بالولاعة الفضية ماركة زيبو يشعل بها البايب، يلفظ أنفاسه في الهواء بادئًا بالكلام...

- خير؟

أخذت يارا نفسًا عميقًا تحاول أن تخفف على نفسها حدة الحوار، وهي تنظر بكل قوة، وتثبت نظرها في نظره بكل تحدٍّ.

- عماد... أنا بخونك.

أخذ عماد نفسًا آخر من البايب قبل أن يضعه على الكتاب الموضوع أمامه، وهو يرد عليها بنفس حالة الهدوء، وهو على يقين وثقة من أن زوجته مهما وصلت بها حافة الغضب منه لن تنزلق إلى هذه الهاوية وذلك المنزلق...

- يعني إيه.. مش فاهم؟!

- هي دي فيها مش فاهم؟!.. أنا بخونك.

- فاهمة إنتِ معنى الكلمة؟

- فاهماها كويس... إنت اللي مش فاهمها.

أخذت نفسًا طويلًا مرة أخرى، وهي تضم شفتيها وتحرك رأسها يمينًا..

- يا عماد افهم، الخيانة مش إني أبقى مع واحد تاني على السرير بس.. لو فكرت في حد تاني أبقى بخونك، أو اتمنيت واحد تاني أبقى بخونك، أنا كنت النهار ده مع حبيبي الأولاني دي أكبر خيانة... مش دي الحياة اللي كنت بحلم بيها، إني لما أبقى مخنوقة أدور على أي حد أتكلم معاه إلا جوزي... دي مش خيانة.

- ومين السبب في الوضع ده، مش إنتِ؟!

- عماد من الأول إحنا مش لبعض، ولا إنت عايزني ولا محتاجني في حياتك، إنت محتاج حتة ديكور تزين بيها نفسك قدام الناس زي البارفان الفرنساوي والساعة السويسري والجاكت الإنجليزي والجزمة الإيطالي، كانت نقصاك بس المدام الدكتورة، من فضلك كفاية كده دور على واحدة غيري، هتلاقي مية واحدة ترضى.. أنا تعبت.

لحظات من الصمت سيطرت على المكان، لم يكسرها إلا صوت فتح د/ عماد لغطاء ولاعته وإشعاله البايب، وقد ظهرت من رعشة يده بعض علامات القلق...

- والحل؟

- الحل إننا نسيب بعض.. بص أنا فاهمة دوافعك ومركزك الاجتماعي، ووضعك في الحزب، والكلام دا كله، بس صدقني أنا خلاص مش قادرة ولا هطلب منك حاجة... أنا بيلغك قراري.. أنا هسافر ألمانيا أعيش مع خالتو هناك، فترة ممكن تبقى طويلة أو قصيرة.. ومش هطلب منك

الطلاق؛ لأني مش فارقة معايا.. مش هتجوز تاني علشان أطلب الطلاق منك خلاص أنا كرهت الصنف كله.

نظر إليها وهي تغادر الغرفة، وهو يتحدث إليها بلهجة علتها الود للمرة الأولى...

- هعتبرها إجازة زوجية وهستنى عودتك.

- اعتبرها زي ما تعتبرها، وما تتعبش نفسك في الانتظار.

لتعاود مرة أخرى العودة إلى الغرفة بظهرها، ورأسها ملتفة لداخل الغرفة من بابها لتقول له والابتسامة على شفتيها...

- صحيح نسيت أقولك.. أنا هاخد هنية معايا.

□□□

(٥٢) كشكول منال

مررتُ صباح اليوم أمام المرآة، فلمحت في رأسي شعرة بيضاء، تلمع في تلك اللمة السوداء، لمعانَ شرارة البرق في الليلة الظلماء.

رأيت الشعرة البيضاء في مَفرقي فارتعت لمرآها، كأنما خُيِّل إليَّ أنها السيف جرّده القضاء على رأسي، أو عَلَمٌ أبيض يحمله رسول جاء من عالم الغيب ينذرني باقتراب الأجل، أو يأسٌ قاتل عرض دون الأمل، أو جذوة نار علقت بأهداب حياتي علوقها بالحطب الجزل، ولا بدّ لها مهما ترفقتْ في مشيتها واتّأدت في مسيرها من أن تبلغ مداها، أو خيط من خيوط الكفن الذي تنسجه يد الدهر وتُعده لباسًا لجثتي عندما تجردها من لباسها يد الغاسل.

أيتها الشعرة البيضاء! ما رأيت بياضًا أشبه بالسواد من بياضك، ولا نورًا أقرب إلى الظلمة من نورك. لقد أبغضت من أجلك كلّ بياض حتى بياض القمر، وكل نور حتى نور البصر، وأحببتُ فيك كلّ سواد حتى سواد الغربان، وكل ظلام حتى ظلام الوجدان.

من كتاب «النظرات» للمنفلوطي

(٥٣) محمود

أرجع تاني لسمر...

- سيبك.. إنتِ متعرفتيش على غيري.

كلمة قلتها مرة على سبيل الدعابة، أكدتها سمر بصورة جدية، تعلقت بها أحاول أن أكتشف المزيد حول هذا الكائن المحتجب خلف الحروف، قالت لي إن كل من يعرفها يريد أن يخرج معها، وإن لم توافق على الخروج معه يقطع معها إلا أنا، باتت تشكر وتمدح في بقائي معها، على الرغم من أني لم أرَ حتى صورتها، كل اهتمامي بسمر الإنسانة التي كنت أتواصل معها وليست سمر الوجه والجسد.

لم تكن الصورة بالنسبة لي ذات أهمية كبيرة، كانت علاقتي بسمر تدخل عامها الثاني، وباتت أقرب صديقة لي، وما عاد يفرق معي لون شعرها أو شكلها، كنت أتعامل مع الإنسانة التي وثقت فيها، فسألت بعد أن أصبحت كلمة «عادي» لا تكفيني، ولا تروي ظمئي في فك شفرة هذا الكائن الذي كل يوم يظهر لي وجهًا أقبح من الأول.. بعد صورة الملاك التي كانت مسيطرة عليّ:

- من شاهد صورك؟

قالت لي: «الحبيب»، توقعت الإجابة بالطبع فهي كانت تحبه وضعيفة أمامه، كما كنت على يقين مِن أن مَن يطلب اللقاء من الشباب على النت يكون قد اجتاز الخطوة الأولى التي وقفت عندها أنا بضعة أشهر، بالتأكيد شاهد صورتها التي كانت تعتبرها بالنسبة لي منطقة مقدسة يحرم عليّ الاقتراب منها.

- كلهم شافوا صورتك؟

ردت بأسلوب يملؤه نبرة حزن:

- ما خلاص بقى يا محمود.

اشتعلتُ غضبًا، قذفتُها بأفظع الكلام والسباب: لماذا لا أعلم؟!

كنت أشعر في هذه اللحظة أنها باقية على كل شاب تعرفت إليه، وتخاف على غضبه منها، وتخشى أن تقطع علاقتها به، وهي غير باقية عليّ أنا، لماذا عندما يطلب منها أي شخص صورتها تريها له وأنا لا؟!

بالطبع لم تكن الصورة هذه القضية التافهة هي موضوع الإشكالية، ولكن إحساس الغش تجاهها، أغلقت الخط في وجهها، اتصلت بي ثانية، أغلقت الخط مرة أخرى بعد وصلة من السباب!

جلست مع نفسي أسأل لماذا كل هذا الغضب من هذه البنت؟! لم تكن قريبة لي، ولا حبيبتي حتى إنني بين اللحظة والأخرى لا أتوقع أن يصل إليها إحساسي، إنها مجرد حادث عابر في حياتي ربما لأرضي غرور نفسي.

كنت أتمنى أن تتصل مرة أخرى لسبب أجهله، ربما يكون محاولة مني لإرضاء غرور نفسي ليس إلا، وقد كان، عاودت المكالمة، كنت هذه المرة أهدأ، تحدثت إليها بنبرة واثقة، كلمات قليلة وأنهيت الموضوع.

- يا أنا يا هما، اللي عايز يصاحبني يصاحبني أنا بس، البنت اللي مشاع لكل ولد ماتلزمنيش أو اعملي بلوك ومش عايز أشوفك تاني.

حاولت أن تهرب من طلبي بمراوغتها المعهودة، إلا أني هذه المرة كنت مصرًّا على قراري، لن أصاحب بنتًا مصاحبة غيري؟! أعلم أنها تتعجب مني، وأعلم أني أنا لا أستطيع أن أفسر هذا الإحساس، بل إنني اعتذرت لها أكثر من مرة عنه، إلا أنه قراري الأخير..

- عايزانا نبقى صحاب تقطعي علاقتك بكل دول.. أنا وبس.

راوغت كثيرًا.. أطربت أذني بمعسول كلام، كنت أتمنى أن أسمعه منها من قبل، بخلت عليّ به، متجسدة دور الشرف والطهر، بينما تخلع عنها عباءة الحياء والأدب والعفة مع سواي، علاقة غريبة لم أكن أحافظ عليها ولكني كنت أريدها لي أنا وحدي، تخطئ نعم ولكن معي.. أرهقني التفكير، كما أنني ما عدت متمسكًا بها، فإما أن تأتي كما أريد، أو فلتذهب إلى الجحيم، فأنهيت الموضوع بكلمة...

- يا أنا يا هما؟

- إنت.

تعجبت من إجابتها، لم أكن أتخيل أن فتاة متعددة العلاقات مثلها تقبل بأن يكون في حياتها شاب واحد مثلي، خصوصًا أني لم أعاهدها أي عهد، هو صحاب بس، بس أبقى أنا لوحدي «أنا زي الفريك محبش شريك»، لا أُخفي سرًّا أن ردها أسعدني.. أجلس مع نفسي أحيانًا أتدبر من الأمر العجب! لماذا سعدت؟! أحيانًا تنتابني لحظات ضيق! كنت أتمنى أن يكون جوابها غير ذلك.. ترفض وتخرج من حياتي فأرتاح من عناء علاقة لا أعرف أبعادها، ولا أسبابها، ولا إلى أي منقلب ستؤول إليه الأمور معها.. ردت لي غروري الذكوري بكلماتها.. نزلت عليّ كأنها ماء أطفأ نار قلبي. ولكنها رمت بي في غيابات جب عميق من الغيرة والخوف.. الغيرة أن تكون تتحدث مع أحد غيري، أو يكون جوابها هذا مجرد إسكات لي، وهي غير عازمة على مقاطعة تلك الشرذمة، وخوف من أني لا أتحمل علاقة ارتباط مع بنت كنت أستحقرها في نظري، ولا أتخيل يومًا أني أرتبط معها بأي شكل من الأشكال، بل أحيانًا كنت أعتبر الصداقة معها أمرًا مشينًا.

طلبت منها إجراءات تضمن لي تنفيذ طلبي.. مثل بلوك لكل الشباب على شبكة التواصل الاجتماعي (هكذا هو اسم الفيس بوك المتداول في وسائل الإعلام، وكأنهم يريدون أن يضفوا عليه صفة رسمية قبل النطق باسمه معربًا) وتغيير رقم هاتفها المحمول...

- طيب ما إنت بتكلم بنات؟!

لا أعلم الإجابة، هل لو طلبت أن أقطع علاقتي مع بعض البنات التي أتحدث معهن على النت أحيانًا أو عبر الهاتف سأوافق؟! بالطبع لا، كانت تعلم جذور علاقتي مع منال، وحكيت لها عن لحظات جنوننا معًا، لم تغضب، حزنت.. كنت أتمنى أن أرى غيرتها عليّ، كما كنت أغير عليها (امرأة واحدة لا تكفي) إلا أنني كنت مصرًا على رأيي، أنا أصاحب زي منا عايز.. إنتِ لا...

- أنا مجنون.

بالطبع لم أكن أثق بسمر، على العكس كنت على يقين أنها ستعاود الحديث مع هؤلاء الشباب، خصوصًا حبيبها الذي ما زالت تخفي عني اسمه، والذي طلبتُ كثيرًا أن أرى حسابه على شبكة الفيس بوك، فترفض خشيةً من تصرف أهوج مني، إلا أنني لم أكن سعيدًا، لم أكن سعيدًا بانتصاري في معركة سمر على باقي أصدقائها، واغتنامها لي بمفردها جارية لي وحدي أتمتع بها وقتما أشاء، وأخرج معها؛ لكسر كبت المجتمع المشوه الذي أنا جزء منه، بل أحيانًا أتمنى أن أقطع علاقتي معها رغبة مني في أن أبدأ حياة جديدة مع بنت أكون أنا الشاب الأول في حياتها، وليست حقل تجارب مع صيادي البنات على النت.

من العجيب في علاقات الإنترنت أمر أحيانًا يثير السخرية أكثر مما يثير التأمل - كما أسلفت؛ فلم تكن سمر الفتاة الوحيدة في حياتي، كنت أتحدث عبر وسائل الاتصال المختلفة مع العديد غيرها.. كل حسب ما

يسمحن لي بمساحة في حياتهن - منهن من أتذكرها الآن.. شيماء تلك الفتاة التي لا أتوانى كلما رأيتها أن أراودها عن نفسها بكل جراءة بأسلوب ساخر، تتقبله أحيانًا، وترفضه أحيانًا.. أظن حسب حالتها النفسية، إلا أنها كانت تعلم أنني لم يكن في نفسي منها شيء إلا لعبة القط والفار التي أتلذذ بها معها، وكما كنت أقوم بدور الواعظ مع سمر، كان لشيماء صديق أخبرته بطبيعة علاقتي معها، فنصحها بقطع علاقتها معي، عندما أخبرتني بذلك ذات مرة ارتسمت بسمة سخرية على شفتي وأنا أتذكر سمر ودور الواعظ معها.. فقلت لها:

- بيعمل عليكِ شيخ ومش عايز حد يتجاوز معاكِ مع إنه هتلاقيه هو ليه البنت اللي بيحاول معاها.

على الرغم من أنها لم تصدق كلامي - ولربما يكون خطأ - ولكن الأكيد وهو ما يثير السخرية أن الشخص الواحد يتقمص عبر هذه الشبكة أكثر من وجه، فمع تلك الواعظ الناسك منزهًا نفسه عن كل متع، وفي نفس اللحظة مع أخرى الشيطان الذي يحاول أن يغتنم منها ما تجود بها نفسها عليه.

ازدادت عندي حالة السخط على المجتمع المزيف الذي نعيش فيه، كل شيء بات مدنسًا مسخًا ليس له معالم، لا تستطيع أن تجد ملامح مجتمع متجانس في حياتك، فتلك الفتاة المتبرجة التي تخرج إلى الشارع بملابسها الفاضحة التي تظهر مفاتن جسدها، تثير لعاب شباب اقترب

عمرهم من منتصف الثلاثين أو أقل من ذلك، ولم يمسوا امرأة في الحلال أو الحرام، من بنات يسرفن في الدلع، يظنون بذلك أنهن يزهون بجمالهنّ وسط مجموعة من الشباب الذين وإن بادلوهن الهزار وكلمات الغزل طول النهار، بينما هم ينظرون إليهن بازدراء، ليعودوا في نهاية المساء إلى أهاليهم ليطلبوا منهم البحث عن بنت محترمة للزواج، ويرفضوا البنت التي تجاوزت معهم في القول أو الفعل، لتختار له أمه بنتًا أخرى تجاوزت - ربما أفظع ممن رفضها هو - مع غيره.

نساء متبرجات أعلم علم اليقين أن رجلًا لم يمسسهن، وبنات محتشمات يخفي احتشامهن آثار الرذيلة.. وما بين هذا وذاك أخلاق وقيم مجتمع وقواعد دينية شاهدة على اختلال مجتمع مشوه.

□□□

(٥٤) محمود

ظهرت علامات الحمل واضحة على أختي التي دخلت في شهرها السابع، أشعر دائمًا بشيء غريب تجاهها، لن أقول أني أحبها، فلست في حاجة أن أقول ذلك، فهي مشاعر إنسانية فطر الله عليها الإنسان، وبحكم العشرة والألفة، أحيانًا أستشيط غضبًا من نقاشي معها، لا تفهمني، ولا تريد أن تفهمني، إنسانة رضيت من الدنيا بزوج مزواج لا يعطيها إلا ثلث وقته، فيما تقاسمها الباقي اثنتان أخريين.. طفل صغير لا يكف عن اللعب بسيارته التي يحولها إلى طائرة، متخذًا من كلتا ذراعيه جناحين لها، فيما هي تكتفي بزعيق له «حاسب تكسر حاجة»، جالسة على الأريكة أمام مسلسل السابعة في انتظار عودة عبد القوي، وهي تمسك سكينًا تقطع حزم الكرات الأخضر للديك الرومي الذي تربيه في عشة من الصفيح، أعلى البناية لتذبحه في موسم عاشوراء.

بينما عبد القوي.. هذا الرجل الذي كان يملأ قلبي الخوف قبل أن أراه، وملأني الحب بعد أن رأيته وتعاملت معه، كنت أرى فيه حنية أب خائف على أبنائه، يمسك أيديهم عند عبور الطريق، قسوة معلم في

الفصل لتلاميذ مشاغبين، لكن في النهاية هو الآخر إنسان مستسلم، استسلم إلى حياته البالية، واكتفى بالزواج من الأرامل والمطلقات، ربما إن لم يفعل ذلك ما استطاع أن يلمس النساء مرة، أحيانًا كنت أشعر أنه يخفي وجهًا آخر خلف هذه اللحية، وما هي إلا ستار وواجهة لدخول عالم المتع التي يصبو إليها، إلا أنه بعد أن عاشرته غيرت الرؤية، فعبد القوي فعلًا إنسان بسيط، متدين، يخاف الله، يعبده وفقًا لدين صنعه عقله، كنت أحب الحديث معه كثيرًا، يرشدني إلى طريق الهداية.. أحاديثه يغلفها الآيات القرآنية والأحاديث النبوية الشريفة، قصص آل البيت والصحابة يسترشد بهم دائمًا في كلامه.. إنسان بسيط، فهم الدين على طبعه وطبقه، أظنه أسعدنا حظًّا، لم يشغل عقله بما ليس طائل منه من مناقشته.

منال ما زالت لغز حياتي، أقترب منها يومًا بعد يوم، أشعر بالراحة في حديثي معها، رغم أنه دائمًا ينتهي بعراك، ترى في عيني نظرة الغيرة من كل تصرفاتها، تعلو شفتيها ابتسامة السعادة بها، فأرى في عينيها كلمة «بحبك» دون أن تنطقها.

لم يجرؤ كلانا في الحديث صراحة عن الحب، ربما تركنا أنفسنا للاستمتاع بتلك اللحظات الأولى لشروق شمس حب في قلب إنسان، وهي اللحظة التي لن تعاود الإنسان مرة أخرى، إنها لحظة واحدة في العمر، تمتزج فيها مشاعر الغرام والغموض بالسعادة بالشوق بالألم باللهفة.. إحساس لا يمكن أن يوصف، لكن وأمام الجميع أصبحت قصة حبنا لا يمكن إنكارها،

خصوصًا مع مداعبات د/ هبة التي أصبحت أكثر من أختي، وأفتقدها كثيرًا بعد قرار نقل زوجها من القاهرة، وتركها العمل بالصيدلية.

نادر ذلك الطائف الذي يهبط على خيالي فجأة فيملؤني صخبًا وسعادة وأملًا، أعشق الحديث معه، أشعر باكتمال نفسي في وجوده، ما عدت أستطيع أن أميزه عن خيالاتي التي أشطح فيها.. طوله الفارع، ملامح وجهه الجذابة، هدوؤه الرصين، ثقافته العالية، عقله المتفتح، كلها أشياء تشعرني باكتمال النفس بوجوده، كان دائمًا بالنسبة لي صوت العقل في عالم اللاعقل، في عالم الروحانيات.

أبو حمزة المصري... ما زالت في قلبي وخذة منه، أجلس معه كثيرًا، يسعدني دائمًا ثقته فيَّ، وقدرتي على تغيير العالم، ثقته في طريقه الذي رسمه لنفسه، إلا أنني ما زلت لا أشعر معه بالأمان، وأنا أجلس معه أشعر بأن عيونًا ما تراقبنا، دقات قلبي تتسارع، ولا أهدأ إلا بعد مغادرتي مجلسه والذي كنت اتخذت قرارًا مرارًا بألا أعود إليه أبدًا، يعاتبني بمكالمة هاتفية تنتهي بميعاد على العشاء في منزله على هامش صينية تحملها الفتاة ذات العشرة أعوام، ولم أعرف من أهله غيرها، وكنت أظن توودده إليّ أنه يحاول زواجي منها!.. لم أرَ أي صديق «لأبو حمزة» على عكس عبد القوي الذي كان الجميع أصدقاءه خصوصًا أصدقاء مقرأة الفجر بجامع الجاولي بالسيدة زينب.

لا أعلم لماذا أكتب الآن انطباعي عن بعض الشخصيات التي مرت في حياتي في الفترة السابقة؟ ربما لأنني بت أحتاج أن أشاهدهم في المرآة بصورة أوضح، أو لأرى نفسي فيهم وموضعي من مركز البؤرة.

لم أكن بالطبع لأغفل عن د/ يارا التي أصبحت لقاءاتي معها بمثابة جلسات سمر بين الأصدقاء، حكت لي مشاكلها مع نرجسية زوجها وتحرشاته بالخادمات، حبها الأول الذي ترى حبيبها في تصرفاتي معها، لا أنكر أن هناك في قلبي شيئًا تجاه د/ يارا، ربما تحذيرها من حبي لمنال كان المنقذ لي من حبي لها - شخصية لا يمكن ألا تتعلق بها - وإن كنت أحيانًا أتعجب من ملابسها المثيرة لحفيظتي، كأنها فتاة في حانة، وليست طبيبة وقدوة في مركزها الاجتماعي والعلمي.

وهو الشيء الذي لفت انتباهها ذات مرة عندما رأتْ نظرات عيني الذاهبة هروبًا من ملامحها الظاهرة، ليبتسم الخجل داخلي، وهي تقول لي والدعابة تملأ كلامها:

لم عينيك شوية يا محمود واحترم نفسك.

انتابتني رعشة خوف عندما سمعتها تقول ذلك، ظننت أنها ستكون نهاية علاقتنا معًا، بعد أن رأت في عيني نظرة المتعة بها، خشيت أن تؤنبني وتطلب مني ألا ترى وجهي مرة أخرى، إلا أن الأمر تحول إلى دعابة، تغلف الابتسامة ثغرها الرقيق وهي تحاول أن تصرف نظري وعقلي عنها، قبل أن تفتح لي الطريق لاقتحام حياة منال ربما خوفًا عليها مني.

□□□

(٥٥) كشكول منال

من العجز أن يزدري المرء نفسه فلا يقيم لها وزنًا، وأن ينظر إلى من هو فوقه من الناس نظر الحيوان الأعجم إلي الحيوان الناطق، وعندي أن من يخطئ في تقدير قيمته مستعليًا، خير ممن يخطئ في تقديرها متدليًا، فإن الرجل إذا صغرت نفسه في عين نفسه يأبى لها من أعماله وأطواره إلا ما يشاكل منزلتها عنده، فتراه صغيرًا في علمه، صغيرًا في أدبه، صغيرًا في مروءته وهمته، صغيرًا في ميوله وأهوائه، صغيرًا في جميع شؤونه وأعماله، فإن عظمت نفسه عظم بجانبها كل ما كان صغيرًا في جانب النفس الصغيرة.

من كتاب «النظرات» للمنفلوطي

❑❑❑

(٥٦) محمـــــــود

لم تكن نهال بالصورة التي رسمتها في خيالي من كلام د/ هبة عنها، كبنت مغرورة، متعجرفة، متعالية، لا تحب أحدًا ولا أحد يحبها، كانت هذه البنت الهادئة، التي تجلس دائمًا في قوقعتها على كرسي بجوار د/ «أبو الغار» لا تنبس ببنت شفة إلا في مرات قليلة تتبادل فيها حوارًا معه، وتنهي بكلمة...

- حاضر يا أونكل.

كلمة «أونكل» التي كانت تثير حفيظة د/ منال كلما سمعتها منها وهي تقول لها:

- أونكل دي تقوليها لما تقدمي له الشاي بالكيك في صالون بيتكم.. هنا اسمه د/ أبو الغار مدير الصيدلية مش صاحب بابي.

أما رد د/ نهال فيكون بكل هدوء والابتسامة ترتسم على وجهها في برود أعصاب رهيب:

- حاضر.

تتمتع بكمية من برود أعصاب غريبة لا يتمتع بها أحد، تخرج كل من في الصيدلية عن شعوره.. وبالخصوص د/ منال العصبية التي كانت كلما زادت عصبية ازدادت ابتسامة الهدوء على وجه د/ نهال، فلا تجد مفرًّا من إنهاء الحوار معها، والتوجه إلى المخزن كي تعد لنفسها فنجان قهوة سادة لتشربه ويدها ترتعش من العصبية، بينما تجلس د/ نهال بجوار د/ «أبو الغار» هادئة الأعصاب كأن شيئًا لم يكن منذ قليل.

كان الجميع في الصيدلية بلا استثناء لا يحبها، بسبب تصرفاتها غير المسئولة وردودها المستفزة، يحضرني الآن موقف أنها غابت عن الصيدلية ثلاثة أيام متواصلة، لم ترد فيهم على هاتفها حتى ظن الجميع أنها ماتت، أما د/ أبو الغار فلم يعلق على غيابها، وهو الذي كان لا يسمح بتأخير نصف ساعة عن ميعاد فتح الصيدلية.. وكأنه لا يلقي لوجودها بالًا، لتظهر مرة أخرى بعد هذه الأيام الثلاثة.. أتت د/ نهال (عادي خالص) ودخلت الصيدلية بكل برود وهي تقول «صباح الخير» ثم توجهت إلى مكانها المخصوص بجوار د/ «أبو الغار» بعد أن تبادلت معه السلام...

- إزيك يا أونكل.

لم تكن منال لتترك هذا الموقف يمر بسلام رغم حالة الهدوء التي حاولت أن ترسمها على كلامها:

- حمد لله على السلامة، كنتِ فين التلات أيام اللي فاتوا؟

- داد كان مسافر وكنت قاعده معاه.

- وما كلمتيش حد تقولي له ليه؟ على الأقل نطمئن عليكِ افتكرناكِ موتي ولا حاجه.

- الموب (هكذا اختصرت كلمة موبيل) كان فاصل شحن.

سمعت أنا هذا الرد فانتابتني «كريزة» ضحك، لم أستطع أن أتمالك نفسي فيها، لم يوقفني منها إلا نظرة الغضب والحنق التي رمقتني إياها منال، حتى د/ أبو الغار ابتسم هو الآخر من رد نهال، وبالطبع ما كانت د/ هبة لتفوت الفرصة بضحكة مجلجلة في الصيدلية، أما د/ منال فلم تستوعب ما يحدث أمامها من ردود أفعال فأنهت كلامها قبل أن تذهب...

- أنا مش ناقصة حرقة دم. أنا عندي الضغط والسكر.

□□□

كانت ردودها المستفزة تثيرني جدًا، خصوصًا عندما حدث معي هذا الحوار، كان هذا اليوم إجازة ولم تحضر هي للصيدلية، وكانت تريد شيئًا ما (لا أذكره الآن) من د/ هبة فاتصلت بالهاتف الأرضي وأنا الذي كنت أرد عليه، وعلى الرغم من أني عرفت صوتها فإنني كنت أريد أن أستفزها..

- مين معايا؟

- مش مهم تعرف.. فين دكتورة هبة؟

- مش مهم تعرفي.

ثم أغلقت سماعة الهاتف وابتسامة النصر على شفتي، لم يمضِ كثير من الوقت حتى رن الهاتف مرة أخرى...

- أنا دكتورة نهال ممكن أكلم د/ هبة.

- عايزاها في إيه؟!

- موضوع شخصي.

- لا حضرتك دا تليفون شغل، موضوع شخصي تكلميها على الموبايل.

- طيب علشان خاطري اديني د/ هبة.

«طيب علشان خاطري» خاطبت قلبي ولم تخاطب أذني، وخذتني هذه الكلمة في ربيع قلبي فوجدتني أرد عليها...

- علشان خاطرك أجبلك د/ هبة لحد عندك.

هذا قبل أن تقذفني د/ هبة بعلبة دواء فارغة، وهي تمسك السماعة تسحبها احتجاجًا على مداعبتي لنهال في الهاتف.

كانت هذه المكالمة الهاتفية بداية التقارب بيني وبين د/ نهال، كثيرًا ما نتبادل الحوار معًا، كانت طفلة، يجب أن تعاملها كما تعامل الأطفال، ربما تحتاج إلى شخص يأتي لها بعروسة هدية تداعبها في حضنها قبل النوم، أما منال فكانت علاقتي معها تثير حفيظتها، وهو شعور بت أستمتع به وأنا أرى نار الغيرة تطل أخيرًا من عين منال، خصوصًا عندما شعرت د/ نهال ببعض الصداع، وكان ضغطها

...ضًا، واضطرت إلى مغادرة الصيدلية، وطلبت مني أن أوصلها لأن سيارتها ليست معها.

في هذا اليوم حدثت أول خناقة كبيرة بيني وبين د/ منال، لأول مرة «يرتفع صوتنا على بعض» داخل أروقة الصيدلية.. وصلت إلى حد التهديد منها إن لم أنتهِ عما أفعل -بالطبع تقصد علاقتي مع نهال- فسوف أرى ما لا يُحمَد عقباه، وهو الشيء الذي رفضته، وبدأت أفقد أعصابي حتى انتهى الموضوع بمكالمة هاتفية لـ د/ «أبو الغار» تطلب فيها طردي من الصيدلية.

- يا أنا يا محمود في الصيدلية يا دكتور.

كنت أتابع عصبيتها المحببة إلى قلبي وحركتها المتذبذبة في أركان الصيدلية بقلب يهفو فرحًا.

- «منال تغار عليّ».

□□□

على الرغم من شخصيتها العصبية فإنها كانت تحمل قلب طفل، اقتربت منها بعد ثلاثة أيام من الخصام كانت تمزقني فيها نظراتها، ابتعدت تمامًا عن الهزار كله، خصوصًا مع د/ نهال التي كانت لا تتوانى في كل لحظة عن استفزاز د/ منال بصورة مقصودة أو غير مقصودة. أما منال فكانت في حالة هدوء تام خلال هذه الفترة، خصوصًا في ذلك اليوم الذي كانت

جالسة فيه صباحًا في الصيدلية بمفردها حينما دخلتُ عليها وجدتها تجلس خلف مكتب د/ «أبو الغار» تمسك في يدها هاتفها المحمول تلعب به غير عابئة بما يدور حولها، وحتى لم تلاحظ دخولي عليها.

وقفت للحظات أتأمل ملامح وجهها، والغضب عليه، بينما هي شاردة الذهن تحاول أن تخفي ما بها بلعبها في الهاتف، ويكسو وجهها صورة طفل صغير جالس على الأرض بعد تأنيب أمه له على كسر لعبته، بينما شفتها السفلى متدلية من وجهها علامة على الغضب، تحاول إصلاح لعبتها، صورة لا أستطيع أن أمحوها من مخيلتي لفترة طويلة.. صورة الطفل البريء المحتجب خلف قناع ذلك الوجه العصبي سليط اللسان.

اقتربت منها ولم أستطع أن أتمالك نفسي، وأنا أجلس على ركبتي بجوارها على المكتب، وأستكمل التأمل في وجهها الرقيق، بينما لاحظت أخيرًا وجودي، وحاولت أن تخفي ابتسامتها التي شجعتني أن أنطقها أخيرًا..

- بحبك.

- كداب.

- عندك شك؟

- روح اسأل نهال.

تعالت ضحكة سخرية، حاولت أن أغلف بها هذه اللحظة الرومانسية في انتظار اعتراف منال لي بحبها..

- إنت عبيطة.. نهال دي أختي، والله البنت دي غلبانة وعقلها صغير قوي.

ظهرت علامات الغضب على وجه منال من كلامي، فحاولت أن ألطف الأجواء وأعيدها إلى سيرتها الأولى..

- إنتِ عارفة أنا بحبك أد إيه؟؟

- مش مصدّقاك.

- هسيب الأيام تثبت لك.

ثم صمت.. أعطيتها ظهري مغادرًا المكان، وأنا أنتظر أن تناديني؛ لأني لم أكن أعلم إلى أي قبلة أسلك فنادت علي..

- محمود.. أنا بحبك قوي وبموت فيك.

حينما تشرق شمس الحب في قلب إنسان يتزلزل كيانه، يصبح أسيرًا لمن أحب بكل كيانه، يعيش معه كل انفعالاته، إذا حقق نجاحًا في حياته أول ما يجول بخاطره أن يخبر حبيبته لتشاركه فرحتها، إذا مر بضائقة يبحث عن طرفه الآخر يرتمي في حضنه كطفل صغير عائد من المدرسة يبحث عن حضن أمه.

أعطتني منال ما بخلت عليّ به الأيام.. إحساس الحب الصادق الذي أعيشه لأول مرة.. رسالة «تصبح على خير» قبل أن أنام.. أول كلمة صباح الخير تستقبلها عيني صباحًا.. اهتمامها بي إذا تأخرت لأي سبب

في الحضور إلى الصيدلية، نظرة الشوق التي أراها في عينيها عند اللقاء، دمعة تحاول إخفاءها في الوداع.. مشاعر لا يمكن إخفاؤها.. جذبتني من حياتي ورمت بي في غيابات حب، بت لا أعلم أي مصير ستلقي بي، وإلى أي طريق؟.. بت أسير كالمسلوب الذهن والإرادة تاركًا حياتي في قبضة يد منال تفعل بها ما تشاء. داومنا على الخروج معًا.. كانت أسعد لحظاتي عندما أغادر الصيدلية قبلها ببضع لحظات وأنتظرها على ناصية الشارع كقصة حب كلاسيكية في الأفلام العربية القديمة.. أول ارتعاشة لمسة يد.. أول قبلة في السينما وتوقيعها على تذكرتها بشفتيها، وهي تكتب لي بقلم الكحل الذي لا يفارق حقيبة يدها «بحبك».

□□□

مشـــهـــد (خـلـفـي)

- هتعملي إيه مع محمود؟!

- مش عارفة بس أكيد مش هكدب عليه.. مش هبدأ حياتي معاه بغش.

- لو عرف هتبقي النهاية.

- عارفة.

- والحل؟

- محمود لازم يعيش التجربة كاملة علشان يفهم، عمره ما هيفهم إلا لما يبقى جزءًا من التجربة و يعيش كل حالاتها.. لازم يغير نظرته عن شرف البنت، لازم يبقى جزءًا من التجربة علشان يقدر يفهم الموقف.

- إنت أكيد مجنونة.. إنت فاهمة معني كلامك دا إيه؟!

- صدقيني مفيش حل تاني.

□□□

(٥٧) مريم سعيد

في غرفة مغلقة كان يجلس الثري العربي مع المدير التنفيذي للقناة، كان يمسك في يده السيجار بملابسه العربية المميزة.. الجلباب الأبيض، ولحيته الصغيرة تغلف فمه وأسفل ذقنه «سكسوكة» وعقال الرأس بملامحه الخليجية التي يحلو له أن يظهر بها، يحاول أن يعطي نفسه بعض الوقار المصطنع من ثراء فاحش لأمير خليجي، حينما فتح المدير التنفيذي مع الثري العربي الموضوع وهو يشعل له سيجاره الكوبي.

- طال عمرك.. مريم سعيد هتعمل لنا مشاكل كثيرة.. غير إن نسبة المشاهدة بتاعت برنامجها قلت قوى، والإعلانات في النازل.

- والله يا غراب البين إنت، أنا لا تهمني المصاري، المصاري كتير ما بعرف أوديها فين.. ولا أبغي شيء من وراء القناة دي، لكن هذه الوزوزة الجميلة مريم سعيد تشرح قلبي حين أشاهدها فقط.

- مانجوزها لك طيب طال عمرك.. أسبوع ولا اثنين.

- والله يا وجه البومة أنا لو كنت حابب ذلك ما استحيت منك ولا منها،

لكني أحبها هكذا.. مرغوبة ممنوعة، أستمتع بها من بعيد وأحلم بليلة معها، لكن لو أخذت ما أبغي منها.. تصير بنظري مثل كل النساء.. فاهم حاجة.

- لا.

- ولا عمرك هتفهم.

- المهم المشاكل اللي ممكن تعملها مع الحكومة بالبرنامج بتاعها دا.

- لا والله ما أبغي مشاكل ولا سياسة، اتركها تفعل ما تريد وإذا كانت الحلقة ستجلب المشاكل لا تذيعها.. بسيطة.

- أوامرك طال عمرك.

□□□

(٥٨) محمود

عذرًا حبيبتي..

فحبك يحتاج إلى قرار أشجع مني.

- إنت ما بتعرفش تفرح يا محمود؟

كلمة قالتها ذات مرة منال -ربما لم تلقِ لها بالًا- في إحدى محاولاتها إخراجي من حالة الحزن التي بدت مسيطرة عليَّ في الفترة الأخيرة، والشرود الذي لاحظه الجميع «إنت ما بتعرفش تفرح يا محمود» كلمة قيلت، ولم تلقِ لها بالًا، أصابت بها منال عين الحقيقة، فما عاد للفرحة مكان في قلب ملأه الحزن.. لا أعلم السبب؟!

على الرغم من خضم المشاعر التي أغدقت بها منال عليّ في الفترة الأخيرة، وهي المشاعر الصادقة التي ما تخيلت أن أحظى بها يومًا، والتي كانت كفيلة أن تجعل من أي إنسان أسعد شخص في الدنيا.. فإنه ما زال هناك وخذة في قلبي.. لا أعلم ما هي وما سببها، أجمل لحظات قضيتها معها كنت أسرح بعدها، وكأني أبحث عما يعكر صفو هذه اللحظة.. هل

يمكن أن يعقد الإنسان عقدًا دائمًا مع الحزن، ويبات يبحث عنه أينما ارتحل؟

كنت أثق في مشاعر منال تجاهي.. نظرة عينيها يملؤها الشوق والشغف.. لمسة يدها.. اطمئنانها عليّ يوميًا.. كلها أمور لا يمكن أن تدارى أو تصطنع؛ ولكن ما المشكلة؟.. أحيانًا أستكثر على نفسي ذلك، فلا أجد في حياتي ولا في مستقبلي ما يؤهلني للارتباط بهذه الإنسانة.

أجلس وحيدًا في الصيدلية في الساعات الأولى من الصباح أنتظر قدومها بفارغ الصبر.. آخذ كل يوم قرارًا بإنهاء العلاقة معها، فما لنا من سبيل معًا، وما أن أراها قادمة حتى يهفو لها الفؤاد... تأتي كضوء شمس يخطف الأبصار.. لا أستطيع أن أخفي سعادتي بها.. نجلس معًا لنشرب قهوة الصباح التي جعلتني أدمنها من يدها.. أتذكر أي أمر عارض ينغص عليّ لحظة الهناء هذه!

أتخيل العلاقة بين عبد القوي ومنال.. موقفه من ملابسها.. ورد فعلها عليه.. سأكون بينهما مكبل اليدين لا أستطيع أن أدافع عنها، وأنا الذي لا أرضى عن ملابسها.. مواقفها الأيدلوجية كلها لن تروق لعبد القوي، وستحدث الكثير من المصادمات النقاشية التي لا تتجنبها منال بل تثيرها أحيانًا.. كيف سأقدمها إلى الشيخ «أبو حمزة المصري».. امرأة متبرجة ذات شعر أحمر مثل لون الجمر.

منال على استعداد أن تفعل من أجلي كل شيء.. أنا على يقين من ذلك،

بالطبع حاولت مرارًا أن أغير طريقة لبسها، فلم أصل إلى حل، كانت ردودها غير مقنعة بالنسبة لي.. ولكني ما عاد لدي القدرة على مجادلتها، نظرة عينيها تسلبني كل حريتي، وتلقي بي في غياهب بئر لا أعرف لها قرارًا.

نظرة حزن مسيطرة عليّ تتابعها منال دائمًا بمحاولات لتطمئنني، أو لتهنأ معي بلحظة حب حلوة «عيش اللحظة يا محمود» لا أستطيع.. هناك حاجز خفي لا أعلمه يحجبني عنها.. أشعر يقينًا أني لست لها.. ربما تكون تجربة مثل نهال أو سمر أو غيرها.. ينتابني تأنيب الضمير وأنا أتحدث مع غيرها.. أسترق منها طرف الحديث لا أعلم هل تتحدث مع أحد على الإنترنت أو لها صداقات عبر هذه الشبكة اللعينة؟.. ألمح في عينيها نظرة العتاب، وكأنها تقول لي متى تثق بي؟.

وخذة في قلبي لا أعلم لها علاجًا.. شيء ما يبعدني عنها رغم أني منجذب إليها بكل كياني.. أحاول أن أهدئ من نفسي، ربما هو إحساس الحب المتبادل الذي أعيشه لأول مرة، بعد أن كنت أجلس بالساعات أراقب بنتًا، وأنا أنسج من وهم خيالي قصصًا معها لتتحول الأحلام إلى واقع، ولكنه واقع أكبر من حياتي الضيقة.

ربما حب منال يحتاج إلى قرار لست بالشجاعة الكافية لاتخاذه.. ربما أحتاج المزيد من الثقة بالنفس حتى أتهيأ لاستقبال حب مثل حبها.. كثيرًا ما تراودني أفكار شيطانية.. أني في حياتها مجرد لعبة.. يوم عابر

تقضية ولا تعبأ به.. لا أخفي الحقيقة عن نفسي.. كنت أرى نفسي دونها، ولكني لا أستطيع أن أكمل حياتي بدونها.

كانت منال مني في اختبار مستمر.. كانت تقابلني بابتسامة بريئة أعشقها، وكأنها تقول لي افعل ما تريد ولكن ثق بي.. لم تكن الثقة بها تنقصني، ولكن ما كان ينقصني ثقتي بنفسي.. أحتاج إلى معجزة كي أسعد هذه الإنسانة.. إذا استمرت حياتي معها ستكون جحيمًا لكلٍّ منّا.. شك مستمر لن يرحم حبها لي.

□□□

كان ذلك اليوم الرابع من نوفمبر يوم عيد الحب.. بالطبع لم أكن أتابع عيد الحب إلا بما ألحظه من انتشار الملابس الحمراء، والهدايا التي تعج بها عربات المترو في الذهاب والإياب، في ذلك اليوم لم أكن أعبأ بكمية اللون الأحمر المنتشرة حولي إلا من واحدة.. منال.. كانت ترتدي بلوزة حمراء مثل حمرة لون الدم تظهر نهديها النافرين بكل وضوح، عليها شال (بينك)، هكذا أخبرتني اسمه عندما قلت لها (بمبي)، هذا إلى جانب بنطلونها الأزرق الذي لا تبدله، أو أنها تقتني أكثر من واحد بنفس اللون.

دخول منال عليّ الصيدلية بهذه الملابس أثار خجلي، وتعجبت كيف لم تخجل أن تسير في الشارع في مثل هذا اليوم باللون الأحمر، ناهيك بقدومها إلى الصيدلية وكل من فيها يتابع نظرة الشوق في أعيننا، وبات الأمر منتهيًا.. محمود ومنال بيحبوا بعض.. بالإضافة إلى جانب آخر هو

جرأتها المتناهية أن تنزل من بيتها أمام أهلها بمثل هذه الملابس التي تنذر بأنها على موعد مع الحبيب.. إلا أن ردها فاجأني عندما سألتها فقالت لي:

- لما ماما سألتني، قولتلها نازلة أفرح نفسي، هو لازم اللبس الأحمر علشان حد!؟

إجابة بالتأكيد لا تكفي إلا لتهرب بها فقط من أمام والدتها التي بالتأكيد تعلم كذب بنتها، ولكنها تمني النفس بعريس تشاهده بجوارها في الزفة.

كنت في هذا اليوم أجلس في الصيدلية كأني سارق تترقبه أعين رجال الشرطة.. انطفأت ضحكتي التي كانت لا تنقطع.. قل نشاطي وسط مداعبات الجميع لمنال التي لم يرحمها حتى د/ أبو الغار من مداعبتها. أما أنا فاكتفيت بتحول الموضوع إلى دعابة عندما يملح باسمي في الموضوع قائلًا:

- عيد الحب أصلًا حرام.

اختليت مع منال بضع دقائق في المخزن وأنا يملؤني الخجل.. اقتربت مني، وقالت بهمس:

- مش هتقول لي كل سنة و إنت طيبة؟

- كل سنة و إنت طيبة.

- هعزمك النهاردة على الغداء في مكان جميل قوى.. استناني الساعة ٦ عند مسرح البالون.

اكتملت الصورة المزعبة في ذهني.. الخروج في عيد الحب مع بنت ترتدي الأحمر، كان ذلك بمثابة كابوس لا يمكن أن أتخيله! أنا الذي كنت دائمًا أتهرب من السير بجوارها في شارع القصر العيني؛ خجلًا من أن أسير بجوار بنت أحيانًا، وخجلًا من ملابسها أحيانًا أخرى، أجدني أسير بجوارها في عيد الحب وأنا أتخيل الموقف.. ستكون عيون الناس كلها مسلطة علينا.. زادني الخجل همًّا على هم، وما بت أستطيع أن أوقفها عن تصرفاتها التي لا أستطيع أن أصفها بالمجنونة، وسط حالة طبيعة من المجتمع في مثل هذا اليوم، إلا أنني لا أستطيع التأقلم مع بعض مجريات الأمور، ولا أعرف كيف أسعدها وأنا أبخل عليها بأبسط مشاعر الحب.. لا أتخيل مدى سعادتها وهي تقف أمام المرآة صباحًا تصفف شعرها.. تهندم زيها وهي ذاهبة إلى الصيدلية في انتظار أن أراها.. بت غير مصدق نفسي أنها ترتدي هذا لي، بت غير مصدق نفسي أني في بؤرة أحداث منال ومصدر سعادتها واهتمامها.

إلى جانب هذه المجازفة الكبيرة التي حاولت أن أجتازها، اكتملت الصورة المرعبة أمامي.. أنني خرجت من البيت كعادتي معي بضع عشرات من الجنيهات.. بالطبع لم أعمل حسابًا لمثل هذا الموقف.. أخرجت ما معي من نقود أعدها، فوجدتها ربما تكفي للغرض، إلا أن كابوس الحرج أمام منال في مثل هذا اليوم كان يؤرقني، ولم أكن مدخرًا من النقود ما يفي بالغرض ..ازددت همًّا على هم! هل يمكن أن يكون العشاق جميعهم يعانون مما أعاني منه؟! أحرجُ من أن ترتدي حبيبتي ملابس مخصوصة لي.. أخجل

من أن أسير بجواها في الشارع، حتى المكان الذي أجهله أخشى أن يحني المهري من فاتورته التي لا أفكر في هذه اللحظة إلا في كيفية سدادها..

لم أجد مخرجًا من حالتي التي كانت تمزقني، والتفكير الذي شل كل كياني في هذه السويعات، في هذه التفاصيل التي ربما يراها البعض تافهة، إلا أنها كانت كفيلة أن تذهب النوم من عيني لبضعة أسابيع، إلا من فكرة طرأت في ذهني.. أن أجتاز الشارع الطويل القاطع شارع القصر العيني وصولًا إلى كشك الشيخ «أبو حمزة المصري» أستلف منه ألف جنيه أضعها في راحة نفسي قبل قلبي؛ لعلي أهنأ بلحظات حب رومانسية مع منال، بعيدًا عن توتر كشف الحساب الذي يمكن أن يؤرق لحظاتنا معًا، والحمد لله كانت الفرصة مواتية لي في الذهاب إليه بعد العمل، خصوصًا بعد أن طلبت منال مني أن أقابلها في السادسة مساءً، ولم تذهب معي من الصيدلية، وإلا ضاعت عليّ فرصة الذهاب إلى الشيخ «أبو حمزة» الذي لم يبخل عليّ بالمبلغ، ولم يسألني عن سبب طلبي له، بل بمجرد أن طلبته ذهب إلى داخل الكشك وأخرجه من خزانة خشبية تالفة، تعجبت أن يضع فيها نقودًا!!.. وفي اليوم التالي رددت المبلغ لأني لم أحتج إليه، فقد أدت النقود التي كانت بحوزتي الغرض، ولكن الشيطان هو الذي يؤرق عليّ أبسط لحظات الراحة في بحثي عن الشقاء، والذي أحمد الله أنه لم يأتني مستفسرًا عن سبب تأجيل منال الميعاد حتى السادسة مساءً، وإصرارها أن نتقابل هناك، لا أن نذهب معًا، مكتفيًا ذلك الشيطان بما أحدثه في قلبي بعدها.

□□□

كما أسلفت لم يترك الشيطان لي متسعًا من الوقت يجعلني أهنأ فيه بلحظات انتظار أول موعد غرامي مع حبيبتي في عيد الحب.. فبعد أن تصرفت -على توتر- في النقود، جاءني هذه المرة في صورة الإحراج الذي يسببه لبسها لي، إلى جانب اللون الأحمر الفاضح في مثل هذا اليوم، وكنت أسير في الشارع في طريقي إليها أشاهد العشاق مقيدي اليدين معًا، تتوسطهما دبدوبة حمراء، وأنا أشعر بأني سأكون سخرية القوم.. رحمك الله يا منال أما كان خليقًا بك أن تحتفلي معي برسالة على الهاتف!

حتى لحظاتنا الرومانسية التي كنا نرسمها في مكالمات الليل الطويلة، كانت دائمًا تأتي لي منال منفردة بعيدًا عن أعين الناس، بينما هي تطلب مني أن تسير بجواري في الشارع.. معلقة يديها في كتفي، أو تمسك يدي وسط زحام الناس.. لم أكن أتخيل أن أكون في مثل هذه الموقف يومًا ما.

كانت حالة التوتر هذه خليقة بأن تجعلني أذهب إلى الميعاد قبله بأكثر من ساعة، لأجدني أستمتع على كوبري الخامس عشر من مايو بما جادت به نسمات الهواء على نهر النيل، أتابع من حولي مرور العاشقين.. تفضحهم ملابسهم، بينما ترتسم ابتسامة سعادة غريبة على وجهي، إن لي عشيقة تسعد بلقائي.. قبل أن أشاهد ما عكر صفو ودادي، وكان كفيلًا أن يدمر العلاقة بأكملها، حينما شاهدت أسفل الكوبري منال تسير بجوار صديقة لها لم أعرفها هي الأخرى قبل الميعاد بساعة، تطايرت نار الشك في رأسي، وباتت الأسئلة التي كان الشيطان مؤجلًا طرحها على

راسي بأجوبة أقل منها، تسيل لحميته نار الجاهلية في صدري.. لأجدني أخرج الهاتف من جيبي فأتصل بها وأنا أراقبها من أعلى الكوبري، وهي لا تراني، حينما ردت بما جادت بها عواطفها من كلمات غزل، بت لا أسمعها وأنا أتابع حركاتها مع صديقتها التي كانت واضحة أن تصمت حتى لا أعرف أنها معها قبل أن أسألها..

- إنت فين؟

- لسة نازلة من البيت حالًا روحت أجيب حاجة وجيالك على طول.

- كذابة خليكِ واقفة مكانك.

- محمو.......

لم أترك لها متسعًا من الوقت بعد أن أغلقت الخط، وأنا أتابع حركاتها المتوترة مع صاحبتها التي اختفت تمامًا، حينما كنت أستدير على سلم كوبري ١٥ مايو المقابل لمسرح البالون لأجد منال تقف بمفردها، ويبدو على وجهها علامات التوتر، بينما النار تخرج من وجهي، وهي تبادرني بالسؤال..

- إيه اللي جابك بدري؟

- إنت ليه بتكذبي عليّ.. ومين دي؟

- صاحبتي شغالة هنا في العجوزة.. قلت أقابلها وأسلم عليها قبل ما أقابلك.

- وما قلتيش ليه؟؟ ومشيتْ ليه لما شافتني؟

- في إيه يا محمود بطل شك بقى.. قولت لك صاحبتي و إنت شايفني كنت واقفة مع واحد؟

- مش مشكلتي إنت واقفة مع مين، مشكلتي إنك كذبتي عليَّ! ليه قولتي إنك لسه نازلة من البيت و إنت في الشارع معاها لو كنت قولت لي مع صاحبتي وهتأخر شوية كنت استنيتك.

- معلش بقى معرفتش أتصرف.. خوفت تزعل وأنا عرفاك مواعيدك مظبوطة.

- في حاجة!

- محمود من فضلك ماتبوظليش اللحظة دي اللي بحلم بيها.. تعالى حنقعد في مكان جميل قوي على البحر كنت باجي أذاكر فيه زمان وأنا في ثانوي، وكنت بتخيل نفسي دايمًا قاعدة مع حبيبي فيه.

تقدمت مني منال، وشبكت ذراعيها بذراعي، وهي تخطب ودي بضحكتها التي ما استطعت أن أصمد أمامها كثيرًا..

- يلا بقى بطل رخامة.

□□□

لم يكن المكان أقل بهاءً من صاحبته التي كانت الابتسامة لا تغادر ثغرها طوال اللحظات الأولى للقاء، بينما الشيطان يتلاعب في رأسي عن سبب

كذبها عليّ، وأين اختفت صديقتها؟ وحالة الشرود التي كانت بادية عليّ لاحظتها منال قبل أن تصل إليها مكالمة هاتفية، استأذنت على إثرها من مجلسي، متعللة بأن صديقتها نسيت معها شيئًا، وستذهب إلى باب المطعم لتعطيها إيّاه.

في هذا الموقف لم أكن أحتاج إلى شيطان يلعب في رأسي، بعد أن تطايرت في رأسي كل معاني الاتزان، وكنت على شفا الجنون، وهممت أن أخرج خلفها أجذبها من ذراعها.. أهطل على وجهها صفعة لتخبرني بما تخبئه عليّ، وما يحاك من خلف ظهري من مؤامرات!

لم يمضِ كثير من الوقت اعتصرت رأسي بي الظنون، وفعلت الشكوك في رأسي ما بدا لها، قبل أن أشاهد منال عائدة إليّ حاملة كرتونة هدية كبيرة مغلقة، والابتسامة تغلف وجهها وهي تقول لي:

- كانت الهدية بس محتاجة تتلف فراحت صاحبتي تلفها يا شكاك.

نظرت إليها ودموع الفرح والسعادة تملأ عيني، لم أستطع أن أمنعها وأنا أسوق في نظرة خجل مكللة بدموع حبي لها كل اعتذار عن شكي فيها، وهي تردف كلامها بنبرة حانية، احتضنت فيها كل أحاسيس الدنيا.

- كان نفسي أجيب لك الدنيا كلها يا شكاك.

كان يومًا من أجمل أيام حياتي.. ثبت نظري لأول مرة في وجه منال أتابع أدق تفاصيله، وكأني لن أشاهدها بعد اليوم.. كلما التقت عينها

بنظرة الحزن في عيني تزداد جمالًا في عيني، وهي تقول لي «بحبك».. قبل أن تمتد يدي لتفتح هديتها المغلفة بورق الستان الأحمر.. مزينة بالعرائس الصغيرة، أحاول أن أتخذ من دهشة وجه الفنان يونس شلبي في مسرحية العيال كبرت متنفسًا يخفف عني وطأة المشهد عليّ وأنا أشاهد الهدية.

كانت عبارة عن بلورة زجاجية، بها مياه ثقيلة بيضاوية الشكل، بها زوجان من العرائس الكلاسيكية من الخزف، يُقَبل كل منها الآخر، بينما حولها إضاءة باللونين الأحمر والأزرق، تنبعث على خلفية موسيقى هادئة.. مثبت أسفل منها ساعة رقمية بها منبه علقت عليه منال:

- علشان تصحيك لحد ما أنا أصحيك في بيتنا.

كانت الهدية غاية في الروعة والجمال.. كنت بين الحين والآخر أسترق النظر إليها، أنعم بجمال القبلة من العروسين، وكأنهما يغوصان في بحر من الأحلام، بينما في واقعي كانت منال ترسم بي من الخيال ما يعجز الفؤاد حتى أن يهفو به فرحًا.

خرجنا معًا.. نزلت على رغبتها وسرنا متجاورين نتابع سير مياه نهر النيل بطول الكورنيش.. يدها لا تفارق يدي، بينما أنا سارح في خيال غريب، يقول لي إن هذه سعادة آنية، وأن منال لن تكون أبدًا لي.. هي تجربة في حياتها ربما ليست أكثر.. تحاول أن تملأ بها فراغًا ما في حياتها، أو تثبت لنفسها شيئًا ما، أما إذا تحولت هذه الحالة إلى واقع فإنها ستفر مني، كما

تفر الشاة من ذابحها، ربما تخجل من أن تواجه المجتمع بشاب أشعث أغبر مثلي.. فحاولت أن أتنصل من وعد لم أعاهده لها..

- منال.. توعديني؟

- أوعدك بإيه...؟

- إننا نفضل صحاب مهما حصل بنا.

- ليه بتقول كده يا محمود؟! ما لك؟!

- أنا حاسس إننا مش هنبقى مبسوطين مع بعض ومش عايز أظلمك معايا أكتر من كده.

لم أتذكر أنني قلت أكثر من ذلك قبل أن تخلع يدها من يدي تقذفها في الهواء، وهي تنظر إلى بكل حنق وتقول:

- إنت إيه يا أخي ما بتعرفش تفرح ولا عايز تسيبني أفرح؟! مستخسر فيَّ ساعة حلوة أعيشها.. عايز تنكد عليّ وخلاص.

تركتني وسارت بضع خطوات تسبق خطوتي، وأحاول اللحاق بها معتذرًا لها...

- لازم تعرفي إن كل دا علشان بخاف عليكِ بس.. خايف أوعدك بحاجة مقدرش أوفي بها.. خايف أكون مش الإنسان اللي إنت متخيلاه ...

- خايف.. خايف.. خايف... في إيه يا محمود إنت حياتك مافيهاش غير الخوف.. حب يا أخي.. حب جرب تحب.. عيش حياتك إنت دافن

نفسك في كلمة خايف.. أخرج للحياة هتلاقي فيها الحلو والوحش، حب واستمتع بالحب.

- بحبك.

وكانت معها أول هدية مني لها، وهي وردة أخذتها من بائعة زنانة، انتهزت فرصة زنها في أن أقدم هدية لمنال لا تحملني عناء حملها في الشارع وتقديمها لها، مثلما أرهق كاهلي حمل هدية منال وأنا أسير بها في الشارع، والتي بدأت أتخلص من صندوقها الذهبي في طريق عودتي، وأنا لا أتخيل أن أدخل على أختي وعم عبد القوي في يدي دبدوب أحمر وبلورة بها دمية تقبل الأخرى.. كان حملًا ثقيلًا أنهى على أول هدية لي من منال في صندوق قمامة مجاور لمنزلنا، بعد أن أرقني التفكير، ووجدتني لا أستطيع تحمل نظرات أختي وعبد القوي لي وأنا داخل أحمل هدية عيد الحب...

خفت لا أنكر...

□□□

(٥٩) كشكول منال

كانت وردة.. تظن أن الناس أرق وأرأف المخلوقات...
وقبل أن تكمل هذا الظن قُطفتْ.

□□□

(٦٠) يـــارا فـــــــؤاد

بينما كانت يارا مشغولة في إعداد حقيبة سفرها، وهي ترى نظرة الفرح على وجه هنية التي لا تصدق نفسها أنها ستركب طائرة وتسافر خارج مصر، والتي لم تكف عن الأسئلة الساذجة طوال فترة إعداد الحقيبة، وقد ظهرت علامات التأفف والضيق على وجه يارا منها، ففهمتها البنت ولاذت بالصمت لبعض الوقت، لتعاود أسئلتها مرة أخرى، لتقطع هذا الحديث رنة هاتف يارا الخلوي...

لم يكن ليثير فضولها ظهور اسم أ/شريف وكيل النيابة الذي كان على اتصال مستمر بها خلال الفترة الماضية، فما عاد لها في مصر ما تبكي عليه.. محمود مات.. وطه انتهى.. وهنية مسافرة معها، فأغلقت صفحة الماضي التي لم يزدها فيها إلا قلقًا على مجرى التحقيق في القضية، أجابت عليه يارا بكلمات فاترة قبل أن يأخذ الحوار مجرى جديدًا...

- ....

- لا طبعًا أنا معنديش استعداد أطلع في أي برنامج، خصوصًا أتكلم في موضوع محمود.

- ....

- هنتكلم في إيه يعني، هيطلعوا الولد مجنون و إرهابي.. في إيه تاني؟

- ....

- معقولة منال هتبقى هناك.

- ....

- دا وعد؟!

- ....

- بس أنا لازم أقعد مع مريم سعيد الأول، ونتفق على كل حاجة قبل التسجيل؛ لأني مش هقبل إني أبقى أداة في إيد الإعلام يزيف بها الواقع ويخدم أهداف سياسية عنده.

- ....

- أوك.. أنا كنت مسافرة الأسبوع الجاي هأجل سفري شوية لحد ما أنهي الموضوع دا.. شكرًا لاهتمامك.

- ....

- سلام.

□□□

(٦١) محمـــــود

ما كانت منال لتتركني والحزن يملأ عيني، وابتساماتي تنطفئ، كانت كلماتها هي الضياء لظلام حياتي، لمساتها الخجولة على وجهي وهي تقول لي «بحبك» هي الأمل في الحياة، أهديتها أول هدية بعد تفكير طويل، لا أعلم لماذا أبسط لحظات عشق العاشقين تمر عليّ بعد تفكير طويل متعب؟! ترددت كثيرًا في شراء هدية أخرى لها، ثم ترددت في اختيارها، بالطبع استبعدت أن أشتري لها « دبدوبًا أحمر « ليس تقليلًا من شأن الدباديب - فلا أريد أن أدخل في صراعات جانبية مع الدباديب - بالطبع، ولكن لأني لا أتخيل نفسي أسير في الشارع أحمل حقيبة هدايا ملونة بداخلها دبدوب أحمر، فوجدت ضالتي في كتاب، لا يهم نوعه أو مضمونه، ولكن بالتأكيد لن أخجل أن أسير في الشارع بكتاب وهو الذي لا يفارق يدي، وقفت في إحدى أشهر مكتبات مصر بالقاهرة في حي الزمالك أتابع أسماء الكتب التي لم أكن أسمع عنها شيئًا، بعد أن ظننت أني أعلم جميع الكتب بحكم وجودي المستمر بأكشاك بيع الكتب القديمة وسط كلاسيكيات الكتب، بينما هذه المكتبات مزدحمة ببعض أسماء

التي لا تقل تفاهة عن أصحابها، حتى يئست أن أجد كتابًا يليق بذوق منال، إلا من «أجندة» مغلفة بقماشة خيم رمضان الحمراء الكلاسيكية القديمة، فهممت أن أستخدمها كوسيلة للهروب من الدبدوب الأحمر وأنا أهديها لها بعد أن كتبت عليها إهداء من قصيدة لفاروق جويدة:

إلى من شاركتني رحلة الحياة

فأضاءت لي الطريق عندما انطفأت شموعه

ومنحتني الأمل حينما عصفت بنا رياح في اليأس

❑❑❑

الغريب أني عندما كنت أشتري الأجندة الحمراء لمنال كان صوت بائع الروبابيكيا يسير في هذا الحي الراقي، فأخذتني وخذة في قلبي من صوته؟!!

❑❑❑

إلى جانب العشق الذي غلف حياتي، كانت مغامراتي مع نهال مستمرة في صورة شبه كاريكاتيرية كأفلام الكارتون ومغامرات توم أند جيري، مع تلك الفتاة ذات القلب الطفولي، والتي تحب أن تستحوذ على كل شيء لها، ليس حبًّا في الشيء بقدر ما هو رغبة منها في عدم استمتاع الآخرين به.

لم تكن منال تعبأ بمثل هذه الدعابات التي كانت بيني وبين نهال. لا أعرف لثقة في نفسها أم لثقة في حبي لها! على الرغم من أني كنت نقيض

ذلك، ولا أتوانى أن أدمر أجمل لحظات سعادة بيننا، بسبب مجاملة أسمعها منها لزبون، أو ضحكة مع مندوب أدوية يأتي لترويج منتجه، يتبعها خناقة قبل أن أتركها ذاهبًا إلى المخزن في انتظار أن تأتي لتصالحني، وفي إحدى هذه المرات كانت أول قبلة منها على خدي، أخذتني من الدنيا.

كانت نهال من فترة لأخرى تحاول أن تجتذبني إليها، لأسباب لا أستطيع أن أفهمها إلا فيما قد سلفت من شرحه، حتى إذا استيأست من ذلك كانت رسالتها الأخيرة لي.. في الثالثة صباحًا...

«محمود أنا مش عايزة أعرفك تاني.. ولا حتى نبقى صحاب»

عندما قرأت هذه الرسالة ابتسمت، وفهمت أنها تريد خناقة، كنت أعلم أنها تنتظر رسالتي على أحر من الجمر، تتوقع أنها ستكون رسالة قاسية مني، أصب فيها جام غضبي عليها، إلا أنني تعاملت معها هذه المرة بحرفية أحسد عليها، وبت أستمتع بلعبة القط والفأر، فلم أرد عليها، بينما أنا جالس على السرير الساعة الثالثة صباحًا أستمتع بصوت أنفاسها الذي أسمعه في أنينها، وهي تنظر إلى هاتفها كل ثانية تتأكد أني لم أجبها، قبل أن تفاجئني برسالة أخرى بعد ساعة...

«أنا آسفة يا محمود عارفة إنك زعلان مني بس بجد مش هينفع يبقى بينا كلام تاني»

تعالت ابتسامة الثقة على شفتي، أو ربما كانت ابتسامة السخرية من المجتمع، فلو كان ذلك في وضع طبيعي ولم أكن على علاقة مع منال، لكنت تهافت على الهاتف أستبين أسباب هجرها لي المفاجئ، ولكني وأنا على علاقة بغيرها بت غير عابئ بإحساسها، بل مستمتع بلحظات ألمها وأنا مستيقظ أتخيلها في فراشها تشاهد الهاتف كل دقيقة، تتأكد من وجود شبكة، ترسم لي الأعذار أني لم أرد عليها، أيقنت بعدها أنني أسير مع تلك الحمقاء على الدرب الصحيح، وأن البرود والتجاهل واللامبالاة هو العلاج لها، تجاهلت رسالتها، وضعت الهاتف بجواري على السرير وغفوت.

وفي الصباح، وقبل حتى أن أغسل وجهي، توجهت إلى شاشة الهاتف الذي يظهر عليها إشعار برسالة جديدة، لم يراودني الشك أنها منها...

- «أنا ماكنتش عارفة إني حمل تقيل عليك كده ما صدقت تتخلص منه».

تناولت في هذا اليوم إفطاري في البيت لأول مرة بهدوء، اتصلت بمنال، تبادلت معها كلمات الحب التي يحلو الصباح بها، استقبلت رسالة من سمر ملأتني بهجة، وفي النهاية توجهت إلى هاتفي وأنا أقول لنفسي..

- أكلم بقى نهال كفايا عليها كده.

كان هاتفها مغلقًا، ولم أعرف عنها شيئًا بعد ذلك.

□□□

(٦٢) كشكول منال

أحبني كما أنا.. بلا مساحيق.. ولا طلاء.. أحبني.. بسيطة، عفوية.. كما أحب الزهر في الحقول، والنجوم في السماء. فالحب ليس مسرحًا نعرض فيه آخر الأزياء.. وأغرب الأزياء.. لكنه الشمس التي تضيء في أرواحنا النبل، والرقي، والعطاء. فابحث عن الشمس التي خبأتُها في داخلي إن كنت حقًا تعرف النساء؟

أحبني.. بكل ما لديَّ من صدق، ومن طفولة. وكل ما أحمل للإنسان من مشاعر جميلة. أحبني غزالة هاربة من سلطة القبيلة. أحبني.. قصيدة ما كُتِبَتْ.. وجنة على حدود الغيم.. مستحيلة ..

أحبني لذاتي. وليس للكحل الذي يمطر في العينين. وليس للورد الذي يلوّن الخدين.. وليس للشمع الذي يذوب من أصابع اليدين. أحبني تلميذة تعلمت مبادئ الحب على يديك، وكم جميلًا معك الحوار.. أحبني إنسانة.. من حقها أن تصنع القرار...

أحبني.. بوجهي الضاحك، أو بوجهي الحزين. في لحظة الهدوء، أو في لحظة الجنون. في قلقي.. في غيرتي.. في غضبي عليك.. في حنيني..

أحبني... من أجل حبي وحده.. لا للفراشات التي تطير من خزانتي، أو للمناديل التي تفوح من حقيبتي، أو للعصافير التي تنام في عيوني ...

أحبني، من أجل فكري وحده.. لا لامتداد قامتي.. أو لرنين ضحكتي، أو لشعري الطويل.. أو القصير.. أو جسدي المغزول من ضوء ومن حرير.. أحبني.. شريكة في الرأي والتفكير.. لا دمية من ورق.. أو حبة من عنب تؤكل في السرير!

أحبني.. حضارة، وقيمة، وموقفًا.. وامرأة شجاعة تحلم بالتغيير.. فالحب يا حبيبي.. قضية كبيرة.. كبيرة فهل تُـرى تعرف ما قضيتي؟ يا أيها العاشق، والفارس، والمكتشف الكبير.

أحبني.. برغم ما ارتكبته في الحب من أخطاء.. ولا تؤاخذني.. إذا غضبتُ.. أو رفضتُ.. أو سبحتُ عكس الماء.. ولا تعاتبني.. إذا أخطأتُ في كتابة الأفعال والأسماء.. فإنني، يا سيدي ما زلتُ في بداية الأشياء.. فأنت عن يميني.. والخوف عن شمالي. فكيف يا حبيبي سأقطع الصحراء؟

أحبني.. في أي شهر كان.. في أي عام كان.. في أي فصل كان.. تحت سماء الصيف، أو عباءة الشتاء.. وضمني.. وضمني.. حتى نصير قطعة واحدة وتسقط الحدود بين الأرض والسماء.

«نزار قباني»

□□□

(٦٣) محمود

بعد استمراري فترة طويلة من الكتابة لم أنقطع عنها إلا قليلًا، دونت فيها العديد من المواقف التي مرت في حياتي، حاولت أن أفسر لنفسي بعض المشاعر التي كانت تعتريني من فترة لأخرى، انقطعت عن الكتابة، وما عادت لي رغبة في كتابة أي شيء.

كل الذي قلناه كان كذبًا
زيف وزور وادعاء
ما زلت أتسأل لماذا حفرو القبور
ليدفنوا الموتي أم ليدفنوا الأحياء؟

«فاروق جويدة»

عاودت مرة أخرى الكتابة، بعد تجربة لا أستطيع أن أصفها إلا بالمؤرقة، تجربة هي انعكاس لنشوة وجنون مجتمع يحتاج أن يلقى به في الزبالة.. حتى بائع الروبابيكيا ربما يرفض شيئًا من المجتمع.. مشاعر مزيفة..

كله يحاول أن يقدم المبرر الأخلاقي لكذبه.. الشرف أصبح مشاعا، الكذب أصبح مهنة ترفع لها القباعات، النفاق أصبح التجارة الرابحة، والإنسان أصبح عملة نادرة.

ربما لا أستطيع أن أخترق غمار هذا الموضوع بكل جرأة كالماضي، ربما كل ما سأكتبه هي محاولة للالتفاف حوله دون أن أخترق حدوده، ربما تنقصني الشجاعة، أو يملؤني الخجل، أو حتى أهرب مما حدث،وهو ما لم أكن أتخيل أن أكون فيه ذات مرة.

□□□

كان هذا اليوم جميلًا مشرقًا، تبادلت مع منال كلمات الحب التي كانت تغلف حياتنا، تجاوزناها ببعض المداعبات التي كانت تنكرها منال بحنكة ودلع فتزيدني تعلقًا بها.

لا أستطيع أن أكمل...

□□□

(٦٤) محـمــــــــود

أيها السادةُ، لم يبقَ اختيار.. سقط المُهرُ من الإعياء، وانحلَت سيورُ العَرَبة، ضاقت الدائرةُ السوداءُ حول الرقبة، صدرنا يلمسهُ السيفُ، وفي الظَّهرِ: الجدار! ...

أ\ أمل دنقل

□□□

سأكتب، سأقتحم حصون النار وقلاع الشر، سأكتب ولن أخشى شيئًا، ما عاد في العمر شيء يبكى عليه، ما عادت في الحياة قيمة يعيش من أجلها الإنسان.

□□□

لا أنكر أنني عشت مع منال أجمل لحظات حياتي، أغدقت عليّ ما بخلت عليّ به الأيام، كانت إشراقة الأمل وبسمة الربيع المتفتح للحياة بأمل خفاق، فتحولت لخنجر يحفر في أعماق النفس البشرية لتظهر الحقيقة عارية من مخادع الخيانة والغدر والكذب...

أخذتني من الذرا ورمت بي إلى الثرى.

ما كنت أتوقع أن تنتهي ليلتنا الشاعلة إلى تلك الكارثة، حينما طلبت مني منال أن أصحبها إلى بيتها؛ لأنها ذاهبة إلى فرح أحد أقاربها، ولا تريد أن تتأخر بمفردها، طول الطريق لم تفارق يدي يدها، نظرة عينيها ما زالت عالقة في ذهني وأنا أرتشف من شفتيها كلمة «بحبك» حتى وصلنا إلى أسفل منزلها، جلست أسند ظهري إلى إحدى السيارات المجاورة لباب البيت وأنا أقول لها ...

- خلصي بسرعة وأنا مستنيكي هنا.

- ما تطلع بدل ما تقف لوحدك.

نظرت إليها نظرة ذات معنى وأنا أغمزها بنبرة دعابة لا تخلو من الإثارة..

- ومش خايفة!

- بلا نيلة هتعمل إيه يعني.

أجابت غير عائبة فتساءلت..

- وهتقولي إيه لبابا وماما مين دا.. صاحبتي سهام؟!!

- لا بابا وماما مسافرين من إمبارح البلد .

تسارعت دقات قلبي لا أعلم لماذا؟.. هل هي دعابة منها أم حقيقة، ما عادت الكلمات تكفي للشرح، وما عاد للعقل قدرة على التفسير، ساقتني

يد القدر كما يساق البعير.. اجتزت الردهة الأمامية لمنزلها القديم متتبعًا خطوات منال التي كانت تعدو بكل ثقة في طريقها غير ملتفة إليّ، وأنا أتابعها على درجات السلم قبل أن تدخل منزلها، وتترك الباب مفتوحًا لي.

انتظرتها كثيرًا أن توقفني لكنها لم تفعل، لم أسمع منها نهيًا، فتقدمت تسبق خطوتها خطوتي تتسارع مع كل خطوة تخطوها نحو الهاوية دقات قلبي.

أفيقي من الليلة الشاعلة

وردي عباءتك المائلة

أفيقي فإن الصبح المطل

سيفضح شهوتك السافلة

«نزار قباني»

كنت أحسبها جزءًا من جرأة منال التي ليس لها حدود، أو تحديًا منها لغرائزي التي حاولت كثيرًا أن أجذبها ناحيتي في لحظات إشراقها بحسي، ظننتها تتحداني بأني معها الآن في منزلها بمفردنا لا يصطحبنا إلا الشيطان، وليس أقوى على فعل شيء!!

جلست على كرسي الصالون المجاور لباب الشقة، في رسالة مني إليها أن تطمئن، فأنا لن أتحرش بها أو أستدرجها لشيء لم تكن هي عابئة أساسًا به.. كنت أسمع خطواتها في شقتها المتسعة، بينما كانت نظرات عيني

تتأمل كل تفاصيلها، لأجد منال أمامي خارجة من غرفتها، تطلب مني أن أساعدها في حمل حقيبة ملابس ورفعها فوق الدولاب وهي ترتدي ...!

كنت أتفهم بعض المشاعر الإنسانية التي تمتلك الإنسان، وتجعله يعيش في خياله بعض ما عجز أن يعيشه في الواقع.. مع زيادة معدلات الأسعار، وارتفاع سن الزواج فلم يجد الشباب إلا مواقع الإنترنت الإباحية، والحديث مع بعض الساقطات المتنفس لما يجيش في نفوسهم من أطماع، تعتبر هذه أقل الضررين إذا ما قورنت بما آلت إليه النفوس والأبدان في المجتمع المصري..

لا أعلم إذا كانت قد خططت منال لتسير الأمور على هذا المنوال، أم أنها الصدفة التي ألقت بها في هذا السبيل.

لم يكن هناك بد من الخطأ.. يعلم الله إنني لم أدبره.. وإن سعيت إليه كثيرًا مع فتيات من النت، مع بعض مغازلاتي مع منال، مع بعض محاولات في نفسي لكن لم تتجاوز أكثر من أماني النفس أطفئها بسرية تامة.

لم أكن يوسف في هذه اللحظة لأدعو الله...

﴿ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ ۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ [يوسف: ٣٣] صدق الله العظيم.

وكنت من الجاهلين وأصبت إليهن في ليلة شاعلة، حملت مشاعلها أضواء الغدر والغش والخيانة والألم واللذة المؤلمة.

حينما فقت من الكارثة التي ألمت بي، جلست على الأرض بجوار السرير أستجمع شتات أمري، وتنتابني رعشة في جسدي، ووخذة في قلبي أشعر معها أن دقات قلبي تتسارع، أسرع من عداء كيني في الأولمبياد، وتتباطأ كسلحفاة تسابق أرنبًا، الدموع تنهمر من عيني بصورة لم أستطع أن أوقفها، بينما منال جالسة على السرير تغطي ما بقي من جسدها بملاءة بيضاء، تظهر على وجهها علامات دهشة مصطنعة، وكأنها لم تكن تعلم بشيبها.

- اهدي بس وأنا هفهمك.

لم أكن أسمع صوتها، أو لم أعد أستطيع أن أستجمع ملامحه، بت أشعر أني أسمعه لأول مرة، حتى معالم الوجه كأني أشاهدها أول مرة، لم أر في هذه اللحظة في حياتي وجهًا أقبح من ذلك الوجه الذي كنت أشتاق إلى النظر إليه من قبل لحظات مضت.

ارتديت ملابسي في طرقة المنزل، وأنا أترك خلفي صفحة كنت عازمًا أن أنهيها تمامًا، بينما كنت أسمع صوت تلك المرأة الغريبة خلفي تهرتل بكلمات ما عدت أفهمها، وما عادت عندي المقدرة أساسًا على فهمها.

□□□

(٦٥) كشكول منال

وقالت: إنَّ ما يسميه الناس بالزنا والخيانة هو في الحقيقة طهارة وأمانة، ولا الجريمة ولا الغش ولا الخداع إلا أن تأذن المرأة لزوجها الذي تكرهه بالإلمام بها إلمام الأزواج بنسائهم ما دامت لا تحبه ولا تألف عشرته، وقالت: لو أدرك الناس أسرار الديانات وأغراضها لعرفوا أنَّها متفقة في هذه المسألة مع الشرائع الطبيعية، وأنَّها ربما تعدُّ المرأة في بيت زوجها زانية، وفي بيت عشيقها طاهرة، إذا كانت تكره الأول.

من كتاب «النظرات» للمنفلوطي

□□□

(٦٦) محمــــــود

هـو الـكـريـم أكـرمـنـا يـا رب

الطف بنا.. واغفر لنا وارحمنا يا رب

يا نور سيدنا النبي.. مدد يا رب

□□□

ثلاثة أيام متواصلة قضيتها بياتًا في مسجد السيدة زينب في رحاب المشهد الزينبي الجليل، تقدمت والدموع تنهمر من عيني، بينما خيوط نهار الصباح تخترق حجاب الليل، مع ارتفاع أذان الفجر لعلي أجد في رحاب الست الطاهرة ملجأ من عالم الأنجاس الذي أحيا فيه.

على الرغم من كثرة صلاتي في المسجد السيدة زينب، فإنني كنت قليل الزيارة لمقام السيدة، إلا أن هذه المرة كان يأخذني الشوق أن أنام في رحابه، الإضاءة الخضراء الخافتة، مع ألسنة البخور المتصاعدة تملأ الجو بهجة وراحة نفسية ورائحة المسك الرخيص والمعبأ في زجاجات باليد، يجلس بها درويش يدعى أنه مجذوب، يبيعها على باب الحرم الزينبي الممزوجة

برائحته النتنة، تغلف الجو بشيء ألفته نفسي وما زلت أجهله حتى هذه اللحظة، أصوات المبتهلين المتجمعين في دائرة يقرؤون في كتاب بهي ظاهر منه أنه طباعة قديمة، تعلوهم لافتة خضراء مكتوب عليها بقماش بارز أسود بطريقة بدائية حافظوا عليها طول هذه السنين.

«خدمة آل البيت»

الطريقة الأحمدية الإدريسية

«سيدي أحمد بن إدريس»

جلست أستمع إلى أناشيدهم، بينما أجسادهم تتقابل في ترنيمات منتظمة، تتناغم مع لحن إيقاعهم المتحكم فيه رجل يقف على قمة دائرتهم.

اللهم إني أسألك بنور وجه الله العظيم * الذي ملأ أركان عرش الله العظيم * وقامت به عوالم الله العظيم * أن تصلي على مولانا محمد ذي القدر العظيم * وعلى آل نبي الله العظيم * بقدر عظمة ذات الله العظيم * في كل لمحة ونفس عدد ما في علم الله العظيم * صلاة دائمة بدوام الله العظيم * تعظيمًا لحقك يا مولانا يا محمد يا ذا الخلق العظيم * وسلم عليه وعلى آله مثل ذلك * واجمع بيني وبينه كما جمعت بين الروح والنفس * ظاهرًا وباطنًا * يقظة ومنامًا * واجعله يا رب روحًا لذاتي من جميع الوجوه * في الدنيا قبل الآخرة يا عظيم *

أشتاق الآن أن أقف في وسط هذه الدائرة، وتتمايل أجزاء جسدي يمينًا ويسارًا، محاولًا أن أنسى هموم الدنيا وما فيها، مستمتعًا بكلمات مديح النبي وآل البيت الكرام.

اقتربت أكثر من المشهد الزينبي، أمسكت بحديده كامرأة ضل عنها ولدها في زحمة المولد، وتستنجد بها ترده إليها، ارتميت تحت عتبة المقام الرخامية وأنا أبكي، بينما يداي مثبتة بنحاس المقام المرتفع، وصوت تنهيداتي الممتزجة بدموع الألم يرتفع ليجذب نحوي أنظار كل العابرين للمقام بعد صلاة الفجر.

لا أعبأ الآن برأي الشيخ عبد القوي عن زيارة المقامات، ولا بناء المساجد على قبور الصالحين، فلتذهب إلى الجحيم يا عبد القوي، ولم أعبأ الآن بمنال وحياتها، ولا أريد أن أعرف من المتسبب في ثيبها، صديق قديم أو حبيب غدر بها، أو دكتور في الجامعة أخذه نظير تقدير جيد...

لا يهم فما عادت تهمني في شيء، لم أعبأ «بأبو حمزة المصري» وألغازه التي تنتهي، ولا نجلاء أختي الجالسة الآن على سرير في منزلها مع داية لا تريد الذهاب إلى المستشفى للولادة حتى لا تنكشف عورتها على طبيب رجل.

أمسكت بحديد المقام الزينبي كطفل يخاف أن يضل الطريق، ويمسك بجلباب أمه وسط زحام السوق، رائحة الرخام وأنا أقبله تعطيني راحة نفسية وقتية، لم أكن يومًا بمثل هذه الحالة عندما وجدت نادرًا أمامي مباشرة...

- إنت دخلت هنا إزاي؟!

- مساجد الله لعباد الله ما فيهاش تفتيش عن اسمك أو سنك أو لونك أو جنسك.. ولا حتى عن عبادتك.

- لكن إنت مسيحي... لا إنت ملحد إزاي تيجي هنا؟!

- أنا عاقل يريد أن يؤمن، وأنت مؤمن تريد أن تعقل.

- عايز مني إيه؟

- شايف إن دا الحل؟!

- حل لإيه.. إنت مش شايف حاجة.. إنت عمال تتأمل وتعملي نفسك بتفكر والدنيا حواليك بتولع ..لو دي الفلسفة.. فلتذهب إنت وفلسفتك لجهنم.

- إنت مرتاح كده؟

- بعدنا عن ربنا وتمسكنا بكل ما هو قبيح، ضاعت نعمة الراحة، وأصبحنا في شقاء مستمر، ضاعت نعمة السكن وأصبحنا في غربة مميتة، ضاعت الأموال في صالات القمار وتحت أقدام الراقصات، ذهبت النخوة من الرجال، فتبرجت النساء وخرجن من بيوتهن كاسيات عاريات إلى الشوارع، يخاطبن شهوات الرجال الذين لم يغضوا أبصارهم، انتشر الغلاء.. عجز الشباب عن الزواج، وعجزت العفيفات عن صون شرفهن، ذهبت الكرامة والكبرياء وأذل الحرص أعناق الرجال.

- مش عارف أقولك إيه.. يمكن إنت صح وأنا الغلط.. بس حاول تفهم الدنيا أدامك ماشية إزاي.

- دنيا إيه.. الموضوع بسيط إحنا اللي عقدنا.. في حلال وفي حرام، إنت بقى مش مقتنع بالحلال والحرام روح عيش براحتك ولما ربنا يوم القيامة يسألك قوله ماكنتش مقتنع بالحلال والحرام.

- أنا حاسس إني بسمع أبو حمزة المصري اللي بيتكلم مش محمود!

- للأسف أبو حمزة هو الصح وإحنا كنا الغلط.

- غلط يا محمود.. عقلك دايمًا يرشدك على الطريق الصح.. ربنا مادناش عقل علشان نخالف بيه شريعته.. هناك اتساق كامل بين العقل والشريعة، والاختلاف الظاهر دا بيبقي لقصور في فهم النص أو...

- من فضلك يا نادر الموضوع انتهى.. مش عايز أشوفك تاني أساسًا أنا عرفت طريقي.. طريق الله وحده ومش عايز عقلك يفيدني بحاجة.. يا ريت فعلًا ما أشوفكش تاني..

على الرغم من أن حواري مع نادر كان همسًا، فإن كل من في المكان كان يتابعني كأنني أتحدث مع نفسي! وكأنهم لم يروا نادرًا معي! كتلك النظرة التي كنت أتابعها في عيون كانت تشفق عليّ من التحدث مع نفسي.

□□□

مشهد (خلفي)

مكان ما تحت الأرض.. أو فوقه.

- بس غريبة اختيارك لمحمود.. مش كنا جبنا واحد من الأرياف أحسن؟

- بالعكس محمود هو أنسب واحد.

- معقولة هنقدر نقنع واحد مثقف يعمل عملية زي دي.. إنت سيد العارفين العمليات دي محتاجين ليها ناس بعقليات معينة، سذاجة وسطحية تقدر تقنعه إنها لحظة ألم واحدة من الانفجار بعدين هيلاقي طاقة النور أدامه، والحور العين مستنينه في الجنة.

- في لحظة ما تتساوى الثقافة مع السذاجة.. محمود دلوقتي بقى كائن مشوه مش عارف هو مين، ولا واقف فين، فقد إيمانه بكل حاجة، كل الثوابت بقت مشوهة في عينه، نقدر نشكله زي ما إحنا عايزين.. المثقف لما بيوصل لدرجة معينة من الثقافة ممكن تبقى نقمة عليه مش نعمة، وعقله يبقى أقرب لعقل الساذج البسيط مبقاش عارف فين الصح من الغلط، أبسط البيديهات ممكن تغيب عنه.

- مخاطرة كبيرة.

- بس أنا واثق فيها.

- وأنا كمان واثق فيك.

□□□

(٦٧) محمود

اختفاء نادر ..

كانت حادثة شهيرة، تابعتها مختلف الصحف وبعض القنوات التليفزيونية، بالطبع اختفاء صيدلي لم يكن هو الشغل الشاغل في هذا الوقت، فلم يكن بشهرة لاعب كرة ترك المران، وسافر سرًّا سويسرا، ولا راقصة تسربت صورها وهي في أحضان عشيقها، واحتل اسمها المركز الأول في محرك البحث الشهير google بحثًا عن صورها، ولكن طريقة الاختفاء هي التي كانت مثيرة.. حتى إن البعض قد ربط بينها وبين اختفاء الصحفي بجريدة الأخبار «رضا هلال».

كان ذلك بعد لقائي معه بمقام السيدة زينب، كنت أرى في عينيه الانهيار، فما عادت قواه قادرة على التكيف مع الواقع الجديد، وما عادت كلماته التي يسوقها تشفي غليل الطالب في المزيد والراغب فيه، عاد نادر في هذا اليوم كعادته إلى بيته، كما روت أمه في أحد برامج التلفاز التي ظهرت فيها غرفته فارهة الفخامة بخلفية صورة لغاندي وهو يتأمل بوجهه

النحيل، وعلى اليمين منها صورة لصليب كبير مرفوع عليه يسوع، بينما على الجانب الآخر كان هناك جزء من ستار الكعبة، وتتوسط الغرفة مكتبة بجوارها الكتب الشخصية لنادر، عليها جهاز اللاب توب الخاص به، وقد فوجئ ضباط مباحث أمن الدولة باختفاء كلّ الملفات التي كانت عليه.

كنت أجلس أشاهد والدة نادر، وقلبها يبكي قبل عينيها على غياب ابنها، وأنا في حالة خوف من ظهور مصحف القرآن الذي كان سببًا في خلاف بيني وبينه، لا أعلم لماذا؟! كنت أشعر أن نادرًا ربما يتصل ببعض القوى الخارجية التي كانت السبب في غيابه، خصوصًا فيما روت أمه من ملابسات اختفاء غريبة.

في هذا اليوم عاد نادر شارد الذهن مذبذب الأركان، ساكتًا تمامًا، لم ينبس ببنت شفة، على عكس عادته عند دخوله البيت، ومداعبته لأمه التي كانت دائمًا في انتظاره، دخل نادر- هذه المرة - ساكتًا متوجهًا إلى غرفته مباشرة، فتح المصحف الذي كان لا يفارق يده، بينما عيناه مثبتتان على شاشة اللاب توب الخاص به.

قبل أن يغلق نادر باب غرفته عليه لبضع دقائق، ولم تشأ أمه ازعاجه، وتركته لعل في الأمر أمرًا، كم تمنت ساعتها أن يكون نادر يمر بتجربة حب تخرجه من حالة التوهان التي كان يعيش فيها، وبدأت تثير إزعاج كل من يتعامل معه!.

قبل أن تسمع صوت طرق على باب المنزل، فتتوجه معه إلى الباب تسترق النظر من الطارق، بعد أن يئست أن يستجيب نادر لجرس الباب، كان على الباب عامل أحد محالات الوجبات السريعة «كنتاكي» يقف بابتسامته المعهودة! يمسك في يمينه حقيبة الأكل ذات وجه الخواجه الشهير، وفي يساره فاتورة الحاسب وهو يتساءل ..

- شقة ٣٧ أستاذ نادر؟

- أيوا يا بني.

- ٦٥ جنيهًا يا فندم.

كانت هذه أول مرة ترى نادرًا يطلب فيها وجبة سريعة يأكلها، وهو الذي كان طول عمره ينتقد نمط الحياة الغريبة ووجباتها السريعة، حتى إنه ورغم أن معظم يومه كان خارج البيت فإنه كان لا يأكل هذه الوجبات التي كانت دائمًا سببًا في بعض الخلافات مع أصدقائه في مرحلة ما، وكان الخروج في الصيف عبارة عن أكلة في أحد مطاعم الوجبات السريعة ذات اللافتات الكبيرة المضاءة دائمًا في ليل القاهرة الهادئ.

لم تعبأ والدة نادر بذلك التصرف الغريب على ابنها، والتي باتت لا تعرف عن سلوكه شيئًا واضح المعالم، خصوصًا في الفترة الأخيرة، استلمت الأكل.. أغلقت الباب.. وضعته على مائدة الطعام، وباتت تفكر في الأمر! هل تنادي عليه ليأخذ أكله في خلوته التي اختلى بها بنفسه لعدة ساعات؟

بدأ الشك يتسرب إلى قلب الأم مع حالة الهدوء التامة التي كانت تسود الشقة، تقدمت من الغرفة التي كانت مغلقة، طرقت عليه الباب بعد أن استمعت لذلك الصوت الغريب الذي باتت لا تستطيع أن توضح ملامحه.. هل آيات قرآنية أم تراتيل وابتهالات صوفية، أم صلوات مسيحية، حينما هالها الرعب، وقررت اختراق ذلك الحاجز النفسي.

عندما فتحت باب الغرفة صدمت من هول ما رأت، نور الغرفة غير مضاء إلا من شعاع بسيط خارج من شاشة اللاب توب، يعكس إضاءة بصورة مرعبة على خلفية الحائط الأمامي، الأصوات الممزوجة التي ما كانت تستطيع أن تميزها باتت أكثر وضوحًا، ولكن في نفس الوقت باتت أكثر إثارة للرعب في نفسها، باتت تميز بضع آيات من القرآن بصوت الشيخ محمد رفعت الذي كان نادر يرتاح لسماعه، مع صلاوات عيد الميلاد المجيد التي تحفظ بعضها، ولم يكن عسيرًا عليها تمييز كلماتها، إلى جانب بعض التراتيل الصوفية غير واضحة المعالم، كلها تخرج في نفس الوقت من جهاز اللاب توب الذي انطفأ تمامًا مع إنارة والدة نادر نور الغرفة.

لم تلقي بالًا لذلك، ربما يكون اللاب فرغت بطاريته من الطاقة، ولكن أين نادر؟ لم يستغرق الأمر بضع لحظات، استدارت بنظرها في الغرفة لتلاحظ عدم وجوده.

على الرغم من حالة الرعب التي كانت تملكها، وأخرستها تمامًا عن الكلام، أو حتى النداء عليه، فإنها حاولت أن تكذب إحساس ملأها..

لعله يكون في الحمام، توجهت إليه، كانت الإضاءة واضحة، ظاهرة من المسافة الفارغة القصيرة بين الباب والأرض، طرقت عليه الباب بهدوء، لم يجب، استجمعت ما تبقى في أحبالها الصوتية من قوة ونادت عليه، فلم يجب، لم يكن أمامها سوى فتح هذا الباب الأخير، هل حدث لابنها مكروه، صوت مياه متدفقة من صنبور بانيو ممتلئ على آخره ويتساقط الماء على الأرض، ملابس نظيفة معلقة على شماعة بظهر الباب، صابونة وشامبو وفوطة نادر موضوعة بجوار البانيو.. ونادر غير موجود.

فقدت ما تبقى لها من هدوء، وتملكتها حالة هستريا، جالت في أركان الشقة تقذف كل ما تقابله يدها، وهي تنادي عليه..

نـــــــادر...

لم يكن مغادرة نادر الشقة ضمن حساباتها، لم تترك مجلسها على كرسي الصالون أمام التليفزيون المجاور لباب المنزل منذ أن رأت نادرًا يدخل الشقة، ولم تلمح خياله من ساعتها، ولن تلمحه مرة أخرى.

انتشر خبر اختفاء نادر كالنار في الهشيم، والده جاء يسأل عليه في الصيدلية كطفل ضل طريقه، اجتمع كل العاملين بالصيدلية باديًا الاهتمام على وجههم، يسمعون أغرب القصص عن اختفاء نادر.. من رجل ثكل ابنه، وبان مترهل الوجه رث الملابس.

جاءت والدته إلى حيث أقبع تحت كوبري «أبو الريش» حيث سور الكتب القديمة، تساءلت عن نادر، امتلكني الحزن والألم المصطنع على

اختفائه، زرفت دموع تماسيح مصطنعة أمسحها بمنديل ورقي كان في جيبي، وأنا أعاهد الله أمامها أنه لن يغفل لي جفن قبل أن أعرف أين نادر، وأرده إليها ردًّا جميلًا.

تابعت مع المتابعين الأخبار، سرت في الأرض بحثًا عنه، تثيرني نظرة الشفقة على وجوههم الكئيبة، وأنا أضحك في نفسي، الجميع يبحث عن نادر وأنا الوحيد الذي أعرف مكانه.. الجميع يبحث عن نادر، ولن يجدوه بعد الآن.. نادر الذي كان يملأ الدنيا ضجيجًا مات ودفن، بت أتذكر نظرات الشفقة في عينيه تستنجد بنظرة رحمة في عيني، بينما كلتا يدي مطبقة على رقبته، وهو يصارع الأنفاس الأخيرة قبل أن تفارق روحه الجسد، منهيًا حياة ذلك الكائن الغريب الذي ما عادت له حاجة في حياتي.

مات نادر إلى الأبد ..

□□□

(٦٨) محمــــــــــود

حالة من السخط على المجتمع والناس والنساء والرجال والشيوخ تملكت مني، ما عدت أستطيع أن أعيش في هذا المجتمع ولا مع هؤلاء الناس، فقدت الإيمان بكل القيم العلوية، شعرت أنها مجموعة من الشعارات الجوفاء التي يتشدق بها البعض في العلن لينتهكها في السر، ليستمتع بارتكاب الفعل في الخفاء، الجميع يحاول أن يقدم لنفسه المبرر للخطأ!

كنت أجلس أمام كشك عم عبد القوي أتابع المارة أمامي شارد الذهن تمامًا، تمر أمام عيني بنت في ربيع عمرها، يسير بجوارها شاب، ربما تجمعهما علاقة عاطفية تظهر بوضوح في نظرة عيونهما التي يبدوعليها الشوق، بينما أنا سارح في خيالي في هذه النظرة، وما تخفيه وراءها من مصائب وأسرار، هل هي فعلًا تحبه أم أنه مجرد ارتباط عاطفي في سن المراهقة، تحاول الفتاة في علاقتها به إشباع هذه الحاجة، وهي على يقين أنها ستكون لغيره، ربما يكون ذلك الشاب أيضًا يضحك عليها، يمثل عليها دور الحب باقتدار، يستشيط غضبًا عندما تخبره بأن زميلًا لها يكلمها يسألها عن ميعاد المحاضرة، يكمل التمثيلية بالغيرة المصطنعة، التي لو كانت صحيحة لغار

عليها من جسدها العاري الذي بات متعة للسائلين في الشارع، تكمل هي دورها لتصديقه، بعد أن ترسم على شفتيها ابتسامة الرضا.

- «أد إيه بحب غيرتك علي».

ملابس النساء أصبحت تثير حفيظتي، لم تتغير، ملابس متبرجات لا تستر العورات، أو تخفي مفاتن الجسد.. تخاطب شهوات الرجال، أتعجب لم يقبل لزوجته أو ابنته أن تخرج بهذا الشكل المهين لكرامتها وكرامته إلى الشوارع؟! يسوق لنفسه أوهامًا خادعة، يكذب بها على نفسه قبل أن يكذب بها على الآخرين.

- « كل إنسان حر يلبس اللي هو عايزه».

- «اتحكم أنت في نفسك ماتتحكمش فيا».

- «إنت بتقولي لبسك ضيق على الرغم إنك مسألتنيش بصلي ولا لأ».

- «إنت مش هتحاسبني».

- «لو مش قادر تتحكم في غريزتك روح أعد في حديقة الحيوان».

كلمات حق لا أنكرها، كلمات حق أريد بها باطل، بل عين الباطل، بل حق الباطل، كلمات حق لا يجب أن نستخدمها لتقديم المبرر للعهر الجسدي الذي بات متفشيًا في مجتمعنا.

لقد خلق الله عز وجل الكون على أساس المنظومة الثنائية.. ذكر وأنثى، سالب وموجب، شمال وجنوب، غني وفقير، وهكذا، كما أن هناك أوامر

محددة للشاب بغض البصر، فهناك أوامر للبنت بالاحتشام في الملبس، فلماذا نخلط الأمور؟!

غض البصر واجب حتى لو تبرجت النساء، والحجاب بشروطه واجب حتى ولو بين أطهر الرجال.

ولولا أن الله يعرف أن منا من لا يستطيع أن يتحكم في شهواته، وغض بصره ما أمر نساءنا بالحجاب، ولولا أنه يعلم أن بيننا متبرجات ما أمرنا بغض البصر.. هي منظومة ثنائية.. تحدث العفة عند غض البصر، والاحتشام في الملبس.

إن المجتمعات العلمانية الحديثة، ومنظمات تحرير المرأة، وحقوقها المنتشرة في مجتمعاتنا الشرقية كالنار في الهشيم، بهذه الخلفية الثقافية المغايرة لعادات وتقاليد الشرق، والتي تنادي كذبًا بتحرير المرأة، لا همَّ لهم إلا أن يسعوا إلى تحويل المرأة إلى سلع استهلاكية، تفقد معها آدميتها وعقلها وشخصيتها، ويتم اختزالها فقط للترويج للسلع الاستهلاكية بالنماذج الغربية التقليدية في إعلانات التليفزيون على القنوات الفضائية.. إن هدفهم ليس حرية المرأة، ولكن قضيتهم الأساسية هي حرية الوصول إلى المرأة.

يحضرني الآن مقولة للدكتور عبد الوهاب المسيري في كتاب له وقع تحت يدي صدفة، عندما جاء أحد الشباب يبيعه لعم عبد القوي الذي رفض شراءه؛ لأنه غير رائج في السوق، فقمت أنا بشرائه من الرجل مباشرة؛ لذا

سأنقل ما كان نصه في هذا الكتاب، ربما استطاع أن يوضح هذا الشخص العظيم ما يدور في أغوار نفسي من أفكار...

«... وقد نجم عن هذا انتشار الإباحية، ليست الإباحية التقليدية، و إنما إباحية من نوع جديد، فالإباحية القديمة تفترض أن الجنس إنساني، وأنه يمكن استغلاله لهذا السبب عن طريق عرضه بطريقة مغرية يسيل لها لعاب الذئاب والملائكة، ولكن الإباحية الجديدة إباحية ديمقراطية «علمية» تفترض أن الجنس طاقة محايدة، يمكن استخدامها في التحكم في هذه الوحدة الاستهلاكية التي كانت الفلسفة القديمة تطلق عليها اصطلاح «إنسان»! واختيار الجنس كوسيلة للتحكم في الإنسان يدل على ذكاء وفطنة، فالجنس نشاط بيولوجي حتمي، ولكنه في الوقت نفسه ذو بعد اجتماعي، وبالتأكيد على الجانب البيولوجي على حساب الجانب الاجتماعي دون إلغائه كليةً، يخلق المجتمع العلماني الشامل الخلطة السحرية والتوازن المنشود، فأنت قد تملك سلوكًا اجتماعيًّا، ولكن سلوكك ستحدده حسابات بيولوجية بسيطة ومحدودة، انظر مثلًا إلى كريم الشعر هذا، إن استخدمته وقعت كل الفاتنات في شباكك، وأنت يا سيدتي إذا شربت هذا الدواء- الذي أظهرت التقارير الطبية فيما بعد أن مضاره أكثر من نفعه- فأنت ستتمتعين بجاذبية جنسية بعد شربه، وأنت أيها العجوز ...».

لا تعليق بعد كلام الدكتور/ عبد الوهاب المسيري

لم أنقطع عن التأمل في مزريات الحياة خلال هذه الفترة، رغم انقطاعي التام من الذهاب إلى الصيدلية، لن أستطيع أن تلتقي عيني في عين منال مرة أخرى، ما عدت حتى أتحمل النظر إلى وجهها الذي كنت أبات الليل أحلم أن يمضي ساعاته كي أنعم بنظرة من مقلتيها في الصباح، ما عادت رأسي تحتمل تفسيرًا يقبل منها هذا الفعل، أو أي مبرر أخلاقي يسمح للبنت أن تكون ساقطة ومومسًا، أن تقدم نفسها لرجل غير زوجها تحت أي مسمي أيًّا كان.

قرأت قليلًا في فلسفة الماديين بسذاجتها التي أتعجب أن يؤمن بها البعض، أن الفعل الذي يتبعه لذة يصبح فعلًا أخلاقيًّا، وأي فعل يصحبه ألم يصبح فعلًا غير أخلاقي، فأصبح الإنسان مرجعية نفسه، دون قاعدة مجردة يقيس عليها من حين لآخر مدى انحرافه عن هذا الطريق.

جاءت إلينا هذه العلمانية العفنة والليبرالية النتنة لتدمر كل ثوابت الدين وقواعده، وتقدم كل المتغيرات على أنها البديل الجديد لقيم المجتمع المطلقة التي بات البعض يرى أنها متخلفة، فأصبح الإنسان مرجعية نفسه، إذا سألت بنتًا لماذا تفعلين هذا؟ يكون ردها نموذجًا للعقلية العلمانية، وإن لم تكن تعرف معناها...

- «بابا عارف إني بعمل كده».

وكأن حكمة بابا تعلو أوامر الله عز وجل - سبحانه عما يصفون - وكأن بابا أصبح هو المرجعية النهائية لثوابت الدين ونواهي العرف، فضاعت الثوابت، واختلطت القواعد إلا ما رحم ربي.

مشـــهـــد (خــلــفــي)

«إن في بلادنا من يدافع عن حرية الإلحاد والسكر والزنا بلسان طلق، فإذا تحدث عن حرية الإيمان والعفاف واليقظة الفكرية امتعض واشمأز، فهل يجر الهزيمة إلا مثل هؤلاء الدواب؟!»

الشيخ محمد الغزالي

□□□

(٦٩) مريم سعيد

في مكان أشبه بالسيرك الذي كانت تشاهده منال في الأفلام العربية القديمة، وقفت على باب إستديو إحدى أشهر القنوات الفضائية ذائعة الصيت، ينتظرها شاب في منتصف العقد الرابع من عمره بابتسامة مهذبة، وهو يعرفها بنفسه.

أسامة خليل.. مساعد مخرج ومعد البرنامج، شرفنا حضورك د/ منال.

ردت منال على مجاملة أسامة بابتسامة خاطفة، لم تستطع أن تخفي وراءها قلقها ورهبتها من هذا المكان، سارت منال مع أسامة متخلفة عنه ببضع خطوات، تنظر في الممر الطويل الذي كانت تنتشر فيه قطع الديكورات في كل مكان في الإستديو، ميزت بعضًا منها لبرامج شهيرة، تظهر على خلفية شاشاتها هذه الحوائط الملقاة على الأرض.

رد أسامة على أسئلة رآها في عينها دون أن تنطق بها..

- دي ديكورات البرامج التانية.. لما بيكون في هواء أو تسجيل بتتجهز غير كده بتتركن على جنب.

ثم مد يده وأشار إلى أريكة فاخرة، وطلب منها الانتظار، قبل أن يسألها عن مشروبها الذي تطلبه...

- كوب ماء.

مرت بضع دقائق منذ أن غاب أسامة عن منال، كانت تتابع فيها منال خلية نحل تعمل داخل هذا السيرك المنصوب، عمال إضاءة بملابسهم الرثة يحملون كشافات كبيرة، يسيرون بها لا تعلم من أين يأتون بها ولا أين يضعونها؟! عمال معلقون على أسقف بأحبال، ويرفعون حائطًا مصنوعًا من الكارتون المقوى على شكل بيت فلاحي قديم.. مخرج يجلس في مكان بعيد على كرسي خشبي قديم، يدخن سجائر بشراهة، يتحدث مع الجميع بعصبية، لا يخلو كلامه من سب الدين والشتيمة بأقذر الألفاظ، بينما ينظر الجميع إليه بخوف وغضب، على بعد بضع خطوات من مكانها بدت ملامح إستديو البرنامج الشهير تكتمل أمام أعينها، بعد أن أنهى العمال رفع الحائط الكبير الذي كان يشكل الخلفية الأساسية لديكور البرنامج، بينما الإضاءة بدأت تتسلط على الصالون المذهب الذي سيشهد الحوار.

لم يمر الكثير من الوقت حتى قدمت د/ يارا فؤاد معها بنت صغيرة في مقتبل العمر، على الرغم من الملابس الغالية التي كانت ترتديها، فإن علامات الفقر تبدو في نظرة عينها التي لا تخفيها ملابس.

تقدمت د/يارا وتبادلت السلام مع د/منال، ودخلتا في حوار جانبي عن

محمود، قبل أن تقتحم خلوتهم المذيعة المشهورة مريم سعيد تشاركهم جلستهم، بحضور أسامة مساعد المخرج ومعد البرنامج، وبدأت د/ يارا الكلام بلهجة حازمة...

- إحنا مش جايين هنا علشان نشتم في محمود، ونقول إنه المريض النفسي المجنون، محمود كان إنسان، بس يمكن إنسانيته كانت أكبر من وقاحة حياتنا، مستحملش العيشة في عالم الكذب والنفاق والخيانة، محمود كان أنقى من إنه يعيش معانا.

وهنا تدخلت مريم سعيد، وهي تحاول أن تهدئ من جو الحوار؛ لأن علامات الانفعال باتت واضحة على وجه يارا، وأرادت مريم أن تخرجها من هذا الجو قبل بدأ التصوير...

- وعلشان كده أنا جيباكوا هنا، جايبة الدكتورة اللي تعرف كل حاجة عنه، وجايبة حبيبته اللي هتحكيلنا عن إنسان حبته، حلمت تعيش معاه حياتها، دا ماينكرش إن كلنا بنرفض اللي محمود عمله، بل لازم نحطه في إطار المجتمع المشوه اللي إحنا عايشينه.

أعادت كلمات مريم سعيد الهدوء مرة أخرى إلى يارا التي باتت تكمل حوارها بنبرة صوت أهدأ...

- محمود كان إنسان، بس إحنا بجد اللي بقينا حيوانات، محمود عاش في مجتمع مريض، مش عارف هو عايز إيه، محمود كان نتاج هذا المجتمع، في عوامل كتير أدت للي حصل دا، محمود ملقاش حد يفهمه.. حتى نادر اللي

كنت شايفة إنه يقدر يعمل توازن نفسي في حياة محمود اختفي، اختفى في ظروف غامضة، أظن كان ليها الأثر للي محمود وصله.. شخصية زي نادر كانت ممكن تعمل توازن في حياة محمود.

وهنا تدخلت د/ منال في الحوار بعد أن خفت الرهبة التي كانت متمسكة منها بعض الشيء..

- مين نادر دا أساسًا؟! أنا قريت مذكرات محمود لقيته بيتكلم عن شخص اسمه نادر معانا في الصيدلية مر بتجربة إلحاد؟

أجابت د/ يارا متعجبة من كلام د/ منال..

- إنت اللي بتسألي مين نادر دا؟ المفروض إن إنت اللي تجاوبي، دا زميلك في الصيدلية قبل محمود مايبجي أساسًا؟

أجابت منال...

- أنا بقالي في الصيدلية سبع سنين محاش فيها واحد اسمه نادر، ولا بالصفات دي أساسًا، أنا مستغربة جدًّا ليه محمود حط اسمه وسط شخصيات حقيقية فعلًا.

ظهرت علامات الدهشة على وجه د/ يارا وهي تقول وكأنها تتحدث مع نفسها...

- يعني نادر شخصية من خيال محمود، ليس لها وجود.. عارفين دا معناه إيه؟.

التقطت طرف الخيط مريم سعيد بعد أن كانت مكتفية بمتابعة الحوار بين د/ منال ود/ يارا، لتجيب على سؤال د/ يارا..

- دا معناه إن محمود مر بفترة إلحاد؟!

يارا فؤاد..

- فعلًا.. مر بفترة إلحاد بس بيئته المحافظة ماقدرش يصارح بيها الناس، ولا يصارح بيها نفسه، فطلعها في شخصية خيالية اسمها نادر، حتى الاسم بيدل على الغربة والتفرد.. نادر.. وقتل نادر اللي هو كتبه دا كان قتل لدور العقل في حياته.

د/ منال.. محمود فعلًا هو اللي كان إنسان نادر فريد، كان متدين جدًّا.. إيمان صادق، كلنا حاسين بيه، إيمان إنسان فعلًا بيحب ربنا، بس كانت جواه كمية تفاعلات وتناقضات، جواه كمية مشاعر وأحاسيس.. جواه كل حاجة وعكسها.. محمود حالة لو اتكررت تاني يبقي على الدنيا السلام.

صوت المخرج ينهي الحوار بصورة عصبية، مع اقتراب الساعة من العاشرة مساء وهو يقول...

ستاند باي سكوت هواء

□□□

(٧٠) محمــــــــــــــود

نرجع تاني لسمر...

كنت قد اشتقت إليها، يبدو أن أحمد زكي كان محقًّا، فامرأة واحدة لا تكفي.. اتصلت بها، كنت أتابع اكتمال اسمها على شاشة الهاتف يعطي انتظار إجراء المكالمة بشيء من التوتر، إلى أن اخضرت الشاشة، وانفرجت أسارير قلبي الذي سعد بسماع صوتها، كانت محادثة عادية مثل كل مكالماتنا، لا تخلو من جو وكيل النيابة الذي يستجوب متهمًا، أحاول أن أعيد أسئلة كررتها على مسامعها مئات المرات، لعلي أحظى بإجابة مختلفة، يتضح لي منها كذبها، وفي مضمون الحوار تكون لي سببًا ومبررًا في المزيد من الضغط عليها لاستجوابها، وإجبارها على اعترافات بت لا أعرف إذا كانت تمزقني أم تريح قلبي!

- إنتِ فين دلوقت؟

- في المترو محطة عزبة النخل.

- ليه؟!

- مستنية واحدة صحبتي.. ميعادي معاها الساعة ٧.

- دا لسه بدري قوي الساعة ٣؟

- هعمل إيه مش هلحق أروح وأرجع.

- ادخلي على النت اتعرفي على ولد جديد.. إنتي بتضيعي وقت؟!

- دمك تقيل على فكرة.

- بقولك إيه ماتيجي نتقابل، أنا في محطة السيدة زينب.. نص ساعة وأبقى عندك.

- لا خليك أنا هجيلك.

- بجد؟!

- والله.. مش مصدق ليه؟!

- بقالي سنين بتحايل عليكي نتقابل وعلى غفلة كده توافقي.

- لما أشوفك بقي سلام علشان ألحق أرجع تاني.

□□□

ذهبت إلى الشيخ «أبو حمزة» أجلس معه بعض الوقت، قبل لقائي مع سمر، كانت تعتريني مشاعر الخجل من نفسي وأنا أسمع كلمات الإكبار من الرجل، بينما أنا على ميعاد غرامي، أعلم أن البعض ربما لا يعطي لمثل هذه المواعيد ثقلها، ويعتبر أنها حدث عادي، أما أنا فما زلت أرفضها،

رغم أني مقدم عليها الآن! مضت نصف ساعة بسرعة، لم أكن أتخيلها عندما أضاءت شاشة الموبايل باسم سمر، معلنة عن وصولها إلى محطة مترو السيدة زينب، على عجل والقلق يملؤني، اعتذرت للشيخ «أبو حمزة» مستأذنًا منه في مشوار نصف ساعة، فرد عليّ وعلى وجهه ابتسامة سخرية...

- روح يا بني ربنا يهديك.

أشك أن هذا الرجل يعرف عني كل شيء!.

بينما أحاول أن أسرع خطواتي حتى لا أتأخر عن سمر التي كانت تقف على سور سلم المترو العالي، كاشفة ذلك الممر الطويل لأكشاك الكتب، كانت صورتها كما رسمتها في مخيلتي تمامًا.. ذلك الوجه الأبيض الناصع، هادئ الملامح، جميل القسمات، لفة طرحة بسيطة، بملابس واسعة، وإن كانت ترتدي بنطلون قماش أصفر، وجهها الملائكي لا يبدي صورتها الشيطانية التي كانت تصاحبها في خيالي.

كنت دائمًا أتخيل نفسي أجلس في صالونات أحد البيوت المصرية البسيطة، وتخرج لي من إحدى الغرف سمر بملامح وجهها الهادئة، تقدم لي كوب عصير البرتقال، والحياء يملأ وجهها من العريس الذي ينظر إليها، عندما أشاهدها والحياء يغلفها يرفرف قلبي فرحًا من أنها العروس التي بت أحلم بها، حياءً، أدبًا، تدينًا.. واضح أننا بتنا في زمن الأقنعة.

سرنا معًا متجاورين بعض الشيء، كان الصمت صفتها التي تخفي خلفها

حقيقتها، بت أطيل النظر في ملامح وجهها الهادئ.. لا أنكر أني أعجبت بها أكثر.. وجه أبيض كبياض القمر لحظة اكتماله، ملامح هادئة تبعث الطمأنينة والراحة في القلب، حتى نبرة الصوت في الكلمات القليلة التي قالتها تسمعك أجمل الألحان، كان هذا الوقت كافيًا لترتقي بقلبي إلى سابع سماء.. كانت كلما أطلت النظر إليها ازدادت خجلًا.. لا أعلم هل هو خجل مصطنع أم حقيقة؟! ولأني كنت سعيدًا بلقائها، كنت قد عزمت قبل قليل ألا أتطرق في حديثي معها إلى أي موضوعات من شأنها تثير حفيظتها أو تجلب الخلاف، كنت ما أتمناه لقاء هادئًا أترك فيه دور وكيل النيابة، وأريحها من بعض استجواباتي لها، ولو على سبيل المكافأة لها على لقائها معي.

- ها.. غريبة إيه اللي خلاكي توافقي؟

- الحلم.

- حلمتي بيا؟!!

- حلمت حلم غريب قوي.. حلمت إني واقفة في غرفة ضلمة لوحدي.. عريانة خالص.. وكل الشباب اللي اتعرفت عليهم واقفين يبصولي عايزين ينهشوا جسمي، وسنانهم طويلة ليها أنياب وأنا عمالة أصرخ وإنت واقف في وسطهم.

- إنتِ اللي عملتي في نفسك كده يا سمر، ميت مرة أقولك بطلي تتعرفي على شباب على النت وسيبي الشات دا.. إنتِ بقيتي مدمناه، والشاب اللي

داخل على النت عمره ماهيخاف عليكي دا داخل يتسلي.. هياخد منك اللي عايزه و يرميكي يشوف غيرك لما يزهق منك.

- الشيطان يعظ.

- صح فعلًا.. أنا الشيطان و إنتِ الملاك.

ساد الصمت بيننا بضع لحظات قبل أن نكمل حديثنا، بينما ننعطف بالطريق يمينًا تاركين ميدان السيدة زينب خلفنا متجهين إلى شارع خيرت، حيث بعض الهدوء المؤقت، بينما تستجمع سمر بعض شجاعتها، وتذهبت عنها بعض علامات الخجل الذي ما زلت أصر أنه لم يكن مصطنعًا...

- عارف يا محمود.. إنت مكنتش بتغير على ولا بتحبني، ولا حتى كنت عايزني أحسن، إنت كنت عايزني أغلط معاك إنت بس، حتى لما طلبت تقابلني دلوقتي، مش علشان نفسك تشوفني.. لا علشان تاخد مني حاجة ماخدهاش حد تاني.. غرورك الذكوري عايز يخليك متميز على كل الرجالة اللي عرفتهم.

ساد الصمت بضع لحظات قبل أن أكمل حديثي، كلماتها لا أعلم لماذا أدخلت السرور على نفسي؟ وكأني بها أشفى من لهيب حبي لها، أتبرأ أمام نفسي من غيرتي عليها.. فعلًا أدخلت كلماتها البهجة على قلبي، على عكس ما كانت تحمله في طيها من اتهامات و إساءات، ولكننا بتنا أحيانًا نفتخر بكل ما هو قبيح هروبًا من شيء ربما لا نعلمه.. أو نعلمه ولا نريد الاعتراف به.

- عارفة يا سمر، زمان كنت بحب حضنك قوى لما كنت ببقى مخلوق أجري أدور عليكي على النت موجودة ولا لأ.. علشان أترمي في حضنك كنت بحس بحالة حب غريبة، رغم إني مكنتش عايز منك حاجة، لا رقم تليفون ولا صورة ولا حتى مقابلة، دا أنا يمكن آخر واحد تديله كل حاجة، كنت بجد بحب أتكلم معاكي بس، كنت بحس معاكي براحة غريبة، أعد أرغي بالساعات من غير لا خجل ولا كسوف، ولا بأعمل حساب لكل كلمة.. بحس براحة، لكن دلوقت أنا بأرف قوى، حاسس لو اترميت في حضنك هشم عرق كل الشباب اللي اعدة بتتكلمي معاهم على النت.

- إنت شايف إننا جايين نهزأ بعض؟!

- أنا اتخنقت.. سمر.. مش عايز أشوفك تاني.

□□□

(٧١) أبو حمـزة المصـري

من الصعب أن يكون أبو حمزة المصري بمثل هذه الحالة.. سيطرت عليه حالة التوتر منذ أن غادر محمود المكان.. لم يستطع أن يمكث مكانه أمام كشك بيع الكتب تحت كوبري» أبو الريش».. غادر المكان على وهن متوجهًا إلى منزله بحي السيدة نفيسة.. بخطوات متباطئة وئيدة الحركة صعد درجات السلم المتهالك، متوجهًا إلى الشقة القديمة التي اتخذها محمود مقرًّا له في الآونة الأخيرة.

في غرفة أطلق عليها «غرفة الكراكيب» لم يعبأ أبو حمزة المصري بكمية الأتربة اللاصقة على جميع مفروشاتها القديمة المتهالكة، التي صبغت جلبابه الأبيض الزاهي بلون التراب الرمادي، بمجرد أن جلس على أريكة مقابلة لشباك الغرفة الوحيد الذي تتسلل منه أشعة الشمس، من خلف درفاته الخشبية المتآكلة والمكملة بورق من كارتون يظهر منها بواقي كلمة (شيبسي) بينما عينه لم تفارق البيانو القديم المغطى بأكمله بالأتربة، لتمتد إليه يده يضغط على أول وتر صادفه، صادرًا رنينًا أشبه بأنين عمره الذي أكله الحقد والظلم والكره.

استقبل رسالة صوتية على هاتفه المحمول، علم منذ قدومها بأنها التسجيل الصوتي لآخر مكالمة من مكالمات محمود التي أعادت بعض البسمة على شفتيه، وهو يجول في خاطره «الشباب عاملين شغل كويس» فمنذ اللحظة الأولى التي وضع فيها محمود تحت أعينه، كانت كل مكالمات محمود على الهاتف ورسائله الخاصة على الإنترنت محل رصد، وتصل إليه أولًا بأول.

استمع إلى مكالمة سمر مع محمود والهدوء يملؤه، كأنه يحتسي فنجان القهوة الخاصة به على صوت فيروز، يشدو في صباح يوم جميل.. علت ثغره ابتسامة ثقة من المكالمة، وبات أقرب إلى الوصول إلى غايته.

«لو محمود رجع هيبقي زي اللعبة في إيدي.. المقابلة دي ممكن تكون النهاية في مرحلة التهيؤ، وندخل بعدها في مرحلة التمكين».

□□□

وقف أبو حمزة المصري يلف ببصره أرجاء الغرفة المفعمة بالأتربة، يتأمل أيام الزمن الغابر، وقت أن كانت هذه الغرفة تمتلئ بالحب والحيوية والحياة.. الغرفة التي شهدت لعب فترة الطفولة مع أخته، وتأنيب أمهما لهما، واختفاءه منها أسفل السرير، وهم يلعبون «استغماية». وذلك كله قبل أن يفاجأ بطرقات متسارعة على باب منزله، حينما كان شابًا في مقتبل العمر، حديث التخرج من كلية الطب، ليشاهد أمامه صديقًا قديمًا له من نفس بلدته أتيا معًا إلى القاهرة مع أسرتيهما يحدوهما الأمل، وهو

غارق في دمائه التي تنزف من أكثر من مكان، يتضح منه ثقوب طلقات الرصاص المنتشرة في جسده.. تقدم منه حاول أن يسنده، فأخذه وسقط على الأرض، وهو يحاول أن يفهم منه أي كلمة من كلماته، لم يستطع أن يميز منها إلا كلمة «بموت يا نجيب» منعته تلك اليد التي لم يلاحظ صاحبها إلا عندما استوقفته من الاتصال بالإسعاف لنجدة صديقه، وهو ينهره عن ذلك.. حاول نجيب (قبل أن يصير «أبو حمزة المصري») أن يوضح لذلك الكائن أن الحالة خطيرة، وتلزمها غرفة عمليات فورًا مجهزة لذلك، والتأخير قد يودي بحياته، إلا أنه كان من الواضح أن حياته ليست بالقيمة التي يحافظ عليها، مقابل اكتشاف سرهم. لم يمتلك د/نجيب في ذلك الوقت من الأدوات التي تستطيع أن تسعفه، إلا بواقي أدوات التشريح الذي كان يستخدمها لتشريح الضفادع والفئران في أبحاث الكلية، والتي لم تكن مهيأة من الناحية الطبية، ولا من حيث التعقيم لتفي بالغرض، إلا أنه أمام تلك العينين الغاضبتين التي كانت ترمقانه، بدأ يعبث بجسد صديقه، وهو يعلم أنها لحظات و يلفظ أنفاسه الأخيرة التي ارتاحت من سماع دوي سرينات عربات الشرطة التي كانت تحاصر المكان، ليجد الدكتور نجيب نفسه مكبل اليدين ملقى على وجهه تحت أقدام اثنين من مخبري جهاز الشرطة.

كل ذلك قبل أن يخرج من السجن بعد عدة أعوام ليصبح «أبو حمزة المصري».

□□□

(٧٢) محمـــــــود

ما أحزنني أني سعدت برؤيتها.

كنت أجلس أمام كشك عبد القوي، أمسك في يدي غصن شجرة جافًا منزوع الأوراق، أرسم على أرض الشارع الفاصل بيني وبين كشك الكتب دوائر غير منتظمة الشكل، أتخيل فيها بين حين وآخر اسم منال، كانت رائحة عطرها تهفو من بعيد، ظننت أنها أحلام اليقظة تداعب خيالي المريض، لم يساورني شك أنها هي، ما أحزنني أني سعدت برؤيتها، كانت رائحة عطرها تملأ الجو برائحة ذكريات الصيدلية، التي ما كانت بعيدة عن خاطري.. لا أنكر أنني انتابتني حالة نشوة وفرحة عندما رأيتها أمامي.. لا أعلم السبب، ربما هو شعور الحب الذي سيطر عليّ.. شعور الحبيب الذي يلاقي حبيبته بعد طول غياب.

فلما التقينا بعد طول تباعد

تحيرت هل أطوي الأسى أم أعاتب

فقلت وما جدوى العتاب إذا التقي الأحباب

فإن الأشواق هن الغوالب

وأثرت صمتًا.. عل في الصمت راحة

لقلب شجي مزقته النوائب

أ/ محمد البرعي

أم كانت السعادة نابعة من الإحساس الذكوري الذي كان يؤنبني في الفترة الماضية، لكم كنت أشتاق إليها!.. ليس حبًا فيها، ولكن رغبة في حفظ كبريائي أمام نفسي، أريد أن أشعر بأهميتي عندها، بأني لست تجربة من تجاربها ومضت..

لا تشعريني أن عمري كان عندك ليلة

ومضت كما يمضي الزمن

فالعمر بعدك لحظة خرساء تسبح في الوجود

بلا وطن

لا تشعريني بأنني أصبحت يومًا عابرًا وطويته

فأنا لا أبيع العمر يا عمري ولا أرضى بالثمن

أ/ فاروق جويدة

حاولت كثيرًا أن أخفي عن نفسي سعادتي برؤيتها، ولكن ليس هناك مفر، كانت عودتها لي كعودة الروح إلى الجسد، وقفت أمامي، خشيت

أن أرفع نظري لأتأمل وجهها.. غالبت شعوري وإن انتابني الارتياح لما رأيت.

كان وجهها باهتًا، انطفأت فيه شموع البهجة التي ألفتها فيه، عيونها ذابلة منكسرة، لم أر فيها نظرة التحدي، جفون متورمة تخبر عن بكاء ليل طويل، خاصم النوم فيها عيونها، كانت حالة يرثي لها ..

عاودني إحساس الحزن مرة أخرى، إحساس الألم، شعرت حقًا أنني لم أكن أحبها، بل كانت محاولة مني لترويض هذا الوحش الجامح الذي رأيته أول يوم لي في الصيدلية، وكانت نظرة الانكسار في عينها التي استمتعت بها الآن هي لحظة التتويج بتاج الإمارة.

عاودني شعور الدونية من ذاتي الحقيرة التي كانت تستمتع بلحظة انكسار إنسان، حاولت أن أبحث لنفسي عن سبب آخر للسعادة لنظرة الحزن التي رأيتها في عينيها، وانعكست فرحًا في قلبي، وأظنها كانت الأقرب إلى الحقيقة.

كنت أريد أن أتأكد أنها تألمت لما حل بنا، كما تألمت، كنت أريد أن أشعر بنبرة الندم في صوتها على ضياع حلمنا، كنت أريدها أن تشاركني إحساس الضياع المتملك مني خلال الفترة الماضية.

ما عادت الكلمات تجدي في وصف مشاعر عجز الإنسان عن تفسيرها، حتى لحظات آلامنا وأفراحنا ما عدنا نستطيع أن نفسرها، اختلطت المشاعر، وضاعت في غيابات رماد حياتنا.. أصبحنا كريشة تتقاذفها رياح الأقدار، تحملها كيفما شاءت إلى ما تشاء.

- سبتك براحتك لحد ما تهدي علشان نعرف نتفاهم، الكل بيسأل عليك في الصيدلية، قلتلهم إنك كلمتني وخدت أجازة علشان تعبان.

- تفتكري في بينا تفاهم؟

- لازم تفهم إني مش إنسانة وحشة، أنا إنسانة ليا مشاعر وأحاسيس ممكن أضعف، حبيت، و إنت عارف إني كنت مرتبطة أيام الجامعة، عملت كده مع اللي بحبه، ودا مش غلط.

- اللي تعمل كده من غير جواز تحت أي مسمي تبقي مومس.

- أنا مستعدة أعمل أي حاجة مع اللي بحبه.. كلمة أنا بحبك عقد.

ما كان بي طاقة ولا رغبة في مجادلتها، فأشحت بوجهي عنها، واستمررت أداعب أتربة الأرض بغصن الشجرة الذي في يدي، أهرب به من نظرتها، بينما أخذت هي نفسًا عميقًا، وما زالت مثبتة عينيها في عيني، كنت أراقبها وأنا لا أنظر إليها، ولكني أشعر بنار الغضب تخرج من مقلتيها، قبل أن تخرج من حقيبتها ورقة تمدها أمامي، مددت يدي- والفضول يملكني- أقرأها كانت عقد زواج رسمي - ليس عرفيًا - بشهادة شهود وختم وتوقيع مأذون، اسمها يتصدر عقد الورقة، بينما شلت المفاجأة تفكيري..

- متجوزة ؟!

- إنت شايف إيه؟!

- وليه مش قولتيلي؟!

- إنت دلوقتي شايفني شريفة؟!

- طبعًا.. إنت كنت على زمة راجل.

تعالت ضحكاتها تملأ المكان، وكأنها كانت في رهان مع نفسها وفازت به، قبل أن تعاود الكلام مرة أخرى..

- الشرف عندك حتة ورقة؟!! رجل شرقي متخلف.

سمعتها منها كثيرًا، اتهامي بأني رجل شرقي متخلف، لم أعبأ به يومًا ولم يمثل في بالي إهانة، بل كنت أتخذه وسام شرف أفتخر به ..أتجادل معها فيه.. أدافع عنه، ولا أنكر أنني شعرت بالراحة بعض الشيء بعد أن علمت أنها متزوجة ...

- يعني إنت مش همك إني عملت معاك من غير زواج، بس همك إني عملت مع غيرك بالزواج؟! اللي خلاني أعمل معاك يا محمود هو اللي خلاني أعمل مع غيرك، افهم بقى.. شرف البنت مش ورقة.

- ممكن سؤال يا منال؟

قلتها وأنا ألتفت إليها ونظري مثبت في نظرها، يملؤني التحدي أن أنهي هذا الحوار في هذه المرة لصالحي، ولن أهرب هذه المرة من مناقشتي لها إرضاءً لحبها.. كانت ضحكتها إذنًا باستكمال السؤال ودليلًا على موافقتها دون إيماء برأسها.

- لو اتجوزنا.. وكرهتيني لأي سبب، وحبيتي واحد تاني.. هتنامي معاه برده وإنت مراتي علشان بتحبيه؟

لم أشعر إلا وصفعة تهبط على خدي، أرجفت جسدي كله وهي تردد علي..

- اخرس يا حيوان.. إنت عارف يا محمود أنا عمري ما ندمت على حاجة عملتها في حياتي، إلا أني عرفت إنسان متخلف زيك.

لم أستطع حتى أن أشعر بالغضب، وهي تكمل كلامها قبل أن تغيب نهائيًا عني.

- ومش هريحك، هخليك عايش طول عمرك حاسس إنك مخدوع، أنا نمت معاه قبل الجواز، كمان أساسًا الورقة دي كتبهالي بعد ما انتهت العلاقة بنا علشان عارف إننا عايشين في مجتمع متخلف بيوزن شرف البنت بورقة.

□□□

(٧٣) منال

ما زالت هذه الليلة البعيدة ماثلة في ذاكرتها، عندما خرجت من مستشفى قصر العيني والدمع يملأ عيونها، وهي تحمل في حقيبة يدها الورقة التي كانت تحلم بها طول عمرها، أن يمتزج اسمها باسمه فيها.

ما كان لهذا السرطان اللعين أن يتركهما ليفرحا بحياتهما التي رسماها معًا تحت ظلال شجيرات كلية الصيدلة بين المحاضرات.. كان إبراهيم مناضلًا ثوريًا، تعرفت إليه منال في إحدى المظاهرات، عندما دخل اشتباك مع عساكر الأمن المركزي الذي اعتدوا على الطالبات، بالقرب من الحرم الجامعي في إحدى المظاهرات المناهضة للتطبيع مع إسرائيل، لينال ما ناله من ضرب قبل أن ينقل لإسعافه.

عاشت معه حلم الثورة على أنغام موسيقى الشيخ إمام، وأشعار أحمد فؤاد نجم، بينما صورة جيفارا تغطي نصف غرفته أعلى سطوح إحدى عمارات وسط البلد التي كان يسكن فيها منفردًا، والتي شهدت لحظات متعتهما ونشوتهما وجنونهما.

لم تشعر منال بالأمان في حياتها إلا بجوار إبراهيم، في المظاهرة بينما عصا الأمن المركزي تتهاوى على أجسادهم، كانت نظرة من عينيه في الطرف الآخر من المظاهرة، وهو يرفع يده يحاول أن يحتمي من العصي الهابطة عليه، تثير في نفسها أمان الدنيا، يتبادلان فيها الابتسام، حتى وهي نازلة من شقته فاقدة عذريتها، لم تشعر بالخوف للحظة، أعطته باسم الحب أغلى ما تملك، وكانت قادرة على إعطائه المزيد.

رفضت تكرارها، طلبت منه أن يجعلها بعد الزواج، لم تسأله متى يأتي إلى والدها يطلب يدها ليستر عليها، كما كان يتوقع منها، بل كانت تثق فيه ثقة تامة، تركت معها نفسها الهائمة في أحضان حياته.

لم يكن إبراهيم يحارب الإمبريالية الأمريكية وحدها، بل كان يحارب مرض السرطان اللعين داخل جسده لفترة طويلة، دون أن يعلم، قبل أن يكتشفه الأطباء في حالة متأخرة جدًّا.

- لوكميا... سرطان في الدم.

دمعة جرحت حياتهما الجميلة، وهو يبكي لا يعبأ من الموت، لكن يبكي خوفًا عليها كيف سيتركها في هذه الحياة، وهو يشعر بالمسئولية.

كانت دائمة الزيارة له بعد أن قلت زيارة الأصحاب تدريجيًّا، بات الجسد نحيلًا، وعلامات الموت ظاهرة على جسده عندما دخلت عليه، بعد أن أرسل في طلبها مع صديقتها المقربة في هذا الوقت، لتجده

راقدًا على فراش المرض مغمض العينين.. اقتربت منه، مدت يدها لمست يده، فوهبت له من حلاوة الحياة، ما لم يستمتع به كثيرًا.. نظرت إلى الغريب الجالس في الجبهة المقابلة، وعاودت النظر إليه متسائلة عنه...

- دا مأذون.. هكتب عليكي دلوقت.. دي آخر مرة هتشوفيني فيها؛ لأني هطلب من الدكتور يمنع الزيارة، عايز آخر صورة تفضل في خيالك عني وأنا قوي، مش عايزك تشوفيني والسرطان بياكل جسمي.

حاولت أن تخفي دمعتها، إلا أن الموقف كان أكبر من أن تتوارى فيه المشاعر.. مدت يدها تمسح الدموع من عيونها وهي تداعبه..

- عايز تضحك عليا وتكتب عليا في المستشفي من غير حتى فستان فرح.

لم تضحكه مداعبتها.. كان كل ما يشغله أن يؤدي رسالته الأخيرة في هذه الدنيا، قبل أن يرحل منها غير آسف على عمره وحياته.

- عايز أسيبك وأنا مطمن، الناس مش هترحمك في المجتمع المتخلف دا.. من فضلك ريحيني.. دا آخر طلب مني.. أرجوكي.. خليني أكتب عليكي وحسش بذنبك.. مش عايز أقابل ربنا بذنب بنت بريئة.

- إبراهيم.. أنا طول عمري بحلم إني أكون مراتك.. لكن مش بالطريقة دي.. مش إثبات حالة.. عايزة أقعد في الكوشة بالفستان الأبيض، أمشي

جنبك في الزفة متعلقة بإيدك، والناس بتبص عليا وأنا مكسوفة وإلـ
بتحتويني زي ما كل مرة بتخاف عليا وبتحتويني.

قاطعها بنظرة ألم، وبصوت حزين يتهالكه مرض الموت..

- بلاش تضحكي على نفسك الموضوع انتهى.. سيبيني أنقذ ما يمكن إنقاذه.. وأسيبك وأنا مطمن عليكي.

□□□

(٧٤) كشكول منال

وبنحبك يا دنيا بجد
ومهما تعملي فينا
بنصحى بشوق يفوق الحدّ
ونحضن بكره بإيدينا
وآه من بكره وعمايله
وآه م اللي الزمن شايله
وآه من حلم عالي لفوق
ولسه الكف مش طايله
يا دنيا دبت أنا فيكي
وتوهتيني في عنيكي
أموت لو عشت من غيري
وأعيش لما أموت فيكي
يا أرض الخوف يا لامانا
أمانة تسيبي جوانا
براءة طفل كان عايز يشوف الصبح ويانا

كان ياما كان
كان فيه عصفور
قلبه صغير
ريشه قصير
حلمه يرفرف بره السور
كان إنسان من طين، من نور
كان بيدور ع اللي يخضر
قلب الناس القاسي البور
كان ياما كان قلب الحدوتة رق وحن
على البنوتة في زمن اتجن
زمن الناس في قلوبها وحوش
زمن الغاب والناب ووشوش
تحزن غش وتضحك زور
كان ياما كان أحلام بضفاير قلب وبس
ذنبها إيه لو قلبها طاير حب وحس
بنوتة في حدوتة تنام
وبتجري وراها الأيام
هي وكل بنات الحور

تتر مسلسل سارة

(٧٥) محمـــــــــود

كان صوت صراخ أختي يتعالى، بينما أنا وعبد القوي نجلس على الأريكة الرئيسية في مدخل البيت، وسط حركة كاريكاتيرية كالتي نشاهدها في الأفلام العربية القديمة للحظة الميلاد، ووصول الداية، وصوت أناس غريبة تطالب بمياه ساخنة! بينما دقات قلب الجميع تتسارع انتظارًا لوصول الفرج «المياه الساخنة بالطبع».

كنت مع عبد القوي ننتظر لحظة امتزاج صوت الصراخ الأنثوي بالبكاء الطفولي لنتبادل البهجة، لم تكن حالة عبد القوي تشجع على الكلام، أشعر في الفترة الأخيرة بتغيره تجاهي، لأسباب لا أعرفها، خصوصًا بعد اعتراضه على نوعية الكتب التي كنت أقرأها، لم أسع في مثل هذه الأجواء لاستقراء أفكاره، أو جذب طرف الحديث معه، إلا عندما لاحظ اسم الكتاب الذي كنت أقرأ فيه.

ميلاد التراجيديـــا

نيتشـــــه

- إنت مش هتبطل تقرأ كتب الكفر دي؟

- الفلسفة مش كفر يا عم عبد القوي.

- كتاب الله فيه كل حاجة.. ليه تتعب نفسك في كلام فاضي.. اقرأ قرآن أحسن.

لم أشأ أن أبادله حوارًا تكرر معه مرارًا، بعد أن بت أهرب بنظري في الكتاب الذي صب فيه نيتشه جام غضبه على العقل متمثلًا في فلسفة سقراط..

«إن البهجة الميتافيزيقية في التراجيديا ترجمة للحكمة الديونيسيوسية الغريزية غير الواعية إلى لغة من الصور: فالبطل، وهو أعظم تجل للإدارة يدمر لإسعادنا، وذلك لأنه مجرد ظاهرة، ولأن الحياة الأبدية للإرادة لا تتأثر بتأثيره، فالتراجيديا تعلن «أننا نؤمن بالحياة الأبدية»

نيتشه

علا أخيرًا صوت بكاء طفل جديد، يبكي على حضوره لهذه المسرحية الهزيلة المسماة بالحياة، بينما توجه عبد القوي مسرعًا إلى الغرفة، عله يطمئن على سلامة نجلاء، واحتفاء بالمولود الجديد، وهو يرفع كلتا يديه إلى السماء يهلل الله ويكبره ويحمده على ما أعطاه.

إن الفلاسفة والأخلاقيين يخدعون أنفسهم إذا اعتقدوا أنهم يخلصونها من الانحلال الأخلاقي، عندما يشنون

الحرب علية فقط، إن الخلاص ليس في وسعهم، وما اختاروه كوسيلة وخلاص هو نفسه مجرد تعبير آخر عن الانحلال، إنهم يغيرون طريقة التعبير عن الانحلال، ولكنهم لم يتخلصوا من الانحلال نفسه.

نيتشه

خرج عبد القوي والفرحة بادية على وجهه، جلس في نفس مكانه الذي لا يغيره ثابتًا، جامدًا، وكأنه راكب يحافظ على مكانه في سيارة أجرة مزدحمة، يقوم من مكانه ليتيح الفرصة للراكب المجاور له أن ينزل في محطته، بينما هو يخشى على كرسيه من أن يأخذه أحد الواقفين.. رفع عبد القوي يده يدعو الله بما لم أستطع أن أستجمع ملامحه، قبل أن يدعوني إلى الدخول للاطمئنان على نجلاء.

يا أصدقائي، آمنوا معي بالحياة الديونيسيوسية وبالميلاد الجديد للتراجيديا. لقد انتهى عصر الرجل السقراطي، فلتتوجوا أنفسكم باللبلاب، ولترفعوا رماحكم في أيديكم، لا تندهشوا إذا رأيتم النمر والأسد يجلسان عند أقدامكم في مودة، تشجعوا فقط لتكونوا تراجيديين؛ لأنه يجب أن تكونوا أحرارًا. أحب أن ترافقوا المركب الديونيسيوسي البهيج من الهند إلى بلاد الإغريق فلتعدوا أنفسكم للصراع العنيف، ولكن لتقعوا في معجزات إلهكم.

نيتشه

خالي بالك من نفسك يا محمود، إنت مش عاجبني اليومين دول.. دايمًا سرحان ومش مركز.. مش بتروح الصيدلية، غير بقى كمان علاقتك بأبو حمزة المصري دي مش مطمناني... يا بني إحنا ناس غلابة ومش حمل بهدله.. إوعى تبهدلنا أنا وأختك الغلبانة دي معاك.

لقد طرد ديونيسيوس من على خشبة المسرح التراجيدي بواسطة قوة شيطانية تتكلم من خلال يوربيدس، وحتى يوربيدس كان قانعًا بمعنى ما: إن الإله الذي تكلم من خلاله لم يكن ديونيسوس ولا أبوللو، لكنه إله حديث الميلاد يسمي سقراط. هذا هو التعارض الجديد بين الديونيسيوسى والسقراطي، وبسبب هذا التعارض تحطمت التراجيديا الإغريقية.

نيتشه

□□□

انقطع التيار الكهربائي.. ساد الظلام، ما عادت العين قادرة على الإبصار، توقف العقل عن إدراك المحسوسات التي يترجمها البصر، توجه عبد القوي لإشعال شمعة تضيء المكان، عكس ضوؤها الخافت ظلال المصحف الشريف المجاور لها على الحائط الأمامي للأريكة ...

□□□

(٧٦) منـــــــــــال

على باب مدينة الإنتاج الإعلامي، وفي منتصف ليل القاهرة البارد، وأمام حشد السيارات المسرعة على الطريق الدائري، لا تلمح منها إلا ومضات كشافاتها الأمامية فقط، بينما تمتد صحراء من الليل بطول النظر أمام منال التي كانت تقف في انتظار سيارة أجرة تركبها لتعود بها إلى منزلها، عندما خرج خلفها مسرعًا أسامة معد البرنامج الذي لم يسقط نظره من عليها طوال الحلقة، وما كانت نظراته تخفى عليها.

- د/منال.. إنتِ مش معاكي عربية؟

- لا أنا هاخد أي حاجة من هنا.

- طيب أنا رايح قريب من المعادي.. تحبي أوصلك؟

نظرت منال له باستغراب وهي تقول له...

- وإنت عرفت منين إن أنا ساكنة في المعادي؟

- إنت نسيتي إن أنا معد البرنامج، وكنت بجمع عنك معلومات علشان أعرف أتصل بيكي.

نظرت منال إلى الطريق السريع والسيارات المنطلقة كطلقة في فضاء ليل القاهرة، فوجدت أن الركوب مع أسامة أقل خطرًا من ركوب ميكروباص في هذه الساعة المتأخرة من عمر الليل، فكانت كلمة موافقة منها عبارة عن أنها سارت معه بضع خطوات مطأطئة رأسها، ضامة شفتيها بامتعاض في رسالة منها إليه أنها ركبت معه على مضض قبل أن يفتح لها باب سيارته الفيات ١٢٨ الحمراء.. سيارة قديمة متهالكة.. ظهرت نظرة الخجل على وجه أسامة وهو يقول لها...

- حمارتك العرجة.

لم تجبه منال حتى بابتسامة مجاملة، فظل الصمت مطبقًا على السيارة التي كانت تسير بسرعة بطيئة نوعًا ما بالمقارنة بالسيارات المنطلقة بجوارها، لا ترى منها إلا طيف خيالها، وهي تمر بجوارها ليحاول أسامة أن يفتح الحوار...

- تعرفي إني معجب بشجاعتك قوي.

- نعم؟!

مش بهزر، إن بنت في المجتمع اللي إحنا فيه دا بكل تخلفه وعاداته، أو بمعني أدق عاهاته وتقاليده تخرج برا التابو دا وتظهر على التليفزيون أدام الناس تدافع عن حبيبها اللي الناس كلها أساسًا كرهاه دي شجاعة، أتمنى بجد إنك تقبليني كصديق؛ لأنه يشرفني أن يكون في حياتي شخصية زيك.

- أستاذ أسامة، أنا مبصاحبش، ومش كل يوم مصاحبة واحد، ومش معنى إني قبلت إنك توصلني بعربيتك إني بقيت سهلة، تقدر تاخد منها ميعاد وتقابلها، ولا معناه إنك اصطادت بنت وتمشي معاها.. أنا بنت راجل قوي، وأرجل من أي راجل إنت عرفته.

ظهرت علامات الخجل على وجه أسامة، ظهر في تركيزه على الطريق ويده المثبتة على عجلة القيادة، بينما الرعشة في يده الأخرى التي تحرك عصاية السرعة، وهو مطبق عليه يخفي بها توتره.

كما شعرت منال بمدى تسرعها في الرد على أسامة مثل هذا الرد، ولكن نظره الذي لم يفارقها طول الحلقة وقبلها، نظرة الرجل الشرقي المتخلف لبنت كانت مرافقة رجل، وتظهر على شاشات التليفزيون تدافع عنه، دفاع الشباب عن حرية البنات، و إشادتهم بالبنت المتحررة ليصلوا إلى غرضهم منها، ثم البحث بعد ذلك عن بنت خام ليتزوجها، كلها كانت أحاسيس تعتريها وهي ترد على أسامة.

ساد الصمت مرة أخرى داخل السيارة، فيما بات الطريق الدائري خلفهما، وظهرت منه شوارع وسط البلد المزدحمة بالمارة، وبإنارة المحلات، وزحمة السيارات التي شجعت منال على استكمال الحوار...

- إنت بتشتغل مساعد مخرج ومعد برامج الاثنين مع بعض؟!!

- أنا أساسًا مساعد مخرج، بس إعداد البرامج جه بالصدفة لما كنت بساعد في إعداد حلقة مع السيد حمدين صباحي رئيس حزب الكرامة.

قبل أن يسود الصمت مرة أخـرى، حاول أسامة أن يلتقط طرف الحوار...

- دا غير إني أمين لجنة الشباب بالحزب، ومدير حملة الدعاية للسيد حمدين صباحي في حملته الانتخابية القادمة.

- ما شاء الله إنت باين عليك شاب نشيط ومثقف جدًّا.

رد عليها أسامة بصيغة لا تخلو من السخرية، والابتسامة تعلو شفتيه...

- وعندي شقة مطرحين وصالة وعفشة مياه.

تعالت ضحكات منال على مداعبة أسامة الذي ظهرت على وجهه ابتسامة راحة لجو المرح الذي غلف رحلتهما، رغم بدايتها العصيبة قبل أن يعيد معها الحوار.

- عندنا ندوة في نقابة الصحفيين يوم الخميس الجاي عن» دور الاشتراكيين في خدمة المجتمعات الفقيرة في عصر ما بعد الحداثة».. تحبي تشرفينا؟

- أكيد طبعًا.. أنا من زمان ماحضرتش (إيفنتات) سياسية.. دي فرصة سعيدة إني أرجع تاني للنشاط العام.

- خلاص هكلمك لو كده نروح الندوة مع بعض.

- و إنت عرفت رقمي منين؟

- ليه مصممة تنسي إني معد البرنامج، وأنا اللي اتصلت بيكي أول مرة.

□□□

(٧٧) سعيد مرجان

كحال كفار قريش الذين صبوا جام غضبهم على هذا الدين الجديد الذي يفرق بين المرء وزوجته، وأفسد عليهم حياة اللهو والترف كان حال سعيد!.

أنهى المأذون إجراءات الطلاق، وغادر البيت يملأ قلبه الحقد والغضب على كل ملتح، وكل منتقبة تداري وجهها بنقاب، تمنى أن تصدر الدولة قوانين تحرم لُبس الحجاب والخمار، كما في الدول التي تحررت من قيود الدين، وفتحت آفاق الحرية على مصراعيها لتتنسم أولى شذرات الحياة.

كل ذلك كان بعد سويعات قليلة من مغادرة سعيد مقر الجهاز، ومقابلته مع رئيس الجهاز، ليتوجه مباشرة إلى مقر آخر من مقرات الجهاز المنتشرة كالنار في الهشيم في شتى أنحاء البلاد، ليدخل إحدى غرف التحقيق على المحقق الشاب الذي كان يجلس خلف المكتب، أمامه ملقى على الأرض الشيخ عبد القوي معصوب العينين يرتجف جسده رعشة من الرعب.

تقدم سعيد وخلع جاكته الرمادية ماركة «موباكو»، وعلقها بكل هدوء

على شماعة كانت مجاورة للمكتب، ليظهر قميصه وردي اللون، مخططًا بسواد حمالة المسدس الكلاسكية التي اعتاد سعيد أن يرتديها تحت ملابسه، كنوع من أنواع الهيبة تضفيها عليه أثناء التحقيقات.. رفع سعيد قدميه على المكتب في وجه عبد القوي الملقى أمامه.. معصوب العينين لا يعي من أمر الدنيا حوله إلا همهمات، تتناسب مع همهمات التسبيح التي لم تنقطع من فمه منذ الصباح.. حذاؤه بني اللون ذو الوجه المدبب، والذي كان يعتني به أكثر مما يعتني بزوجته، يواظب على تنظيفه - بنفسه أحيانًا - وهو يقلب أمامه بعض أوراق التحقيق، بينما نظرة الاشمئزاز لم تفارق وجهه، وهو ينظر إلى الأوراق، قبل أن يقلب الباقي منها بسرعة لا تستطيع معهما أن يستجمع معالم كلمة واحدة، ليلقى الورق كله على الأرض، وهو يوجه خطابه للمحقق الشاب...

- إيه الهبل دا.

- دا يا فندم اللي عرفنا نطلع به منه.

- عشان إنت فاشل وهتفضل طول عمرك فاشل، أحسن روح أقعد جنب أمك في البيت «أطف» لها ملوخية، بدل ما كنت تيجي تحقق مع المجرمين دول.. دول ولاد كلب مينفعش معاهم الكلام دا، دول لازم يخدوا بالجزم.

تقدم سعيد من عبد القوي الذي كان ملقى على الأرض، ولكزه بقدمه في جنبه الأيمن الذي كان ملقى عليه، بعد أن أفاق عبد القوي على هذه

الضربة التي لم يكن يتوقعها، على الرغم من أنه وعى بكامل التفاصيل هذا الحوار الذي دار منذ قليل.

حاول عبد القوي أن يستجمع بعض شتات قوته، و يقوم من على الأرض، ويرفع جسده من على الأرض، بينما تعوقه يداه المقيدتان خلف ظهره، وعيناه المعصوبتان، وثقل جسده الذي ما فتئ يرتعش مع زيادة ضربات قلبه التي كادت تسمع بالأذن المجردة، والتي بدأت تتسارع مرة أخرى، وهو يشعر بالدماء تجف في شرايين القلب (المركب بها دعامات) بينما مد سعيد يده إلى لحيته يجذبه منها، حاول معها عبد القوي القيام، حتى يتجنب هذا الألم الناتج من شد لحيته، بينما سمع صوت سعيد يخاطبه..

- عارف دقنك دي هنتفهالك يا بن المرة لو متكلمتش..

- يا بني أنا راجل كبير وأد أبوك، وعامل عملية في القلب ومش حمل البهدلة دي.. أنا بقول اكتبوا اللي إنتو عايزينه، أنا همضي عليه.

- أبو يا إيه يا بن الكلب، إنت تشبه نفسك بأسيادك يا حقير يا بن القحبة.. إنت هتمن علينا بالاعتراف! إنت هتتكلم و إنت حاطط الجزمة في بوقك بدل ما هحطهالك في حتة تانية.. فاهمنى طبعًا.

- يا سعادة البيه....

لم تسعف لطمات سعيد المتتالية على وجه الشيخ عبد القوي أن يكمل كلمات الاستعطاف التي قاطعها سباب الدين الذي لم ينقطع من فم سعيد.. وسب عبد القوي وبعض مشايخ الإسلام.

كان تركيز سعيد في أسئلته...

- تعرف فين أبو حمزة المصري؟

- محمود قالك إيه قبل ما يموت؟

- مش إنت اللي عرفت محمود على أبو حمزة؟

- مين آخر واحد شاف محمود قبل الحادثة؟

لم يكن لدى الشيخ عبد القوي أي إجابة جديدة يهدئ بها ذلك الثور الهائج، وتلك النيران المشتعلة في صدر ضابط التحقيق، فوض أمره لله.. تلقى اللطمات على وجهه، وفي صدره تحمل بوز حذائه المدبب المعد أساسًا للعمل في البيئة الصحراوية، وهو يشاهد طيف زوجاته الأربع يسيرن أمامه، وأولاده الصغار يلعبون في الشارع بكرة أعدها لهم من خيوط قديمة، فيما زالت صورة نجلاء بمصيرها المجهول تطوف في رأسه، وكأنه يشاهد حياته كلها كفيلم سينمائي قصير يعرض أمامه، مع توالي ضربات حذاء الضابط سعيد على صدره، وهو ملقى على الأرض يحاول كتم أنفاسه الأخيرة، مفوضًا الأمر كله لله.. مع تسارع رعشة الموت الأخيرة.

لاحظ ضابط التحقيق الشاب الذي ما زال موجودًا في غرفة التحقيق الحالة التي كان عبد القوي عليها، حاول أن يتدخل ليوقف شيطان سعيد عن الاستمرار في تعذيب الرجل الذي ظهرت عليه علامات الاحتضار،

وظهرت غرغرة النفس الأخيرة، فيما يكمل سعيد ضربه لعبد القوي، وهو يخاطب ضابط التحقيق الذي اصفرت أساريره، وهو يشاهد علامات الموت تداعب وجه الشيخ.

- ابن الكلب بيمثل دلوقت يقوم زي القرد.

أنهى الجسد الهزيل ارتعاشته الأخيرة.. نزلت غرغرة الموت من فمه تملأ لحيته البيضاء، حتى صرخة الموت لم تمنح له، ارتاح الجسد نهائيًا من رعشاته، وفارقت الروح الجسد وذهبت إلى بارئها.

لم يع سعيد ما يحدث، إلا بعدما لكمه ضابط التحقيق في صدره ليلقيه على الأرض، وهو يقول له والفزع يملأ عينيه...

- كفايا إنت بتعمل إيه الراجل مات.

□□□

انتشر خبر وفاة الشيخ عبد القوي كالنار في الهشيم داخل أروقة الجهاز، لم يستطع الطبيب النوبتجي أن ينشط القلب بالصدمات الكهربائية، وأقر الجميع بالخبر، وتناقلته الأجهزة السرية داخل الجهاز،على الرغم من حالة الذهول التي سيطرت على وجه سعيد للوهلة الأولى، فإنه حاول أن يستجمع شتات أمره، وهو يشاهد جسد الشيخ عبد القوي ملقى على أريكة المكتب بنية اللون عاري الجسد نهائيًا إلا من قطعة قماش تستر عورته، وقطعة أخرى لفت بإحكام حول رأسه، تغلق الفم، فيما بدا

على صدره آثار الكدمات والضرب، بادية بوضوح في مكان علامات الصدمات الكهربائية التي حاول الطبيب أن ينشط القلب بها، لتنطلق الفكرة إلى رأسه.

وقف سعيد في مكانه يتأمل الطبيب وهو يقول له، وقد ارتسمت على وجهه ابتسامة ثقة مشوبة بالحذر...

- اكتب تقريرك.. سبب الوفاة «أزمة قلبية مفاجئة نتيجة لانسداد شرايين القلب، حاولت استخدام الصدمات الكهربائية في تنشيط القلب لكن لم تجد».

وفي هذه اللحظات دخل ضابط التحقيق الشاب إلى الغرفة مرة أخرى، بعد أن تغيرت ملامحه، وهو يغلق هاتفه المحمول، وهو يخاطب الطبيب بلهجة حاسمة...

- إتفضل إنت يا دكتور وما تكتبش حاجة دلوقت.

استشاط سعيد غضبًا من وقاحة هذا الضابط الذي تعدى حدوده، وأجرى تعديلًا على أوامر سعيد التي ما كان الطبيب ليسمح لنفسه أن يعدلها، إلا أن نبرة الثقة في لهجة ضابط التحقيق الشاب أثارت الريبة في قلبه، ليجده يتقدم إليه وهو يخاطبه بلهجة النهي...

- دي أوامر اللواء عزام بك.. هو في الطريق دلوقت.. أمرني إن كل حاجه تفضل زي ما هي لحد ما يجي بنفسه يشوف اللي حصل.

وقف سعيد مكانه يحاول أن يستوعب أحداث اللحظة، محاولًا أن يستشف منها أي بارقة أمل لحياته، باتت تضيع أمام عينيه، وهو يتوقع القرارات التالية لهذا الأمر..أعطى سعيد ظهره للضابط، وهم بالخروج من الغرفة ليقاطعه صوته مرة أخرى .

- من فضلك يا سعيد بك.. خليك هنا ممنوع الخروج.. دي أوامر.

التفت إليه سعيد ضامًّا حاجبيه حول أعلى أنفه، متسائلًا بكل دهشة، وكأنه ما زال غير مستوعب أنه قيد الاعتقال...

- إنت بتحبسني هنا؟ إنت أكيد اتجننت؟ لا إنت ولا الأعلى منك يقدر يعملها معايا.

ثم أعطاه ظهره مرة أخرى، وهو يفتح باب المكتب، قبل أن تتوقف يداه، وهو يسمع صوت سحب أجزاء البندقية نصف الآلية التي كان يمسكها المحقق الشاب، وهو يلتفت إليه يجدها مصوبة تجاه صدره...

- من فضلك يا سعيد بك متخليش أنفذ الأوامر للآخر.

□□□

(٧٨) أبو حمــزة المصــري

استقبل أبو حمزة المصري محمودًا بأسارير مبتهجة، يملأ عينيه الانتصار والثقة، وهو يحتضنه كأنه طفل عائد إلى حضن أمه، بعد أن لاقى في الحياة ما لاقى، وكأنه يقول له بنظرة عينيه « لم يعد لك في الحياة غيري يا محمود.. بت أنا ملجؤك الوحيد.. ارتمى محمود في حضنه، تاركًا خلفه الماضي والحاضر والمستقبل، لا يعبأ بما آلت أو ستؤول إليه الأمور، غير عابئ بالدنيا وما رحبت، بعد أن ضاقت عليه.. للحظة فلت من حضنه، وابتعد عنه بضع خطوات، جلس فيها على الأريكة، محاولًا أن يستجمع بعض شتات أمره..

تقدم منه أبو حمزة المصري يجلس على الأريكة بجواره، ويضع يده على فخذه بتودد، وهو يقول له..

- ما لك يا محمود؟

- ....

- عارف إنك مخنوق والدنيا مش مدياك حقك بس هي الدنيا كده.

- ....

- اللي زيك يا محمود يا بني مكانه مش هنا مكانه في الجنة، إنت ما تخلقتش علشان تعاشر الناس دي.

- ....

- نفاق وكذب وغش وخداع، كله بيكذب على كله، الإنسان مستني أول فرصة علشان يقتنص فيها من أخيه الإنسان.

تأمل محمود وجه «أبو حمزة المصري» وكأنه ينظر إليه أول مرة، وقد هم يبادله الحوار..

- والحل يا شيخ.. أنا حاسس إن مابقليش مكان في الدنيا دي.

- أنا قولتلك من أول ما شوفتك إنت مكانك مش هنا إنت مكانك في الجنة.

- الجنة ما تدخلش أمثالي يا شيخ.. أنا مليان ذنوب.

- الجنة اتعملت لأمثالك يا محمود يا بني اوعى تيأس من رحمة ربك.. والدم هيطهرك من الذنوب.

- يا عالم خواتيمها هتبقى إيه؟!

- إحنا اللي هنخلق خواتيمها. و إنت اللي هتستقبل الجنة والملائكة واقفة صفين تحفك على باب الجنة.

ساد الصمت مرة أخرى، قبل أن يقترب منه أبو حمزة المصري مرة أخرى وهو يخطب وده بصوت أكثر توددًا، ويده ما زالت لاصقة على فخذه، وكأنه يمنحه بعض الأمان وهو يكمل حديثه له...

- لازم يا محمود يا بني نبقى صرخة الأمل في الحياة دي.. لازم نكون شعاع النور في عالم الظلام.. ودا اللي أنا بهيأك ليه من فترة.. من أول يوم شوفتك فيه، وأنا شايف فيك البطل اللي هيحرر المجتمع من الغش والكذب اللي فيه.

- أنا؟

- أيوا إنت يا محمود.. وجه الوقت دا.. الوقت اللي أنا وإنت نصرخ في العالم نقوله «لا».. إنت هتكون صرخة الألم الأخيرة.. هتكون إنت الصوت اللي هيصدر من العالم الآخر لينقذ البشرية من آلامها.

- أنا ما بقتش أقدر أعمل حاجة خالص يا شيخ.. أنا إنسان مسخ.. فقدت كل القيم في الحياة ومابقتش عارف فين الصح وفين الغلط.

- بالعكس.. دلوقت الصورة واضحة أدامك أكتر.. بص للعالم حواليك.. شوف كمية الدم والإرهاب الموجودة في العالم.. دول بضغطة على ذر بتشيل مدن من على الخرائط.. وكل دا ليه علشان بقائها وعلشان إمبراطوريتها تفضل موجودة.. هو دا اللي إحنا هنعمله.. الدم هو الطريق للوصول للهدف المنشود.. الدم نور ونار.. نار على الظالم ونور للمظلوم.. إنت محتاج إيه من العالم دا تاني؟

نظر إليه محمود مثبتًا نظره في وجهه، لا يقوى على الرد، وكأنه بات آلة استيعاب فقط غير قادرة على تمييز الأمور، بينما أكمل أبو حمزة المصري:

- المهم إنت دلوقت تقوم تتوضى وتصلي ركعتين.. صلي صلاة مودع.. ودع الدنيا والغش والكذب.. واستقبل قبلة الرحمن. إنت دلوقت مابقتش ملك نفسك.. إنت بقيت ملك قضيتك.

- أنا مش فاهم حاجة.

- مش مهم تفهم.. سيبلي نفسك إنت بس.. أنا هحطك على أول طريق الجنة.

□□□

(٧٩) المـــؤلـــف

في ليلة العيد غادر جميع أهله القاهرة متجهين إلى قريتهم النائية، تركوه غارقًا في أحزانه المتواصلة، بعد أن انقطعت علاقته بحبيبته منذ آخر لقاء معها، ولم يعد بمقدوره التواصل معها أو حتى سماع صوتها، بعد أن أغلقت هاتفها، وألغت حسابها على الفيس بوك، ولم يعد بمقدوره التواصل معها إلا بحركة مجنونة وهو ذاهب إلى بيتها.

حتي هذه غير مأمونة العواقب، بل ربما تقضي على حب العمر كله، كثيرًا ما عنفها بسبب هذه الحركة، يكره منها عندما يتخاصمان أن تنقطع عنه نهائيًا.. مبررات واهية...

«مش ببقا قادرة أتكلم».

«ببقى عايزة أقعد لوحدي».

يحاول كثيرًا في لحظات الصفاء أن يحصل منها على وعد ألا تفعلها مهما طال الخلاف بينهما، ومهما كانت أسبابه، فربما مكالمة تليفونية أو محادثة عبر النت تزيح عن علاقتهما أطلال الغبار.

اقتربت الساعة من الثالثة صباحًا، وأجواء العيد الكبير تغلف شاشات التليفزيون الذي جلس يشاهده وهو شارد الذهن في حبيبته، يدندن مع «صفاء أبو السعود» أغنية «العيد فرحة» ما بين كل دقيقة وأخرى يمسك هاتفه يحاول الاتصال بها لترد عليه صاحبة الصوت المزعج الذي بات يكره صوتها، وهي تقول له...

«الهاتف الذي تحاول الاتصال به غير متاح حاليًا»

يخرج أنفاسًا ملتهبة من فمه، ربما تزيح ما في صدره من نار، قبل أن يعاود المكالمة مرة أخرى، على الرغم من يقينه أنها ما زالت تغلق هاتفها، فإذا فتحته ستصل له رسالة أن الهاتف الآن متاح، فربما ظهور اسمها على شاشة هاتفه يعطيه بعض الراحة أنها ما زالت في حياته.

أغلق على نفسه باب الغرفة رغم أنه يعيش بمفرده، أغلق جميع نوافذها، أخرج من درج مكتبه علبة سجائره الخاصة، كانت خاوية إلا من سيجارة واحدة وورقة بفرة، وفي القاع تقبع قطعة حشيش كان أحضرها أحد أصدقائه لشربها على متن مركب في النيل ليلة الوقفة، إلا أن الحالة التي كان عليها لم تكن تسمح له بالسهر خارج البيت مع الأصدقاء في مركب يدخنون الحشيش طوال الليل، وسط لفحات هواء الليل البارد، حاول أن يخرج من أحزانه، ويستجمع بعض شجاعته ويكتب.. الحشيش سيساعده في الخروج من الواقع الأليم الذي يعيشه، ويرمي به في غيابات الوهم، ليوهم نفسه أنه ما زال حيًا.

أحضر الطبق الصيني الفاخر الذي تحتفظ به أمه في نيش المنزل، ولا تخرجه حتى في أكبر العزومات، وابتسامة السخرية على وجهه وهو يتخيل رد فعلها لو علمت أن طقم (روميو وجوليت) الصيني بيتلف عليه سيجارة حشيش، ثم فتح تبغ سيجارته وهو يفرك معه قطعة الحشيش، محاز يًا بينهما بورقة البفرة التي ملأها بما خلطه، قبل أن يطبع عليها قُبلة الحياة الأخيرة و يشعلها.

كانت ألسنة الدخان المتصاعدة من سيجارة الحشيش تعبئ الغرفة، ترسم لوحة من ضباب تظهر فيها صورة حبيبته المختفية، أخذ يتنهد وهو يدخن السيجارة، وهو يلعن الحب وسنينه، ألا تعلم تلك الحمقاء كم أحبها! ألا تعلم أني لا أستطيع أن أكتب مشهدًا رومانسيًّا قبل أن أستحضر صورتها أمامي، لا أستجمع موقفًا إلا وهي بطلته.. كانت مثل النور الذي يضيء لي الدرب.

ليس ثم من مفر...

كان هذا ثالث فنجان قهوة يحتسيه المؤلف، عندما كانت أبخرة الحشيش المتطايرة تغطي كل معالم غرفته، لا يستطيع أن يميز حتى ملامح بعض الكتب في مكتبته التي كان يزهو دائمًا أنه يحفظ مكانها، دون أن ينظر إليها، حينما تراءت له صورة محمود يقف أمامه بملامحه كما تخيلها.. شاب في منتصف العشرينيات، متوسط القامة، أسمر الوجه، أكرت الشعر، رث الثياب يرتدي تيشرت أبيض عليه رسمة باللون الأزرق في المنتصف، وبنطلون جينز أزرق...اقترب منه محمود وهو يخاطبه معاتبًا...

- مبسوط كده طلعتني مجنون ومريض نفسي وبتاع نسوان، كنت عايز تثبت لنفسك إيه؟

- أنا كنت بحاول أرصد المتغيرات اللي ظهرت في المجتمع المصري من خلال بعض الشخصيات من بيئات وخلفيات ثقافية مختلفة.

- سيبك من كلام الجرائد دا، الكلام دا تقوله في حفلة توقيع حديث صحفي مدفوع الأجر في جريدة مغمورة، مع صحفية عايز تنام معاها ووبتتمنظر أدامها بكلمتين حافظهم، لكن مش تقلهولي أنا.. إنت كنت عايز تبرر أفعالك كلها من خلال تشو يه شخصيتي علشان بعد كده الناس تخرج تصفق لك وتقول عليك الكاتب المشهور الذي استطاع أن يتغول في أغوار نفسية الإنسان المصري الحديث و يرصد متغيراته، علشان ترضي غرورك لكن في الحقيقة إنت فاشل، ومغرور، وكذاب، على الأقل أنا جربت، حبيت واتحبيت، إنت أعد مكانك في أوضتك بتشرب حشيش.

- إنت عمال تهاجمني كاني أنا اللي غلطان، على الرغم إن إنت الوحيد اللي إديتله الفرصة إنه يتكلم عن نفسه، سيبتلك قلمي تعبر بيه عن مشاعرك تجاه كل شيء.. شعور الألم والخوف والقلق والحب والكره والسعادة والحزن والجنس، سيبتك تكتب انطباعاتك عن كل اللي حواليك من غير ما أتدخل، سبتك مع القارئ هو اللي هيحكم عليك.

- بعد ماشوهتني، خلتني إنسان مسخ، خلقت مني مر يض نفسي، حطيت كل عيوبك فيا علشان تهرب منها، علشان تقول إن الواقع اللي إحنا

عايشينه بيقود للانتحار والتطرف والإرهاب.. مش علشان تعترف إنك فاشل، وبتكره أي إنسان ناجح حتى نادر.. اللي مقدرتش تكمل معاه.. خليته يبقي وهم علشان غيرت من نجاحه.

- أنا أغير من نادر.. إنت أكيد مجنون، يا بني افهم نادر دا شخصية من تأليفي.. لو نجحت أو الناس حبتها دا يبقي نجاح ليا.. نادر دا شخصية وظفت دراميًّا لهدف معين وانتهى.. إنت أكيد مجنون.. أنتم كلكم وهم أنا الحقيقة الوحيدة، أنا الواقع.. أنتم الخيال.. لا.. أكيد أنا الصح.. إنت أساسًا مش موجود، إنت صورة في خيالي.. الحشيش بس هو اللي طلعها.. إنت ملكش وجود أنا الحقيقة الموجودة.

- تفكر إنت موجود؟! يمكن كل اللي فات دا يطلع حلم، وميكنش فيه رواية ولا حب، ولا سجائر ولا كشكول ولا حشيش ولا وظيفة مستنياك في شركة أم حبيبتك.

- إنت جاي دلوقتي تشككني في وجودي يا محمود، بعد ما دمرت حياتك.. جاي تدمر واقعي، انسى، أنا أقوى مما تتخيل، إنت فاكر نفسك مين إنت مجرد شخصية من خيالي أنا اللي ألفتها، وكلها فصل وأنهيها نهائيًّا وأرتاح منك بقى.

- خايف ليه تشوف الحقيقة، خايف ليه نكون كلنا وهم شخصيات مرسومة على صفحة القدر، حلم عايشينه وهنفوق منه تلاقينا مش موجودين كلنا أشباح، كلنا أشباه بني آدمين، كلنا دُمى متحركة تلعب بنا لعبة الأقدار.

- إنت خدت حريتك كاملة في الرواية، ماقلتش ليه كده، القلم كان معاك.. إنت الوحيد اللي إديتله الفرصة يتكلم، ماتكلمتش ليه عن وجودك، لكن هربت بمشاكلك بس.

- شوف إنت حطتني في مجتمع عامل إزاي كذب، نفاق، غش، خيانة، غدر، تكبر، عايزني أقول إيه وسط القرف دا، مطلعني أنا المريض النفسي.. شوف المجتمع كله حوالينا عامل إزاي؟ إمام الجامع اللي يقف يخطب ساعة ونص عن أخلاق رسول الله ﷺ، والتسامح في الدين الإسلامي.. وأول مايختلف مع حد في قضية ثانوية يسبه، ويمكن يكفره، دي إيه مش شيزوفرينيا؟ المنتقبة اللي لابسة النقاب علشان تداري وشها، علشان ماحدش يشوفها وهي طالعة لعشيقها دي إيه مش شيزوفرينيا؟ البنت اللي لابسة الحجاب على شعرها، ومعالم جسمها كله باين كأنها عريانة ملط دي مش شيزوفرينيا؟ المدير الذي يخصم من الموظف يومين لما بيتأخر ربع ساعة، على الرغم من إنه هو بييجي الشغل الساعة ١٢ الظهر دي مش شيزوفرينيا... إنتوا فاكرين نفسكوا عايشين.. إنتوا أساسًا موتى لم يعلن عن وفاتهم بعد.

- إنت دلوقت اللي بتبرر أفعالك يا محمود، علشان تعرف بس إني ما ظلمتكش في روايتي.

- إنت لسه مصدق إنك المؤلف.. وليه ماتكنش إنت بطل من أبطال الرواية فيه مؤلف أكبر منك هو اللي بيكتب كل دا، و إنت وأنا ويارا

ومنال وعبد القوي حتى سعيد مرجان عرائس بيحركها بإيده وهو أعد دلوقت فرحان، وهو شايفنا بنتخانق مع بعض.. وأنا بكلمه دلوقت يمكن إنت كمان يا مؤلف يا مجهول في مؤلف أكبر منك ...

- خلاص كفايا أنا تعبت ...

- اهدى يا حضرة المؤلف المشهور.. دي رواية عمرك زي ما قولت لحبيبتك، ولا كنت بتقول لها كدة بس علشان مش تقول عليك فاشل.

- معاك القلم يا محمود، اكتب الفصل الأخير بقى في الرواية اللعينة دي؛ لأني خلاص مش قادر أكمل فيها أكتر من كده.. أنا لازم أخرج منها... عايز أعيش حياتي.. معاك القلم اكتب اللي إنت عايزه، شوف حاسس بإيه دلوقتي عايز تتكلم عنه واتكلم.

الموت.

□□□

مشــــهـــد (خـلـفــي)

- ألوو.. كاتبنا الكبير عامل إيه.. محضر حاجة لمعرض الكتاب القادم ولا لسه؟

- إزيك يا دكتور....؟

- ما لك؟ صوتك مش عاجبني في حاجة؟

- أنا بيحصلي حاجات غريبة يا دكتور.

- خير....

- أنا شوفت بطل الرواية.. محمود ظهر لي وأعد يتكلم معايا ويهاجمني كأني أنا المسئول عن اللي حصله.

- وليد....

- صدقني يا دكتور.. محمود زي ما رسمته بالظبط كان أعد أدامي دلوقت، واتكلم معايا زي ما بكلمك دلوقت.

- حالتك كدا بقت خطر ..عدي عليا فـي العيادة النهاردة لازم أشوفك.

- يا دكتور أنا مش مجنون وعارف بقول إيه كويس.

- يا وليد مفيش حاجة اسمها بطل الرواية أعد يكلمني.. إنت بس مش عارف تخرج نفسك من أحداث روايتك.. الرواية بقت جزء منك، مفيش أصلًا حاجة اسمها محمود.. إنت ومحمود وطه شخص واحد.. إنت كتبت في الرواية دي اللي إنت خايف منه.. اللي إنت خايف يحصلك.. اللي إنت خايف توصله.. وشكلك وصلتله، خوفك هو اللي ظهرلك.. من فضلك يا وليد عدي عليا النهاردة في العيادة ضروري...

تيت تيت تيت تيت

- أغلق المؤلف سماعة الهاتف وهو يصرخ بعلو صوته .....

- أنا مش مجنون.............

□□□

(٨٠) محمـــــــــود

كفى بكَ داءً أنْ ترَى الموْتَ شافِيَا وَحَسْبُ المَنَايَا أنْ يكُنّ أمانِيَا

(المتنبي)

انتقلت إقامتي في هذه الفترة بصورة نهائية أو شبه تامة إلى منزل «أبو حمزة المصري» فوجدت فيه الملجأ الأخير لحياتي، حاولت أن أبحث معه عن فرصة أخرى للنجاة.. أو للهلاك لا أعلم؟! فما عادت الكلمات تجدي، وما عاد في العمر بقية للحديث، ضاعت الأيام وشابت الأفكار وشاخ العمر.

أتدرون من أنا.. أنا القاتل.. أنا المقتول.. أنا الهالك.. أنا المهلوك.. أنا الخادع.. أنا المخدوع.. أنا كل شيء ونقيضه، أنا مرآة مجتمع مشوه.. مرآة المجتمع بكذبه وزيفه وأمراضه، بتدينه الوهمي وسلوكه المعوج.. بدياثة رجاله، وخيانة نسائه وتبرج بناته، بغرور سفهائه، وظلم أقويائه، وتحكم أهوائه وتخاذل علمائه.

وجدت نفسي في بيت «أبو حمزة المصري» الذي يتوسطه شهادة تخرج

في كلية الطب لم يعمل بها يومًا، مستقرًا بي المقام في غرفة الكرا كيب التي يتوسطها بيانو يعلوه التراب، تمزقت أوتاره كما تمزقت حياة صاحبه.

لم أكن يومًا أحب «أبو حمزة» ورغم ذلك وجدت فيه الملجأ الأخير، كنت على يقين أني أسير في طريق اللاعودة، وأني أوشك على الفناء، ربما كانت هذه هي أنشودتي الأخيرة - أنشودة الموت الأخير - بعدما ملأت صفحات هذا الكشكول بشذرات ربما لا يجمعها إلا فتات إنسان، حاول أن يكون إنسانًا.. إنسان لم يكن بطلًا ولكن كان كالفرسان يبحث عن بطولة، حتى وإن كانت هذه البطولة وهمية في خياله، يحاول بها أن يقف على مسرح التراجيديا الإغريقي يحرق نفسه ليقدم للجميع البطل الشهيد الذي يحترق ليضيء الدرب للآخرين.

حافظت على سري في هذا المجلد، حاولت أن أجمع فيه فتات الإنسان المتبقي، بعدت به عن كل عيون المتطفلين الذين حاولوا اجتذابه، خصوصًا «أبو حمزة المصري» الذي كنت أعتبر هذا الكشكول بمثابة سر الأسرار، لا أريده أن يطلع عليه.

ربما يكون ما بين دفتيه هو صرخة نجاة أخيرة لمن يقرأه، ربما يكون الأمل لمن لا أمل له.. ربما يكون الطريق والدرب في محاولة النجاة الأخيرة.

عزيزي القارئ، إذا قدر أن تكون لهذه الشذرات عيون تقرأها.. تهب لها الحياة من العدم، أنصحك.. لا تقرأ كلمة مما كتبت، فكل ما قلت

كان كذبًا.. فأنا فتات إنسان، لن تتمكن أن تستخرج منها عبارة مؤثرة تكتبها «ستيتس» على «الفيس بوك» تجمع بها إعجاب الأصدقاء، ولا حكمة تضيء بها ظلام حياتك، لن تجد فيها المقاتل المغوار الذي خاض الحروب من أجل كلمة الحق، إنها ليست مذكرات الرئيس أو الزعيم الملهم الذي يستفيض فيها بالحديث عن قراراته الحكيمة التي أخرجت البلاد من عصور الظلام إلى عصر الديمقراطية والرخاء الذي لا يشعر به إلا هو وحفنة من المرتزقة المقربين له.

إنها حياة واحد من الناس، لم يكن فارسًا، ولا نبيلًا من نبلاء عصور أوروبا الوسطى، إنها حياة إنسان تافه، ربما يكون أتفه من أنك تقرأ له، إنسان فقد إيمانه بكل شيء، وما عاد في حاجة إلى سماع أي شيء.

يومًا ما سنعلم أننا جميعًا وهمًا.. عرائس تحرك خيوطها يد القدر على مسرح كبير يسمى الحياة.. كل يلعب ما يتمناه، سأتحرك خلف الكواليس، وصولًا إلى اللانهائية، سأشتعل نارًا ونورًا.. سأكون الموحي لمن لا وحي له، أنا ضوء الحياة القادم..أنا صرخة الألم الأخيرة.

هي لحظة واحدة، أنتقل فيها إلى ما وراء الطبيعة، بحثًا عما لا أبحث عنه.. لحظة تتملك من جسدي الرعشة الأخيرة، ثم يضيء لي الدرب المنير من جميع جوانبه، تنتظرني فيه ملائكة مقربة، ترحب بابن الإنسان الذي تساءلوا عنه في بداية الخلق.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ٣٠] صدق الله العظيم

ها هو ابن الإنسان آتٍ إليكم بعد أن أفسد في الأرض، وملأها جورًا وفسادًا وألمًا وخداعًا، ليقوم بآخر هدف له، وهو سفك الدماء.

أنا القاتل .... أنا المقتول.

كانت هذه رسالتي الأخيرة، أعلم أن «أبو حمزة المصري» يهيئني إلى ما ليس لي طاقة به، ولكن لا أستطيع أن أوقفه، بت كالمسحور والمجذوب نحو الهاوية، أسير إليها بكل إرادتي، رغمًا عني، ليس لي سبيل إلا أن أخوضها، فلا راد لها.

سأموت غدًا..

سيستقبل الجميع خبر وفاتي، بكل صخب ورقة، عشت هادئًا لأموت صاخبًا.. سأكون صرخة اليأس الأخيرة، وستبقى كلماتي لعنات تلحق بكم، تؤنب عليكم أيامكم، تقلق مضاجعكم، فلا هنأتم بكأس المدام، ولا راعيتم أصول الدوام، ولا نامت أعين الجبناء.. سأموت غدًا.. وستنكشف كل الحقائق.

يقولون عند الموت تكتشف كل الحقائق.. سأموت غدًا، وسيزاح عن بصري واقع حاجبه السميك ليرى كل الحقائق، وما الغد لناظره ببعيد!.

النهايات

يارا فؤاد:

استقرت يارا في إحدى المقاطعات الألمانية على الحدود مع سويسرا.. حياة هادئة حلمت بها كثيرًا.. عملت بمستشفى للطب النفسي هناك، وأكملت رسالتها للدكتوراه.. هنية أصبحت شابة يافعة، وتزوجت من ألماني بأصول عربية، وأنجبت منه ولدين، وتعيش مع أسرتها بجوار يارا التي أرسل لها عماد ورقة طلاقها كهدية في عيد ميلادها بعد سفرها بأربعة أعوام. ماتت يارا عن عمر ناهز الثمانين، حزنًا على وفاة هنية قبلها بشهرين.

سعيد مرجان:

أنهى سعيد مرجان فترة سجنه بعد الحكم عليه بثلاث سنوات بتهمة القتل الخطأ.. وعاد إلى عمله، ولكن هذه المرة بإدارة المرور بالجيزة، قبل أن يفصل منها بسبب تعاطي المخدرات والخمور التي أدمنها.. انقطعت كل أخباره قبل العثور على جثته متعفنة في منزله بالمهندسين، ولم يكشف الطب الشرعي عن أسباب الوفاة.

نجلاء أخت محمود:

تجلس نجلاء متوشحة بالسواد على أريكتها أسفل الشباك.. تخرج ثديها ترضع منه صغيرتها، بينما محمود يمسك بسيارة بلاستيك يلعب بها كأنها طائرة، متخذًا من ذراعيه جناحين لها وهو يقول فوووو. أعطت لها الحكومة مبلغًا من المال على سبيل التعويض، كما سمحت لها بعمل كشك لبيع المناديل والحلويات بجوار قسم السيدة زينب، علقت عليه صورة لعبد القوي التي لم تجف دموعها عليه حتى الآن، وكتبت تحتها الشهيد الشيخ عبد القوي.

سمر صديقة محمود:

حالة اكتئاب حاد سيطرت على سمر، لم تخرج من البيت حتى إلى عملها لمدة أسبوع، لم تنقطع فيه عن مشاهدة صور محمود على هاتفها المحمول. لم يكن للاكتئاب حل آخر إلا الدخول على موقع الشات التي كانت قد هجرته من جديد، تجد فيه سلوى لنفسها، وإن كان الزائر الجديد قد ملأ هذا الفراغ سريعًا، حتى كان أسرع شاب تعرفت إليه على النت، وأعطته رقم هاتفها، ولكن اعتذرت عن استقبال مكالمته اليوم لانشغالها بضيوف!

طه حبيب يارا:

لم تترك أم طه ابنها على هذه الحالة، وعلمت بحاسة الأم أن ابنها الآن

أصبح في سن الزواج، وما كانت لتتركه في هذه الحالة بمفرده، فبحثت له عن أجمل عروسة.. طه الآن يجلس في صالون العروسة التي باتت خالتها تتغزل في أدبها وأخلاقها، بينما نظرات أم طه له تقول «شوفت العروسة اللي جبتهالك مش البنت الصايعة بتاعت النت» حينما دخلت سمر بملامح وجهها البريء وعلامات الكسوف على وجهها، تقدم واجب الضيافة إلى العريس وأمه التي لم تفتأ تتغزل فيها، بينما عيناها لم تغادرا الهاتف المحمول في يدها كناية عن علامات الكسوف، بينما هي ترسل رسالة إلى زائر جديد في حياتها «هكلمك لما الضيوف يمشوا».

منال حبيبة محمود:

كانت هذه هي خامس مرة تضيء فيها شاشة هاتف منال.. آخرها كانت رسالة من أسامة «وحشتيني» لم تجد منال معها سبيلًا إلا الرد عليها والابتسامة تغلفها « وإنت كمان» تبادلا الابتسامات، وأصبح الحب يغلف حياتهما، تقدم أسامة لخطبة منال في أقل من شهرين.. قبل أن يتم القبض عليه، وذلك على خلفية مظاهرات كبرى اندلعت في القاهرة صباح يوم ٢٠١١/١/٢٥. تزوج أسامة ومنال، ولم يتثن للمؤلف بعد ذلك تتبع سيرتهما.

نرمين زوجة سعيد:

وقفت نرمين أمام دولاب ملابسها القديمة تمسك بفساتينها العارية التي هجرتها، وهي تداعب خصلات شعرها الصفراء، بينما تضع الفستان

على جسدها متمايلة به، وهي تنظر في المرآة، تحاول أن تتذكر جمال جسدها وفتنته في جذب عيون الرجال كلما سارت في مكان.. لم يمض كثير من الوقت حتى غيرت ملابسها، وخرجت إلى حفلة رقص أقيمت على شرفها مخصوص من أصدقاء النادي القدامى... تم العثور على جثتها منتحرة شنقًا في نجفة بيتها بعد تلك الواقعة بثلاثة أيام.

مريم سعيد:

كان قرار إيقاف حلقة مريم سعيد مع منال ويارا وعلى الهواء مباشرة، بعد قطع الإرسال عنها؛ حلقة النهاية في مسلسل خلافاتها مع المدير التنفيذي للقناة - صديق الأمس وعدو اليوم - حتى هاتف رجل الأعمال الخليجي الذي كان يرد عليها قبل إتمام رنينها الأول ما عاد يرد عليها، ولا يستجيب لرنينها.. كان خليقًا بها اتخاذ هذا القرار.. جلست مريم سعيد بكل هدوء على مكتبها في القناة بعد أن ذيلت استقالتها بتوقيعها باللغة الإنجليزية.

سافرت بعدها مريم سعيد إلى دبي واستقرت بها.. عملت كمحاضر في إحدى الجامعات الأجنبية هناك عن إدارة الأعمال، تاركة مجال الإعلام نهائيًا.. تعرفت إلى رجل أعمال مصري يقيم في دبي وتزوجته.

المـــــؤلف:

ثلاث سنوات قضاها المؤلف بمستشفى الصحة النفسية بالعباسية، على خلفية اتهامه بالشروع في قتل عريس يوم زفافه، ادعى أنه خطف منه

حبيبة عمره، بينما أثبتت التقارير الطبية أنه يعاني خللًا نفسيًّا واضطرابًا في تصرفاته. لم يكف المؤلف عن محاولة الاتصال بالرقم الوهمي لحبيبته التي لم يعد لها وجود، بينما أعين الشفقة تطارده في كل مكان. وتتأمل عيناه كومة الأوراق غير المنظمة أمامه، وهو يزهو بنفسه مرددًا في سره.. «يومًا ما سأصير ما أريد» قبل أن يسطر آخر كلمة في روايته.. لتبدأ الرواية أحداثها من جديد.. ينتقل فيها هو من دور المؤلف إلى دور البطل...

□□□

تمت

وليد حسن المدني

التعريف بالمؤلف

- مواليد السيدة زينب عام ١٩٨٥.
- حاصل على بكالريوس تجارة جامعة القاهرة عام ٢٠٠٨.
- حاصل على ليسانس الآداب - قسم فلسفة - جامعة عين شمس.
- أصدر أول روايتين له مع «دار أكد للنشر والتوزيع» (قلعة الأقدار - الصعود على حبال ممزقة).
- تم اختيار روايته (الصعود على حبال ممزقة) من قبل دار النشر للمشاركة في جائزة بوكر ٢٠١٦.

للتواصل مع المؤلف

e.mail Egyptianstory@hotmail.com

Facebook https://www.facebook.com/egyptianstory.eg

والله ولي التوفيق ...

بائع الكتب القديمة

عندما فتحت باب الغرفة صدمت من هول ما رأت، نور الغرفة غير مضاء إلا من شعاع بسيط خارج من شاشة اللاب توب، يعكس إضاءة بصورة مرعبة على خلفية الحائط الأمامي، الأصوات الممزوجة التي ما كانت تستطيع أن تميزها باتت أكثر وضوحًا، ولكن في نفس الوقت باتت أكثر إثارة للرعب في نفسها، باتت تميز بضع آيات من القرآن بصوت الشيخ محمد رفعت الذي كان يرتاح لسماعه، مع صلاوات عيد الميلاد المجيد التي تحفظ بعضها، ولم يكن عسيرًا عليها تمييز كلماتها، إلى جانب بعض التراتيل الصوفية غير واضحة المعالم، كلها تخرج في نفس الوقت من جهاز اللاب توب الذي انطفأ تمامًا مع إنارة والدة نادر نور الغرفة.

تصميم الغلاف كريم آدم

NEW BOOK
نيو بوك للنشر و التوزيع

فرست بوك